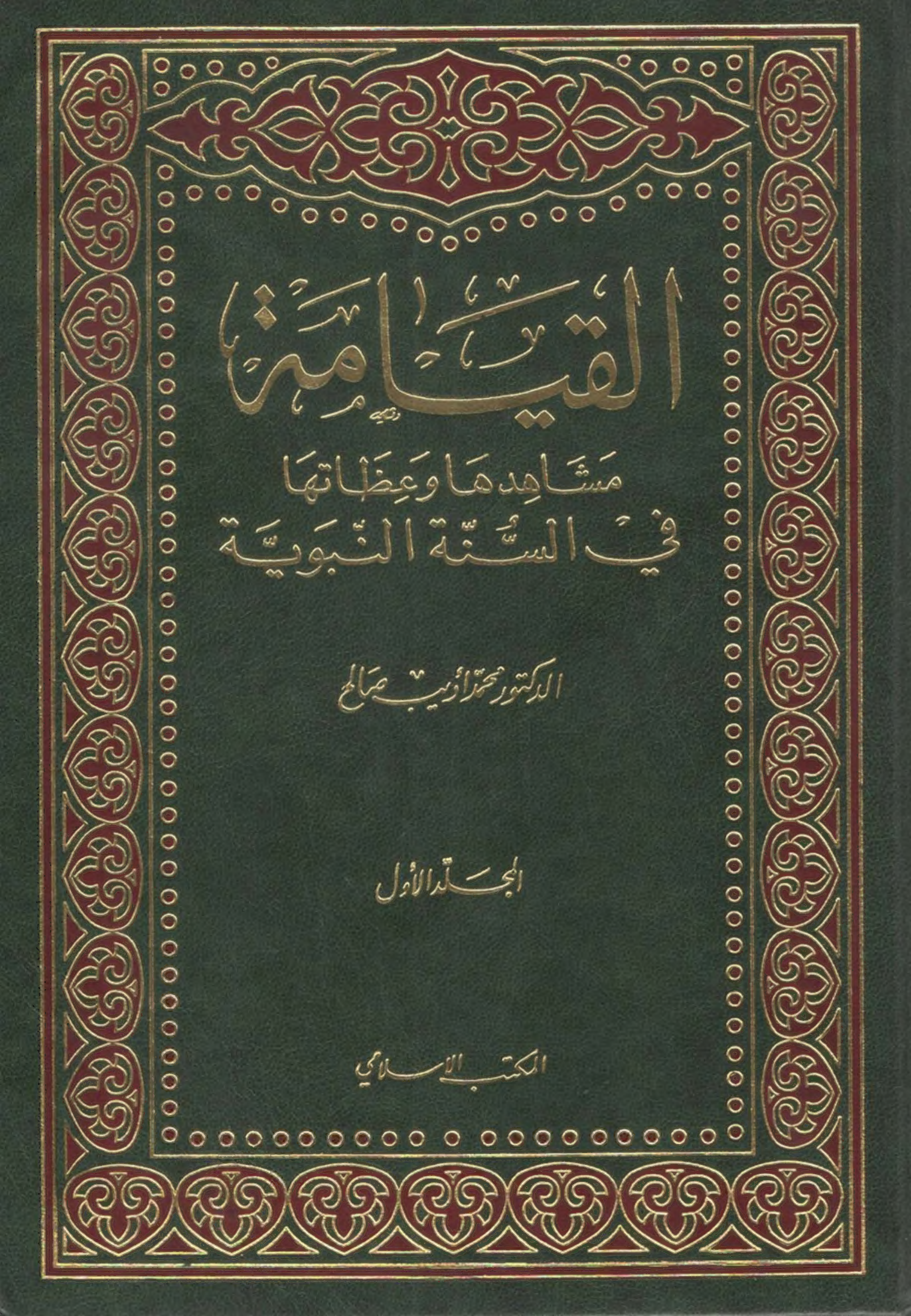
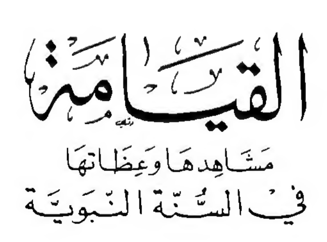
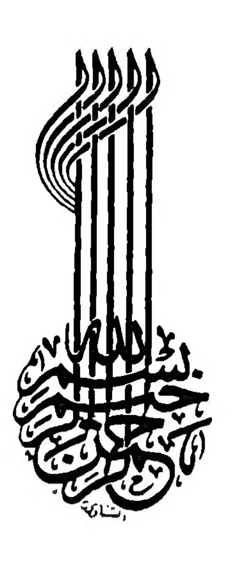
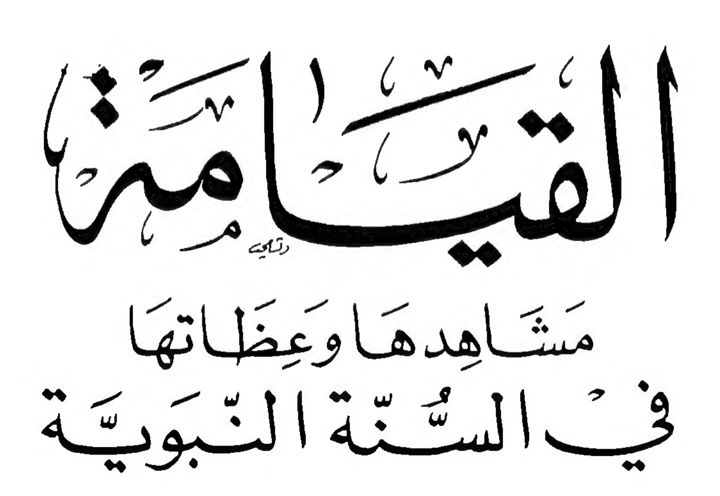


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الأول
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمد أديب صالح



المجلد الأول

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤



بين يدي الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداه إلى يوم اللقاء .

هذه كلمات، أرجو من خلالها أن أذكر نفسي الوانية المقصرة وإخواني؛ بما ورد في نصوص السنة المطهرة ـ والسنة بيان الكتاب العزيز ـ من أخبار الهدى في شأن ما يكون بعد الموت ، وفي شأن يوم القيامة ، يوم الميعاد الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، وما ورد عن بعض العلماء العاملين ، والأتقياء من سلف هذه الأمة في ذلك .

ولئن كانت الحاجة قائمة أبداً ، إلى تذكير المؤمن بهذا الركن من أركان الإيمان، كيما يصدق في مراقبة الله عز وجل، ويشعر أن الوقوف بين يدي الله يوم الحساب كائن لا محالة ، يسأله فيه ربه عن النقير والقطمير !! إن الحاجة تبدو اليوم ـ وقد اجتاحت المادية الطاغية كثيراً من مجتمعات المسلمين ، ورانت الغفلة على القلوب ـ ضرورةً ملحةً ؛ فإن في ذكرى ما بعد الموت واليوم الآخر ، شحذاً للعزائم الواهنة، ودفعا إلى استقامة السلوك ، وتأصيلاً للمحور الذي تتحرك عليه حياة المسلم من بُعْدٍ عن الغفلة ،ويقين بما جاء عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام .

فمهما طال الأمد في الدنيا ، واستطاع المرء أن يغير ويبدل ، فيسيء هنا ويتجاوز هناك ، دونما رقيب من البشر أو عتيد ؛ فإن الله الذي يعلم السر وأخفى ، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، سيقفه بين يديه بعد بعث العباد من القبور ، ويسأله عما اجترحت يداه ، وعما كسب في حياته الدنيا ؛ ذلكم

قول الله سبحانه : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ذلك بأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؛ يقول الله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ ولذلك أمر النبي ﷺ أن يُقسم على وقوع البعث بعد الموت والجزاء ، بعد أن قضى سبحانه بهما وأنهما كائنان لا محالة ، فقال جل شأنه : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾.

من أجل هذا : كانت هذه الحقيقة الكبرى التي هي حق اليقين، ركناً من أركان الايمان ، فلا يكون المؤمن مؤمناً ، إلا باعتقاد أن يوم القيامة واقع ـ بمشيئة الله ـ لا ريب فيه ، حيث يجزى الناس بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ، روى الترمذي بسنده عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئا قدمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ: من استطاع أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

وهذا الإجمال الذى نراه في شأن المسؤولية ــ على عمومها ـ حيث ينحسر عن العبد ، ما كان له من أولياء ونصراء في الدنيا ، وتنصرف من طريقه الأسباب المعتبرة هناك ، فلا يرى هنا ـ وربه يكلمه ليس بينه وبينه ترجمان ــ إلا شيئاً قدّمه من العمل ــ هذا الإجمال ورد تفصيله من بعض الوجوه ، فيما أكرم الله الأمة من بيان الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد جاء في الحديث من رواية أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » . أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

أرأيت إلى هذه المسؤولية !! كم هي متسعة الأسباب ، رحبة الجنبات ، سؤال العبد عن عمره فيم أفناه ، وسؤاله عن علمه ماذا عمل به ، وسؤاله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وسؤاله عن جسمه فيم أبلاه .

ترى : هل ينكر منصف، ما يتركه استشعار هذه المسؤولية ـ بشُعبها المتعددة كما تبدو في هذا الحديث ـ من آثار طيبة بنّاءة في كيان الفرد والجماعة ؟ فالوقت، والعلم ، والمال ، والجسم ؛ كل أولئك ـ بلا استثناء ـ يقف هذا العبد مسؤولاً عنه يوم القيامة ، والتهاون في شأن أي واحد منها ، مدعاة للمؤاخذة من الله تبارك وتعالى .

وما أجمل أن يأخذ المؤمن نفسه ـ وهو لبنة صالحة في جسم الجماعة ـ بالسلوك الذى يباعد بينه وبين العقاب يوم القيامة ،بالإضافة إلى العمل بالضوابط السليمة الخّيرة في الدنيا ..وذلك ما يعود بأفضل الثمرات على الأمة في الدنيا ويوم الدين .

هذا : وهنالك رواية للحديث بنحو ما رأينا ، ولكنْ للعلماء في واحد من رواتها مقالٌ جاء من قبل حفظه ، ذلكم ما روى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » .

وأنت ترى أن في نصوص السنة المطهرة ، ما يحدد جزئية من الجزئيات ، يصل الأمر على ساحة المساءلة من الله تبارك وتعالى، أن يسأل عبده المسلم عنها : قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبوسلمة قال : أنبأنا سليمان بن بلال عن عبدالله بن عبدالرحمن عن نهار العبدي أنه سمعه يحدث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : «إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله يقول :أي عبدي رأيت منكراً فلم تنكره ، فإذ لقن الله عبداً حجته قال : يارب وثقتُ بك وفرقت من

الناس» وذلك ما روى ابن ماجه أيضاً عن أبي سعيد أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ... »

وإني مقدم للقارئ الكريم في ضوء تلك الحقائق ، صفحات زاخرة با لمشاهد والعظات التي تمليها النصوص ، وهي صفحات أذيعت من بضع سنوات من إذاعة القرآن الكريم بالرياض ، ولم أدخر وسعاً في التأصيل ـ قدر المستطاع ـ واستلهام ما تنطق به تلك المشاهد من عظات لابد أن تعمل عملها على صعيد السلوك في هذه الدار ، وما تملي من وثيق العلاقة بين الدنيا والآخرة، بين العمل وتحمل المسؤولية هنا، وبين الجزاء الآوفى هناك، وحيث يبدو الإيمان الصادق بما يكون بعد الموت، ويوم القيامة، وما يمكن أن تكون عليه العاقبة هناك مقوِّماً جذرياً من مقومات الاستقامة والصلاح والإصلاح في الدار العاجلة، مهما تشعبت المسالك وتنوعت الميادين، وهذا ما حرصت على بيان بتوفيق الله تعالى ، مصطحباً بضاعتي المزجاة.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واغفر زلاتنا ،حتى نلقاك راضياً عنا بمنِّك وكرمك .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا المصطفى صاحب المقام المحمود والحوض المورود وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الإيمان باليوم الآخر

من المسلمات عند المسلم، أن الإيمان باليوم الآخر ، ركن من أعظم أركان الإيمان بعد الركن الأول ، وهو الإيمان بالله عز وجل ، وسمي اليومُ الآخر كذلك ـ كما يقول علماؤنا ــ لأنه آخر أيام الدنيا ، أو آخر الأزمنة المحدودة ، والمراد بالإيمان به: التصديق بما يقع فيه من الحساب والميزان والجنة والنار ، وقد وصف الله المتقين بقوله: ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ فهم يوقنون بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان ....

وإنها لحقيقة لا يداخل المؤمن أثارة من الريب في وقوعها . وقد أقسم الله تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ فاللام في « ليجمعنَّكم» موطئة للقسم ـ وقوله جل شأنه : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، وذلك الجمع، يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله.

وهكذا يكون من أبرز سمات هذا اليوم ، أنه اليوم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، حيث يسألهم الله ويجزيهم بأعمالهم، ولايظلم ربك أحداً .

وما من ريب في أن بعث الخلق ووقوفهم يوم العرض الأكبر أمام خالقهم ذي الجلال والإكرام ؛ الذي يعلم كلّ نفس ما كسبت ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. ما من ريب في أن ذلك كله ، من مظاهر العدل الإلهي والحكمة الربانية !! وإلا فكيف يستقيم في ميزان العقل السليم ، أن يكون ما يكون من العباد في الدنيا ، ثم لا يكون هناك يوم للجزاء ، تقام فيه الموازين بالقسط ، وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . إن العدل الإلهي المطلق يقتضي ذلك ، وهو كائن لا

محالة ، كما أخبر القرآن عنه في العـديد العديد من المواطن ، وكما جـاءت بذلك السنة المطهرة على لسان المبيِّن عليه الصلاة والسلام .

من أجـل هذا : يمكـن القول بـأن العقل السليـم الذى لا يخضـع صاحبـه لسلطان الهوى ، ينادي بـالإيمان بيوم القيامة ، لما أنه يوم الفصـل ، وإعطاء كل ذي حـق حقه بميـزان عدل لا يجور ولا يعـول ... حيث لا ينفـع المنحرفين عـن الجادة أعوان ولا سلطـان ، ولا يقبل الله من أهل الضـلالة المحاربين لله ورسـوله والمؤمنين صرفاً ولا عدلاً ، ولا ينفع المعرضين عن شريعـة الله ـ العادلين به الأوثان الحاكمين بغير ما أنزل الله ــ أولياؤهـم من شياطين الإنـس والجن ، ولا يغني عنهم ما كانوا يكسبون .

والناظر في السنة المطهرة ـ وهي بيان الكتاب العزيز ـ يقع على طائفة مباركة من النصوص، لا تقتصر على الحديث عن يوم القيامة ، والحساب والصراط والجنة والنار ، وما إلى ذلك ، ولكنها تتناول قيام الساعة ، وما يكون قبلها من الأمارات ، كما تتحدث عن الموت وسؤال القبر ، وتدعو ـ ترغيبا وترهيباً ـ إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، حتى يكتب عند الله في عباده الصالحين الذين تدركهم رحمة الله من أول لحظـة مـن لحظـات الآخرة بعـد الموت ، فيجـدون اليسر في سـؤال الملكين ، حيث يكون القبر عليهـم روضة من رياض الجنة ، ويوم الحسـاب بعد أن يبعث الله الخلائق يؤتى الواحـد منهم كتابه بيمينه ، ويكون ـ بفضـل الله ـ ممن قال الله فيهم : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمـراً ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

وإنما كان ذلك في الهدي النبوي ـ والله أعلم ـ لما أن الموت هو المرحلة الأولى إلى عالم الآخرة ، كالذى نقـرأ في قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عـن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

والعلاقة ـ على هذا ـ وثيقة بين يـوم القيامة ،وبين الموت وما يكون بعده، بين يدي الساعة . وهذا مانجد الكلام عليه مفصلاً في حديث النبي ﷺ الذي لم يدع ـ وهو المبلغ عن ربه المبيِّن كتابه ـ طريقاً من طرق الخير ، إلا دل الأمة عليه، ورغّب به ولاطريقاً من طرق الشر ، إلا رغَّب عنه وحذر منه .

و إلى أن نلتقي على هذا التفصيل الذي أومـئ إليه على صفحات قادمات في حديـث النبي عليه الصـلاة والسلام عما بعد الموت ،وعن يـوم القيامة ومشـاهده ومـاتـزخر به مـن العظات ، أجـد من الخير أن أذكِّر بما ورد عنـه ﷺ بشأن الإيمان باليوم الآخر ، وكيف أنه ركن ركين من أركان الإيمان . فقد روى مسلم بسنده عن عمر رضي الله عنه قال :

« بينما نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينـا رجل شـديد بيـاض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيـه على فخذيه ، وقال : يامحمد أخبرني عن الإسـلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهـد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسـول الله ، وتقيم الصـلاة ، وتؤتي الزكـاة ، وتحج البيت إن استطعـت إليه سبيلا . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه .

قال فأخبرني عن الإيمان . قـال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمـن بالقدر خيره وشره . قال : صـدقت . قال فأخبرني عـن الإحسان ، قال : أن تعبـد الله كأنـك تراه ، فـإن لم تكن تراه فـإنه يـراك . قال : فـأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلـم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلـد الأمة ربتها ، وأن تـرى الحفاة العراة العالـة رعاء الشاء يتطـاولون في البنيان . قال : ثم انطلـق فلبثت ملياً ، ثم قال لي : ياعمـر ، أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وجاء في رواية البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان النبي

ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان ، أن تؤمن بالله، وملائكته ، وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ... » الحديث .

اللهم ثبتنا على هذا الإيمان ، واشرح ـ بفضلك ورحمتك ـ صدورنا للعمل بمقتضاه ، واحشرنا يوم اللقاء في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ . ولك الحمد على كل حال .

لقاء الله حق اليقين

الإيمان باليوم الآخر .. هـذا الركن العظيم الذي يأتي بعـد الإيمان بالله ـ وكل أركان الإيمان خيرٌ وهـدى ـ مابـد من إطـالة الرحلـة معه بالقـدر الذي يتسـع له المقام،طلباً للنجـاة يوم القيامة ، وسعيـاً وراء مايجب عمله في هذه الـدار العاجلة من أجل ذلك . والعهـد قريب بحديث الإسلام والإيمان والإحسـان الذي أوردته من روايـة مسلم، وأوردت بعضـه من روايـة البخاري والـذى جاء في شـأنه قـول القـاضي عياض رحمه الله : (اشتمـل هـذا الحديـث على جميع وظـائف العبـادات الظاهرة و البـاطنة ، من عقود الإيمان ، و أعمال الجوارح ، ومـن إخلاص السرائر والتحفظ مـن آفات الأعمال ، حتى إن علوم الشريعـة كلّها راجعة إليـه ومتشعبة منه) والذي يعنينا بـادىء ذي بدء ، أن الإيمان باليوم الآخر وما ينطـوي عليه من أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن القيامة لابد أن تقوم ، وأن ذلك حق اليقين ، قد عدّ في هذا الحديـث ركناً من أركان الإيمان ،لا تصـح عقيدة المؤمن إلا به ، ــ وقد وضح ذلـك في سؤال جبريـل عليه السلام ــ وقد جاء يعلـم الناس أمـر دينهم ـ رسـولَ الله ﷺ عن كـلٍ مـن الإسلام ، والإيمان ، والإحسـان ، فكـان من جـواب الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في رواية عمر رضي الله عنه عند مسلم عن قول جبريل : فأخبرني عن الإيمان ـ قوله صلوات الله وسلامه عليه « أن تؤمن بالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليـوم الآخر ،وتؤمـن بالقدر خيره وشره » وقـال جبريل : «صدقت» .

وهكذا يكـون هذا الكلام الطيـب الميمون ــ كما جاء في صحيح مسلـم من رواية عمـر رضي الله عنه ـ نصاً قـاطع الدلالة ، مـؤكداً ومقرراً ما جـاء في القرآن الكريـم ، من أن يـوم القيامة مـن الحقائق اليقينيـة التي ما بـدٌّ من أن تكـون من المسلّمات في عقل المؤمن وقلبه ، وأنها من المعلوم مـن الدين بالضرورة ؛ فالناس

لابد مبعـوثون من قبورهـم ، بقدرة الذى أنشـأ الخلق أول مرة ، وهو بكـل خلق عليم، وواقفـون يوم الحشر بين يديـه سبحانه ، يُعرضـون لا تخفى منهم خـافية ، حيث يجد كل إنسان ما قدّم ، فيجزى بالإحسان إحساناً ، وبالإساءة غير ذلك، ولا يظلم ربك أحـداً ، وأنه ما بعد هـذه الدنيا الفانيـة دار ، إلا الجنة أو النار ؛ فليتق الله امـرؤ في نفسه وفيمن ولاه الله أمـرهم ، وليعمـل على التزود لذلـك اليوم الذى يحشر الناس فيه حفاة عـراة غرلاً ، والذى لا ينفع فيه مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا يخفـى على ذي بصيرة أضاءت قلبَـه بشاشـة الإيمان ، أن خير زاد لذلـك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكـارى وما هم بسكارى ولكـن عذاب الله شديد ، إنما هـو تقوى الله في الشؤون كلهـا سراً وعلانيـة ﴿ وتـزودوا فـإن خير الزاد التقـوى واتقـون يـا أولي الألباب ﴾ . أقول هذا غير ناسٍ أن اليوم الآخر ، هو من الموت إلى آخر ما يقع يوم القيامة ، وقـد وُصف بأنه الآخر ــ كما يقول العلماء ، ـ لأنه آخر أيـام الدنيا ، أو آخر الأزمنة المحـدودة ، أو لأنه لا ليل بعده ، ولا يقال يـوم إلا لما لا يعقبه ليل ؛ والإيمان بـه : تصديـق جازم بـوجوده وبما يقـع فيه ؛ مـن سؤال الملكين ، ونعيـم القبر وعذابه ، والجزاء ، والبعـث، والحساب والميزان ، والصراط ، والجنة ومـا أعدّ الله فيها للمؤمنين ، والنار وما أعدّ الله فيها للكـافرين الجاحدين .. وغير ذلك مما بينه علماؤنـا رحمهم الله ، أخذاً مـن النصوص في كتـاب الله ، وسنة الرسـول عليه الصلاة والسلام .

هذا: وعند النظر في رواية البخاري ـ كما جاءت في الجامع الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنـه ـ نجد ما يدعـو إلى التذكير بنصها حرصـاً على تبين ما تدل عليه اللفظة المتعلقة بـالإيمان باليوم الآخر الذي هو مـن أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله . ففـي كتاب الإيمان مـن الجامع الصحيح جـاء قول الإمـام البخاري «باب سـؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسـلام والإحسان وعلم السـاعة،

وبيان النبي ﷺ ـ ثم قال : جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم، فجعل ذلك كله ديناً ، وما بيَّن النبـي ﷺ لوفد عبدالقيس من الإيمان ، وقـوله تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ ـ ثم قال رحمه الله :حدثنا مسددٌ قال: حدثنا اسماعيل بن إبـراهيم قال : أخبرنا أبو حيـان التيميُّ عن أبي زُرعة عـن أبي هريرة قال : « كـان النبي ﷺ بـارزاً يوماً للنـاس ، فأتاه رجـل فقال : مـا الإيمان ؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله وتـؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام؟ قال : الإسـلام أن تعبدالله ولا تشرك به وتقيـم الصلاة ، وتـؤدي الزكاة المفـروضة وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلى أن قال : ثم أدبر فقـال : رُدوه ، فلم يروا شيئاً فقال: هذا جبريل جـاء يعلـم النـاس دينهـم». قـال أبـوعبـدالله : جعـل ذلـك كلـهّ مـن الإيمان.

والمرادبـ«أبي عبدالله » هنـا : المؤلف ــ وهو الإمام البخـاري . وقولـه « جعل ذلك كلَّه من الإيمان» يعني الإيمان الكامل المشتمل على هذه الأمور كلها .

وأنت تـرى أن في هذه الرواية نصـاً على الإيمان بلقاء الله ، وقد وقعـت لفظة «وبلقائه» هنا بين الكتب والرسل وكذا لمسلم ــ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ من الطـريقين ، ولم تقع في بقيـة الروايـات، ورأى البعـض أنها مكررة لأنها داخلـة في الإيمان بالبعث ، ولكن الحافظ رد ذلك فقال: والحق أنها غير ذلك ، فقيل : المراد بالبعـث القيام مـن القبور , والمراد بـاللقاء مـا بعد ذلـك ، وقيل : اللقـاء يحصل بالانتقال مـن دار الدنيا ، والبعث بعـد ذلك .. ولنا عودة إلى هـذا النص إن شاء الله، نستجلي من خـلاله ما يـزيد اليقين بوجود اليـوم الآخر ،وقيام النـاس لرب العالمين ، حيث يحشرهم الله جميعـاً ويضع الموازين القسط ليوم القيامـة . وهنالك توفّى كل نفـس ما كسبت وهم لايظلمـون . وإني داعٍ بما يدعو به أولـو الألباب : ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾.

وأن الله يبعث من في القبور

كان من عناية العلماء بفقه حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، التدقيق في دلالة لفظةٍ ما ، وردت في النص عند فلان ، ولم ترد عند فلان ؛ ومن ذلك ما جاء من كلامهم على لفظة « ولقائه» التي وردت في رواية البخاري من حديث «الإسلام والإيمان والإحسان » ، وذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام جواباً لجبريل عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث ...» الحديث .

وقد أوردت من قبل كلام الحافظ ابن حجر ، وما نقل عن بعض العلماء في ذلك، من أنها مكررة لأنها داخلة في الإيمان بالبعث، وهو البعث بعد الموت . وقد ساعد على هذا الاتجاه ــ كما يبدو ـ أنها توسطت بين الكتب والرسل ، وتلا ذلك كله قوله عليه الصلاة والسلام : « وتؤمن بالبعث» غير أن الذى يطمئن إليه القلب ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر واستظهره، من أنها غير مكررة ، لأن معنى لقاء الله هنا مختلف عن معنى البعث؛ فالإيمان به تعالى . مضاف إلى الإيمان بالبعث بعد الموت ؛ إذ قيل : إن المراد بالبعث : القيام من القبور ، وباللقاء : ما بعد ذلك ، حيث القيام بين يدي رب العالمين للمساءلة ، وما يترتب عليها . ولم يدع رحمه الله أن يورد ما قيل من أن اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا ، أما البعث: فيكون بِعد ذلك، ويدل على هذا رواية مطر الوراق التي جاء فيها «وبالموت وبالبعث بعد الموت » وكذا في حديث أنس وابن عباس .

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الإمام أبا سليمان الخطابي رحمه الله ذهب إلى أن المراد باللقاء في قوله صلى الله عليه وسلم :« وبلقائه» : رؤية الله عز وجل . وقد تعقبه الإمام النووي رحمه الله بأن أحداً لا يقطع لنفسه برؤية الله المختصة بمن

مات مؤمناً ، والمرء لا يدري بم يختم له ، فكيف يكون ذلك من شروط الإيمان ؟ وأجيب عن كلام الإمام النووي : بأن المراد الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر . قال صاحب فتح الباري : (وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة ؛ إذ جعلت من قواعد الإيمان) .

ومما هو جدير بالملاحظة، ما نرى في هذه الرواية عند الإمام البخاري من قول النبي ﷺ وهو يبين أركان الإيمان « وتؤمن بالبعث » وفي رواية أخرى في التفسير «وتؤمن بالبعث الآخر » بزيادة كلمة الآخر . وقد رأينا من قبل أن رواية الإمام مسلم في حديث عمر رضي الله عنه « واليوم الآخر » .

أن يبعث الله من في القبور : حقيقة يصدِّق المؤمن جازماً بوقوعها ، وهي أمر هين بجانب قدرة الله تعالى على النشأة الأولى ، وعلى خلق السماوات والأرض وما فيهن، روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول ﷺ : أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال : ونزلت الآيات من آخر «يسٓ» . وقال مجاهد وعكرمة وعروة ابن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر سورة «يسٓ» ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ...﴾ الآيات .

ولكن ما الذي يعنيه الوصف بالآخر في هذه الرواية عند البخاري في التفسير ـ من تفسير سورة لقمان حيث جاء فيها ـ كما مر آنفاً ـ « وتؤمن بالبعث الآخر» ؟ ذهب بعض العلماء إلى أن ذكر الآخر في قوله ﷺ : «وتؤمن بالبعث الآخر» جاء

للتأكيد كقولهم : أمسِ الذاهب، وقيل : لأن البعث وقع مرتين : الأولى الإخراج من العدم إلى الوجود ، أو من بطون الأمهات بعد النطفة والعلقة، إلى الحياة الدنيا، والثانية البعث من بطون القبور إلى محل الاستقرار ، وذهب بعضهم إلى أن الوصف بالآخر ، إما تأكيد : كأمس الدابر ، أو احتراز من غير الآخر ؛ لأنه إحياء بعد إماتة ، وقد كنا ميتين قبل نفخ الروح فأحيينا بنفخها ، ثم متنا ثم أحيينا لسؤال الملكين ، ثم متنا ، ثم أحيينا للحشر ؛ فهذا هو الآخر . أما اليوم الآخر :فقيل له ذلك ـ كما أسلفنا ـ لأنه آخر أيام الدنيا . أو آخر الأزمنة المحدودة؛ وهو ما اتجه إليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ، ومطلوب من كل مؤمن أن يعلم أن المرادمن الإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بما يقع فيه من الحساب والميزان والصراط والجنة والنار ،وغير ذلك ، مما ثبت بالنصوص .

هذا : وقد استوقفت العلماء إعادة لفظة « وتؤمن » عند ذكر البعث ، وكأن الحكمة في تلك الإعادة ـ كما قالوا ـ الإشارة إلى أنه نوع آخر مما يؤمَن به ، لأن البعث سيوجد بعد ، وما ذكر قبله بعد ذكر الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل: موجود الآن ، وللتنويه أيضاً بذكره، لكثرة من كان ينكر من الكفار ، ولهذا كثر تكراره في القرآن . وقد رأينا من قريب ما ذكر في سبب نزول الآيات الأواخر من سورة «يسٓ» .

ومن الجدير بالملاحظة : أن رهبة القيامة ، والخشية من العرض الأكبر ، وما قد يترتب على ذلك أوقعت بعض الناس ممن كانوا قبلنا في شيء من اليأس، فحملهم ذلك على سلوك طريقة ، يحسبون أنها تحول دونهم ،ودون أن يعود أحدهم بشراً سوياً ؛ يسأل ويجزى بعمله ؛ إن خيراً فخير و إن شراً فشر . فقد روى الإمام أحمد بسنده أن عقبة بن عمرو أبا مسعود البدري الأنصاري قال لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال سمعته ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت ، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي

فامتحشت ، فخذوهـا ، فدقوها ،فذرُّوها في اليم ، ففعلـوا ، فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له ». وقد ورد الحديث في صحيحي البخـاري ومسلـم بألفاظ كثيرة جاء في بعضهـا : «فأمر الله تعالى البحـر فجمع ما فيه ، وأمـر البر فجمع ما فيه ، قـال له كن فإذا هـو رجل قائم ، قـال : ما حملك على ما صنعـت؟ قال : مخافتك وأنـت أعلم فما تلافاه أن غفر له » .

امتَحَشَتْ ـ أو أمتُحِشَتْ : احترقت، والمحش احتراق الجلد وظهور العظم .

اللهم اجعل إيمانا بـاليوم الآخر سبيلاً إلى الاستقامة على الطـريقة ، وحسن التزود ليـوم المعاد. وارزقنـا مع الخوف مـن أليم عـذابك ، الـرجاء الصـادق بسعة رحمتك، وجميل فضلك و إحسانك .

وصلى الله وسلم وبارك على إمام الهدى سيدنا محمـد بن عبدالله ووفقنا لحسن التأسي به ، كيما نكون يـوم القيامة ـ إن شاء الله ـ من الناجين مـن النار ، الفائزين بالجنة دار المتقين .

أول منازل الآخرة

لم يكن عجباً من العجب ، أن نرى في منهج علمائنا رحمهم الله ، إيراد النصوص الواردة في شأن الموت ، وما يكون في القبر من سؤال الملكين ، ثم ما يترتب على ذلك ـ وهم بصدد الحديث عن يوم القيامة وما فيه من أهوال ينخلع لشدتها القلب ، ويشيب لها الوليد ـ وليس بدعاً ـ والأمر كذلك ـ أن يأخذني النظر فيما ورد في شأن ذلك اليوم العصيب يوم التناد ، وما يزخر به من مشاهد تحفز المؤمن إلى الخوف والرجاء ، فيشدني إلى أن أذكر ـ بادئاً بنفسي ـ ولو ببعضٍ من نصوص السنة الواردة في شأن ما يلقى العبد في القبر بعد الموت ، وما يكون من عاقبة كلٍ من المؤمن والكافر ، وما كان من هدي النبي ﷺ وبيانه على هذه الساحة .

ذلك لأن الارتباط وثيق بين القبر وما يكون فيه ، وبين يوم القيامة ؛ وإنما كان الارتباط على هذه الصفة ، لأن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، ومن مات فقد قامت قيامته الصغرى ؛ فإن نجا من القبر ، فما بعده أيسرُ منه ، وإن لم ينج : فما بعده أشدُّ منه . وأصحاب النبي ﷺ الذين سمت بهم تربية النبي ﷺ إلى حيث يخشون ويخافون سوء الحساب ، عرفوا هذه الحقيقة ، فكانت تتحرك نفوسهم لها ، وتفيض أعينهم من الدمع مما يتهيبون من المصير بعدها . قال الترمذي : حدثنا هنّا د قال : حدثنا يحيىٰ بن معين قال : حدثنا هشام بن يوسف عبدالله بن بحير أنه سمع هانئاً مولى عثمان قال : «كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال: إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه ، قال : وقال رسول الله ﷺ : ما رأيت منظراً قط ، إلا القبر أفظع منه» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا

من حديث هشام بن يوسف ومعلوم أن هشام بن يوسف ثقة . قال ابن الأثير : وزاد رزين : قال هانئ : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجياً

والحق أن هذا الذي نرى من فعل عثمان رضي الله عنه ، يؤكد ما ينبغي للمؤمن أن يكون عليه ، من ترقب يحمله على المزيد من العمل الصالح ، والمسارعة إلى فعل الخيرات ، وتجنب كل ما يسخط الله ويؤدي إلى عذاب القبر ، وذلك شرٌ وبيل .

ولقد تأول العلماء هذا البكاء الشديد من عثمان رضي الله عنه ، عندما يقف على قبر حتى يَبُلَّ لحيته ، مع أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، بعدد من الوجوه؛ كان منها : أن شدة الفظاعة كانت تنسيه ذلك ، أو أن يكون صنيعه خوفاً من ضغطة القبر ؛ فقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ».

على أن هذه الخصلة العظيمة في عثمان رضي الله عنه ، وهي الخشية من عذاب الله ، تدل على مقدار ما وصل إليه من صفاء القلب ، والذوق الإيماني والقرب من الله تعالى ، واستشعار عظمته ، وضآلة ما يمكن أن يقدمه العبد بين يدي الله تعالى ـ وهو المنعم المتفضل ـ كما أن خصلة الخشية هذه ،لا تتعارض مع الرجاء الكبير بفضل الله تعالى ورحمته، كما لا تتعارض مع كون عثمان رضي الله عنه من المشهود لهم بالجنة ؛ فهذا النوع من السمو الذى يكرم الله به من يشاء من عباده، لا يتجزأ ، ولا تراه يغيب هنا ويحضر هناك . وكونه ـ أجزل الله مثوبته ـ من أولئك المبشرين رضي الله عنهم، مدعاة لأن يكون أكثر شفافية وخشية من عذاب الله الدال على سخطه والعياذ بوجهه سبحانه. وما من ريب في أن ذلك علامة القرب من الله الذى أعد لأهل تقواه جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول

ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله ».

هذا: وقد جاء في بعض نسخ الترمذي التي بين أيدينا (عبدالله بن بُجَيْر) بالجيم المفتوحة مصغراً ، والصواب ـ والله أعلم ـ (عبدالله بن بَحير) بفتح الباء وكسر الحاء ، وهو ما نجده في رواية الحاكم النيسابوري وابن ماجه . فقد روى الحاكم أبوعبدالله النيسابوري في كتاب الرقاق من « المستدرك» بسنده عن هشام ابن يوسف قال : حدثنا عبدالله بن بَحير قال : « سمعت هانئاً مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : رأيت عثمان واقفاً على قبر يبكي حتى بل لحيته ، فقيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، و إن لم ينج منه، فما بعده أشد منه ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » قال أبو عبدالله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ــ يعني البخاري ومسلماً ، وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » صحيح .

و إذا كانت هذه الرواية ، تنقل إلينا وصف واقعة واحدة وقف فيها عثمان رضي الله عنه على قبر يبكي ، فإن رواية ابن ماجه تطابق رواية الترمذي التي رأينا من قبل، من حيث التعميم؛ فهي تفيد أنه رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحيته ، بمعنى أن ذلك كان ديدنه رضي الله عنه ، فكلما رأى قبراً كانت منه الخشية والدموع السخية ولفظ الروايةبالسند عن هانىء مولى عثمان قال : «كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر يبكي ، حتى تبلّ لحيته ، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر و إن لم ينج منه فما بعده أشد ، قال : وقال رسول الله ﷺ مارأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » .

وهكذا تبدو العلاقة وثيقة ، بين ما يكون في القبر للعبد ، وبين ما يكون له

يوم القيـامة ، لأن العبـد إن نجا مـن عذاب القبر ، كـان ذلك ممـا يبشر بالنجـاة الكبرى وأن ما بعده يـوم القيامة أيسر منه ، وإن لم ينج من عـذاب القبر ـ والعياذ بالله ـ كان ذلك نذير أن ما بعده يوم القيامة أشد منه .

اللهم إنـا نعوذ بـك من فتنـة القبر وعذابـه، ونسألـك أن تجعلنا ممـن ينالهم فضلك وإحسانك. فيكون قبر الواحد منهم روضة من رياض الجنة ، ياذا الجلال والإكرام .

الميت.. وعرض مقعده بالغداة والعشي

حقيقةٌ أن العلاقة وطيدة بين مـا يحصل للميت في القبر ، وبين ما يمكن أن يحصل لـه يوم القيـامة ، حقيقـة من الـواجب أن تـأخذ مكـانها الملائم في تصور المؤمن وسلـوكه ، في ظل العبوديـةِ الصادقة لمولاه عز وجـل، والإيمانِ بسؤال القبر الذي هـو أول منزلة مـن منازل الآخرة ، فمـن مات فقد قـامت قيامتـه الصغرى، والنجاة من عـذاب القبر ، معناها ـ والله أعلم ـ أن الأمـر هيّن يسير في عرصات القيامة، يـوم يقف الناس لرب العالمين . أما إن وقـع الميت في حمأة عذاب القبر : فذلك عنوان ما هو أشد منه يوم الحساب ، نجانا الله من ذلك. يقول الرسول ﷺ كما روى الترمذي وابن ماجه والحاكم: « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منـه فما بعده أشد منه » وقد وقفتنا هـذه الروايات على الذي كان يعرو عثمان رضي الله عنه من شـدة البكاء حتى يبلَّ لحيته ، عندما يرى القبر ، تحسباً من الوقوع في هذا الذي كشف عنه رسول الله ﷺ .

وإن مما يـؤكد العـلاقة بين ما يحصـل في القبر للعبد ، وبين مـا يكون لـه يوم القيامة ، أن العبـد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ ؛ إن كـان من أهل الجنـة ، فمن أهـل الجنة ، وإن كـان من أهـل النـار ، فمن أهـل النار ، ويفسـح للمؤمـن في قبره سبعون ذراعاً ويمـلأ عليه خضراً إلى يـوم يبعثون ، أما الكـافر : فيضرب بمطارق مـن حديد ، ويضَّيق عليـه في قبره حتى تختلف فيه أضـلاعه .

قال الإمـام البخاري : حـدثنا إسماعيل قـال : حدثنـا مالك عـن نافـع عن عبـدالله بن عمـر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال : « إن أحـدكم إذا مـات عرض عليه مقعـده بالغداة والعشيِّ إن كان مـن أهل الجنة فمن أهـل الجنة ،وإن كان مـن أهل النـار فمن أهل النـار ، فيقال : هذا مقعـدك حتى يبعثـك الله يوم

القيامة » جاءت هذه الرواية تحت باب عقده رحمه الله لهذا ، عنوانه « باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي» وذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح . ورواه في بدء الخلق « باب ما جاء في صفة الجنة » وفي الرقاق « باب سكرات الموت » .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فالجنة وإن كان من أهل النار فالنار . قال : ثم يقال : هذا مقعدك الذى تبعث إليه يوم القيامة » والحديث رواه أيضاً مالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الله يعطي الميت ما يحس معه بذلك الذي يمكن أن يكون في القبر ؛ فحين تكون الجنازة صالحة تقول : قدموني قدموني ، وحين تكون غير صالحة تقول : ياويلها أين تذهبون بها . روى البخاري بسنده عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني قدموني ، وإن كانت غيرصالحة قالت : ياويلها أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق » وقد أورد البخاري هذا الحديث عقب الحديث السابق تحت باب كلام الميت على الجنازة من كتاب الجنائز ، وكان هذا مدعاة لأن يبين الحافظ ابن حجر رحمه الله ـ فيما نقله عن ابن رشيد ـ أن هذه الترجمة مناسبة للتي قبلها ، كأنه ـ يعني البخاري ـ أراد أن يبين أن ابتداء العرض إنما يكون عند حمل الجنازة ، لأنها حينئذ يظهر لها ما تؤول إليه فتقول ما تقول . والترجمة التي قبلها ـ كما رأينا آنفاً ـ هي: «باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي».

من أجل هذا ، كان من الخير أن يكون المؤمن على ذكر من الموت ، كيما يستشعر تلك الحقائق التي أخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما جاء

في القرآن الكريم ، ولينعكس ذلك على سلوكه ، فتراه حريصاً ـ أبداً ـ على أن يكون وقافاً عند حدود الله ، بعيداً عن الغفلة التي تنسي الموت وسؤال الملكين في القبر ، وما لنتيجة السؤال من دلالة وأثر على ما يكون يوم العرض على الله الذي لا يخفى عليه خافية . روى الترمذي بسنده عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : «دخل رسول الله ﷺ مصلاه ، فرأى ناساً كأنهم يكتشرون ـ تظهر أسنانهم من الضحك ـ قال : أما إنكم لو أكثرتم ذكر ها دم اللذات لشغلكم عما أرى الموتُ ، فأكثروا ذكر هادم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربة .. وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود ، فإذا دفن العبد المؤمن ، قال له القبر : مرحباً ؛ وأهلاً أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليّ ، فإذا وليتك اليوم ، وصرت إلي ، فسترى صنيعي بك قال : فيتسع له مدّ بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر ،قال القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأ بغض من مشى على ظهري إلي، فإذا وليتك اليوم ، وصرت إلي ، فسترى صنيعي بك قال : فيلتئم عليه حتى تلتقي عليه وتختلف أضلاعه ، قال : قال رسول الله ﷺ بأصابعه فأدخل بعضها في جوف بعض .... إلى أن يقول : قال رسول الله ﷺ : إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

في ظل هذه الحقيقة وأمثالها .. كان من هدي النبي ﷺ دعوته إلى أن يحاسب كل من المسلم والمسلمة نفسه هنا في هذه الدار ، ويكون شجاعاً في النقد الذاتي ، الذى يقوّم العوج ، ويهدي إلى الصواب ، في ضوء معايير الكتاب والسنة والعمل لما بعد الموت . روى الترمذي بسنده عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ». قال : هذا حديث حسن . قال: ومعنى قوله : من دان نفسه يقول : حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرض

الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا ».

والحق أن من رزق اليقظة ، فلم تشغله الدنيا عن العمل لما بعد الموت ، وكان صادقاً في تزكية نفسه ومحاسبتها ، فقد رزق خيراً كبيراً ، يجد حلاوة ثمرته يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وطوبى لمن يأتي يوم القيامة، وقد دان نفسه في الدنيا ، وعمل لذلك اليوم لاريب فيه ، فكان أهلاً للفوز بالجنة والنجاة من النار ، وسبحان الغفور الرحيم .

استعيذوا بالله من عذاب القبر

رحلة المؤمن في هذه الحياة ، وما يمكن أن يعترض طريقه إلى الله فيها ، من الصوارف والمعوقات ، جديرة أن تكون مصحوبة أبداً بما يذكِّر بالموت ، وما يكون من سؤال القبر الذي هو معتقد أهل السنة والجماعة ، وقامت الأدلة الواضحة على إمكان وقوعه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن مايلقاه العبد في قبره من يسر ونعيم ، يكون عنوان نجاته يوم القيامة ، ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾ وأن ما يلقاه من مكروه وعذاب ، يكون عنوان تعثره وشقائه في ذلك اليوم ، هنالك إذ يقال للإنسان : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ . ويصدق في الجاحدين المعاندين قول الله جلت قدرته : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ .

وما أكثر النصوص التي تنذر وتبشر على هذه الساحة ، وتضيء الطريق لمن يحرص على أن يسعى للآخرة سعيها ، بدءاً من الاستعداد للموت وسؤال القبر. من هنا كان مقتضى التعقل بعقل المعاد ، أن يسلك المؤمن سبيل أهل الجد في طلب النجاة يوم المعاد .

والناظر فيما جاء عن الله ورسوله في هذا الشأن العظيم ،لا يملك إذا عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يدين نفسه ، ويحاسبها على ما وقعت فيه من تفريط ، ويعمل جاداً على أن يثبت على ما هو استقامة على الطريق ، ويتوب إلى الله عما هو انحراف وبعد عن مسلك أهل الصلاح والفلاح ، الذين يخافون مقام ربهم ، وينهون النفس عن الهوى ، ويجعلون همَّهم العمل لما بعد الموت ، ذاكرين يوم القيامة وأهواله ، جادين في التزود له بالزاد الذي أمر به الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، من العمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن .

وصنيع هؤلاء ، دليل كمال العقل ، والفهم عن الله ورسوله في هذا المضمار؛ فالأمر جد خطير ؛ والذي يغفل عن أول منزلة من منازل الآخرة ، يكون كمن يعمد إلى الخطر الماحق فيوقع نفسه فيه ، كيف وقد كشف الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، عن أنه قبل سؤال القبر ، وما يمكن أن تكون حال العبد من ورائه، هنالك ضغطة القبر . أخرج النسائي بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال بشأن سعد بن معاذ رضي الله عنه: «هذا الذي تحرك له عرش الرحمن ، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرِّج عنه » . وروى الإمام أحمد والبيهقي من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ ».

وأنت واجد أن في حديث رسول الله ﷺ ، عن البرزخ وما يكون فيه بوصفه المنزل الأول من منازل الآخرة ، وعنوان ما يكون لصاحبه يوم القيامة ، تقريراً وتفصيلاً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه المسألة الكبرى من مسائل العقيدة كما هو معروف في مظانه ، غير أنا نشير هنا ـ وذلك على سبيل المثال لا الحصر ـ إلى ما جاء في سورة المؤمنون من قول الله تبارك وتعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال ربِّ ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ وإلى ما جاء في سورة غافر من قوله جل شأنه : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غُدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾. ونشير كذلك إلى ما روى أحمد وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، مما نجد فيه بيان تقرير وتفصيل، كان من نصح رسول الله ﷺ للأمة في دنياها ويوم الدين . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحدْ ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله ، وكأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت في

الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ــ مرتين أو ثلاثاً ــ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيضُ الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج، فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمّرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرّوح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيِّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ــ فيقول الله عز وجلّ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك فيقول: ربّي الله. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي: فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . . .

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل

الله ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله ، وغضب ، فتفرَّق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها ،كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها ، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذهِ الريح الخبيثة ؟ فيقول : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمىَّ بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿ لاتفتّح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط ﴾** فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾** فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويضّيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت؟ فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة ».

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يعيذنا من عذاب القبر ويثبتنا بقوله الثابت إنه البر الرؤوف الرحيم .

سؤال الملكين

كل من رزق حسن الصلة بمناهـج الاستنباط من نصوص الكتاب والسنة ، ووفِّق لاصطحابها على صعيد التطبيق العملي ، حيث النص واستنباط الحكم منه ـ دون إغماض العين عن الحكمة ـ ماتيسرت له الإحـاطة بها ... كل من حصل له ذلك أدرك ـ بتوفيق الله عز وجل ـ المقام العظيم الذى يتبوؤه البيان النبوي لكتاب الله العزيـز ، حيث ترى التقـرير حيناً ، والتـأكيد حيناً ، كما تـرى تفصيل الإجمال حيناً آخر ، وناهيك عن التخصيص و التقييد ، وإعطاء حكم جديد حين يقتضي الأمر ذلك ... إلى آخر ما هنالك مـن صور لهذا البيان النبوي الكريم الذي اؤتمن سيد العالمين عليه بقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ .

ولا يعوزك أن تـرى آثار هذا البيـان المبارك ، وأنت تنظـر ببصيرة في نصوص الكتاب الكـريم، سعيـاً وراء المعنى المراد ، وفي معـالم الهداية فيهـا ،وهي تعـالج موضـوعاً أو موضـوعات تحمل في طيـاتها ، ما العباد بحـاجة إليه في أمـور دينهم ودنياهم ، فضلاً عما يتعلق بأمور الآخرة التي ينبغي للمؤمن أن يوليها ما تستحق من العناية ، لأن الآخرة هي دار القرار ، وليس بعد هـذه الدنيا دار ، إلا الجنة أو النـــار .

وفي شأن ما يكـون عليه حال كل من المؤمـن والكافر بعد الموت ، كـانت لنا وقفة عند آيـة كريمة في سورة المؤمنـون ، وأخرى مثلها في سورة غـافر (المؤمن) وكان الخير غامراً في بيان النبي ﷺ ، وهو يكشـف عما للعمل الصالح من أثر فيما يؤول إليه أمر مـن آمن بالله وعبده حق العبادة ، وعما للضلالـة المردية من أثر فيما يؤول إليه أمر من أعرض عن ذكر الله وأطاع الهوى والشيطان . وأعني بهذا البيان

ما جاء فيما أخرج أحمد وأبوداود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه ، إذ جاء في الحديث من رواية أحمد رحمه الله بالنسبة للمؤمن ـ كما رأينا ـ « ..... ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرُّك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي » . أما بالنسبة للكافر : فقد جاء في آخر الحديث « ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة » .

هذا : وسؤال الملكين المومى إليه في هذا الحديث ـ كما رأينا من قبل ـ نجد التنصيص عليه ، وعلى عذاب القبر فيما أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه . وقد جاء الإمام البخاري بعدد من الأحاديث في بعضها النص على سؤال الملكين تحت باب عقده لذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح عنوانه : « باب ما جاء في عذاب القبر وقوله تعالى : ﴿ إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكةُ باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم، اليوم تُجزون عذاب الهون ﴾ الهُون هو الهوان ، والهَوْن : الرفق . وقوله جلّ ذكره: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النارُ يُعرضون عليها غُدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ».

وأنت ترى أن في تقديم ذكر هذه الآيات ، بين يدي الأحاديث التي أوردها البخاري ، تنبيهاً على ثبوت عذاب القبر في القرآن ، وأن ما ورد في السنة يؤكد ويقرر ، ويفصِّل ما كان من إجمال في تلكم الآيات وغيرها ، وذلك كله من بيان السنة للكتاب العزيز . والآية الأولى هي الثالثة والتسعون من سورة الأنعام ونصُّها : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ،

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والآية الثانية هي الواحدة بعد المائة من سورة التوبة ونصُّها : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ ونجد بعد ذلك الآيتين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين من سورة غافر ، ونص الأولى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

وأما الآية التي في الأنعام : فروى الطبراني وابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ﴾ قال : هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ، يضربون وجوههم . قال الحافظ ابن حجر : « ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه ، ولكون الغالب على الموتى أن يُقبروا ، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته ولو لم يدفن ، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله » .

وفي شأن ما جاء في آية سورة التوبة ﴿سنعذبهم مرتين ﴾ روى الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط أيضاً ما دل على نوعين من العذاب للمنافقين أولهما : فضحهم حيث قال ﷺ ـ وهو يخطب ـ «اخرج يافلان فإنك منافق » الحديث ؛ فهذا العذاب الأول . والعذاب الثاني عذاب القبر . وروي الطبرى وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر .

أما عن قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ فقد

ورد في السنة ما يدل على أنه يُعرض على أهل النار مقعدهم بالغداة والعشي، وأن هذا العرض يكون في البرزخ ، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهـذا لفظ البخـاري ، أن رسـول الله ﷺ قـال : « إن أحدكـم إذا مات عـرض عليه مقعده بـالغداة والعشي ، إن كان مـن الجنة ، فمن أهـل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النـار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . قال القرطبـي : والجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر .

هذا ومن الأحاديـث التي أخرجها الإمام البخاري تحت البـاب المذكور ، ما نجد مـن قولـه رحمه الله حدثنا عيـاش بن الـوليد قال : حـدثنا عبـدالأعلى قال : حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بـن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قـال : « إن العبد إذا وضـع في قبره وتولى عنـه أصحابـه ـ وإنـه ليسـمع قـرع نعالهم ـ أتـاه ملكان ، فيقعدانه فيقولان : مـا كنت تقول في هذا الـرجل ؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبـدالله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قـد أبدلك الله به مقعداً مـن الجنة ، فيراهما جميعاً » قال قتـادة : وذكر لنا أنه يفسـح له في قبره ، ثم رجـع إلى حديث أنـس قال : « وأمـا المنافق والكـافر : فيقال لـه ماكنت تقـول في هذا الرجل ؟ فيقـول : لا أدري ، كنت أقول مـا يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها مـن يليه غير الثقلين » . وجاء في رواية مسلم : قـال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويُملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون » .

والحق أن ما ورد من النصوص في كتاب الله وسنة النبي علية الصلاة والسلام ـ كما يشعر بما سيكون بعد الموت بين يدي يوم القيامة ـ يفترض أن يثير في المؤمن مزيداً مـن الحيطة في دين الله . واستشعار مـا هو كائن إذا بلغت الـروح الحلقوم؛ فالأمر جد لاهزل فيه ، والسعيد السعيد من خاف على نفسه ، فسلك طريق أهل الخشية، وكان للنفس والشيطان والهوى ، با لمرصاد . والله يتولى الصالحين .

تعوذوا من فتنة القبر

ماذا عليَّ لـو جعلت الكلمة الأولى في هـذه الصفحات، تذكيراً بعظيـم قدر النبي عليه الصلاة والسلام . وكونه الرحمة المهداة ، وخيرَ من نصح لأمته في دينها ودنياها وآخرتها ، حتى تركها على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها ، ولا يتخذ هداها وراءه ظهرياً ، إلا هالك .

ولقد كان من نصحه لهذه الأمة ورحمته بها، أن كشف لها ـ في بيان لكتاب الله ـ عن يوم القيـامة وأهواله وكل شـأن يتصل به ؛ حتى أفاض صلـوات الله وسلامه عليه في الحديث عما يكون للمرء بعد موته في القبر ، وعن أثر ما كسب في الدنيا ، أو اكتسب في ذلك .

وعلّم صلى الله عليه وسلم المؤمن كيف يحتاط لدينه ويحسن العمل لآخرته كيما يكون له حسن العاقبة بعد الموت ، ولا يقع في هوة عذاب القبر والعياذ بالله .

كما كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن علّم المؤمن أيضاً كيف يلجأ إلى الله أن يعيذه مـن عذاب القبر وفتنـة القبر ، لما أن الأمة تفتن في قبـورها فمـن كان في مرضاة الله نجا ، ومن كان من أهل الضلالة هلك مع الهالكين . وإنما كانت هذه العنايـة ببيان مـا يكون مـا بعد الموت ، وتـذكير المؤمنين بذلـك لما أن القبر ـ كما أسلفنا مـن قبل ـ أول منازل الآخـرة ، وعنوان مـا سوف يكـون للمرء بعـده يوم الدين، كما أنـه المرحلة الأولى في رحلة البرزخ بين يدي يوم القيـامة ، يوم المحشر الذي تعنو فيـه الوجوه للحي القيّـوم ، وقد خاب من حَمَلَ ظلماً ، اليـوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ويأخذهـم ـ وقد بـرزوا لله الواحد القهار ـ ما يأخذهم من الهول والله المستعـان . ولا تعجـب يومـذاك ـ حيـث القلوب واجفـة والأبصـار خاشعة ـ إذا رأيت المرء يفر من أخيه وأمـه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فلكل امرىء

منهم يومئذ شأن يغنيه . وكيف لا يكون ذلك كله ، وقد كشف عن الإنسان الغطاء فبصره اليوم حديد ، وتجلى ربنا بعظمته وجلاله ؛ فالأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴿والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وذلكم ما روى مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون» ؟ وهكذا كان الذي جاء عن النبيﷺ بشأن القبر وسؤال الملكين وما يتعلق بذلك متسقاً كل الاتساق مع موقعه من اليوم الآخر وساعات الحساب يوم القيامة ، وقد وقفتنا بعض نصوص السنة سابقاً على شيء من ذلك ، وها نحن أولاء نتابع الرحلة مع نصوص أخر ، في حدود ما يعين على تلمس الهداية في تلك القضية الكبرى التي ترتبط أيما ارتباط بعقيدة المسلم و سلوكه ، وما يجب أن يكون عليه من عمل يحمل النظرة أبداً إلى ما بعد الموت ، فلا تشغله العاجلة عن الآجلة لأن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ومن الواضح أنه ـ بجانب النصوص التي تحدثت عن سؤال الملكين في القبر ـ هنالك ما يدل على اسم كل منهما ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا قبر الميت ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: ما كان يقول ، هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده وسوله، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينوَّر له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان : نم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض : التئمي عليه؛ فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، ولا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه

ذلك » أخرجه الترمذي وحسنه ، وهو على شرط مسلم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في حديث بشأن الملكين اللذين يتوليان السؤال في القبر : اسم الملكين اللذين يأتيان في القبر ، منكر ونكير ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

ولقد أخبر النبي ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - أن عذاب القبر حق وأن أمته تفتن في قبورها وتعوذ ﷺ من عذاب القبر ومن فتنة القبر ، وأمر بذلك ، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم عذاب القبر حق ، قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ وقد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر » أخرجه البخاري ومسلم . وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمة تفتن في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا تعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال » أخرجه مسلم .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ أفضل ما جزى مرسلاً عمن أرسل إليهم ، فقد أنقذنا به من الهلكة في الدنيا ويوم الدين ،وصلى الله وسلم عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، أعاذنا الله من عذاب القبر وعذاب النار، ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ومن فتنة المسيح الدجال إنه - جل شأنه - ولي ذلك والقادر عليه .

.. وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات

مرة أخرى ، نعود إلى الرحلة مع الكلمة المبينة النيرة من حديث النبي ﷺ وسلم ، في شأن ما هو مؤذن بها يكون من عاقبة المرء يوم القيامة ، وما هو مآله في ذلك اليوم ؛ وأعني بذلك ما يحصل للميت في قبره من سؤال الملكين ، وما يمكن أن يكون من العذاب أو النعيم ،لأن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار . والعبد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. وقد رأينا من قريب ما ذهب إليه البخاري وغيره من دلالة الآيات على عذاب القبر ، وأن الأحاديث الصحيحة صريحة في أن سؤال الملكين حق ، وأن عذاب القبر حق، عافانا الله من ذلك كما هي صريحة في أن الأمة تفتن في قبورها . ومن أجل هذا تعوذ رسو ل الله ﷺ من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة القبر وأمر بذلك ، والعهد قريب بما أخرج البخاري ومسلم من أحاديث تتناول هذه القضايا ، وتكشف عنها بأوضح بيان .

وقد روى النسائي بسنده عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع أسماء بنت أبي بكر تقول : « قام رسول الله ﷺ ، فذكر الفتنة التي يفتن بها المرء في قبره ، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أى بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر قوله ؟ قال : قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال » والذي عند البخاري قوله : «ضج المسلمون ضجة» وروى مسلم بسنده عن طاووس عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من

فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » أخرجه النسائي أيضاً .

وهذه واقعة، تحمل نصاً يؤكد ما جاء في هذه الأحاديث؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسو ل الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحدْ بعدُ ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، وبيده عود نكت به في الأض ، فرفع رأسه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » . رواه أبوداود .

هذا: وقد جاءت بعض الروايات، بما يشعر بالعلاقة بين عذاب القبر ، وبين قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا حفص بن عمر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مَرْثِدٍ عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال : « إذا أُقعد المؤمن في قبره ، أُتي ثم شهد أن لاإله الإ الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ ثم قال : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا غُنْدَرٌ قال: حدثنا شعبة بهذا ، وزاد ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا** ﴾ نزلت في عذاب القبر .

ونجد شيئاً من الزيادة في رواية مسلم . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار بن عثمان العبديُّ قال: حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مرْثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت قال : نزلت في عذاب القبر فيقال له : من ربك ؟ فيقول ، ربي الله ونبيّي محمد ﷺ ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ » ورواه أبوداود والترمذي ، كما أخرج شيخ المفسرين الطبري عدداً من الروايات في ذلك .

و إذا كان الأمر كذلك ، فلا بدع أن يكون من هديه صلى الله عليه وسلم، تعليم أصحابه ــ ومن ورائهم من يأتي من المسلمين ـ أن يدعوا الله تعالى بأن

يعيذهم من عذاب القبر ،فيثبتهم بقوله الثابت ، بعد أن يكون المؤمن قد أخذ بأسبابٌ النجاة ائتماراً بما أمر الله ، وانتهاء عما نهى عنه ، واتباعاً للسبيل التي فيها مرضاة الله ومرضاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان هو صلى الله عليه وسلم لايدع أن يستعيذ من أمور كثيرة ، ومنها عذاب القبر كما رأينا من قريب . غير أن في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام بعض الروايات التي تدل على أن رسول الله ، كان يأمر بالتعوذ من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ، ومن فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة المحيا والممات ، وفي رواية ومن المأثم والمغرم ، كان يأمر بالتعوذ من ذلك كله أو أكثره في الصلاة . وكان هو يفعل ذلك ، دليلَ الأهمية المعطاة لهذه القضية الكبرى ، ورحمته ﷺ بأمته: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ روى مسلم بسنده عن محمد بن أبي عائشة عن أبي هريرة وعن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والمما ت ومن شر فتنة المسيح الدجال » وفي رواية له عن طاووس قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «عوذوا بالله من عذاب الله ، عوذوا بالله من عذاب القبر ، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات » .

وعلى السنن الذي نراه عند رسول الله ﷺ في منهجه الفريد في التربية ، من أنه كان يربي بالقدوة ، كما يربي بالتعليم والهداية ، جاء في الروايات التي تدل ـ كما أشرنا من قبل ـ أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يتعوذ مما أمر أصحابه أن يتعوذوا منه ؛ من هذه الروايات ما أخرج مسلم بسنده عن الزهري قال : أخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، قالت : فقال

له قائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يارسول الله ،فقال : إن الرجل إذا غرم حدَّث فكذب ، ووعد فأخلف » .

معنى «أعوذ بك من المأثم والمغرم» : أعوذ بك من الإثم والغُرم ، والغرم هو الدين.

وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير الذي ترك أمته على المحجة البيضاء ، فمن اهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم نجا وغنم، ومن أعرض عن سبيله كان من الهالكين.

من الأمور التي لا تقبل الجدل ، وحريٌّ بالمؤمن أن يكون على ذكر منها ، فلا ترين الغفلة على قلبه : أن سلامة التصديق بيوم القيامة والمعاد ، تقتضي أن يعمل المؤمن لما بعد الموت ، وأن يجعل نصب عينيه ما يمكن أن تكون عليه الحال في القبر وهو أول منزل من منازل الآخرة ، لأنه إن شملت المرء عناية الله وأضاء طريقه العمل الصالح ، فنجا من هول ذلك المنزل الذي استعاذ رسول الله ﷺ من عذابه ، فما بعد ذلك من ساعات الشدة الشادة يوم القيامة أيسر منه . وإن حقت عليه كلمة العذاب ، بعد سؤال الملكين ، وساءت حاله في الهالكين ، فما بعد ذلك أشد منه والعياذ بالله .

ومن هنا ـ والله أعلم ـ كان السلف الصالح عليهم الرضوان وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ ، يُعدون العُدة لسؤال القبر ، ويخشون ما يمكن أن يكون فيه من الابتلاء والامتحان ، لما أن هذه الأمة ـ كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ تفتن في قبورها ، فترى الواحد منهم ـ على عظيم فضله وتقواه ـ قد يبكي ويطيل البكاء ، إذا ذكر القبر وما فيه ،لأنه المنزل الأول ـ كما أسلفنا ـ من منازل ذلك اليوم الذي قال الله فيه : ﴿**يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية**﴾ ولعل من الخير أن نعيد إلى الأذهان ما روى الترمذي في كتاب الزهد من السنن عن هانىء مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه بإسناد حسن «أنه قال : كان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » . وزاد رزين : قال هانىء : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

ألا وإن في صنيع عثمان رضي الله عنه؛ من عميق تأثره بذكر القبر، وكل ما هو منه بسبب، دلالة على عميق فهمه لما بيّن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبلغ عن ربه عز وجل ـ من أهمية ماتكون عليه الحال في القبر، وأن النجاة منه عنوان خيرية لما يكون يوم القيامة، وأن عدم النجاة منه ـ أعاذنا الله والمؤمنين من ذلك ـ عنوان الخسران يوم المعاد، ومن أجل هذا كانت تلك الخشية وكان ذلك التحسب، فعثمان رضي الله عنه وأرضاه ،يبكي مشفقاً من عذاب الله الذي يكون عذاب القبر إيذاناً به، بعد أن ينصرف أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعده عن كل شي

وإني مشير هنا إلى ما سبق من نصوص السنة المطهرة التي تحمل تخوّف النبي ﷺ على أمته من عذاب القبر وفتنة القبر، وهديه في الاستعاذة والتضرّع إلى الله أن يعيذه من عذاب النار، ومن عذاب القبر، ومن الفتنة ما ظهر منها وما بطن، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم، وفي توجيه المؤمنين والمؤمنات إلى أن يستعيذوا من هذه العظائم وأمثالها، بعد أن يكونوا قد قدموا من العمل الصالح في طاعة الله تعالى، ما يقيهم الشدائد ويجعلُ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب، والله المستعان.

غير أن مما يجدر التنبيه عليه: أنه بجانب تلك النصوص المطلقة في إثبات عذاب القبر؛ هنالك من النصوص ـ التي سبق بعضها ـ ما يدل على أن إعلام النبي ﷺ بثبوت عذاب القبر، قد جاء متأخراً في المدينة مهاجره عليه الصلاة والسلام؛ قال الإمام البخاري: حدثنا عبدان قال: أخبرني أبي عن شعبة قال: سمعت الأشعث عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر.

فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عـذاب القبر فقال : « نعم عذاب القبر » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر » زاد غُندر : «عـذاب القبر حق » ورواه النسـائي بلفظ « نعـم عذاب القبر حق » [1] أخرجه النسـائي بلفظ « نعم عذاب القبر حق » وفي بعـض الروايات عند البخاري ومسلم أنهما عجوزان من عجز يهود المدينة . وروى مسلم بسنده عن ابن شهـاب قال : حدثني عروة بـن الزبير أن عائشة رضي الله عنهـا قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وعنـدي امرأة من اليهود وهي تقول: هـل شعرتِ أنكم تفتنون في القبـور ؟ قالـت : فارتـاع رسول الله ﷺ وقـال : إنما تفتن يهود ، قـالت عائشة : فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر ».

ويلاحظ أن بين هذه الرواية وسابقتها مخالفة ـ في الظاهر ـ لأن في هذه، أنه صلى الله عليـه وسلـم أنكـر على اليهـودية ، وفي الأولى أنـه أقـرَّهـا . وقـد ذهـب الطحاوي والنـووي وغيرهما إلى أنهما قصتان ، فأنكـر النبي ﷺ قول اليهـودية في القصة الأولى ، ثم أُعلم النبـي ﷺ بذلك ولم يعلم عائشة ، فجـاءت اليهودية مرة أخرى ، أو اليهـوديتان ــ كما في بعض الـروايات ــ فذكـرت لها ذلك ، فكـذبتها عائشة رضي الله عنها بناء على الإنكار الأول ، ولم تكن علمت نزول الوحي بإثبات عذاب القبر ، فأعلمها النبيﷺ أن الوحي نزل بإثباته .. ومما يؤيد ذلك ما روى البخاري في « باب التعوذ من عـذاب القبر في الكسوف » من الجامع الصحيح من طريق عمرة عن عائشة « أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رسـول الله ﷺ « أيعذب الناس في قبورهم ؟ فقال رسـول الله ﷺ عائذاً بـالله مـن ذلك ثـم ركب رسـول الله ﷺ ذات غـداة مركبـاً فخسـفت الشـمس ـ فذكـر الحديث ـ وفي آخـره « ثم أمـرهـم أن يتـعـوذوا من

---

(١): « الجامع الصحيح ـ مع ـ فتح الباري » : (٣/ ٢٣٦) وانظر « جامع الأصول (١١/ ١٦٦) » « مسلم بشرح النووي » : (٥/ ٨٦) .

عذاب القبر » قال الحافظ : وأصرح منه ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد الأموي عن عائشة « أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع إليها عائشة شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر ، قالت : فقلت : يارسول الله هل للقبر عذاب ؟ قال : كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة ، ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار ، وهو ينادي بأعلى صوته : أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » وفي هذا كله ــ كما يقول صاحب الفتح ـ أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر ، إذ هو بالمدينة في آخر الأمر ، كما تقدم تاريخ صلاة الكسوف في موضعه ، مشيراً بذلك إلى أن صلاة الكسوف كانت في السنة العاشرة من الهجرة يوم توفي إبراهيم ولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا ، ومن حق هذه المسألة العظيمة ؛ مسألة عذاب القبر وسؤال الملكين والفتنة في القبور وما إلى ذلك ، أن نضيف إلى ما سبق تجلية لبعض الجوانب شيئاً مما جاء على ألسنة علمائنا الأعلام رحمهم الله تعالى .

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها « أن يهودية قالت : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور .. » الحديث. وفي الرواية الأخرى دخلت عجوزان من عجز يهود المدينة وذكرت أن النبي ﷺ صدقهما ـ قال : هذا محمول على أنهما قضيتان ؛ فجرت القضية الأولى ، ثم أعلم النبي ﷺ بذلك ، ثم جاءت العجوزان بعد ليال فكذبتهما عائشة رضي الله عنها، ولم تكن علمت نزول الوحي بإثبات عذاب القبر ، فدخل عليها النبي ﷺ ، فأخبرته بقول العجوزين ، فقال : صدقتا ، وأعلم عائشة رضي الله عنها بأنه كان قد نزل عليه الوحي بإثباته ، وقولها : « لم أُنعم أن أصدقهما » أي لم تطب نفسي، ومنه قولهم في التصديق : نعم ، وهو ـ أي قولها لم أنعم ـ بضم الهمزة وإسكان النون وكسر العين)[1].

---

(١) مسلم بشرح النووي : (٥/ ٨٥ـ ٨٦) .

وجاء في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (سئل رحمه الله هل يتكلم الميت في قبره أم لا ؟ فأجاب : يتكلم ، وقد يسمع أيضا من كلمه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنهم يسمعون قرع نعالهم » وثبت عنه في الصحيح « أن الميت يسأل في قبره : فيقال له : من ربك وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيثبت الله المؤمن بالقول الثابت ، فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي ، ويقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن : هو عبدالله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى ، فآمنا به واتبعناه » قال شيخ الإسلام : وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقد صح عن النبي ﷺ أنها نزلت في عذاب القبر ، وكذلك يتكلم المنافق فيقول : آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فيضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: لولا أن لاتدافنوا لسألت الله أن يسمعكم من عذاب القبر مثل الذي أسمع» وثبت عنه في الصحيح أنه نادى المشركين يوم بدر لما ألقاهم في القليب وقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » والآثار في هذا كثيرة منتشرة والله أعلم)(١).

وفي دفع لما قد يعرض من إشكال حول استنباط أن عذاب القبر حق من قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ مع أن الآيتين مكيتان وإنما أعلم رسول الله ﷺ بحكم عذاب القبر إذ هو في المدينة، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (وقد استشكل ذلك بأن الآية المتقدمة مكية وهي قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا ﴾ وكذلك الآية الأخرى المتقدمة وهي قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ...﴾ والجواب : أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الأولى بطريق المفهوم في حق من لم يتصف بالإيمان ، وكذلك المنطوق في الأخرى في حق آل فرعون ، وإن

---

(١) " مجموع فتاوى ابن تيمية " : (٢٤/ ٣٧٩) .

التحق بهم من كان له حكمهم من الكفار ؛ فالذي أنكره النبي ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين ، ثم أعلم ﷺ أن ذلك قد يقع على من يشاء الله منهم، فجزم به وحذر منه ، وبالغ في الاستعاذة منه ، تعليماً لأمته وإرشاداً ، فانتفى التعارض بحمد الله تعالى . وفيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة بخلاف المسألة ـ يعني المساءلة ـ ففيها اختلاف) [١] وقد فصل رحمه الله القول في ذلك في آخر الباب، ورجح أن المساءلة ـ كما تدل النصوص ـ واقعة أيضاً على الكفار ومن شاء الله من الموحدين ، مورداً قول ابن القيم رحمه الله : (وليس في الأحاديث ما ينفي المسألة عمن تقدم من الأمم ، وإنما أخبر النبي ﷺ أمته بكيفية امتحانهم في القبور ، لا أنه نفى ذلك عن غيرهم ، قال : والذى يظهر أن كل نبي مع أمته كذلك ، فتعذب كفارهم في قبورهم بعد سؤالهم وإقامة الحجة عليهم ، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة) .

ثم استنبط الحافظ من النصوص ، أن الميت يحيا في قبره للمساءلة، خلافاً لمن ردّه ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ... ﴾ الآية قال: فلو كان يحيا في قبره للزم أن يحيا ثلاث مرات ويموت ثلاثاً وهو خلاف النص . والجواب بأن المراد بالحياة في القبر ، ليس الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء ، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذى وردت به الأحاديث الصحيحة ، فهي إعادة عارضة، كما حيي خلق لكثير من الأنبياء ، لمسألتهم عن أشياء ثم عادوا موتى . قال : وفي حديث عائشة جواز التحديث عن أهل الكتاب بما وافق الحق[٢] .

هذا : والحديث الذي عناه الحافظ ، هو آخر حديث أورده الإمام البخاري تحت «باب ما جاء في عذاب القبر » وروى فيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره تولى عنه أصحابه ـ وإنه

---

(١) " فتح الباري " : (٣/ ٢٣٦) .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٤٠) .

ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ ، فأما المؤمن : فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فيقولان له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره ، ثم رجع إلى حديث أنس قال : «وأما المنافق والكافر : فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين» .

اللهم إن عذاب القبر حق ، وقد استعاذ منه نبيك محمد ﷺ كما أمر بالاستعاذة منه ، فأعذنا اللهم بمنك وكرمك منه ، وعافنا من لأوائه ، واجعله خير منزل لنا في عالم البرزخ ، كيما يكون روضة من رياض الجنة ، تؤذن بحسن العاقبة يوم يعرض الخلق على جبار السماوات والأرض لاتخفى منهم خافية ، إنك يا ربنا خير مسؤول ، وأعظم مأمول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الرسول الكريم... والنفخ في الصور

في ضوء ما سبق من النصوص ،وفهوم أئمة الهدى رحمهم الله، نعود إلى القول المستبين : ماذا عن العاقبة في يوم المعاد يوم القيامة ؟ وما هو المصير فيما يسبق ذلك من سؤال القبر ، أعاذنا الله من فتنته وعذابه ؟ الذي يتطلع إليه المؤمن ـ وكله خوف من عذاب الله ورجاء بفضله وغفرانه ـ هو ما يمكن أن يكون من تلك العاقبة وذلك المصير بعد الموت ـ ذلك بأن الحصاد فيما وراء الحياة الدنيا هو الذي عليه المعوّل ، أليست الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؟ اللهم نعم، فمن أوتي الحكمة ، واتسم عمله العقلي بالنظر إلى ما يكون بعد الموت في القبر، ويوم يحشر الناس حفاة عراة غرلاً كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام .. هو العاقل الذى يضع الأمور مواضعها ، ولا تلهيه العاجلة عن الآجلة ، بل يتخذ من الدنيا مطية إلى الآخرة ، ويضع نصب عينيه أنه يوم يقف الناس سواسية بين يدي رب العالمين، لا ينفعه إلا ما قدّم من العمل الصالح ، الذي قام على الإيمان ، وربا على النهج السويّ ، نهج عباد الله الصالحين الذين تراهم ومطمح أنظارهم أبداً أن يكونوا على الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، ومن تبع سبيلهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين ، والفضل أولاً وآخراً لله تبارك وتعالى والسعيد السعيد من يستقيم على طاعة الله فيتغمده الله برحمته ، فإذا به قد زحزح عن النار ، وأدخل الجنة وكان من الفائزين .

والطريق التي نومىء إليها ، هي التي أرسى معالمها الصادق المصدوق رسول الله ﷺ ؛ إذ كان ما بعد الموت نصب عينيه ، وذكر الآخرة هجيراه ، ونفخة الصور يوم القيامة لا تبارح فكره ، وهو الذي زانه الله بالعصمة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ قال رسول

الله ﷺ : « كيف أنعَم وصـاحب القرن قد التقم القرن ، وحنـى جبهته ، وأصغى السمـع متى يـؤمـر ؟ قال : فسمـع ذلك أصحـاب رسـول الله ﷺ ، فشقَّ ذلـك عليهـم، فقال رسول الله ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » رواه أحمد والطبراني وفي رواية لأبي جعفر الطبري عن ابن عباس : قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال: هو يوم ينفخ في الصور الذى ينفخ فيه ، قال ابن عباس : «إن نبي الله ﷺ خرج إلى أصحابه فقال : كيف أنعم ، وصاحب القـرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، ثم أقبل بـأذنه يستمع متى يـؤمر بالصيحـة ، فاشتد ذلـك على أصحابه فأمـرهـم أن يقولـوا : حسبنا الله ونعم الـوكيل على الله توكلنـا » . والحديث رواه أحمد والطبراني عـن زيد بـن أرقم رضي الله عنـه بلفظ «قـولوا : حسبنـا الله ونعم الـوكيل ». قـال الهيثمي : ورجاله وثقوا على ضعف فيهم .

والمراد بصاحب القـرن المذكور في كلام النبي عليه الصـلاة والسلام : الملك الموكَّل بنفخ الصور، وأنت ترى أن الصور ، والناقور ، والقرن ـ هنا ـ كلَّها ، بمعنى واحد.

هكـذا نجد النبـي عليه الصـلاة والسلام ، تـأخذ النفخـة في الصور ، ومـا يمكن أن يتبعها من أهوال يوم القيامة بمجـامع فكره ونفسه التقية العظيمة ، فلا يجد مكاناً في تلك النفس ، ولو باليسير مـن التنعُّم والفرح والترفه في هذه الدنيا ، قال ابن الأثير في النهايـة بعد أن أورد قوله ﷺ : « كيف أنعَمُ وصـاحب القرن قد التقمه» أي كيف أتنعّم من النّعْمة بالفتـح وهي المسرّة والفرح والترُّفّه . وقد مر بنا من قبلُ ، ما كـان منه صلوات الله وسلامه عليه مـن إعظام عذاب القبر والخشية على أمته منه ، وكيـف كان يستعيذ من ذلـك ويأمر المسلمين به ويعلمهـم كيف يستعيذون ... فإذا أضفنا الموقف الأول وأمثاله إلى الموقف من عذاب القبر ، وهو ﷺ المبلغ عن ربـه والمعلم والمربي .. بانت لنا بعض الملامـح التي يحملها الهدي النبـوي ، فيما يجب أن يكون عليـه المؤمن ، وهـو يمضي في هـذه الدار الفـانية مـا يكتـب له مـن العمـر فيهـا ، وعمادُ ذلك أن يُحسـن التـأسي بنبيـه عليه الصـلاة

والسلام، فيذكر ما يكون في القبر والبرزخ ، وفي عرصات القيامة ، ويتزود لذلك كله بالزاد النافع الذى يباعد بينه وبين الغفلة **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الألباب﴾**. وقد وقفتنا النصوص الصحيحة من السنة في صفحات خلت ، على أن سؤال الملكين حق ، وأن عذاب القبر حق . والذي يحسن توكيده شحذاً للعزائم هنا : أن عذاب القبر واقع بالنسبة لمستحقيه من أمة محمد ﷺ وإن تأخر إعلام النبي ﷺ به . ولكن هذه القضية ، على عمومها ، كانت مقررة على الأمم قبلنا ، كما دل على ذلك ما أوردنا من قبل : يؤكد هذا الذي نقول ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو ما روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ولم أُنعِم أن أصدِّقهما ، فخرجتا ودخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقلت له : يارسول الله إن عجوزين من عُجز يهود المدينة دخلتا عليَّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : صدقتا ، إنهم يعذَّبون عذاباً تسمعه البهائم ، قالت : فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر » معنى لم أُنعم أن أصدقهما : أي لم تطب نفسي أن أصدقهما.

وإذا كان الأمر كذلك ــ ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ـ فما أحرى المؤمن أن يكون على ذُكر من ذلك كله ، وأن يضع في حسبانه ـ كما سبق ـ ما يجب من الإعداد لما بعد الموت في البرزخ ويوم المعاد . ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمته أن هداها إلى الصراط المستقيم ؛ فما من خير إلا كشف عنه ورغّب فيه ، وما من شيء غير ذلك إلا بيّنه ورغّب عنه من أمثلة ذلك ما نرى من بيانه لبعض الأمور التي تكون سبباً في عذاب القبر والعياذ بالله فقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ، فقال : النبي ﷺ : يعذبان وما يعذبان في كبير ، قال: بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة » ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين ، فوضع على كل قبر منها كسْرة ، فقيل له : يارسول

الله لم فعلت هذا ؟ قال لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » . وفي رواية لمسلم «مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما : فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر : فكان لا يستتر من بوله قال : فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

لقد تجاوز الأول الطهارة المعنوية وصار يمشي بالنميمة ، وتجاوز الآخر الطهارة المادية فلم يستتر من بوله ، وكلا الأمرين ليس كبيراً في زعمهما أو ليس كبيراً تركه ، فحقَّ عليهما ما يستحقان من العذاب .

وصلى الله وسلم على رسول الله الذي حملته الرحمة على عمل ما من شأنه أن يخفف عنهما بفضل الله من العذاب ، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان ومن اهتدى بهديه فأصلح العمل ، وأعَدَّ العدة ليوم المعاد .

قالوا.. وهم في سياق الموت

ما أسلفنا مـن بعض النصوص التي بيّن فيهـا النبي ﷺ لأمته ما يكـون بعد الموت ، وأن الحال التي يكون عليها المرء يوم القيامـة ، مرتبطة تمام الارتباط بحاله في البرزخ ... ما أسلفنا من ذلـك وهو بيان لما جاء في الكتاب العزيـز ، كان حرّياً أن يرتفع بـأهل الصدق وفي مقدمتهم أصحـابه ﷺ ومن سلك سبيلهـم بإحسان إلى حيث المخافة من الله ، وتهُيّب العـاقبة والمصير بعد أن تقبض الروح ، ويصبح المرء في أول مرحلة من مراحل البرزخ ؛ حيث المقام إلى أن ينفخ في الصور ، وتقوم القيامـة ، ويقف النـاس لرب العـالمين . ولم يكن ذلـك بدعـاً في أهل الصـدق ، فرسـول الله ﷺ نفسه ـ كما أسلفت مـن قبل ـ لما نـزل قوله تعالى في سـورة المدثر : ﴿فإذا نقـر في الناقور فـذلك يومئـذ يوم عسير﴾ قال صلوات الله وسـلامه عليه: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ ؟ فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقـالوا : كيف نقول : قال : قولـوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وإذن : فحسن الأسوة برسول الله ﷺ بعد الذي بيَّن عن القبر وما فيه ، وعن أهوال يوم القيـامة ، أن يكون ما نشير إليـه في أصحاب النبي ﷺ ومن أكـرمه الله بالسير على نهجهم واتبـاع سبيلهم بإحسان . أخرج الإمام أحمد في «الـزهد » عن عبادة بن نسيّ قال : لما حضرت أبابكر رضي الله عنـه الوفاة قال لعائشة رضي الله عنهـا : « اغسلي ثوبيَّ هـذين وكفنينـي بهما ، فـإنما أبوك أحـد رجلين إما مكسـو أحسن الكُسْـوة أو مسلوب أسـوأ السلب » وعنـد ابن سعـد في رواية أخـرى عن عائشة رضي الله عُنها ، أنها استشهدت لما حُضر بأبيها بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبوبكر رضي الله عنه وأرضاه : لا تقولي هكذا يابنية ولكن قولي : ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ وقال: انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما ، لأن الحي أحوج للجديد من الميت، إنما هو للمهلة.

وأخرج ابن سعد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ، كان مما قاله لابنه : «.. فإذا قبضت فأغمضني ، واقصدوا في كفني ، فإنه إن يكن لي عند الله خير ، أبدلني خيراً منه ، وإن كنت غير ذلك ، سلبني فأسرع سلْبي ، واقصدوا في حفرتي ، فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ وسّع لي فيها مدَّ بصري ، وإن كنت على غير ذلك ضيّقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي ، ولا تخرجنّ معي امرأة ، ولا تزكوني بما ليس فيّ ، فإن الله هو أعلم بي ، وإذا خرجتم بي ، فأسرعوا في المشي ، فإنه إن يكن لي عند الله خير ،قدمتموني إلى ما هو خير لي ، وإن كنت غير ذلك ، كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه» . ومما ورد عنه رضي الله عنه بعد أن طُعن وجعل الأمر شورى وعرف أنه الموت ، قوله : «الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطّلع ، وقوله لابنه : ألصق خدي بالأرض يا عبدالله بن عمر ، يقول عبدالله رضي الله عنه : فوضعته من فخذي على ساقي فقال : ألصق خدي بالأرض ، فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض فقال : ويلك وويل أمك عمر إن لم يغفر الله لك ياعمر »، ثم قبض رضي الله عنه وأرضاه ، أخرجه الطبراني في حديث طويل عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وحسّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد ».

والحق أنا لو رحنا نستعرض ، ولو بعض ما ورد عن هؤلاء الرجال في خشيتهم من الله ، وفرَقهم من هول المطّلع ، وكيف كان إحساسهم بما جاء في الكتاب والسنة، مما يمكن أن يكون بعد الموت وعن مشاهد يوم القيامة ... لورحنا نستعرض بعض ذلك ، لطال بنا الحديث وطال ، ولكنها شذرات مباركات ، يبدو ـ والله أعلم ـ أننا نحن المسلمين بأمس الحاجة إليها اليوم ، بعد أن غزتنا الأفكار المنحرفة في عقر دارنا ، وبعد أن اهتزت بعض المقاييس الصحيحة عند كثير من المسلمين ، ولا تسل عن الاتجاهات المادية وسلطانها على الناس ، حتى كاد

البعض ينسى الموت ، وما يكون بعد الموت ، ولا يطيق أن يذكّر بيوم المعاد ، يوم يعرض الناس على رب العالمين ، فلا تخفى منهم خافية .

ولقد يكون من الخير ، أن نذكّر بأن أولئك البررة الذين هم ثمرة من ثمرات التربية الإيمانية التي أحكمتها يد محمد ﷺ الصّناع ، كان يكون بين يدي الموت ، في حال مراجعة كاملة للحساب ، ما صنع ، وماذا هو مقدم عليه . أخرج مسلم بسنده عن عبدالرحمن بن شِماسَة َالمْريّ قال : «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحوّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما أبشرك رسول الله ﷺ بكذا ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني كنت على أطباق ثلاث . لقد رأيتني وما أحد أشدَّ بغضاً لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون استمكنت منه فقتلته ، فلو متُّ على تلك الحال ، لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأ بايعك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يدي ، قال : مالك ياعمرو ؟ قال : قلت: أردت أن أشترط . قال : تشترط بماذا؟ قلت : أن يُغفر لي ، قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟» وما كان أحد أحبّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه ولو مُتُّ على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة . ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ،فإذا أنا مُتُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فشُنُّوا عليَّ التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويُقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي» [1] .

«في سياقة الموت» : أي حال حضور الموت . ومعنى : كنت على أطباق ثلاث أي على أحوال ثلاث ؛ قال الله جل شأنه : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ فلهذا أتت

---

(١) " صحيح مسلم " : (١/ ١١٢) .

«ثلاثاً» إرادة لمعنى أطباق ، « فشنوا عليَّ التراب» ضبطه العلماء كما يقول الإمام النووي بالسين المهملة «فَسُنُّوا» وبالمعجمة «فَشُنُّوا» ، وكذاقال القاضي عياض : إنه بالمعجمة وبالمهملة قال: وهو الصب، ويكون المعنى : (فصبوا) وقال القاضي عياض : وقيل بالمهملة : الصب في سهولة ، وبالمعجمة : التفريق . وروى الحديث أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات وغيرهما .

وبعد : فنعمّا يصنع المكلّف ، إذا هو ارتفع إلى مستوى التدبر الأخروي لهذه الوقائع ، وحاول الانتفاع بما يعطي هذا الحديث وأمثاله من أحكام لا غنى للمسلم عن التفاعل معها ، على صعيدي المعرفة والسلوك .وفي هذا الحديث ـ كما يقول الإمام النووي رحمه الله ـ عظم موقع الإسلام والهجرة والحج ، وأن كل واحد منها يهدم ما كان قبله من المعاصي ، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعلى صعيد ما ينبغي من حسن الظن بالله تعالى ، ورجاء فضله وإحسانه: في الحديث ، استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنه بمولاه الرحيم الرحمن سبحانه وتعالى ، وذكر آيات الرجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعده الله تعالى للمسلمين وذكر أحسن أعماله عنده ليحسن ظنه بالله تباركت أسماؤه ويموت على ذلك « أنا عند ظن عبدي بي » قال الإمام النووي رحمه الله : « وهذا الأدب مستحب بالاتفاق ، وموضع الدلالة من هذا الحديث قول ابن عمرو لأبيه : أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ».

وفيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه ، من توقير رسول الله ﷺ وإجلاله، حتى إن عمراً رضي الله عنه، ما كان يطيق أن يملأ عينيه منه إجلالاً له، ولو سئل أن يصفه ما أطاق، لأنه لم يكن يملأ عينيه منه .

ويلاحظ حرص عمرو رضي الله عنه على الابتعاد عن عادات الجاهلية ، وعما فيه إحداث شيء في الإسلام . فقوله : «لا تصحبني نائحة ولا نار » مردُّه إلى امتثال نهي النبي ﷺ عن ذلك . قال النووي : «وقد كره العلماء ذلك ، وأما النياحة:

فحرام ، وأما اتباع الميت بالنار : فمكروه للحديث ، ثم قيل : سبب الكراهة كونه من شعار الجاهلية ».

ويذكر هنا ما روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتبع الجنازة صوت ولا نار يمشي بين يديها » ومما استنبطه العلماء من قوله رضي الله عنه : « ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي » إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين وهو مذهب أهل الحق. ومن ذلك المكث عند القبر لحظة، نحو ما ذكر ، وأن الميت يسمع حينئذ من حول القبر .

اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين وأعذنا من فتنة القبر وعذاب القبر، وارض عن أصحاب نبيك أجمعين يارب العالمين .

التربية الإيمانية... وسياقة الموت

نعود ـ والعود أحمد ـ إلى ما كنا بسبيله في كلمات سبقت، من تلمّس الآثار التربوية والنفسية عند أولئك الذين حضروا متنزل الوحي، وتناول إعدادهم والارتفاع بهم إلى مستوى الخشية الصادقة من عذاب الله، محمد ﷺ بيده الأمينة الصّناع، فباتوا ـ وهم يديرون حركة الحياة ويعمرون الأرض ـ على ذكر للموت وما يكون بعد الموت، واستشعار عميق لتلكم الساعات الزاخرة بالهول يوم القيامة، اليوم الذي يصدر فيه الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾.

ومن الأهمية بمكان ـ أيضاً ـ تلمُّس الآثار نفسها، عند من تبعوهم بإحسان واتخذوا من سبيلهم في التأسي برسول الله ﷺ والتأثر العميق بهديه سبيلاً، وما أجمل أن يأخذ الهدي النبوي طريقه إلى القلوب والعقول، فتتحول الهداية في سلوك الناس، وجوداً ذاتياً، شاهداً بصدق ما ربّى الناس عليه، سيد الخلق وإمام المربين والمعلمين محمد عليه الصلاة والسلام.

والنماذج التي أوردتها فيما سبق، عن أبي بكر وعمر وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، تشير إلى عمق انفعالهم بذلك الهدي المحمدي، حيث بلغت مخافتهم ومحاسبتهم لأنفسهم وهم، في أحرج الساعات، ما بلغت، ورأينا واحداً منهم ذلك العبد الخاشع الذى يشعر بضعفه وذلته بين يدي أحكم الحاكمين، وهو مقبل على تلك اللحظة الحاسمة، حيث قبضُ الروح، وقد بلغت الحلقوم ولا حول ولا طول.

والحق أن لهذه التربية على مخافة يوم الحساب، وما قبله مما يكون في البرزخ، أثرها العظيم في السلوك، وإذا قلنا: السلوك، فمعنى ذلك أن هذا الأثر يتعدى

الفرد إلى الجماعة ، لأن مراقبة الله وخشية غضبه وعقابه ، كل أولئك يسهم في بناء الوازع الداخلي الذى يسهم إلى حد كبير في دفع الأذى عن الجماعة التي ضمنت سلامة لبناتها ، بل يسهم في الإصلاح وإقامة البناء الحضاري على الوجه المطلوب . وإذا كان هنالك من المخالفات ما لا تطوله يد السلطة ، فالوازع الداخلي الإيماني كفيل بأن يحول دون التجاوز ودون كل ما يؤذي ، سواء أكان ذلك على صعيد الفرد أم على صعيد الجماعة .

وهذا الذي نشير إليه ، ونحن نتلمس آثار الهدي النبوي في التربية على ذلك، يشدنا إلى رواية أخرى في شأن الذي كان من الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد حضرته الوفاة ، بعد أن وقفنا من قريب على رواية الإمام مسلم في صحيحه ، لعل في ذلك مزيداً من البيان . فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبدالرحمن بن شِماسَة حدثه قال : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، بكى ، فقال له ابنه عبدالله : لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت فقال : لا والله ، ولكن مما بعد الموت ، فقال له : قد كنت على خير ، فجعل يذكِّره صحبته رسول الله ﷺ وفتوحه الشام ، فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله : شهادة أن لا اله إلا الله . إني كنت على أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أول قريش كافراً ، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار ، فلما بايعت رسو ل الله ﷺ ، كنت أشد الناس حياءً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله ، حياءً ، فلو مت يومئذ ، قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه ، نرجو له الجنة. ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء ، فلا أدري عليَّ أم لي ؛ فإذا مت فلا تبكِيَنَّ عليَّ باكية، ولا يتبعني مادح ولا نار ، وشدوا عليَّ إزاري فإني مخاصم ، وشنوا عليَّ التراب شناً فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلُن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور أستأنس بكم » وقد رأينا عند مسلم بعض الزيادات ومنها قوله رضي الله عنه في آخر كلامه : « كي

أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع رسل ربي ».

وقال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهـاية» : وفي رواية أنه ـ رضي الله عنه ـ بعد هذا ، حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول : « اللهم أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فما انتهينا ، ولا يسعنا إلا عفوك» ، وفي رواية أنه وضع يده على موضع الغلّ من عنقه ورفـع رأسه إلى السماء وقـال: اللهـم لاقويٌّ فـأنتصر ، ولا بـريء فأعتـذر ، ولا مستنكر بل مستغفر ، لا إلـه إلا أنت » فلم يزل يرددها حتـى مات رضي الله عنه وهنالك روايـة لابن سعد عن عبـدالله بن عمرو رضي الله عنهما جاء في آخـرها : «ثم قال : اللهم إنك أمرتنا فركبنا ، ونهيتنا فأضعنا ، فلا بريء فأعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ، ما زال يقولها حتى مات رضي الله عنه» ..

وكما أسلفنا ــ من قبل ــ لقد عمل تكـوين أولئك البررة رجـالاً ونساءً على الإيمان بالغيـب والخوف من سـوء العاقبـة بعد الموت ويـوم الحساب ، عملـه في جعل الواحد منهم لبنة جدَّ صـالحة في أمة تقوم على عقيدة التوحيد، وتعبد الله في كل ساحة من ساحات الخير والنفع للإنسان ، الأمر الذى أعطاها القدرة على بناء حضارة مثلى ، لم تدع باباً من أبواب الحياة إلا طرقته على أكمل وجه . وننظر هنا ـ على سبيل المثال ـ إلى واحـد من الصحابة هو أبومـوسى الأشعري رضي الله عنه ، وما كـان من صـدقه وعلمه وبـلائه في الإسلام وتضحيته على سـاحة الـذود عن حياض الرسالة .

ولسوف نرى أن صفاء نفس أبي موسـى ، وما كان من خشيته لله وتطلعه إلى الأنس في القبر ، والنجاة يوم الدين ، كل أولئك أسهم إسهاماً كبيراً في قدرته على تجاوز الصعاب وأخـذ الحذر مما يلهي عـن ذكر الله واليـوم الآخر ، بل في تكـوين شخصيته القـادرة على العطاء المتكامـل بإذن الله. أخـرج أبو نعيم في الحليـة عن الضحاك بن عبـدالرحمن بن عرزب قـال «دعا أبو موسـى الأشعري رضي الله عنه فتيانه حين حضرته الوفاة فقال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا ، فجاؤوا فقالوا:

قد حفـرنا وأوسعنا وأعمقنا ، فقـال : والله إنها لإحدى المنزلتين ، إما ليـوسعنّ عليَّ قبري ، حتى تكـون كل زاويـة منه أربعين ذراعاً ، ثـم لينفتحن لي بـاب إلى الجنة فلأنظرن إلى أزواجي ومنازلي ، وما أعدَّ الله تعالى لي من الكرامة ، ثم لأكونن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي ، ثم ليصيبني مـن ريحها وروحها حتى أبعث . ولئن كانت الأخرى ـ ونعوذ بالله منها ـ ليضّيقن عليَّ قبري حتى يكون أضيق من القناة في الزُّج ، ثـم ليفتحن لي باب مـن أبواب جهنـم فلأنظرن إلى سـلاسلي وأغلالي وقـرنائي ، ثـم لأكونـن إلى مقعـدي من جهنـم أهـدى مني اليـوم إلى بيتي ، ثـم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أبعث» . قال أبو نعيم : رواه الجريري عن أبي العلاء عن بعض حفدة أبي موسى مثله .

رضي الله عن أبي موسي وهنيئاً له خشيته الصـادقة ،وما زان قلبه من الاستنارة بـالخوف والرجـاء ، وما بـدا عليه مـن تمثُّلٍ لهدي النبي المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، وصدق في اللجأ إلى الله في ساعة الشدة وهو مقبل عليه سبحانه .

اللهم ارزقنا حُسْـن التأسي بنبينا محمد ﷺ ، والانتفاع بسيرة أصحابـه الذين صدقوا في المواطن ، ولم يغيِّروا ولم يبـدلوا ، وكانوا على المحجة التي فـارقهم عليها سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه.

يسألون الجنة.. ويتعوذون من النار

لقد كان من هـدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أنه كـان في إخباره أمته عما يكون بعد الموت ، وفي يـوم المعاد ، يوم المحشر العظيم الـذى لا أعظم منه ، حريصـاً على أن يكون مـا يخبرهم بـه ، ويعلمهم إيـاه ، حافـزاً للعمل الصـالح بـأوسع معـانيه ومـد لولاتـه ، ثم محاسبـة النفـس ، وتطويعهـا ترغيبـاً وترهيبـاً ، واستعلاء على المعوقات ، وتعميقـاً للإيمان بالغيب حتى كأنـه من عالم الشهادة ، لتكون على الجادة في عـدم الاشتغال بالعاجلـة عن الآجلة ، وفي مراقبـة الله تعالى وإخلاص الديـن في كل ما يأخذ المسلـم وما يذر ، وبذلك يكـون ذلك الإنسانَ الحق الجديد بتكـرمة الله تبـارك وتعالى ،لأنه يسهـم في حركـة الحياة وفـق المنهج الرباني الذي جعل لكل شيء قدراً ، وكان من أبرز سماته ، قول الله تبارك وتعالى : **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سو ف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾** قال علماؤنا: **﴿ وأن سعيه سـوف يرى﴾** أي يوم القيـامة ، كقولـه تعالى : **﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾**.

وشواهد ما نومىء إليه من هدي النبي ﷺ في تطويع سلوك المؤمن ، بحيث يتساوق مع الـذي آمن به مما يكـون بعد الموت ، ووجوب التطلع إلى مـا يكون من العاقبـة يوم الديـن ... شواهد ذلك كثيرة وفيرة في أحـاديثه صلوات الله وسـلامه عليه القولية والفعلية . جاء في باب فضل ذكر الله عز وجل من كتاب الدعوات في الجامع الصحيـح للإمـام البخاري قولـه رحمه الله : حدثنا قتيبـة بن سعيـد قال : حدثنا جرير عـن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أنـه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكـة يطوفون في الطـرق يلتمسون أهل الذكـر، فإذا وجدوا قـوماً يذكـرون الله تعالى ، تنادوا هلموا إلى حـاجتكم ، قال : فيحفونهم بـأجنحتهم إلى

السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادي؟ قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك، قال: فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال: فيقول : كيف لو رأوني؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال: يقول : فما يسألوني ؟ قال: يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً ، وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبةً. قال : فممَّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار قال : يقول : فهل رأوها ؟: فيقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : كيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشدَّ لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » .

ولشدَّ ما يفرح المؤمن ،وتطيب نفسه لهذه البشارة العظيمة، لأولئك الذين يقطعون دروب الحياة ، ذاكرين الله تعالى قولاً وعملاً في كل شأن من شؤونهم، مصدقين بما جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية عن الجنة والنار ، حتى كأن كلاً منهما تحت ناظريهما ، وذلك ما كان يريد النبي ﷺ ، يوم كان يعلِّم أصحابه ويبين لهم ما يكون بعد الموت ويوم الحساب ، ويربيهم على الذي علمهم إياه ، كيما يكون انفعالهم صادقاً بالذي آمنوا به وصدقوا ، فينعكس ذلك على سلوكهم عقيدة وعلماً وعملاً وإدارةً لشؤون الحياة ذاكرين الله تعالى ، بعيدين عن الغفلة التي تنزل بالمرء إلى ما دون سوية الإنسان والعياذ بالله ... لأنها تنسي العبد خالقه ، وتجعله يحب العاجلة ويذر الآخرة . ولا تسل عما يترتب على ذلك من الطامَّات والضلالات .

وشتان شتان ، بين من يرتقي ويرتقي بعمله الصالح وتقواه، رغبة في الجنة ورهبة من النار حتى كأنهما أمام ناظريه ، وبين من يضرب الران على قلبه ، وينسى

ذكر الله واليوم الآخر وساعات الحساب ، فتراه وقد استحوذ عليه الشيطان وأصبح في زمرة الغافلين .

ولقد كـان تنبيه القـرآن مبكراً إلى ذلك ، ففـي سورة الأعـراف ـ وهـي سورة مكيـة ــ نقرأ قـول الله تعالى في الآيـة التاسعـة والسبعين بعد المائة : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً مـن الجن والإنس ، لهم قلـوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بهـا ، ولهم آذان لا يســمعون بها ، أولئك كـالأنعـام بـل هـم أضل أولئـك هـم الغافلون** ﴾ وكانت استجابة الصحابة عليهم الرضوان استجابة واعية لما وجّه إليه النبي ﷺ وهـو المؤتمن على بيان كتاب الله ؛ فكنـت ترى الخوف مـن يوم الحسرة ، والبكاء من خشية الله ، والحرص على أداء حقوق الله وحقوق العباد ، مخافة أن تزل القدم في يـوم تشخص فيه الأبصـار ، وترى الظالمين مهطعين مقنعـي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .

أخرج ابن أبي حـاتم بسنده عن عبدالله بـن الزبير رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **ثم إنكم يـوم القيامة عند ربكـم تختصمون** ﴾ قال الـزبير رضي الله عنه: «أتكـرر علينـا الخصـومـة ؟ قال ﷺ : نعـم ، قـال رضي الله عنـه : إن الأمـر إذن لشديد». أخرجـه الترمذي وقال : حديث حسن صحيـح ، وكذا رواه الإمام أحمد وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله : أي نعيم نسـأل عنه وإنما نعيمنا الأسودان : التمـر والماء؟ قال ﷺ :« أما إن ذلك سيكون » وروى الترمـذي من طريق سفيان بن عيينـة بسنده ، عن عبدالله بـن الزبير بـن العوام عـن أبيه قـال : لما نزلـت ﴿ **ثم لتسألن يـومئذ عن النعيم** ﴾ قال الزبير : «يارسول الله فأي النعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: أما إنه سيكون » قال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجة من طريق سفيان والترمذي أيضاً من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال النـاس : «يارسـول الله عن أي النعيـم نسأل ؟ فـإنما هما

الأسودان والعـدو حاضر وسيوفنا على عـواتقنا ، قال ﷺ إن ذلك سيكـون » قال أبوعيسى : وحديـث ابن عيينة عن محمد بن عمرو عندي أصـح من هذا ، سفيان ابن عيينة أحفظ وأصح حديثاً من أبي بكر بن عياش .

هذا : وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى رواية للإمام أحمد جاء فيها أنه لما نزلت : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون .ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير: «أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الـدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حـق حقُّه . قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد » .

صلى الله على معلـم الناس الخير ، ورضي الله عـن أصحابـه الـذين علمـوا ، وعملوا وتخلقوا بالهدي النبـوي في النظر إلى العاقبة يوم القيامـة ، وما على الأمة إلا أن تأتسي بهذا الذي كانوا عليه من الانتفاع بالهدي المحمدي القويم .

نزول عيسى بين يدي الساعة
وحكمه بشريعة الإسلام

لقد تـرك نبينا محمـد ﷺ الأمة حين تركهـا ـ وقد وافـاه الأجل المحتـوم ـ على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وكان من ذلك ـ والإيمان باليوم الآخر ، حق لاريب فيه من أهـم أركان الإيمان ، وكل أركان الإيمان مهم ـ أن بيّن لها ما يكون لـلإنسان في البرزخ ، بدءاً من سؤال الملكين في القبر ، ومـا يكون من أشراط الساعة وعلاماتها ، وما يكون يوم القيـامة بدءاً من النفخ في الصور، وحتى يقـضى بين العـباد ، فيذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، كل أولئك ليكون المؤمنون على بينـة من أمرهم ، فيتخذوا مـن الدنيا مزرعة لـلآخرة ، وتتضح لديهم الرؤيـة ، ويعرفوا دلالات الأحداث والـوقائع ، وما يكون مـن الأمور التي أخبر عنها ، أو أشار إليها عليه الصلاة والسلام .

ومن أشراط السـاعة ـ وهـي جمع شرط بفتح الراء ــ التي جاءت على ذكـرها الأحاديث الصحاح ـ نزول عيسى عليه السلام حاكماً عدلاً بشريعة الإسلام. روى البخاري بسنده عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيَّب سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والـذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابـن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزيـر ، ويضع الحرب ـ وفي رواية ويضع الجزية ـ ويفيض المال حتـى لايقبله أحد حتى تكون السجدة الـواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبوهريرة : واقرؤوا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويـوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ جاءت هذه الرواية عند البخاري في كتـاب الأنبياء من الجامـع الصحيح : « باب نـزول عيسى بن مـريم عليه السلام ». وأورد رواية أخرى تحت « باب قتل الخنـزير » من كتاب البيوع عن

أبي هريرة أيضاً فيها شيء من الاختصار مع عبارة « ويضع الجزية » بدل «ويضع الحرب». وقد انصبَّ كلام العلماء في شرح الحديث على عبارة «ويضع الجزية» في الأغلب . ونص هذه الرواية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» رواه مسلم .

وتحت هذا الباب روى البخاري أيضاً بسنده عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف بكم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » تابعه عُقيل والأوزاعي. وفي بعض الأحاديث زيادة على ما ذُكر ، وابتداءٌ بالقسم من النبي ﷺ ، تأكيداً لنزول عيسى عليه السلام ؛ فقد روى مسلم بسنده عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لينزلنّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنّ الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعنّ الجزية ، ولتُتركن القلاص فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليُدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد » وأورد القاضي عياض الرواية بلفظ « ولتُدعَوُنَّ » بالتاء .

القِلاص : جمع قَلوص وهي أول ما يركب من الإبل حتى تثني ، فإذا أثنت فهي ناقة ، وهي من الإبل كالفتاة من النساء والحدث من الرجال . وقال القاضي في كتابه « مشارق الأنوار » ولتتركنَّ القلاص فلا يُسعى عليها : (أي لا يخرج ساع لجمع الزكوات من الإبل وغيرها لقلة حاجة الناس للمال ، واستغنائهم عن ذلك ، كما جاء في آخر الحديث « وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ») أما الإمام النووي : فحكم ببطلان هذا القول ، واستظهر أن المعنى ، أن يُزهد فيها ، ولا يُرغب في اقتنائها لكثرة الأموال وقلة الآمال , وعدم الحاجة ، والعلم بقرب القيامة . وإنما ذكرت القلاص لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب ، وهو شبيه بقول الله عز وجل : ﴿ **وإذا العشار عُطِّلت** ﴾ قال رحمه الله : (ومعنى لا يسعى عليها : لا يعتنى بها أي يتساهل أهلها فيها ، ولا يعتنون بها .

هذا هو الظاهر . وقال القاضي عياض وصاحب المطالع رحمه الله : معنى « لا يُسعى عليها » أي لا تطلب زكاتها ، إذ لا يوجد من يعتليها . وهذا تأويل باطل من وجوه كثيرة تفهم من هذا الحديث وغيره ، بل الصواب ما قدمنا والله أعلم) .

وقد يرد تساؤل حول الحكمة من نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء ،وحكمه بشريعة الإسلام . وفي هذا يرى العلماء ـ كما أورد ذلك صاحب الفتح ـ أن الحكمة في نزول عيسى بن مريم دون غيره من الأنبياء : الردُّ على اليهود في أنهم قتلوه ، فبيَّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، أو أن نزوله ، لدنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيره . ولنا أن نقول : بأن في ذلك ـ والله أعلم ـ رداً على النصارى الذين ادعوا أنه عليه السلام إله أو ابن إله افتراء على الحقيقة وعليه هو نفسِه ، مع أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به ، أن اعبدوا الله .

يؤكد هذا ، أنه أيضاً يحكم بشريعة محمدﷺ ويكون من أتباعها . قال الحافظ : وقيل : إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته ، أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام ، فيوافق خروج الدجال فيقتله . والقول الأول هو الذى مال إليه صاحب الفتح فقال : والأول أوجه.

ولكن ماذا عن الإمامة يوم ينزل عيسى عليه السلام ؟

أسلفنا لفظ رواية البخاري « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » ونرى بجانب ذلك ما روى الإمام مسلم بسنده عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أنه سمع أباهريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وأمكم »؟ فهذه الرواية صريحة بأن عيسى عليه السلام هو الذى يؤم الناس بينها تقول التى قبلها « وإمامكم منكم » . ومما يعين على تَبَيُّن المراد : ما روى مسلم بسنده عن الوليد بن مسلم قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن ابن شهاب

عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكـم منكم ؛ فقلت لابن أبي ذئب ـ القائل الوليد بن مسلم ـ: إن الأوزاعي حـدثنا عن الزهري عن نافع عـن أبي هريرة « وإمامكم منكم» قـال ابن أبي ذئب : أتـدري ما « أمّكـم منكم ؟» قلـت : تخبرني ؟ قال : فـأمّكم بكتـاب ربكـم تبارك وتعـالى وسنة نبيكـم ﷺ » وعنـد الإمام أحمد مـن حديث جابر في قصـة الدجال ونزول عيسـى « وإذا هم بعيسى ، فيقـال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقـدم إمامكم ، فليصل بكـم » ولابن ماجة في حـديث أبي أمامة الطـويل في الدجال قـال : «جلُّهم أي المسلمين ببيت المقدس ، وإمـامهم رجل صالح فبينما إمـامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عيسـى بن مريم، فرجـع ذلك الإمـام ينكص ـ يمشـى القهقرى ـ ليتقـدم عيسى يصلي بـالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له :تقـدم فصل فإنها لك أقيمت». وقد نقل الحافظ ابـن حجر عـن أبي الهروي قوله : حـدثنا الجوز قـي عن بعـض المتقدمين قال: معنى قوله : « وإمامكم منكم » يعنى أنه يحكم بالقرآن ، لا بالإنجيل .

واستنبط ابـن التين من قـوله : « وإمـامكم منكـم » أن الشريعة المحمـدية متصلة إلى يوم القيـامة ، وأن في كل قرن طائفـة من أهل العلم . وجميـل ما أوضح صاحب الفتـح من أن الذي ذكر ابـن التين وما قبله ،لايبين كون عيسـى إذا نزل يكون إمـاماً أو مـأمومـاً ، وعلى تقدير أن يكـون عيسى إمـاماً ، فمعنـاه أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة . واتجه الطيبـي إلى أن المعنى : يؤمكم عيسى حال كونه في دينكم . ولكـن يعكر على هذا القول ـ كما يرى الحافظ ـ قـوله في حديث آخر عند مسلم فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمـة الله هذه الأمة ». ولنستمع إلى مـا حقق ابن الجوزي إذ قال : لـو تقدم عيسى إماماً لو قع في النفس إشكال ، ولقيل : أتراه تقدم نائباً أو مبتدئاً شر عاً؟ فصلى مأموماً لئلا يتدنس بغبار الشبهـة وجه قوله ﷺ « لانبي بعدي» وفي صلاة عيسى خلف رجـل من هذه الأمة ، مـع كونه في آخر الـزمان وقرب قيام السـاعة،

دلالة للصحيح من الأقوال ، أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة والله أعلم .

وفي خاتمة المطاف : ما من ريب في أن هذا الذي أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في شأن نزول عيسى عليه السلام ، وحكمه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك من أشراط الساعة وعلامات يوم القيامة ، مما يزيد المؤمن إيماناً مع إيمانه ، بأحقية ما هو عليه من اتباع الإسلام والعمل بأحكامه وأخلاقه وآدابه ، وينبه الغافلين السادرين الساهين عن دينهم القويم ، وعن تذكر ذلك اليوم وما يكون فيه، وما يجب له من الإعداد الصالح والتزوّد النافع لما أنه حق لا ريب فيه . والله الهادي إلى سواء السبيل ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وله الشكر على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة ، ونسأله التوفيق والثبات .

الارتباط الوثيق
بين الدارين.. العمل والجزاء

الناظر في كتاب الله تعالى، وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام، يرى حين يكون من أهل النظر وإشراق البصيرة، أن العمل في الدنيا وثيق الارتباط بالمسؤولية يوم القيامة، فالأمر ليس متروكاً على عواهنه، بل الله مطلع على ما يسر العبد وما يعلن، ولسوف يجد الناس ما عملوا حاضراً يوم القيامة، ولا يظلم ربك أحداً.

والمفروض بالمؤمن أن يكون على الجادة أولاً، في نظرة تكاملية إلى تلكم العلاقة بين العمل في هذه الدار العاجلة، وبين المسؤولية يوم الجزاء عما عمل: فليس هنالك انفصام ولا تجزئة. وأن يكون مرمى بصره وغاية مرامه مرضاةُ الله، كيما يحشر بفضل الله تعالى مع من تشملهم العناية، فيكونون من أهل جنات الفردوس، نُزُلِ الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وإذا كان الأمر كذلك: فليذكر المؤمن أن الجنة حفت بالمكاره، وأن النار حفت بالشهوات، ولابد من إعداد العدة للوصول إلى تلكم السلعة الغالية التي هي الجنة، وقد ثبت في الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ».

وفي نطاق التكامل الذى نومىء إليه بين العمل في الدنيا ــ والسلوك بوجه عام ـ وبين المسؤولية يوم القيامة ومدى الارتباط بينهما، تمكن الإشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام، كثيراً ما كان يوجه أصحابه إلى الفضائل التي كانت فضائل بمعايير الإسلام، ويحذرهم من السلوك المجافي لمعاني الخير، والأخلاق التي تنبو عن مقتضيات الإيمان.. يوجههم من طريق التذكير بما يكون يوم

القيامة، من حصاد لنتائج هذا الخلق أو ذاك يشهده الخلق في واحد من المشاهد ؛ فتراه ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ وهو يتخذ من هذه الحقيقة الكائنة في ذلك اليوم ، أداة مباركة لتعميق المراد في نفوس الناس ــ مستعيناً بذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة الذى يعرضه ــ وهو لا ينطق عن الهوى ـ بشفافيته الرفيعة، وأسلوبه الفريد المؤثر ، حتى كأنك ترى المشهد ماثلاً أمامك ، وحتى تُحَسَّ كأنك في روضة من رياض الجنة ، في حال الرضا عن العاملين وما يكون لهم من حسن الجزاء . وأما في الحالة الأخرى ـ والمشهد مرعب مخيف ـ فإنك تحسُّ كأن النار تلفحك بلهبها وتقول : هل من مزيد ؟

خذ مثلاً تحذيره ﷺ من الرياء والسمعة في القول والعمل ـ وذلك يتضمن الدعوة إلى التحقق بالتوحيد ، وإخلاص الوجهة لله عز وجل ـ كيف كشف عليه الصلاة والسلام عن ثلاثة أصناف من الخلق ، هم أوّل من تسعّر بهم النار يوم القيامة ، مع أن ظاهر الأمر في الدنيا : جمع للقرآن ، وجهاد في سبيل الله ، وبذل للمال ابتغاء وجه الله .. ولكن وراء الأكمة ما وراءها والله ، عليم بذات الصدور ؛ إذ لم يكن الإخلاص لله وطلبُ مرضاته وراء العمل ، بل الذى كان الرياءُ والسمعة ، والرغبة في الدنيا وحطامها ، وحب المباهاة ، وأن يقال : فلان كذا وفلان كيت . والله تعالى يقول : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك .

أخرج الترمذي عن أبي عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شُفياً الأصبحيَّ حدثه «أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا ؟ فقالوا : أبوهريرة ، قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا ، قلت له : أنشدك بحق ، وبحق ، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ! فقال أبوهريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبوهريرة نشغة ، فمكث قليلاً ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما

معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبوهريرة نشغة أخرى ، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ، ثم نشغ أبوهريرة نشغة شديدة ، ثم مال خاراً على وجهه فأسندته عليَّ طويلاً ، ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلٌّ أمة جاثية ؛ فأول من يدعو به ، رجل جمع القرآن ، ورجل يقاتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارىء: ألم أُعلِّمْك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول : كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يقال إن فلاناً قارىء ، فقد قيل ذاك . ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله: بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك . ويؤتي بالذى قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : ياأباهريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق تسعّر بهم النار يوم القيامة ».

نشغ: شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً أو خوفاً : قال ابن الأثير في النهاية : النشغ في الأصل الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي ، وإنما يفعل الإنسان تشوقاً إلى شيء فائت وأسفاً عليه ومنه.

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من الكشف عن الدلالة العميقة لهذا الحديث، وما يوحي به ، وينبه عليه من التكامل بين العمل في الدنيا ومدى الإخلاص فيه ، وبين المسؤولية يوم القيامة ، والعلاقة الوثيقة بينهما ، الأمر الذى ينبغي للمؤمن أن يذكره أبداً ولا ينساه ؛ فمن مقتضيات الإيمان بأن يوم القيامة

كائن لاريب فيه ، وأن التصديق به أشبه ما يكون بالتصديق بطلوع الشمس وتوالي الليل والنهار .. من مقتضيات ذلك : الإيمان بما يترتب على هذا : من أن ذلك اليوم ، يومُ الجزاء بما كان الإنسان يعمل في دار العمل ، له ماكسب وعليه ما اكتسب.

هذا : والحديث الذي نحن بصدده ، والذي دلّنا على ما يكون من كشف للحقيقة التي تكون وراء العمل بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، فيه ما يشير إلى مدى الانفعال بما فيه عند سامعيه من أهل الإيمان ، ذلكم ما نجد من قول الوليد أبي عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفياً ـ يعني راوي الحديث عن أبي هريرة ــ دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيّافاً لمعاوية ، فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً ،حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجل بشرٍ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واكتبنا في زمرة الذين إذا ذُكّروا ذكروا ، ولم يلههم متاع الدنيا وزخرفها عن قدر المسؤولية يوم القيامة حق قدرها ،وأن ذلك حق لا ريب فيه .

مكتوب بين عينيه: كافر

في ظلال الرحلـة مع ما يسبق يوم القيـامة من أشراط الساعـة ، وما يكون في ذلـك اليـوم من الحشر العظيـم والأهـوال ، حيـث الحصـاد لما كان في الـدنيـا ، والسؤال عما كسب العباد في تلـك الحياة الفانية ... إذ ترى كل إنسـان قد ألزمه الله طائره في عنقه ، ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾.. في هذه الرحلة المباركة ، أجدني مسوقاً مرة أخرى إلى التذكير بما منّ الله به على الخلق ببعثة محمد ﷺ إلى الإنس والجن ، وما أكرم به أمتنا من أنه ﷺ لم ينتقل إلى الرفيـق الأعلى ، حتى استوفى أكمل استيفاء ما اؤتمن عليه مـن بيان الكتـاب العزيـز ، ودلالة المسلمين على كـل ما فيـه الخير العميم وسعادة الدارين ، وترغيبهم فيه ، والكشف عما فيه الشر في الدنيا ، وسوء المنقلب يوم الحساب ، والترغيـب عنه . وكان من ذلـك ما بيّن عليه الصلاة والسـلام من أشراط الساعة التـي تكون بين يدي يوم القيـامة ، كيما يكون المؤمن على بينـة من أمره، يُجانب الغفلة ما استطاع ، ويدرك المراد من الأمر الجلل حين يقع ، ويتبيّن مرمى الذى حـدث من مؤشرات ونذر ، تذكر بيوم الديـن ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، وتراه ـ وهو يرجو الله واليوم الآخر ـ لا يمر بالوقائع، أو تمر به ، وهـو كواحد مـن النظارة أمام روايـة معروضـة يبتغي من وراء المتـابعة لمشاهدها قضاء الوقت ، ولكن ذكرى ، وتذكُّر ، وسلوك جاد لطريق أهل الخشية الـذين لا يلهيهـم الأمل ، ولا يخوضـون مـع الخائضين ، بل يتقـون الله في السر والعلن ، ويخافون أشد الخوف يوم الحساب .

وقدأشرتُ من قبـل إلى نزول عيسى عليه السلام ، وحكمـه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك واحد من أشراط الساعة ، وأشير اليوم إلى شرط آخر هو ظهور الدجال، لما أن ذلك من أبـرز تلكم الأشراط والعلامات .ومن الأمانـة أن يذكر المرء نفسه

وإخوانه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، عني بالكشف عن صفات الدجال الذي يمتحن فيه المسلمون بما يظهر على يديه ـ بإرادة الله من الأمور الخارقة بحسب الظاهر ، وحرص النبي ﷺ على تنبيه الأمة وتحذيرها مما سيكون ، كيما يُعدَّ المسلم العدة ، فيكون على قدر من الإيمان والمعرفة والوعي ، يباعد بينه وبين الوقوع في شرك الدجالين ، وبخاصة ذلك الدجال ، إن أدركه . وأنت واجد أن المؤمن الحق ـ كما جاء في السنة ـ لا تزيده مظاهر التمويه ، وما يجرى على يد الدجال ، إلا كفراً به ، ومزيداً من البصيرة بحقيقته واستمساكاً بالحق الذى جاء به خاتم النبيين ، وأن الدجال كافر بدعوى النبوة ، كافر كفراً أشد وأعتى بدعوى الإلهية والعياذ بالله ، وأنه أهون على الله من ذلك ، وقد جاءت أخبار الدجال في الصحيحين والسنن وغيرها من دواوين السنة .

قال الإمام البخاري: حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: **قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذره قومَه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور »** .

وهذا الذي نرى من تقرير النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ،و الذي نرى من بيان صفة واضحة من صفاته الخِلقية ، نجد معه في رواية أخرى ، ذكراً لبعض المظاهر التي قد توقع ضعاف الإيمان والوعي في أحابيله ، فقد روى البخاري بسنده عن شعبة عن عبدالملك عن ربعي عن حذيفة عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً وناراً فناره ماء بارد ، وماؤه نار » قال ابن مسعود : أنا سمعته من رسول الله ﷺ .

ومن لطف الله تعالى : أنه مكتوب بين عيني الدجال : « كافر » يقرؤها المسلم الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، فكان له من الله نور يهديه سواء

الصراط، يقرؤها كاتباً كان أو غير كاتب . ذلكم ما روى البخاري وغيره ـ وهذا لفظ البخاري ـ عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : مابعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب : «كافر » قال البخاري : فيه أبوهريرة وابن عباس عن النبي ﷺ .

وهكذا يكون على المؤمن ـ وهو يحرص على سلامة العاقبة ، وأن يلقى ربه آمناً يوم القيامة ، لا يخاف بأساً ولا رهقاً ، ولا يحمل أوزار التصديق بالدجال ، إن لقيه ... على المؤمن وهو يحرص على ذلك كله أن يتسلّح بكل ما من شأنه أن يزيده إيماناً على إيمان ، ويقيناً على يقين ، ويمكنه ــ بعون الله ـ من أن يكون فوق الترهات والأباطيل ، وما يعتصم به الدجال من كذب وتمويه .

وحين يكون المؤمن على هذه السوية ، لا يضيره بإذن الله تمويه ذلك الكافر الخبيث ، فهو أهون على الله من كل تلك المظاهر التي تصحبه ، والأمور التي تجري على يديه ، ويمتحن بها إيمان أهل الإيمان وسلامة تصديقهم به ؛ فالمؤمنون يزدادون برؤيتها كفراً به ويقيناً بما هم عليه من الحق . أما الذين في قلوبهم مرض : فهم الذين يرتابون ، وتنطلي عليهم الأكاذيب والضلالات ، جاء في أول حديث أثبته الإمام البخاري في «باب ذكر الدجال» من كتاب الفتن في الجامع الصحيح قوله : حدثنا مسدَّد قال : حدثنا يحيى قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني قيس قال : قال لي المغيرة بن شعبة : « ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته ، وإنه قال لي : ما يضرك منه؟ قلت : لأنهم يقولون : إن معه جبل خبز ، ونهر ماء ، قال : بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم : « قلت : إنهم يقولون : معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء ، قال : هو أهون على الله من ذلك » .

اللهم قوّ إيماننا ، وثبتنا على الحق ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن فتنة المسيح الدجال ، إنك على كل شيء قدير .

من أدرك الدجال...
فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف

هذه خطوة أخرى ، على طريق نستجلي من خلالها قبساً من نصح النبي ﷺ لأمته ، في شأن شرط من أشراط الساعة ، وعلامة من علامات يوم القيامة ، وأعني به خروج المسيح الدجال أعاذنا الله من شره ومكره ، وقد رأينا فيما سبق بعضاً من نصوص الحديث التي جاءت على طرف من أخباره ، ونتابع اليوم ما كنا بدأناه إن شاء الله ؛ روى الإمام مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافئة » . وفي رواية طافية .

هكذا رويت الكلمة بالهمز وتركه ، وكلاهما ـ كما يقول العلماء ـ صحيح. فالمهموزة «طافئة » هي التي ذهب نورها وغير المهموزة «طافية» التي نتأت وطفت مرتفعة وفيها ضوء .

وأنت ترى في هذا الحديث، حرص النبي ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ على البيان القاطع لأمته عن ذلك الرجل ، خشية على المسلمين من الوقوع في أحابيله وأضاليله . وها نحن أولاء نجد في بعض الروايات ، مزيداً من بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، للحقيقة التي تكمن وراء المظاهر المصاحبة للدجال ،وتوجيهاً لمن يبتلى بأن يشهد خروجه ، قال الإمام مسلم : حدثنا علي بن حُجرْ قال : حدثنا شعيب بن صفوان عن عبدالملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن عقبة بن عمرو أبي مسعود الأنصاري قال : انطلقت معه ، إلى حذيفة بن اليمان ، فقال له عقبة : حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال قال : « إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً ،فأما الذي يراه الناس ماءً : فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس

ناراً : فماءٌ بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم ، فليقـع في الذي يراه ناراً ، فإنه ماء عذب طيب » فقال عقبة : وأنا قد سمعته ، تصديقاً لحذيفة . وله من رواية أخرى عن ربعي بن خراش أيضا قال : اجتمع حذيفة وأبومسعود ، فقال حذيفة : «لأنا بما مع الدجال أعلـم منه ؛ إن معه نهراً من ماء ونهراً من نار ، فأمـا الذي ترون أنه نـار : ماء ، وأمـا الذى تـرون أنه مـاء : نـار ، فمن أدرك ذلـك منكم ، فـأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار فإنه سيجـده ماء ». قال أبومسعود : هكذا سمعت النبي ﷺ يقول . وهو كذلك عند أبي داود .

ومن الجدير بالـذكر ، أنه لم يكن في حديث النبي عليـه الصلاة والسلام ، ما يشعر بالحقبة الزمنية التي يخرج فيها الدجـال ؛ قرباً أو بعداً ، إلا ما كان من بيان أن خروجه من علامات الساعة ؛ فإن هنالك بعض الروايات التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام :« إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » وهذا يعطي احتمال أن يكون خروج الدجال في زمنه صلوات الله وسلامه عليه . وحجيجه أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه ،والحجة : الدليل والبرهان ، هذه واحدة : أما الثانية : فإن في تلكم الروايـات علاجاً ناجحاً قـدّمه النبي ﷺ في مواجهة تلكـم الفتنة النكراء ، ذلكم هو قـراءة فواتح سورة الكهـف على ذلك الكافر الخبيـث ، وغير خاف أن هذه القراءة لآيـات من كتاب الله ، ما بدٌّ من أن يصحبهـا الإيمان القوي ، وصدق التوجه إلى الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض .

أخرج مسلم ـ في رواية طويلة مباركة تحمل مزيداً من التفصيل ـ بسنده عن عبدالرحمن بن جُبير بـنُ نُفير عن أبيه جبير بن نفير عن النّواس بـن سمعان قال : «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة . فخفّض فيه ورفّع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رُحنا إليـه ، عرف ذلك فينا ، فقـال : ما شأنكم ؟ قلنـا : يارسول الله ذكرت الدجال غـداة فخفّضت فيه ورفّعت حتى ظنناه في طـائفة النخل ، فقال: غير الـدجال أخـوفني عليكـم ، إن يخرج وأنـا فيكم . فـأنا حجيجـه ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شـاب قطط ـ

أي شديـد جعودة الشعـر مباعد للجعـودة المحبوبـة ـ عينه طـافئة كـأني أشبهه بعبدالعـزّى بن قطـن ، فمن أدركـه منكم فليقرأ عليـه فواتـح سورة الكهـف إنه خارج خلَّـةً بين الشام والعراق ، فعاث يمينـاً ، وعاث شمالاً ، ياعباد الله فـاثبتوا، قلنا : يارسـول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعـون يوماً ، يوم كسنـة ، ، ويوم كشهر ، ويـوم كجمعة ، وسائر أيامـه كأيامكم . قلنـا : يارسول الله فذلـك اليوم الـذي كسنة أتكفينـا فيه صـلاة يوم ؟ قـال : لا اقـدروا له قـدره . وجاء في آخـر الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بعـد بيان ما يكون من الخير ، بعد أن يقتل الـدجال على يد عيسـى عليه السلام «.. ويبارك في الـرِّسل ـ يعنـي اللبن ـ حتى أن اللّقحة مـن الإبل لتكفي الفئام مـن الناس ، واللقحة من البقـر لتكفي القبيلـة من النـاس ، واللقحة مـن الغنم لتكفـي الفخذ مـن ا لناس ، فبينما هـم كذلك ، إذ بعث الله ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكـل مسلـم ، ويبقى شرار النـاس يتهـارجـون فيهـا تهارج الحمُر فعليهـم تقـوم الساعة» .

وقد أخـرج أبوداود هـذا الحديث مختصراً عـن النواس بـن سمعان أيضـاً ، فروى بسنده عنه قال : « ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، فإنها جواركم من فتنته ... إلى أن يقول : ثم ينزل عيسى بن مـريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لُدٍ فيقتله».

جواركم من فتنته : أمانكم .

يقف للدجال..

أعظم شهادة عند رب العالمين

أسلفنا القول بأن النبي عليه الصلاة والسلام ، رحمةً بأمته وحرصاً على سلامة العاقبة للمؤمنين ، أعطى أهمية واضحة للكشف عن سمات المسيح الدجال الذى يكون ظهوره واحداً من أشراط الساعة بين يدي يوم القيامة، ذلك أن يوم القيامة هو يوم الجزاء ، وبمقدار ما يحفظ المؤمنُ من الفتن ما ظهر منها وما بطن ومنها فتنة المسيح الدجال ، يكون ذلك أدعى لأن يكون من الذين يؤتون الكتاب باليمين ، ويعدُّون في زمرة من نالوا حظهم من الكرامة التي أنبأ عنها قوله جل شأنه في سورة الانشقاق : ﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً**﴾ وأين هؤلاء ممن قال الله فيهم : ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً . ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور بلى**﴾ .

ولا يخفى أن رسولنا ﷺ ــ وهو الرحمة المهداة ـ إنما يريد ـ والله أعلم ـ ببيانه التفصيلي الواضح عن هذا الخبيث المسيح الدجال ، إنما يريد للمؤمنين والمؤمنات على اختلاف الأعصار ، أن يزدادوا علماً بذلك ، ويستعدوا له بالعمل الصالح ، ويتسلحوا باليقظة التي يولدها الإيمان والمعرفة ، وأن يكون لذلك مكانه المناسب على ساحة التربية الإيمانية والتعليم ؛ فهنالك يكون درء الفتنة بإذن الله وهنالك يظهر للعيان أن صنيع هذا الرجل لا يعدو أن يكون لوناً مموّهاً من ألوان التدجيل والكذب ، ولذلك سمي الدّجال ،وأصبحت هذه التسمية علماً عليه في الشرائع.

فالدجال: من الدّجل وهو التغطية والتمويه ، قال علماؤنا: وسمي الكذاب دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله، وقال ابن دريد : سمي دجالاً لأنه يغطي الحق

بكذبه ، من أجل هذا نرى في العديد من كتب اللغة : أن كلمة الدجال أصبحت مصطلحاً عليه، فترى هناك : قولهم الدجال : المسيح الكذاب: وقيل : سمي دجالاً لأنه يقطع الأرض ويسير في أكثر نواحيها ، وعلى أية حال : فهو يقطع الكثير من نواحي الأرض مموِّها كذاباً ، يحاول أن يغطي الحق بباطله الذي جاء به، ولكن ذلك لا ينطلي على أهل اليقين والحمدلله . وإنما سمي مسيحاً ـ كما يقول ابن الأثير ـ لأن إحدى عينيه ممسوحة لا يبصر بها .. وأما تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح : فقيل : لمسح زكريا عليه السلام إياه ، وقيل : لأنه يمسح الأرض أي يقطعها ، وقيل : لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ . ولا بأس أن يكون لهذه الأمور مجتمعة دخل في هذه التسمية .

والذي جرى بيانه ، من حرص النبي ﷺ على تجنيب الأمة فتنة هذا الكافر الضليل وأذاه ، أثمر نصوصاً وفيرة في هذا الموضوع نجدها في الصحيحين وغيرهما ، وكان ذلك حجة واضحة دامغة في أنه سوف يوجد لا محالة ، وأنه شخص محدّد السمات بعينه ، ابتلى الله به العباد بما يظهر على يديه من الأمور التي يضعف أمامها أهل الغفلة ،عافانا الله من ذلك ، أما المؤمن اليقظ الذى أكرمه الله بالتسلُّح باليقين والتقوى : فيثبت الثبات كله ، فلا يتزعزع، ولا يخالط قلبه أدنى شك في كذب الدجال ، وضلال مدَّعاه ، مهما ظهر على يديه من الأمور التي يُقدره الله عليها ابتلاءً للعباد.. وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة أن أبا سعيد الخُدري قال : حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال ، فكان فيما حدثنا قال : يأتي وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خير الناس ، فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، أتشكّون في الأمر ؟ فيقولون: لا ، فيقتله، ثم يحييه ، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني الآن ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلطُ عليه».

وهنالك رواية أخرى لمسلم أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه، تحمل نوعاً من التفضيل، في صنيع ذلك الرجل الذى يقوم للدجال ، ويصبر على أذاه ، وقد بلغ حدّ القتل مستعيناً بالله عز وجل ، ثم بصدق ما ورد عن النبي ﷺ من تلكم الأحاديث التي لم تدع ريبة لمستريب في أنه المسيح الكذاب ، فتراه ـ أعني الرجل ـ يقول للناس : «يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ».

ولقد جاء في الرواية المومى إليها عند مسلم عن أبي سعيد قوله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ :« يخرج الدجال ، فيتوجه قِبله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالح مسالح الدّجَّال ، فيقولون له : أين تعمد؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذى خرج ، قال : فيقولون له: أوماتؤمن بربنا ؟ فيقول: ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ، قال: فينطلقون إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ ، قال : فيأمر الدجال فيشبّح ، فيقول : خذوه وشجّوه ، فيوسعُ ظهره وبطنه ضرباً ، قال : فيقول : أو ما تؤمن بي ؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال: فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليه ، قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم، فيستوي قائماً ، قال : ثم يقول له ، أتؤمن بي ، فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة ، قال : ثم يقول يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس ، قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلاً ، قال : فيأخذ بيديه ورجليه ، فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقي في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين » .

اللهم اجعلنا من عبادك الذى يثبتون على الحق، ولا تزعزعهم الفتن ، واعصمنا من الدجاجلة أجمعين . وارزقنا الشهادة في سبيلك ياذا الجلال والإكرام، وصلى الله على إمام المرسلين ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، والله ولي التوفيق .

غير الدجال.. أخوف لي عليكم

عنوان التوفيق ــ بلا ريب ـ أن يتلقى المسلم والمسلمة مـا جاء عن رسول الله ﷺ بوعي دقيق ، ويتقبله بتسليم عميق، يخالطه ما يذوق المؤمن من حلاوة الإيمان بأن محمـد بن عبدالله صلـوات الله وسلامه عليه خـاتم المرسلين المبلغ عـن ربه ، وأخبر عنه ربـه، بأنـه لا ينطق عـن الهوى ؛ إن هو إلا وحـي يوحـى . وإذا توافـر للمسلم ذلـك ، فلا تسل عما يكـرمه الله من القـدرة على تبين الأمور والتوقـي من الفتن مهما ادلهمـت الخطوب ، وتبهـرجت تلـك الفتن ؛ ذلـك ما رأينـاه في ذلك الرجل الذي لا ينخدع بما يظهر على يد الدجال ، والذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه خير الناس أو من خير الناس في مواجهة ذلك الضال الخبيث ، من عدم الافتتان بتمويهه وكذبه ، وبالثبات على الحق الذى جاء به الكتاب العزيز ، وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين .

كان واضحاً ، أن ذلك الـرجل على ذُكر مما جاء في شأن ذلـك الكذاب، وما يتصف بـه على لسان الصـادق المصدوق الـذى لا ينطق عـن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، الأمر الذى يدل على ضرورة المعرفة والتصديق بما جاء عن الرسول الله ﷺ في أمر الفتن وأشراط السـاعة ، وما يكون بين يدي يوم القيامة ،ووعي ذلك ببصيرة إيمانية نافذة كيما يكون في مقدور المؤمن بتوفيق الله تعالى ، أن يثبت للفتن، ويواجه تحديات الفتانين ، تلك الفتن والتحديـات التي من أبرزها يومذاك : فتنة المسيح الـدجال وتحديـه لعباد الله . والـذي رأينا عنـد الإمام مسلـم ، رواه الإمام البخاري على صـورة أقل تفصيلاً ، وان كانـت الروايات جميعهـا ، تشرق بصنيع ذلك الرجل المؤمن وموقفه من المسيح الدجال ، تذكيراً للناس بكذبه ، وبما جاء عن الرسول الله ﷺ ، ومجاهرته بالحقيقة الإيمانية في ذلك ، وصبره على شديد انتقام الدجال منـه حين قتله ثم أحياه ، وإعلانه على رؤوس الأشهـاد ، أن ما حصل لم

يزده إلا بصيرة به أخزاه الله . جاء في الجامع الصحيح تحت باب لا يدخل الدجال المدينة من كتاب فضائل المدينة ، ما روى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة ، أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال ، فكان فيما حدثنا به أن قال: « يأتي الدجال ـ وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ـ بعض السِّباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ـ أو من خير الناس ـ فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت هذا ثم أحييتهُ هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحييه : والله ما كنت قط أشد مني بصيرة مني اليوم ، فيقول الدجال: أقتله، فلا يسلطُ عليه » وجاء في رواية أخرى أوردها في كتاب الفتن من الجامع الصحيح « ... والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلّطُ عليه » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تلكم الوقفة الإيمانية الواعية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ حجة على هذه الأمة في وجوب الإعداد المتكامل للمسلم والمسلمة ـ كما أسلفنا من قبل ـ لأن ما فعله ذلك الرجل الذي كان يومئذ خير الناس أو من خير الناس ، دل على سلامة البنية عنده في القلب والعقل والسلوك. ولقد يتساءل البعض عما يجري على يد المسيح الدجال من إحياءُ الميت، وهو من هو في ضلاله وكفره الذي وصل به إلى ادعاء الربوبية والعياذ بالله ؛ وإحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء وقد كان من جواب الإمام الخطابي رحمه الله «أن الذى يحصل من الدجال هو على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعاه ، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر ، يقرؤه كل مسلم ؛ فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدرة ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان ». وفي الدجال مع ذلك، كما يقول الحافظ ابن حجر ، دلالة بينة ـ لمن عقل ـ على كذبه ، لأنه ذو أجزاء

مؤلفة، وتأثير الصنعة ظاهر فيه مع ظهور الآفة به ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يامن يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك واعدلها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك . هذا ، وقد مر بنامن قبل قول النبي ﷺ « هو أهون على الله من ذلك » .

وجميل ما قال المهلب فيما روى عنه الحافظ : «ليس في اقتدار الدجال على إحياء المقتول المذكور ، ما يخالف ما تقدم من قوله ﷺ : وهو أهون على الله من ذلك، أي من أن يمكّن من المعجزات تمكيناً صحيحاً ، فان اقتداره على قتل الرجل ثم إحيائه لم يستمر له فيه ، ولا في غيره ، ولا استضرّ به المقتول إلا ساعة تألمه بالقتل ، مع حصول ثواب ذلك ، وقد لا يكون وجد للقتل ألماً لقدرة الله تعالى على دفع ذلك عنه» . أما القاضي ابن العربي صاحب «أحكام القرآن » و «عارضة الأحوذي» فقد عرَّج على ما يظهر على يد الدجال من الآيات الأخر ، وكشف عما يراه من الحكمة في ذلك ، مبيّناً أن الذين يسقطون في الفتنة، هم أهل الريبة مزعزعو الإيمان، وأنه لا خوف على أهل اليقين . ذلكم قوله رحمه الله : « الذي يظهر على يد الدجال من الآيات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ! كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : «لافتنة أعظم من فتنة الدجال » وكان يستعيذ منها في صلاته تشريعاً لأمته ، وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر عند مسلم : « غير الدجال أخوف لي عليكم »فإنما قال ذلك للصحابة لأن الذي خافه عليهم أقرب إليهم من الدجال، فالقريب المتيقن وقوعه لمن يخاف عليه ، يشتد الخوف منه على البعيد المظنون وقوعه به ولو كان أشد » .

اللهم احفظنا من كل ما يجر إلى سوء العاقبة يوم القيامة ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن واحفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين .

بادروا بالأعمال الصالحة فتناً..

كلما ازداد المؤمن معرفة وتصديقاً بالوقائع التي تنذر بيوم الوعيد، يوم القيامة، ازداد تحسباً واستعداداً لذلك اليوم الذى يركب الناس فيه ـ من شدة الهول ـ طبقاً عن طبق : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾.

وبمقدار ما يكون التصور لتلك الأهوال، وما يتوقع العباد من مخاطر وهم قائمون لرب العالمين ... يكون حذر المؤمن من التقصير في جنب الله ، وأن يحشر في عداد الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وكلما ازداد القلب استنارة بالإيمان وذكر يوم الحساب ، كان الحرص أوفر على العمل الصالح والإفادة من الوقت ، وما كتب للإنسان من العمر في هذه الحياة الدنيا ، التي هي دار ممر لا دار مقر ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيما أخرج البخاري وغيره من رواية ابن عباس رضي الله عنهما : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . وفي نصوص الحديث النبوي ما يدل أوضح الدلالة، على مدى اهتمام المصطفى عليه الصلاة والسلام ببيان علامات الساعة، وما يكون من الأمور العظام بين يدي يوم القيامة ، وذلك ليقف المؤمنين على الصراط السوي في مواجهة تلك النذر ، ويسلك بهم سبيل نجاتهم ، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

ولقد رأينا من قريب تفصيلاً في عدد من نصوص السنة في شأن شرطين من أشراط الساعة هما : ظهور المسيح الدجال أخزاه الله ، ونزول المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة السلام وحكمه بشريعة الإسلام وقتله الدجال . والناظر في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، يجد بجانب ذلك وفرة في تلكم النصوص

التي تحدثت عـن علامات الساعـة بإجمال كما في الحديث الذي رواه حـذيفة بن أسيد الغفاري قال : « اطّلع النبي ﷺ علينا ونحـن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجـال والدابة وطلـوع الشمس من مغربها ، ونـزول عيسى بن مـريم صلى الله عليـه وسلم ، ويـأجوج ومـأجوج ، وثـلاثـة خسوف ، خسـف با لمشرق وخسـف با لمغرب ، وخسف بجـزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج مـن ا ليمن تطرد الناس إلى محشرهم . وفي رواية تخرج من قعرة عدن ».

أخرجه مسلم وأبوداود والترمـذي ، وكـم ذا تجد في الهدي النبوي من نصوص تأتي على ذكر علامات متفرقة بين يدي الساعة ، وهي نصوص يفترض أن تزيد في عمل العـامل لما بعد الموت ، وتوقـظ الغافل ، وتـرد الجانح إلى الطريق التـي هي أقوم بعيداً عـن الغفلة والضياع ونسيان الله واليوم ا لموعـود . روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيـع أقوام دينهم بعرض من الـدنيا » قال أبوعيسـى : وفي الباب عن أبي هريرة وجندب والنعمان بن بشير وأبي موسى، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد أورد رحمه الله كلاماً للحسن البصري في تفسير الكفر الذي يصبح عليه الرجل أو يمسي فقد روى بسنـده عن جعفر بن سليمان عـن هشام عن الحسن أنـه كان يقـول في هذا الحديـث: « يصبح الـرجل مـؤمنـاً ويمسي كافـراً ، ويمسي مؤمنـاً ويصبـح كافـراً » قال : يصبـح الـرجل محرِّمـاً دم أخيـه وعرضـه ومالـه، ويمسي مستحلاً له ، ويمسي محرِّماً لدم أخيه وعرضه وماله ، ويصبح مستحلاً له.

ومهما يكن من أمر : فإن الذي يرمـي إليه إمام الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ والله أعلم ـ إثارة الحافز الإيماني الذي تكون تقوى الله ، في السر والعلن استجابة له ، كيما يبادر المؤمن تلك الفتـن بالعمل الصالح ، ويسارع إلى تحصين نفسه من لأوائها ، بـالبعد عن موجبات الغفلة ، والإعراض عـن ذكر الله وعن يوم

الوعيد﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ وذلك ما نجده في بعض روايات الحديث المومى إليه، التي نقع فيها على توجيه النبي ﷺ إلى تلك المبادرة ، وأن يأخذ المؤمن حذره فيعتصم بالكتاب والسنة ، ويملأ وقته بالاعمال الصالحة قبل أن تضطرم نار الفتن، ويشغله ذلك عما به نجاته في الدنيا ويوم الدين . قال الإمام مسلم: حدثني يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر جميعاً عن إسماعيل بن جعفر ، قال ابن أيوب : حدثنا إسماعيل قال : أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » ورواه الترمذي بلفظ « ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » دون شك من الراوي وقال: هذا حديث حسن صحيح . وقد أوجز الإمام النووي بيان معنى الحديث فقال : «معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة » قبل تعذرها والاشتغال عنها، بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة ، المتراكمة تراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر ، ووصف صلى الله عليه وسلم نوعاً من شدائد تلك الفتن ، وهو أنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً أو عكسه ، شك الراوي ، وهذا لعظم الفتن ، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم» .

وهكذا يدعو رسول الله ﷺ المسلمين إلى التعجل بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة لأن الفتنة ـ والعياذ بالله ـ تحول دون المسلم ، ودون العمل المرضيِّ لله ، أو كمالِه على الوجه الذى ينبغي .

والأدهى من ذلك : أنها قد توقع البعض في شرك الصدود عن العمل ، وقسوة القلب ؛ فالمبادرة مطلوبة لإدراك الشيء قبل فواته بالنسبة للعمل ، أو للدفع قبل الوقوع بالنسبة للمعوقات والفتن ، وما يكون صداً مبطناً بعض الأحيان عن سبيل الله من قبل الفتّانين ، أولئك الذين يقفون ـ ظاهرين أو مقنّعين ـ دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها .

ويبدو أن حرصه ﷺ ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ على أن يسلك كل من المسلم والمسلمة طريق النجاة في يوم القيامة ـ وهي طريق قوامها الإيمان والوعي ـ من القضايا الكبار ، التي كانت تؤرقه وتحظى ببالغ اهتمامه صلوات الله وسلامه عليه ؛ أخرج البخاري بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ؟ وماذا فتح من الخزائن ؟ أيقظوا صويحبات الحجر !! فرب كاسية في الدنيا عاريةٍ ـ أو عاريةٌ ـ في الآخرة » .

وأخرجه مالك في الموطأ كما أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح».

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين ورحمة العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

لتتقين الله أو ليعذبنك

لعل مـن التواصي بالحق ، معـاودة التذكير المرة تلـو المرة، بأن الرسـول عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى، إلا وقد أدى أمانة التبليغ والبيان،خير ما يكون الأداء ، ومن ذلك هديـه صلى الله عليه وسلم فيما ينبغي أن يفعله المؤمن ليكون بفضل الله تعالى مـن أهل النجاة يوم القيامة . وقد أشرت مـن قريب إلى ما أخبر بـه ﷺ تنبيهاً وتحذيـراً للأمـة، من أن بين يـدي السـاعة فتنـاً كقطع الليـل المظلم، وأن على المسلمين أن يبـادروا هذه الفتـن بالأعمال الصـالحة ، فيتعجلوا العمل المرضيَّ لله تعالى قبل فوات الأوان .

وما أعظمـه هديـاً ، أن يكشف صلوات الله وسـلامه عليـه عن وقـوع الفتن، ويوجّه إلى المعتصم مـن شرها وأذاها ، كيما يكون المؤمن في منجاة ، تسلـك به يوم القيامة طريق الفائزين الذين يصدق فيهم قول الله جل شأنه : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ والحديث الذى أشير إليه هو ما روى مسلم والترمذي ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « بادروا بـالأعمال فتناً كقطـع الليل المظلـم ، يصبح الـرجل مؤمناً ويمسي كـافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كـافراً يبيع دينه بعرض مـن الدنيا » إنها لفتن مـرعبة حقـاً . ومن خـاف على نفسه الفتـن صادقـاً ، بادرهـا بالأعمال الصالحة والقربات النافعة عملاً بهدي النبي عليه الصلاة والسلام .

ومع هـذا المنهج المبارك من هـدي النبوة ، تطالعنـا قبسات من حديثـه عليه الصلاة والسلام ، تكشف عن مدى حرصه على أن يكون المؤمنون ـ أبداً ـ على ذكر من يوم الحسـاب ، ووعي لما يعنيه إيمانهم باليـوم الآخر ، وأن أوضح أثر مـن آثار التذكـر ، أن يفروا إلى الله وينيبوا إليه مخلصين ، وأن يتـزودوا بصالح العمـل لتلك

الرحلة التي موعدها هناك ، حيث المسؤولية والجزاء : «وقفوهم إنهم مسؤولون»
روى الترمذي بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ،جاء الموت بما فيه . قال : قلت : يارسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال : ما شئت ، قلت : الربُع؟ قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك ، قلت: النصف؟ قال : ما شئت، وإن زدت فهو خير لك ، قلت : الثلثين ؟ قال : ما شئت ،وإن زدت خير لك . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذاً تكفى همَّك، ويغفر لك ذنبك قال أبوعيسى: هذا حديث حسن . وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، وأخرجه أحمد والحاكم في « المستدرك وصححه ووافقه الذهبي في «التلخيص » .

ولقد ترك عليه الصلاة والسلام الأمة على المحجة البيضاء ، ولم يدع أن يُدخل إلى قلوب الناس وعقولهم ـ بسمو موعظته ، وفائق بيانه وبليغ قوله وما يصحب ذلك من ندى الرحمة والشفقة ـ ما يجعل يوم القيامة ، ووقوف الناس لرب العالمين، وما يسبق ذلك وما يلحقه ... ما يجعل ذلك كله كأنه مرئيٌّ رأي العين، وكان ذلك من كمال نصحه ﷺ للأمة ، وأداء حق الله في توجيهها وجهة الخير، وما به تحسن العاقبة يوم اللقاء ، وتتحقق بإذن الله سعادة الدارين . عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً إلا قدَّمه، ثم ينظر أشأم منه فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه، ثم ينظر تلقاء وجهه، فتستقبله النار . قال رسول الله ﷺ: من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وأنت ترى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عمد ـ وهو سيد البلغاء ـ إلى أسلوب غاية في الوضوح ، فكشف بالسهل الممتنع من الكلام ، عن هذا المشهد الذي يبعث في قلب المؤمن الكثير من الخشية والترقب ، فما من أحد إلا

سيكلمه ربه يوم القيامة ، وليس بينه وبينه ترجمان ، ثم بيّن ﷺ مكانة العمل الصالح في الدنيا ، وعظم المسؤولية يوم القيامة . وأن السبيل إلى الوقاية من النار ـ بفضل الله تعالى ـ أن يقدِّم العبد ـ بعد الفرائض ـ ما هو قادر عليه من العمل الخالص لله عز وجلّ ، فإن ذلك نافعه هنالك مهما قلَّ إن شاء الله « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » فما دام هذا القليل القليل المقدور عليه مع الإخلاص ، يقي الوجه حر النار ، فلأن يكون ذلك بما هو أكثر منه للقادر عليه ، أولى وأحرى .

هذا : وقد كان لهذا الهدي النبوي على ساحة التزود ليوم القيامة ، وما ينبغي للمؤمن من مراقبة الله ، والإحساس بأنه مسؤول في ذلك اليوم عما قدّم ... كان لهذا الهدي المبارك ، أثره البالغ في حياة الصحابة وسلوكهم الفريد المتميز، عليهم الرحمة والرضوان ، وأجزل مثوبتهم في الآخرين ؛ وهو أثر طيب مبارك ، تطالعنا نماذج منه في كل عصر . أما انحساره عن مجتمع ما في العالم الإسلامي : فهو بلاء كبير على الفرد والجماعة ، والواجب على القادرين في ميادين التربية والتعليم والإعلام ، توسيع دائرته في حياة الأمة ، كيما ينعكس على مناهجها في العمل والبناء والسلوك .

روى الإمام مالك في الموطأ بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب، وخرجت معه ، حتى إذا دخل حائطاً ، فسمعته وهو يقول ، وبيني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط : «عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين !! بخ بخ والله ياابن الخطاب لتتقينّ الله ، أو ليعذبنّك » وليس بخافٍ أن الفهم العميق لهذه الكلمات من عمر رضي الله عنه ، إنما يكون باصطحابها إلى سيرة الخليفة الثاني ، وما كان من خشيته لله وإخلاصه العميق وتواضعه الجم، مع عدله في الرعية وحزمه، وما أملى على التاريخ ،على صعيد التعامل مع مولاه سبحانه ، ومع نفسه وأهله ، ومع الآخرين في السلم والحرب وفي الرضا والغضب «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك » .

لقد كان ذلك مـن الفاروق ـ وهو يحمل مسؤولية الحكم ـ ، صورة للتفاعل الحقيقي والتأثر الصادق بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حين اتجه بالفرد والجماعة وجهة استشعار المسؤولية أمام علام الغيـوب يوم الدين ، كائناً من كان ذلك الفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة.

وقد آتى ذلك أُكُلَه في حياة الفرد والمجتمـع ، حيث كان الإحساس بالعلاقة الوثيقة بين ما يقدِّم المرء هنا ، وبين ما يجد هناك ، يتنامى في حسِّ الإنسان المسلم، وينعكـس ذلك صـدقَ مراقبـة لله ، وصلاحـاً في العمل والإنجـاز ، وارتفاعـاً إلى مستوى التطلّع إلى النجاة يوم الدين ، لا وقوفاً عند رغبات موقوتة في دار الفناء .

يوم يجعل الولدان شيباً..

النفخ في الصور

كان رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق ، المؤتمن على بيان الكتاب العزيز حفياً بأن يؤدي أمانة البيان ، وينصح للأمة في تبليغ ما أوحي إليه.وما من ريب في أنه عليه الصلاة والسلام قد أدى تلك الأمانة خير ما يكون الأداء ، ولم يخلّف وراءه شيئاً اؤتمن على بيانه إلا بينه، دق ذلك الشيء أو جل . وربما كانت حفاوته ببيان الأمور الغيبية ، أكثر وأشد، مع ما أوتي من البلاغة التي تتقطع دونها أعناق البلغاء ، لأن الناس في الأمور الغيبية ، يبدون أحوج إلى مزيد من البيان والتقرير والتأكيد ، وهذا أسلوب حكيم رفيع يتلمَّس حاجة النفس الإنسانية ، ويفيها حقها فيما يدخل القناعة والتصديق إلى العقل والقلب ، حتى كأن عالم الغيب عند المؤمن عالم شهادة ، وحتى لو كشف الغطاء ـ كما قال على بن أبي طالب ـ لم يزدد هذا المؤمن يقيناً ، لأنه موقن من طريق الخبر الصادق في كتاب الله ، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذى نقول ، ينتظم ـ فيما ينتظم ـ أخبار يوم الحشر يوم القيامة ، وما يسبقه من أمارات الساعة ،ومن نفخ الصور ، ثم ما يتبع ذلك من الأمور العظام . وفي حديث طويل رواه مسلم نقع في آخره على شيء من خبر النفخ في الصور ، وما يسبقه من تلك الريح الباردة التي تهب فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من خير ، إلا وتقبضه ؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبدالله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث به تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله ـ أو لا إله إلا الله ، أو كلمة

نحوهما ـ لقد هممت أن لا أحدث أحـداً شيئاً أبداً ، إنما قلت لكم: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يحرّق البيت ويكون ، ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتـي فيمكث أربعين ،لا أدري، وفي رواية قال ابـن عمرو : لا أدري أربعين يومـاً أو أربعين شهراً أو أربعين عاما ،َ فيبعـث الله عيسى بن مـريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه ، فيهلكـه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ،ليس بين اثنين عداوة ، ثـم يرسل الله ريحاً باردة مـن قبل الشام ، فلا يبقـى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل ، لدخلتـه عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها مـن رسول الله ﷺ ، قال : ويبقى شرار الناس في خفـة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معـروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثـل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبون ، فيقـولون : فماذا تأمـرنا ؟ فيأمرهـم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلـك دارٌّ رزقهم ، حسن عيشهم . ثـم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحـد إلا أصغى لِيتاً ورفع لِيتاً ، قال : وأول مـن يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قـال : فيُصعق ويصعق الناس ، ثم يرسـل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ ، فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يـا أيها الناس هلُمّ إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسـؤولون ، قال : ثم يقال : أخـرجوا بعث النار ، فيقـال : من كم ؟ فيقال : مـن كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذاك يوم ﴿ يجعل الولدان شيبـاً ﴾، وذلك ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ .

في كبـد جبل : أي وسطـه وداخله ، كبـد كل شيء وسطـه . ونجد في معنـى «أصغى ليتاً ورفع ليتاً » صورة مفزعة لـلإنسان عند ما يسمع نفخ الصور ، إذ تراه يميـل صفحة عنقـه من هنـا ويرفـع الأخـرى من هنـا ، فالليـت صفحة العنـق، وأصغى: أمال ، فهو من شدة الهول يتحرك حـركات تبدو كأنها غير إرادية ،حتى كأن كل صفحة من صحفتي عنقه منفصلة عن الأخرى ، فهو يميل ليتاً ـ صفحة عنق ، ويرفع ليتاً صفحة عنق أخرى ، ونسأل الله السلامة والحفظ .

يلوط حوض إبله : يطيّنه ويصلحه ، وأورد أبـو عبدالله الحاكم النيسابوري في «المستدرك » تحت كتاب « الأهوال» قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل : ﴿ويوم ينفخ في الصـور ففزع من في السماوات ومـن في الأرض إلا من شاء الله وكـلٌ أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبُها جامـدة وهي تمر مر السحاب صُنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ وقوله جل شأنه في سورة الزمر: ﴿ ونفخ في الصور فصعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ثم أورد حديثاً يدل على كمال الاستعداد عند الملك الموكل بالنفخ وهو إسرافيل ، وكيـف أنه ينظر نحو العرش ، تحسُّبـاً من أن يؤمر بـالنفخ قبل أن يرتـدَّ إليه طرفـه ، صورةً من صـور الطاعة المطلقـة عند الملائكة عليهـم السلام، وكيف أنهم لا يعصون الله ما أمـرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ فهـو يخشى أن يتخلَّف أقل زمن متصور ،عـن طاعة أمر الله بالنفخ في الصـور . روى رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن طرْف صاحـب الصور مذ وكّل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتدَّ إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريّان » قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وقد تناول رسول الله ﷺ معنى الصـور بالبيان ، فذكـر أنه قرن ينفـخ فيه ، نجد ذلك فيما روى عبـدالله بن عمـرو بن العـاص رضي الله عنهما قـال : « جاء أعـرابي إلى النبـيﷺ فقال : مـا الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه » أخرجه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه أحمد والدارمي وابن حبان والحاكم وغيرهم .

وفي بيان لما جاء في الكتاب العزيز ، من النص على النفختين ، نقع في بعض النصـوص مـن حديـث الـرسـول عليه الصـلاة والسـلام . على أن بين النفختين أربعين؛ كالذي نجد عند البخاري ومسلم ومالك في الموطأ ، وأبي داود والنسائي؛ ففي كتاب التفسير من الجامع الصحيح عقد البخاري باباً جعل عنوانه آية الزمر السالفة فقال : « باب ﴿ ونفخ في الصور فصعِـق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخـرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ » ثم روى بسنده عن

الأعمش قال : سمعت أباصالح قال : سمعت أباهريرة عن النبي ﷺ قال : «ما بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيْت ، قالوا : سنة؟ قال : أبيْت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيْتُ ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق » .

وأهم ما في الموضوع : أن يفتح المؤمن قلبه وعقله لهذه الحقائق الغيبية ، كيما يُعدَّ العدّة ليوم يجعل الولدان شيباً. ولا يجد ـ وقد أزفت الآزفة ـ إلا ما قدّم من عمل والله المستعان .

وإلى صفحات قادمات ــ إن شاء الله ــ نستلهم فيها روايات أخر في هذا الباب ، ما تحمل من البشارة والنذارة ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الملطوف بهم في ذلك اليوم العصيب ، ولاحول ولا قوة إلا بالله .

النفخ في الصور.. والهدي النبوي

في ظلال ما يدعو المؤمنَ إلى مزيد من التعرف، إلى ما يكون قبل يوم القيامة، من النفخ في الصور، وكم هي المدة بين النفختين، أعيد إلى الأذهان ما روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري ـ أن «ما بين النفختين أربعون» وعندما سئل أبوهريرة، هل هي أربعون يوماً أو أربعون سنة أو أربعون شهراً كان يقول في كل مرة «أبَيْت»، أي امتنعت؛ لقد امتنع رضي الله عنه أن يجزم أن المراد كذا وكذا وأن يعيِّنه، لأن القضية توقيفية، وليس عنده فيها توقيف.

وفي رواية مسلم زيادة تعطي شيئاً من التفصيل؛ فقد روى بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أباهريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

وأنت واجد في هذه الرواية عند مسلم، أن التدرج في السؤال كان من اليوم إلى الشهر إلى السنة، بينما كان هذا التدرج على غير هذه الصورة، في رواية البخاري التي أوردناها من قبل، والتي أتى بها رحمه الله، عند تفسير قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ونفخ في الصور فصعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ فقد بدأ السؤال باليوم، ثم انتقل إلى السنة، وبعدها إلى الشهر. على أن هناك رواية أخرى للبخاري تبدو متطابقة مع رواية مسلم التي رأينا آنفاً: فعند تفسير قوله تعالى في سورة عم

يتساءلون : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ من كتاب التفسير في الجامع الصحيح روى بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون . قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيتُ ، قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قال: ثم ينزل الله من السماء ماءً ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُركّبُ الخلق يوم القيامة ».

هذا : ومما تجدر الإشارة إليه ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير «الناقور» الوارد في القرآن الكريم ، بأنه الصور ، ذكر ذلك شيخ المفسرين الطبري. وقال الحافظ ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد : الناقور : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن . وفي كتاب «الرقاق» من الجامع الصحيح جاء قول البخاري تحت «باب نفخ الصور ».

قال مجاهد: الصور كهيئة البوق . زجرة : صيحة ، وقال ابن عباس : الناقور : الصور والراجفة : النفخة الأولى ، والرادفة : النفخة الثانية . وقد ذكر الحافظ في «الفتح» أن تفسير زجرة بـ «صيحة» هو من تفسير مجاهد أيضاً . قال رحمه الله: وصله الفِريابي من طريق أبي نُجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم قيام ينظرون ﴾ قال : صيحة . وفي قوله تعالى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : صيحة . قلت ـ الكلام للحافظ ـ : وهي عبارة عن نفخ الصور النفخة الثانية ، كما عبر بها عن النفخة الأولى في قوله تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمون ﴾ .

وقد رأينا فيما سبق من النصوص ، ما ذكر النبيﷺ عن إعادة الخلق بعد النفخ في الصور ، وذلك قوله : «ثم ينزل من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل..» الحديث ، وقرّب ﷺ هذا الأمر العظيم ببلاغته الفذّة وأسلوبه الفريد في كلام

البشر ، لبعض الصحابة حين سأله عن ذلك ؛ وهو ما روى أبو رزين العُقَيْليّ رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله كيف يُعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال :« أما مررت بوادي قومك جدباً ، ثم مررت به يهتزُّ خضِراً؟ قلت: نعم، قال : فتلك آية الله في خلقه ، كذلك يحيي الله الموتى » أخرجه رزين ، كما قال ابن الأثير في « جامع الأصول » .

ولقد يعنينا ـ والأمر غاية في الأهمية ، والتناصح في الله قائم إن شاء الله ـ لقد يعنينا والأمر كذلك ، استذكار أن الذى لا يسع مؤمناً جهله أو تجاهله ، أن هذا الذي كشف عنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من أمور يوم الفصل وما يسبقه من النذر ، ونبّه عليه بالقول البليغ الذى يلامس شغاف القلب، ويدخل أعماق النفس ، وذلك بياناً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه الأمور، وامتثالاً لما أمره الله تعالى به من الموعظة والقول في النفس قولاً بليغاً ، يأخذ طريقه إلى التفاعل والتأثير .. أن هذا اللون من الهدي النبوي ... أمانة في أعناق المكلفين، لما أنه معرفة يجب أن يتلوها التزود ليوم القيامة بخير زاد ، وسلوك السبيل التي تباعد عن اللهو والغفلة ونسيان يوم المعاد ، وتأخذ بالمؤمن إلى كل ما يذكر بالآخرة والنفخ في الصور النفخة الأولى والنفخة الثانية ... وبالحشر والمساءلة يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ فليس الأمر أمر ثقافة وكفى ، ولكنه أمر مسؤولية وتذكير، وهداية ترتبط أيّما ارتباط بالعاقبة والمصير . وما أجدر العاقل أن يفكر في المعاد، ويكون على ذكر من هدي خير العباد .

ولقد دلت نصوص الحديث النبوي ، على أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو خير المعلمين وسيد المربين ـ لم يكن في هديه معلماً فحسب، ولكنه كان نعم المربي بالقدوة وعظمة السلوك ؛ أقول هذا في كلام موصول بما جاء عنه ﷺ من بيان للنفخ في الصور ، فقد كان واضحاً ، أنه نبَّه الأمة على ما سيكون ، ودلّها على

ما يجب من العمل الصالح ، والإعداد لتلك الساعات المهولة ، لأن الأمر شديد شديد . وفي الوقت نفسه كان هو ـ فداه أبي وأمي ـ في خاصية نفسه ، شديد الخشية، لا يغفل عما سيكون ، ولا ينعم في الحياة الدنيا ، لما أن الملك الموكّل بالنفخ في الصور ينتظر بترقب شديد ، أن يؤمر فينفخ .

وهذا منه ﷺ ـ وهو صاحب الشفاعة العظمى والرحمة المهداة ـ مدعاة لكثير من العظة والتدبر .

وإني مذكّر بما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحابه ، فقالوا : فكيف نفعل يارسول الله ، أو نقول ؟ قال : قولوا :حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ، وربما قال : توكلنا على الله » أخرجه الترمذي .

رزقنا الله ـ بمنّه وفضله ـ الانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وحسن التأسي به ، وجعل ذلك زلفاناً إلى حسن العاقبة في يوم قال العزيز الجبار فيه : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ .

بيان النبي ﷺ الذى يُطالعنا به الحديث النبوي الشريف ، وما تحمل نصوص الحديث من بصائر ... كل أولئك ، ليس ذلك المصدر الثّر المبارك للمعرفة وكفى ، ولكنه يحمل ـ مع المعرفة ـ منهجاً بالغ الدقة والتأثير في التربية والسلوك ؛ وتلكم هي الهداية التي أكرم الله بني الإنسان بها ، على مر العصور ؛ فترى الهدي النبوي يعلِّم ويوجه ويربي ؛ ينمي في النفس فضائلها ، ويقوِّم ما يكون من معوج ، ويأخذ بيد المسلم والمسلمة إلى حيث القدرة على العطاء ، والإسهام ببناء المجتمع الأمثل ، ناهيك عما يبعث ذلك من طمأنينة في النفس ، وقدرة على المثابرة في ساعات العمل والجهاد ؛ الأمر الذى ينتهي بالمؤمن ـ إن أخلص الدين وصدق الوجهة ، وجعل الآخرة نصب عينيه ـ إلى سعادة الدنيا ، والفوز برضوان الله وجنته يوم الدين .

وهذه العملية العظيمة ، بشعبها كلها ، ومقوماتها جميعاً ، نجدها ثمرة من ثمرات كون الحديث : ما أثر عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل أو إقرار ، أو وصف خِلقي أو خُلقي ؛ فهو يعلِّم ويربي بالقول والفعل والإقرار وكل ما هو من ذلك بسبيل .

وجدتني مسوقاً إلى تقرير هذه الحقيقة والتذكير بها ـ وهي متجددة الهداية والنفع ـ وأنا بسبيل أن أصل الحديث بما مر بنا من قريب، من هدي النبي ﷺ في بيان ما ورد في الكتاب العزيز ، بشأن النفخ في الصور ، إيذاناً بقيام الساعة ، ثم ما كشفت عنه بعض النصوص ـ كما روى الترمذي ـ من أنه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الذي غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر وجعل منه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ـ كان لا ينعَم في هذه الحياة خشية لله، وخوفاً من

أهوال القيامة التي يؤذن بها النفخ في الصور « كيف أنعَم وصاحب القرن ـ يعني الصور ـ قد التقم القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ »؟ .

وليس بدعاً ـ وقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الترقب والتخوف منه عليه الصلاة والسلام ـ أن يشقَّ عليهم الأمر ويثقل ؛ وعندها قالوا : «كيف نفعل يارسول الله ـ أو نقول ـ ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . ذلكم واحد من الدروس بالغة العمق التي أعطاها رسول الله ﷺ لأمته ، بسلوكه ، وتجافي جنبيه عن مضاجع النعيم ، والوقوف للغفلة ونسيان اليوم الآخر بالمرصاد؛ فإذا كان المصطفى خاتم النبيين ، وهو هو فيما أعطي وأكرم ، تبلغ به الخشية من نفخ الصور هذا المبلغ : فعلى المسلم ـ وهو يذكر اليوم الآخر ويؤمن أنه حق لا ريب فيه ـ أن تكون وجهته ، حيث وجهه النبيُ القدوةُ الناصحُ عليه الصلاة والسلام وهي الوجهة المؤذنة بحسن الخاتمة بعون الله .

على أن الناظر في حديث النبي ﷺ ، وسيرته على وجه العموم ، يجد أنه كان يتجاوز نفسه أبداً ، إلى الخوف على أمته أن تصاب في آخرتها ، وأن ينال المسلمين من سوء العاقبة ـ لا سمح الله ـ ما ينال أولئك الذين عميت بصائرهم ، فكانوا من أهل الجحيم . وقد بلغ به الأمر ، أن نهى أصحابه عن أن يشربوا من آبار الذين كذّبوا رسولهم صالحاً ، وعقروا الناقة التي نبهوا على عدم إيذائها ، فصبَّ عليهم ربهم سوط عذاب ، وأن يأكلوا من العجين الذى عجنوه بماء تلكم الآبار، خشية أن يصيبهم ما أصابهم ؛ لأن الذى ينتظر ثمود يوم القيامة ، من النكال والعذاب الشديد ، أشد وأعتى مما عوقبوا به في الدنيا ، نسأل الله السلامة . قال الإمام مسلم . حدثني الحكم بن موسى أبوصالح قال: حدثنا شعيب بن إسحاق: أخبرنا عبيدالله عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره « أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها ، وعجنوا العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا ، ويعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة » كما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن دينار أنه سمع

عبدالله بـن عمر يقـول : قال رسول الله ﷺ لأصحـاب الحجر : «لا تـدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فـلاتدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» . وفي روايـة أخرى له أيضاً : أن عبدالله بـن عمر رضي الله عنهما قال: «مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر ، فقال لنا رسول الله ﷺ : لا تدخلوا مسالك الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين ،حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر فأسرع حتـى خلّفها »: اي زجر ناقته فسـاقها سوقاً كثيراً ، حتـى جاوز تلك المسالك .

هكذا نرى أن رسول الله ﷺ ـ وهو الـرحمة المهداة وسيّد النّصحة الرحماء ـ كما يخشى على نفسـه ، يخشى على أمته أن يصيبها مـا أصاب الذين ظلمـوا أنفسهم وعتوا عـن أمر ربهم ، وعصوا رسُله ؛ ذلـك لأن الأمر جدُّ خطير ـ كمالايخفـى ـ فما أصـاب أولئك الظـالمين لأنفسهم وللحقيقـة هنـا ، هو عنـوان المصير المفزع يـوم المعاد؛ ، وذلك ما ينتظر قوم هود وقوم صالح وآل فرعون وأضرابهم ـ على اختلاف العصور ـ يوم المعاد ، يوم تـرى الظالمين المجرمين مقرنين في الأصفاد ، ﴿**سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾ .

والحق أن ما كـان عليه النبـي صلوات الله وسـلامه عليـه ، من ذكـرٍ للموت والنفخ في الصور ، وما يكون من أهوال يوم القيامة ، ومن شديد الخشية على نفسه وعلى أمته .. أعطى عطـاءه الطيب المبارك في النفوس ، فلـم تعدم الأمة في عصر من العصور ـ بدءاً من عصر الصحابة ـ من يتابعون الطريق ، فيقفون على المنهل العذب من إرث النبوة ، يتذكرون ويـذكّرون ، ويكون لهم من الإخلاص في القول والعمل ،وأنهم يخافـون يوم الحسـاب ، ما يسعفهـم في أن تعمل الموعظـة عملها ، ويأخـذ التذكير سبيلـه إلى النفوس ، فيضاعـف من جدّه في الطـاعة العـامل ، ويستيقظ الغافل ، ويعـودالجانح ، وتعلو ـ في طاعة الله وتـزكية النفس والنظر إلى العاقبة ــ همة من أصابته جائحة الـركون إلى الدنيا ، وغزا قلبـه شيء من نسيان يوم الدين .

أما الذين غلبت عليهم شقوتهم : فليسوا من الاتعاظ والتذكرُ في شيء والعياذ بالله ، وهذا من أمراض الأمة اليوم ، حيث الاغترار بالدار الفانية ،وما فيها من متاع قليل ، وحيث الغفلة الضاربة ـ نتيجة الانزلاق الآثم ـ على كثير من القلوب ، حتى كأن أصحابها لا يعنيهم في قليل ولا كثير ما خاطب الله به المؤمنين في آخر آية أنزلها على نبيه عليه الصلاة والسلام ، من قوله جل شأنه : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

ولو فتحوا بصائرهم لكلام الله ، ولما كان عليه رسول الله ، من مراقبة وتذكُّر، لكان لهم مع يوم المعاد ، وما يكون فيه من الأهوال ، وما يزخر به من المشاهد العظام ، شأن آخر . هذا عمر رضي الله عنه ـ وهو يسير بالأمة على السنن الذى ورثه من هدي النبوة ـ يقول كما روى عنه ثابت الحجاج :« زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً ،أن تحاسبوا أنفسكم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ أخرجه أبونعيم في الحلية . وفي رواية أخرى لابن الجوزي في «صفة الصفوة» «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ .

رضي الله عن الخليفة الثاني عمر ، الذي كان له من مراقبته لله عز وجل ، ومخافته يوم الحساب ، ما أسهم أيما إسهام في تحقيق العدل ، والردع عن الظلم ، والحفاظ على إنسانية الإنسان ، وعلى حرية المسلم وكرامته في العالمين .

الظلم ظلمات يوم القيامة..

وعاقبة السوء للمفلس

كان مـن هدي النبي ﷺ ، أنه ــ مع المهام الجسام التـي كان يرتاد ميـادينها تبليغاً وتعليماً وجهـاداً وبناءً للفرد والمجتمع والـدولة ـ يُرى صلى الله عليـه وسلم لايني ينمـي التوازن ــ في النفوس ــ بين حركـة الحياة في هـذه الدار ، المنـوط بها العمل، وبين الخشية مما يكون في عرصات القيـامة ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر يوم توفى كل نفس ما كسبت وهــم لايظلمون . الأمر الذي ينعكس على السلوك، استقامة في العمـل ، وإحساساً بالمسـؤولية ، وبعداً عن الـركون إلى زائل النعيم، ومتاع الغرور . ناهيـك عن المراقبة الصادقة لله عز وجل ؛ فالعبـاد جميعهم مردُّهم إلى الله ، وهو سبحانه العليم بما يفعلون .

وتدل النصوص ،على أنـه صلوات الله وسلامه عليه ، كثيراً ما كـان يتخذ من الوعيد بما يحصل يـوم القيامة من حساب وعقاب ، وإعـلانٍ عن المنحرف بسِمة انحرافه وضلالـه، طريقاً من طرق الهداية في تثبيـت المستقيم على استقامته ، ورد المخطىء إلى طريق الهدى والصواب . هذه آثام ثلاثة يبيِّن الرسول ﷺ أن الوقوع في أي منها يـودي بصاحبه إلى أن لا يكلمـه الله يوم القيـامة، ولا ينظر إليـه . إنه الوعيد بعقوبة ينخلع ـ لشدتها وعمق دلالتها ـ قلب المؤمن التقي ، خوف أن تقع به، والإيمان يدعو إلى أن يحرص هذا المؤمن الحرص كلَّه ، على أن ينجو بنفسه من تلك المهلكة ، بأن لا يقـع فيما نبه عليه النبي عليه الصلاة والسـلام ، قال الإمام البخاري ، حدثني عبدالله بن محمد قال : حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي صالح السمّان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامـة ولا ينظر إليهم ، رجـلٌ حلف على سلعة لقـد أعطي بها أكثر ممـا أعطي،

وهو كاذب . ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ، ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل مائه . فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » جاء ذلك في كتاب المساقاة من الجامع الصحيح . وتحت «باب اليمين بعد العصر » أورد البخاري أيضاً حديثاً ، يحمل الوعيد يوم القيامة لثلاثة ذكر فيهم واحد بصفة مغايرة لصفة جاءت لأحد الثلاثة في الرواية السابقة ، مع ذكر العذاب الأليم في الوعيد ، وعدم التزكية من الله . فقد روى بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ؛ رجل على فضل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا ، فإن أعطاه ما يريد وفى ، وإلا لم يف له ، ورجل ساوم رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف بالله لقد أعطي بها كذا وكذا فأخذها » . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي بلفظ مقارب .

هذا : ونقع في حديث آخر على وعيد بالمصير نفسه لثلاثة ، فيهم اثنان لم يرد ذكرهما فيما سبق من الروايات ، وإن كان يجمع الكلَّ ، أنهم لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . ذلكم ما روى مسلم بسنده عن خَرَشَة بن الحُرِّ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب إليم ، قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار . قال أبوذر : خابوا وخسروا من هم يارسول الله ؟ قال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ».

ألا إن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وهو المؤتمن على أن يبلغ عن الله ما أراد سبحانه ... فلينظر امرؤ ، بم يلقى ربه عز وجل يوم العرض الأكبر ، وليبتعد عن مهاوي الردى وظلم النفس ، لكيلا يكون واحداً من هؤلاء ، الذين ينالهم وعيد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهـا هي ذى صـورة أخرى ، مـن صور الـوعيد الـذى يتحقق يـوم القيامـة، نجدها فيما توعد النبي ﷺ الظالمين ، بـأن يكون ظلمهم الناس في الدنيا ،ظلمات عليهم يوم القيامة ، لا يهتدون معها سبيلاً ، حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم .وإنه لمشهد مروِّع حقاً ، حين يتحوّل الظلم إلى ظلمات على أصحابه في الآخـرة . قلوبهم مظلمـة ـ والعيـاذ بالله ـ وأيـديهم ملوَّثـة بالأذى ، فجـاء الجزاء ظلماتٍ بعضها فوق بعض ، وفضيحةً على رؤوس الخلائق يوم يقوم الأشهاد. فاذا رؤيت هذه الظلمات ـ والجزاء من جنس العمـل ـ عرف الناس أن أصحابها ، هم ظلمة الناس في الدنيا .

قال الإمام مسلم : حـدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنـب قال : حدثنا داود ـ يعني ابن قيس ـ عن عبيد الله بن مِقسم ، عن جابـر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلـم فإن الظلم ظلمات يوم القيـامة ، واتقوا الشح ، فـإن الشح أهلك مـن كان قبلكـم ، حملهم على أن سفكوا دمـاءهم واستحلـوا محارمهم » .
وروى مسلم بسنده عـن أبي موسى رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يملي للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته ».

وينتقل بنا حديث رسول الله ﷺ إلى مشهد آخر من مشاهد الجزاء يوم القيامة عماده ذلك الإنسـان الذى سماه رسول الله ﷺ المفلـس ، هذا الإنسـان يجيء يوم القيامة ـ وقد أساء إلى عباد الله وارتكب في حقهم ما نهى الله عنه ـ فيؤخذ لهم من حسناتـه ، فإذا نفـدت تلك الحسنات ، وبقـي لهم حقوق ، أخذ مـن خطايـاهم فطرحت عليه ثم طرح في النار .

مشهد تتغلغل دلالتـه إلى الفرد ، والجماعة ،وشتى أنواع التعـامل والسلوك ، كيما يستقيم الجميع على الجادة ، ويحذروا الله واليـوم الآخر ، ويتقوا ما يكـون من عاقبة الذين يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قـال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلـس فينا من لا

درهم لـه ولا متاع . فقـال : إن المفلس من أمتـي ، من يأتي يـوم القيامـة بصلاة وصيام وزكـاة ، ويأتي قد شتـم هذا ، وقذف هـذا ، وأكل ما ل هـذا ، وسفك دم هذا، وضرب هـذا ، فيعطي هـذا من حسنـاته ، وهـذا من حسنـاته ، فـإن فنيت حسناته قبل أن يقضي مـا عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحـت عليه ، ثم طرح في النار » وأخرجه أحمد ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل في هذا البيان من النبي عليه الصلاة والسلام ، ما يقطع العذر على من يؤمنون باليوم الآخر ـ ويبلغهم هـذا الوعيد الذي يصوِّره مشهد المفلس الحقيقي، وطريقة الاقتصاص منه ، والحال التي يؤول إليها في خاتمة المطاف ، من الطرح في النار ... ـ ثم يقعون في هذا التجاوز لحدود الله ، عندما يتعاملون مع إخوانهم. على أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ لم يدع الأمر على عواهنه في هذه القضيـة ، بل نبّـه على أن يكون المسلـم على حذر مـن تلكم العـاقبة، فيردَّ المظالم ، ويؤدي الحقوق إلى أصحابها ، قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا بيعٌ فيه ولا خلال ، ودعا لـه بالرحمة إن فعل ذلك : أخـرج الترمذي عن أبي هريـرة قال: قال رسول الله ﷺ : « رحـم الله عبداً كـانت لأخيـه عنده مظلمـة في عرضٍ أو مـال ، فجاءه ، فاستحلَّه قبل أن يؤخذ ،وليس ثم دينار ولا درهم ؛ فإن كانت له حسنات أخـذ من حسنـاته ، وإن لم تكـن لـه حسنات حمّلوه عليـه من سيئـاته » . قـال أبوعيسى : هذا حـديث حسن صحيح غريب من حـديث سعيد المقبُري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبُري عن أبي هريرة عن ا النبي ﷺ نحوه .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وارزقنا حسن الانتفاع بما دَلّ عليه نبينا محمد عليـه الصلاة والسلام من السلوك المنجي ـ بعون الله ـ يوم الدين .

﴿وخشعت الأصوات للرحمن...
وقد خاب من حمل ظلماً﴾

في طريقنا إلى اصطحاب ما يكشف عن الحشر ،وأهواله يوم القيامة ، من نصوص الحديث الشريف .. يدعوني الحرص على البعد عن التشتت في استجماع الحقائق ، أن أعيد إلى الأذهان ما أشرق به الهدي النبوي ـ تبياناً للكتاب العزيز ـ من إيضاح لما يكون من النفح في الصور ، وهو ما عُبر عنه بالقرن في بعض الروايات ، حيث ينفخ في الصور النفخة الأولى ، وهي النفخة التي لا يسمعها أحد إلا صَعِقَ وأصغى ليتاً ، ورفع ليتاً كما جاء في الحديث الصحيح ، أي أمال عنقه إلى هنا وهنا من هول الصعقة . ثم ينفخ فيه النفخة الثانية ، فإذا الخلائق قيام ينظرون .

والذي نلمح إليه من كلام النبي ﷺ: هو البيان الأمين لما جاء في كتاب الله تعالى عن قيام الساعة ، والنفخ في الصور من مثل قوله جل شأنه : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ . وقد مرّ بنا في صفحات سلفت حديث جامع رواه مسلم حول هذه المسألة الغيبية الكبرى ، ومما جاء في هذا الحديث قوله ﷺ : « ..... ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ، ويصعق الناس، ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّل ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلُمَّ إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . . .» الحديث .

هكذا تعلن القدرة الإلهية إعلانها ، ويبدو مشهد الخلائق ، وهو المشهد الذي يبدو عدد أصحابه مستعصياً على الحصر ، وأي من العباد يستطيع حصر ذلك؟، والحق أنه لا يحيط به إلا الخالق القادر الذي هو بكل شيء محيط . مشهد يراه الرائي هنالك حيث يخرج الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية ، كأنهم جراد منتشر ، ويقومون لرب العالمين . ومع هذا العدد الهائل للبشرية منذ بدء الخليقة إلى يوم البعث ، يمتد رواء الهول ، ويضرب الترقب بجرانه ، فلا تحسُّ لتلك الجموع الحاشدة صوتاً ، ولا تسمع لهم ركزاً : ﴿**يومئذ يتَّبعون الداعي لا عوج له، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً**﴾ فهم ساعة يرون يوم القيامة وأهواله ، يستجيبون مسرعين إلى الداعي ؛ حيثما أمروا ، بادروا إليه لا يميلون عنه.. قال محمد بن كعب القرطبي :« يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ ، فيتبع الناس الصوت يؤمونه» إنه الهول الذي تسقط أمامه الأقنعة، وتنحسر المظاهر البراقة الخادعة، ويخضع الجميع لله ، وتذل أعناقهم لعظمته ، فترى الكل مستجيباً إلى المنادي ،لا يعاند ولا يميل ﴿**وعَنَت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً**﴾ قال ابن عباس وغيره في معنى « عنت» خضعت وذلت ، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذى لا ينام ، وهو قيّم على كل شيء ، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه ، الذي كلُ شيء فقير إليه ،لا قوام له إلا به . وقد خاب من حمل ظلماً يوم القيامة ؛ فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، كما جاء في ا لحديث الصحيح . وفي الحديث القدسي « يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم » وروى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة » وقد أوردنا من قبل ما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ..» الحديث .

ويستفاد مما قرره علماؤنا أجزل الله مثوبتهم ــ كما نقل الحافظ بن حجر والإمام ابن الجوزي ـ أن الظلم يبلغ من السوء ، أنه يشتمل على أكثر من معصية ؛ فهو ـ إلى كونه ظلماً للنفس واعتداءً على الغير ، وإيذاءً له بنفسه أو ماله ، أو دينه وعرضه ، أو أي حق من حقوقه المشروعة ــ هو مبارزة لله بالمخالفة ، عما شرع لعباده وأوجب من العدل والتراحم ، وانتهاكٌ لحرمات الحق وإنسانية الإنسان ، وإضرارٌ بالجماعة . والمعصية فيه أشد من غيرها ؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار . قالوا : وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ؛ لأنه لو استنار القلب بنور الهدى ،لاعتبر واتقى ؛ فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلماتُ الظلمِ الظالم ، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً.

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة ، حيث يقف الناس للمساءلة ، وترى أنه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، نجد في نصوص السنة على صعيد البيان للكتاب ، ما ينبيء عن قبض الله الأرض وطي السماء ، وعن الحال التي يحشر الناس عليها يوم المعاد ؛ ها هو ذا الإمام البخاري يعقد في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب يقبض الله الأرض يوم القيامة » رواه نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ ثم قال : حدثنا محمد بن مقاتل قال : أخبرنا عبدالله قال : أخبرنا يونس عن الزهري عن أبي سلمة قال : حدثني سعيد بن المسيبَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » وكذا رواه مسلم . وروى مسلم بسنده أيضاً عن سالم بن عبدالله قال : أخبرني عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمني ، ثم يقول : أنا الملك : أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »

وتدل بعض الروايات على أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يبدو عليه

الاهتمام البالغ ، وهو يكشف عن هذه الحقيقة بياناً لما جاء عنها في الكتاب الكريم : فقد روى مسلم وابن ماجة عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبدالله ابن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال : « يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه فيقول : أنا الله ـ ويقبض أصابعه ويبسطها ـ أنا الملك !! حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ «يقبض أصابعه ويبسطها » هو النبي ﷺ.

هذا : وفي الباب الذي أتينا على ذكره ، روى البخاري بسنده عن أبي حازم قال : سمعت سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول: « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النقي. قال سهل أو غيره : ليس فيها معلَمٌ لأحد ».

عفراء : بيضاء إلى حُمرة . كقُرصة النقى ومعنى قرصة النقي : الخبز الحُوّارى قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » : (وفيه « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقُرصة النّقي » يعني الخبز الحُوّارى) والخبز الحُوّارى: ما كان دقيقه أبيض وهو لُباب الدقيق . وفسر الإمام الخطابي النقيَّ بالدقيق النقي الخالي من الغش والنخال .

وإلى صفحات قادمات نتابع فيها الرحلة إن شاء الله مع نصوص أخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن والله المستعان .

جزى الله عنا محمداً ﷺ ـ فيما بلّغ ونصح وبيّن ـ خير ما جزى نبياً عن أمته ؛ فقد كان في إعلامه الأمة بجزئيات ما يقع يوم القيامة ، وما يكون فيه ؛ مزيد من النصح الذي يجعل المؤمن على بصيرة من أمره ، كيما يتزوّد لذلك اليوم ، ويُعدَّ العدَّة للتخلص من تلكم الأهوال ، فيكون ـ بفضل الله ـ من الفائزين .

وفي ذلك أيضاً قطع للعذر ؛لأن الأمر لا يكون بغتة ، مادام العلم به قد حصل من كتاب الله ، ومن المؤتمن على بيانه ، رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفي رحلتنا مع نصوص الهدي النبوي ، المتعلقة بذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، وقفتنا ـ من قريب ـ كلمات مباركات من الهدي النبوي ، على أمر عظيم، وهو صفة الأرض التي يحشر الناس عليها يوم القيامة ، وذلك فيما روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النَّقي . قال سهل ـ أو غيره ـ : ليس فيها معلم لأحد » .

وقد أشرت إلى معنى « عفراء » وأنها البيضاء التي تضرب إلى الحمرة قليلاً كما قال القاضي عياض ، وأشرت كذلك إلى معنى « كقرصة النّقي » ، وأن المراد الخبز الحُوّارى كما يقول ابن الأثير ، أو الدقيق الخالي من الغش والنخال كما يقول الخطابي ، والخطب سهل ؛ إذ أن المؤدى يكاد يكون واحداً والله أعلم .

وهذه الأرض كما نرى في نص الحديث ، ليس فيها معلم لأحد . وفي رواية لمسلم ـ كما سنرى ـ ليس فيها علم لأحد ، والعَلم والمَعْلم ـ على ما يرى الحافظ ابن حجر ـ بمعنى واحد . والمعلم ـ بفتح الميم واللام ــ الشيء الذى يستدل به على الطريق ؛ فهي مستوية ليس فيها علامة ، تدل على بناء ، أو سكن ، أو

عمل، ولا على أثـر ، أو شيء من العلامات البـارزة التي يهتدي بها النـاس إلى ما يريـدون ، من الطرق والأمكنة ومـا إلى ذلك . قال الإمـام الخطابي : يريد ـ يعني الرسـول ﷺ ـ أنها مستـوية . وقال القـاضي عياض: المراد أنها ليـس فيها عـلامة سكنـى ولابناء ولا أثـر ، ولا شيء من العـلامـات التي يهتـدى بها في الطرقـات ؛ كالجبل والصخرة البارزة . وجميل قوله رحمه الله : وفيه تعريض بأرض الدنيا ، وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها . وقال العلامة محمد بن أبي جمرة ـ كما لخص كلامه الحافـظ ابن حجـر ـ : (فيـه دليل على عظيـم القـدرة ، والإعلام بجـزئيات يـوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة فيخلّـص نفسه من ذلك الهول ، لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه ، رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصُها ، بخلاف مجيء الأمـر بغتة . وفيـه إشارة إلى أن أرض الموقـف ـ والله أعلم ـ أكبر من هـذه الأرض ، الموجودة ، جـداً، والحكمة في الصفة المذكـورة ، أن ذلك اليوم يـوم عدل وظهور حق ، فاقتضت الحكمة ، أن يكون المحلُّ الذى يقع فيه ذلك ، طاهراً عن عمل المعصية والظلم ، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته ، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده ، فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده) .

هذا : ولفـظ رواية مسلـم ـ وهي عـن سهل بن سعـد رضي الله عنه أيضـاً ـ «يحشر الناس يوم القيـامة على أرض بيضاء عفراء كقُـرصة النّقي ليس فيهـا علم لأحد » والملاحظ ـ كما أشرنا من قبل ـ أن كلمة «معلم» ،عند البخـاري تقابلها كلمة «علـم» هنا ، وإن كـانا بمعنى واحـد . وجعل البخـاري عبارة «ليـس فيها معلم لأحد » من قـول سهل بن سعد أو غيره . وهذا ما لانجـده في روايـة مسلم. بل نجد « ليس فيها عَلَم لأحد » .

صلى الله على معلـم الناس الخير ؛ هـذا عن صفـة الأرض التي يحشر عليهـا العباد !!! ولكن مـاذا عن الحال التي يكون الناس عليها ، يـوم يلاقون ربهم على أرض المحشر ؟ إن النصوص تقـودنا ـ وهي تتحـدث عن هذا الأمر الجلـل ـ إلى

مشهد من مشاهـد القيامة العظيمة المؤثرة ، وهو مشهد يأخـذ سِمته الحقيقية من كون العباد ـــ وقد قاموا لـرب العالمين وحق عليهم قـول جبار السماوات والأرض **﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾** ـ كل منهم في شغل شاغل عن الآخر ، بما يواجه من الهول ، وما يحيط به من ترقب المصير ، فلكل منهـم يومئذ شأن يغنيه ، أجل يغنيه عن النظـر إلى صورة مـا عليه الناس ؛ فهـم محشورون حفاة عـراة غرلاً ـــ أي بلا ختان ـ إنه لا مكـان في تلك الساعات العصيبة لأن ينظر امـرؤ إلى عورة الآخر ، رجلاً كان أو امرأة .

ألا ما أشد ذلك الهول !! وما أحرج تلك الساعات التي لا منجاةمن ويلها إلا برحمة الـرحيم الـرحمن . قال الإمام البخـاري : حدثنا قتيبـة بن سعيـد قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن سعيـد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «**إنكم ملاقو الله حفاة عراة غُرلاً** » وقال في رواية أخرى : حدثنا علي قال : حـدثنا سفيان قال : قال عمرو : سمعت سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشاةً غُرلاً** » . قال سفيان : هذا مما نعدُّ أن ابن عباس سمعه من النبي ﷺ. ولـه في رواية أخرى عن ابـن عباس أيضاً قال : قـام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عُراة غُرلاً » **﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعـداً علينا إنا كنا فاعلين﴾** ألا وإن أول الخلائق يكسـى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : **﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنـت الرقيب عليهم وأنـت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فـإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقـابهم » . زاد في رواية : « فـأقول : سحقـاً سحقـاً » وأخرجـه مسلم والترمـذي والنسـائي وأحمد وغيرهم .

وتتساءل عائشة رضي الله عنها ، حين تعلم أن الناس يحشرون حفاة عُراة غُرلاً عن هذا الأمر المهول : فيكون جواب الرسول ﷺ « الأمر أشد من أن يهمَّهم ذلك» وفي بعض الروايات ﴿ لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

ولنا إن شاء الله عودة إلى هذه المسألة العقدية الكبرى ، المرتبطة بالإيمان بالغيب ، نستجلي دلالة الهدي النبوي فيها ، وما تزخر به من شدة الهول الذي يغمر الناس في ذلك اليوم المهول .

وجزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ خير ما جزى نبيناً عن أمته ؟ فقد تركنا على بيضاء نقيَّةٍ ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾

(١)

ما أعظم ما يتجه إليه المؤمن ، من استكـانة إلى مولاه ، تزين عمله الصالح ، كيما يحشر يوم الحساب في زمرة من يأمنون عند الخوف ؛ ويقيهم الله شر ذلك اليوم المستطير ، حيث الهول الهائل ، والنذر التي تأخذ بمجامع القلوب؛ ومن لطف الله وكريم امتنانه على أمة الإسلام ، أنه أبـان للمؤمنين في كتابه ،وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسـلام ، عما يكون في تلك السـاعات العصيبـات ، من مشاهـد ، كي يأخذوا حذرهم، ويكونوا ـ برحمته تعالى ـ في مأمن من مزلات الأقدام ، والانصراف إلى الجحيم . وقد أسعـدنا الهدي النبوي من قريـب بالإخبار عن واحـد من أشد مشاهد يـوم الفصل ، وذلك باصطحـاب بعض من الأحاديـث الصحيحة، التي نصت على أن النـاس يحشرون إلى ربهم حفاة عراة غُـرلاً مصداقاً لقـول الله تبارك وتعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ .

وهذه خطـوة ـ لا يحسـن العدول عنهـا ـ مـع تلكم النصـوص ، بعد إشـارة عجلى إلى شيء من الهدي فيها، كانت بمثابة التقديم؛ فالمفتاح السليم المبارك إلى تصور ذلك المشهـد ، بحسّ المؤمن ، وخشية ممـا يكون عليه الأمر يـوم المعاد ، أن نصطحبها ونستجلي ــ قدر المستطاع ــ ما تحمل مـن معان ، وما تـدل عليه حين تكشف عن ذلك المشهد من وعد ووعيد ، وكيف أن الأمر يوم القيامة، أشد من أن ينظر امرؤ ــ رجلاً كان أو امرأة ـ إلى عـورة الآخر ، مع أن الكل مشـاة حفاة عراة غرل بلا ختـان ؛ لأن ما يحيط بالناس في ظل ذلـك الهول الهائل ، يجعلهم ،ولكل امرىء منهم يومئـذ شأن يغنيه ، كما جاء من خلال تلـك النصوص بيان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام .

هذا: والذي رأيناه من قبل : بعضُ ما أورده الإمام البخاري في «باب الحشر» من كتاب الرقاق في الجامع الصحيح من رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما . ولفظه : « إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشـاة غرلاً » وبمثل هذا جاءت رواية مسلم عن ابـن عباس أيضاً أنـه سمع النبي ﷺ يخطب وهـو يقول : « إنكم مـلاقو الله حفاة عراة غُرلاً » وجاء في روايات أخر التصريح بالحشر على الحال المشار إليها ؛ فمن حديث رواه الإمام البخاري قال ابن عباس : قام فينا النبيﷺ يخطب فقال: إنكم محشورون حفاة عـراةً غرلاً ـ ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده وعـداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾وروى البخاري ومسلـم عن سعيـد بن جبير عـن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: « قام فينا رسول الله خطيباً بموعظة فقال : ياأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعـداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يـوم القيامـة إبراهيـم عليه السـلام ، ألا إنه سيجـاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشِمال فأقول : يارب أصحابي ، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنـت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ قال : فيقال لي : إنهم لم يزالوا مـرتدين على أعقابهم منذ فـارقتهم » قال مسلم: وفي حـديث وكيع ومعاذ « فيقال : إنـك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وهـذا مما يذكرنا بأولئـك الذين ارتدوا بعده ﷺ من أصحاب مسيلمة الكذاب ونحوهم من المنافقين ، أعاذنا الله من ذلك .

ولفظ الحديث عند الإمام أحمد في المسند « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وجاء في رواية الترمذي « كما خُلقوا» وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي لفظ لأحمد من رواية ابن مسعود رضي الله عنه من حديث طويل « إذا جيء بكم عراة حفاة غرلاً » وكما أسلفنا غير مرة،

لم يكن هدي النبيﷺ في شأن الحشر ، وما تكون عليه حال الناس يوم القيامة، بمعزل عن الانفعال الصادق عند الأصحاب عليهم الرضوان ، بل كان التصديق، وكان التأثر والانفعال مع الحقائق ، وشهد ما وصل إلينا من تاريخهم ـ وهم يديرون دفة الحياة ويبنون حضارة الإسلام ـ ما كان لذلك كله من انعكاس على السلوك ، وصدق الوجهة عند الفرد والجماعة . ولقد بلغ الأمر بجابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رحل إلى الشام ، من أجل أن يسمع حديث الحشر، والحال التي يكون عليها الناس ، يوم يحشرون ، ويلقون مالك الملوك ربهم سبحانه وتعالى وما يكون من القصاص العادل، وأخذ الحقوق لأصحابها . قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد قال : أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبدالواحد المكي عن عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبدالله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت عليه رحلاً ، فسرت عليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبدالله بن أُنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبدالله ؟ فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة ـ أو قال العباد ـ عراة غُرلاً بهماً . قلت : وما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك، أنا الديان ، لاينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه ،حتى اللطمة ، قال: قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بُهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات » .

أرأيت إلى هذا الاهتمام من جابر رضي الله عنه بحديث الرسول ﷺ وبخاصة ما له علاقة بذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، ويحشر الناس على الحال التي دل عليها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾!! وجزى الله

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، يوم تساءلت عما يخطر في بال كل من يقرأ أو يسمع تلكم الأحاديث ، وكان في جواب النبي ﷺ ، ما دلّ على شدة الهول الذي يضرب بجرانه على أهل الحشر ، فينصرفون عن النظر إلى العورات ،لأن الأمر أشد من ذلك . وما أروع الحقيقة القرآنية ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ روى البخاري بسنده عن عبدالله بن أبي مليكة قال: حدثني القاسم بن محمد بن أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« يُحشرون حفاة عراة غرلاً . قالت عائشة رضي الله عنها : قلت: يارسول الله الرجالُ والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذلك » وفي رواية لمسلم: «قلت: يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

ونجد في رواية للنسائي قولها رضي الله عنها للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الذي سمعت عن ا لحشر : «فكيف بالعورات ؟ قال عليه الصلاة والسلام: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

سبحان الله أي مشهد هذا الذي يكون عليه العباد ، وأيُّ شدة شادة تلكم التي تصرف ، حتى عن التفكير بأن ينظر إنسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ من الآخر ما هو محرم عليه النظر إليه ، مع أن الجميع محشورون حفاة عراة غرلاً !!

اللهم سلّم سلّم ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾

(٢)

كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أنه عني أيما عناية بتوجيه المسلمين إلى معرفة ما تحمل ساعات القيامة ، من الترقب والخوف ، في خضم الأهوال التي تحفل بها تلك الساعات العصيبات ، وإلى كل ما يصل بحبل النجاة ، ويثمر ـ بعون الله وفضله ـ الفوز بنعيم الخلد في جنة النعيم .

ومما يتصل بالشطر الأول من تلكم القضية الكبرى ،ما نقع فيه ،على نصوص من السنة المطّهرة ، تزخر بالكشف عن تلكم الحقائق المهولة يوم الحساب، والتي إذا قورن أي جزء منها بقدرة الإنسان العادية على الاحتمال ، وُجد أن لطف الله، ثم شفاعة النبي ﷺ في الخلق لإمضاء المساءلة والحساب ، هما اللذان يسعفان في أن يتابع الناس ،حتى تقال كلمة الفصل ، ويعلم المصير إلى الجنة أو النار .

ولقد يشهد لهذا ويؤكده ، ما كان من عائشة رضي الله عنها ـ وهي الفقيهة التقية القانتة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ حيث تساءلت بشيء من العجب والاستغراب ، عما يخلّفه كون العباد يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، من الوقوع في حرمة أن ينظر بعضهم إلى عورات بعض ، وكان من جواب النبي ﷺ تقريره الواثق ، لحقيقة مذهلة قد تخفى على الناس ، وهي أن الأمر في ظل تلك الأهوال المطبقة، أشد من ذلك ، فلكل من العباد ـ على اختلاف ما هم عليه ـ شأن يغنيه عن أن ينظر إلى الآخرين ، فيتأثم برؤية العورات . فقد جاء عند البخاري ومسلم والنسائي قول عائشة رضي الله عنها : « النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض » ؟ وقول الرسول ﷺ في الجواب : « الأمر أشد من أن يهمَّهم ذلك » أجل : الأمر أشدُّ من أن يهمَّهم هذا اللون من النظر ، بحيث يلتفت

بعضهم إلى بعض ، وهم على هـذه الحال من التجرد التي تُذكِّر بما كـانوا عليه يوم ولدوا .. كيف لا ، وهم مقبلون على أحكم الحاكمين ، يـواجهون حصاد ما قدّموا في الدنيا ؛ فإما إلى جنة عـرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وإما إلى نار وقودها الناس والحجـارة أعدت للكافرين . وقد ينال العصاة فيهـا ما ينالهم من التـأديب والتطهير ، ثـم يُخرجون منهـا بكرامـة التوحيـد ، فضلاً مـن الله العزيـز الحميد، ومن فضلـه ـ وهو الرحيـم الرحمن ـ ما فتـح لعباده من أبواب الشفـاعة، التي تتم بإذنه سبحانه وتعالى .

ولك أن تذهب بذهنك كلَّ مذهـب، فيما تكون عليه مشاعر العباد ، في تلك الساعـات المثقلة بـالرهبـة والخوف وشديد القلـق ، والتي تحمـل ما تحمـل ، من الترقب المضني الذى يهزُّ الكيان هزّاً ، ويشغل المرء عن أي شيء وراء نفسه ـ كما ثبت ذلك في كتاب الله والصحيح من الأحاديث ـ تخوفاً مما سيكون عليه مصيره . وإذا كان الأمر كـذلك ـ وهو حقيقـة لا مراء فيها ـ فـأنى له أن يجد ما يـدفعه إلى النظر إلى عورات الآخرين !! وأنى له أن ينصرف ـ ولو لحظات ـ عما هو فيه !! إنه في شغل شاغـل دونه كل ما كان يشغلـه في دنيا الفناء ... والأمر يـومئذ لمن بيده الأمر كله ، رب الأرض والسماء .

أرأيـت إلى ما جـاء في رواية للنسـائي من قـول النبي ﷺ ، رداً على تسـاؤل عائشة المثقل بالعجب والرعب : ﴿ **لكل امرىء منهم يـومئذ شأن يغنيه** ﴾ حيث رأى في الكلمة القرآنية المنبئـة عن حقيقة الموقف أفضل ما يقنـع في هذا المقام ، ونعمت الفقيهة الواعية أم المؤمنين .

وهذه الآيـة الكريمـة ـ وهـي الآية السـابعة والثـلاثون مـن سورة «عبـس» السورة المكية ـ قد سبقت بقوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه** ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ فكأنه ﷺ يريد أن يفهم عـائشة رضي الله عنها ، ومن ورائها الأمة ،

أن من المحال ، على الناس ـ يوم الحشر ـ وهم على هذه الحال حيث يفر المرء من أقرب الناس إليه قائلاً : نفسي نفسي ـ أن يلتفت الواحد منهم ، إلى ما تتسائلين عنه؛ فلكل امرىء من العباد جميعاً ، شأن يغنيه .

ويبدو أن ذلك التساؤل المثقل بالكثير من الاستغراب ، والرعب، من قبلها رضي الله عنها، والذي دعا إليه ما جاء في تلكم الأحاديث الصحيحة ، من بيان الحال التي يحشر الناس عليها ، يوم يقوم الجميع لرب العالمين .. يبدو أنه قد وقع أيضاً من امرأة لم يذكر اسمها ؛ فقد جاء في رواية للترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «تحشرون حفاة عراة غُرلاً . فقالت امرأة : أيبصر ، أو أيرى بعضنا عورة بعض ؟ فقال ﷺ : يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وها نحن أولاء ، نقع على نص فيه نوع من التفصيل يكشف عن مدى الرعب الذي أصاب عائشة رضي الله عنها ــ وهو رعب مثقل بالاستغراب والتعجب كما أسلفت ــ حيث سمعت ما سمعت من رسول الله ﷺ مجيباً بقوله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ حول هذه القضية الكبرى ،وذلك المشهد المذهل يوم الحشر ؛ ثم عن العلاقة بين إخباره عليه الصلاة والسلام ـ بما أخبر ـ وبين الآية المشار إليها ؛ فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائذ بن شريح عن أنس بن مالك قال : «سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله بأبي أنت وأمي ، إني سائلتك عن حديث، أفتخبرني أنت به ؟ قال : إن كان عندي منه علم . قالت: يانبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال: حفاة عراة . قالت: واسوأتاه من يوم القيامة ، قال : وعن أي ذلك تسألين ، إنه قد نزل عليّ آية لا يضرك إن كان عليكم ثياب أو لا يكون ، قالت: أيَـةُ آية هي يانبي الله ؟ قال : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾» .

على أن هنالك رواية، يرد فيها الذعر والتساؤل من زوجة أخرى ، من زوجات

النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن للعلماء في هذه الرواية مقال ، وذلك ما أخرج البغوي في تفسيره عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: «قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان ، فقلت: يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال : قد شُغل الناس، ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ » قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروَزي عن الفضل بن موسى ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : عائذ بن شريح ـ وهو أحد الرواة ـ ضعيف وفي حديثه ضعف .

ومهما يكن من أمر : فالمفروض بالمؤمن ، أن يكون له من تلك الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ ، والتي كشفت عما يحيط بالحشر من الأمور العظام ، ما يحفزه إلى عدم الركون إلى الدنيا ـ وهو يعمر الأرض ويكدح في الحياة ـ وإلى مزيد من العناية والاهتمام ، بكل ما من شأنه حسن الإقبال على الله ، وتقواه في السر والعلن ، والاستعداد ليوم لا يسأل فيه حميم حميماً : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ إنه اليوم الذي تحكم مشهد العباد فيه ، تلكم الحقيقة الهائلة المتمثلة في قول الله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم يؤمئذ شأن يغنيه﴾.

ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أن وجَّه المسلمين إلى ما فيه حسن العاقبة ؛ أمناً من الخوف يوم الفزع الأكبر ، ونجاة من أهواله الجسام ؛ وطوبى لمن كان همُّه الأخذ بهديه عليه الصلاة والسلام ؛ ففي كتاب الرقاق من الجامع الصحيح « باب كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك ».

وما مـن ريب في أن عـدم الركـون إلى الدنيـا ، والنظر إليهـا على أنها دار ممر وزوال، وأن الآخـرة هـي دار القرار ، كـل أولئـك ، ممـا يحمل المؤمـن على التـزود الصادق ليوم المعاد .

ومن ثمرات ذلـك ما يعقبه الله من صفـاء النفس، وجلاء القلب حتـى كأنه يرى ويسمع ويحسُّ ما يكون من تلك المشاهد المذهلة في عرصات القيامة.

والسعيد السعيد من سلك طريق أهـل السعادة والفلاح ، مشمِّراً عن ساعد الجدِّ في طلب سلعة الله الغالية ، جنة عدن نُزلِ الأبرار ﴿ إن الأبرار لفِي نعيم على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾.

ما وقفنا عليه من نصوص، تكشف عما يكون من الهول يوم الحشر ، وماتكون عليه حال العباد ... يأخذ بنا إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، من إخبار عن سوء حال الكفار ، في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ، جزاء ما كسبوا في الدنيا من المآثم والضلال المبين ؛ وكفرهم بما جاءت به رسلهم الذين تلوا عليهم آيات ربهم ، وأنذروهم لقاء يوم القيامة ، ولم يألوا جهداً في بيان الحق ،والدلالة على صراط الله المستقيم ، ولكن من حقت عليهم الضلالة، عتوا عن أمر ربهم، وأصروا على العناد ، واستكبروا على الحق وأهله ، فكان لهم سوء المصير في ذلك اليوم الذي يحشرون فيه على أسوأ حال . قال الله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً﴾ وقد عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، باباً جعل عنوانه هذه الآية فقال فيه : «باب ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾» ثم قال رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا يونس بن محمد البغدادي قال :حدثنا شيبان عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً قال: يانبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » قال قتادة : «بلى وعزة ربنا » ولفظ رواية الحاكم من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه: «سئل رسول الله ﷺ : يحشر أهل النار على وجوههم ؟» .

وفي رواية أخرى للبخاري ، جاء التصريح بقول الرجل عند سؤاله الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذه المسألة « كيف يحشر الكافر على وجهه ؟» وذلك عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : « يانبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟

قال : « أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » قال قتادة : بلى وعزة ربنا » .

وأنت ترى ، أن الذي دعا إلى هذا التساؤل ، ما جاء في الآية الكريمة من سورة الفرقان ، التي دلت بوضوح، على أن الكافرين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ثم بينت الآية أنهم شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً ، وكان من فقه الإمام البخاري : أن جعلها في التفسير ترجمة الباب الذى أورد تحته هذا الحديث ـ كما ذكرت آنفاً ـ ولقد أفادت الأمة أيّما فائدة من سؤال ذلك الرجل عن ذلك ؛ إذ كان في جواب النبي ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ ما يكفي ويشفي ، فالله تعالى وهو الخالق القادر سبحانه ، كما قدر على أن يمشي الكافر على الرجلين في الدنيا ، فهو قادر بالأولى على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ، وكان من يقين قتادة وبالغ تصديقه بما بينه الرسول ﷺ ووجه العقول إليه ، هذا القسم الذي حمله إلينا قوله: «بلى وعزة ربنا» . ويالهول ذلك المشهد يوم ترى الكفار يحشرون ـ بقدرة العزيز القهار ـ على وجوههم إلى جهنم وبئس القرار . إن الأنفة من الخضوع والذلة لله في الدنيا ، وإن عبادة غيره جل شأنه والخضوع له ، كل أولئك أعقبهم هذا الذي تراه الخلائق من حالهم يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل !

أين التعالي والتعاظم ؟ أين الاستكبار والعناد ... لقد استحال ذلك كله إلى ظلام كالح ، يضرب عليهم وهم على تلك الحال المهينة ، فبدل أن يمشوا على أرجلهم ، يحشرون على وجوههم ، والوجه من الإنسان أبرز ما فيه ، وعليه ترتسم الآثار التي تنطوي عليها النفوس ... فما كان أعزّهم في الدنيا ـ كما يزعمون وتسوّل لهم أهواؤهم والشياطين ـ وما أذلهم في ذلك المشهد الذي يكاد ينطق بالقضية من بدايتها ، وحتى تلكم النهاية المخزية .

هذا : وبالتصريح بكلمة « كيف» وبالخطاب بـ « يارسول الله» بدل « يانبي الله» جاءت الرواية عند الإمام مسلم ، فقد روى بسنده عن شيبان عن قتادة قال :

حدثنا أنس بن مالك « أن رجلاً قال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ قال قتادة : «بلى وعزة ربنا ». فالأمر مرتبط بإرادة الله وقدرته ؛ فقد شاء بحكمته أن يكون المشي على الحالة المعروفة في الدنيا ، وله سبحانه أن يشاء للكفار غير ذلك يوم تصف الوجوه للحي القيوم إيذاناً بما استوجبه مسلكهم في الدنيا من العقوبة على هذه الصورة في الآخرة ، وهو القادر القاهر سبحانه .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة المباركة ، من بيان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، نقرأ ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاةً ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاًعلى وجوههم ، قيل : يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك » قال الترمذي : هذا حديث حسن . ورواه البزار أيضاً .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤخذ من مجموع الأحاديث أن المقربين يحشرون ركباناً ، ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم ، وأما الكفار : فيحشرون على وجوههم .

الحَدَب : الغِلظ المرتفع من الأرض .

اللهم ثبتنا بقولك الثابت، واكتب لنا ـ بفضلك وإحسانك ـ أن نكون في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾.

لم يكن عبثاً ، بل كان عين الحكمة الهادية ، ما جرى عليه الكتاب العزيز ، وبيانه من حديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ،على أسلوب التقرير والتأكيد المرة تلو المرة ، في بيان ما يكون بعد الموت ، وما ينتظر العباد في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، من الأمور العظام ، والأهوال الجسام . ونبينا صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد أوتي جوامع الكلم ـ لم يزل شديد الاهتمام ببيان كل ما يلزم بيانه للأمة ، في هذه الشؤون ، وكان حفياً ـ على وجه الخصوص ـ بالكشف عما تزخر به عرصات القيامة ، من مشاهد مثقلة بكل ما يفزع ويهول، كيما يكون المؤمن على يقظة، لما سيكون عليه الأمر بعد أن تبلغ الروح الحلقوم، ويوافيه الأجل ، ويدخل دار الجزاء ،بعد أن استوفى ما كتب له في دار العمل. وليس من القول المعاد: أن نعيد إلى الأذهان ما سبقت الإشارة إليه غير مرة ، من أن النبي صلى الله وسلم وبارك عليه ، لم يأل جهداً في أن يجمع إلى البيان المومى إليه ـ وهو يفصل ما أجمل القرآن الكريم أو يقرر ويؤكد ـ الدلالة على الطريق الموصلة إلى حسن العاقبة ، والنجاة ـ بفضل الله عز وجل ـ من تلك النذر المهولة والأمور العظام ، التي قال الله في شأنها : ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم .يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

وذلكم هو المنهج الفريد المتكامل في التربية ، إذ تراه عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ يكشف عما سيكون من تلك المشاهد المهولة في ساعات الحشر وفي عرصات القيامة ، وفي الوقت نفسه يأخذ بيد المؤمن ـ كما أشرنا ـ إلى حيث السلوك المتوائم مع طلب النجاة والفوز المبين ، في يوم يحشر فيه الكافرون على وجوههم إلى جهنم ، وترى أنه ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . ويقول

خزنة الجنة للمؤمنين ، بعد أن تفتح لهم أبوابها : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ ويحمد المؤمنون ربهم على ما صدقهم من الوعد بتلكم العاقبة جزاء الإيمان والاستقامة على ما أراد ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾.

ومن هذا الباب الذي يُشرق بالمنهج الفريد المتكامل في التربية ، ما روى البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، قال رحمه الله : حدثنا منذر بن الوليد بن عبدالرحمن الجارودي قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة عن موسى بن أنس رضي الله عنه قال : «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين ــ حنين ـ فقال رجل : من أبي ؟ قال : أبوك فلان فنزلت هذه الآية : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾» .

وفي كتاب الرقاق من الجامع الصحيح جعل البخاري قوله ﷺ : « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً** » عنواناً لباب قائم بذاته ، وأخرج تحته بالسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » والمراد بالعلم هنا في قوله ﷺ لو تعلمون ما أعلم ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ : ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه ، والأهوال التي تقع عند النزع والموت، وفي القبر ، ويوم القيامة ؛ ومناسبةُ كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام : واضحة ، والمراد به التخويف ، ولقد يزداد الأمر وضوحاً ، إذا علمنا أن لهذا الحديث سبباً أخرجه سُنيد في تفسيره بسنده والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما جاء فيه: «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا بقوم يتحدثون ويضحكون فقال : « والذى نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ومن خلال الفهم العميق لهذه الكلمات المضيئة الهادية ، يقولها إمام الرحماء وسيد العالمين ﷺ ، من أن المؤمن في ذكره لما سيكون في حالة النزع ، وبعد الموت ، وفي القبر ، ويوم القيامة ، تحول اليقظة الإيمانية بينه

وبين أن يكون لاهياً غافل القلب، يخوض مع الخائضين ، بل يُؤرقه ذلك ويحرك كوامن نفسه ويجعله ــ مع رجائه فضل الله ورحمته ــ خائفاً وجلاً يبكي ذنوبه ويتضرع إلى مولاه بخشوع وخضوع .. أقول : ومن خلال الفهم العَميق لتلكم الكلمة الهادية المشرقة بالرحمة والنصح للأمة ، قال الحسن البصري رحمه الله : «من علم أن الموت مورده ، والقيامة موعده ، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه » وفي كلام الحسن هذا : ما يذكرنا بقول النبي ﷺ : «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » رواه أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ، والحاكم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وقد سبقت الإشارة إليه .

وإنا لنسأل الله الذي وسعت رحمته كل شيء ، أن يجعلنا من الذين يكتب لهم هذه الرحمة ، ويأخذ بأيدينا إلى ما فيه السلامة من مشهد اليوم العظيم ، وأن يحشرنا ــ وهو الكريم المنان ــ في عداد من يقال لهم : ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ .

كيف يستوي المؤمن والكافر في الحشر؟

أن تكون حال الإنسان يوم الحشر ، على صورة تُشعـر بما كان عليه في الدنيا من إيمان أو كفر ، طـاعةً أو معصية ؛ حقيقةٌ تتبـدى بعض مظاهرهـا يوم البعث والنشور ، في مشاهد تحمل من الهول المروِّع ما تحمل ، وتؤذن بذلك الخسران المبين لأولئك الـذين عميت منهـم البصائر في الدنيـا ، وضلُّوا سواء السبيـل ... ولقد كانوا من قبل يجحدون ، أن يكون ما هم فيه من العناد والمكابرة ، سبيلَهم إلى تلك الحال التي يحشرون عليها ، وما يتلو ذلك مـن خلود في العذاب المهين . لقد نسوا الله فـأنساهـم أنفسهم ، وتـردّوا في حمأة النسيان لما أتـاهـم مـن الآيات البينـات، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة طه: ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ . ولقد آذنـت نصوص الكتـاب والسنة ــ كما سبَق ــ بما يثبت أن الكـافر يحشر على وجهه يوم القيامة، وهو ما جاء في سـورة الفرقان من قول الله جل شأنه: ﴿**الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئـك شر مكاناً وأضل سبيلاً**﴾ وكيف أن النبي ﷺ ـ كما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ـ وقد سئل عن ذلك ــ : « أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهـه يوم القيـامة » ؟ وأن قتادة قـال حين بلغه ذلـك : «بلى وعزة ربنا» .

وإذا كانت الحال التي يحشر عليها الكافر يوم القيامة ، ويبصرها الخلائق في ذلك المشهد القـاهر المهول، نتيجة طبيعية لما كسب في دنيـاه ، لأن كل امرىء بما كسـب رهين ، ولا يظلم ربـك أحداً ، فليـس من نـافلـة القول : تقـرير أن هـذه الحقيقة في وجههـا الآخر ، تشرق بما تـزخر بـه النصوص مـن مبشرات للمؤمـن ، تكشف عن رحمة الله به يوم الحشر ، جزاء ما قدَّم من العمل الصالح ، القائم على

الإيمان وما يقتضيه، فالحال التي يكون عليها المؤمن عند الحشر ،غير الحال التي يكون عليها الكافر ، وكيف تستوي في ميزان العدل الإلهي عاقبة من آمن وعمل الصالحات ، وعاقبة من جحد وكان من الضالين المكذبين . روى أبو ذر الغفاريُّ رضي الله عنه قال : « إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج : فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم في النار ، وفوج يمشون ويسعون ، يلقي الله الآفة على الظهر فلا يبقى، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها » أخرجه النسائي في كتاب الجنائز «من السنن » بإسناد حسن .

ولقد يسعف في أن نقدر كرامة الله للمؤمن في ذلك اليوم العصيب، حق قدرها ، أن نكون على ذكر من تلكم الأهوال التي تحيط بالناس في ساعات الحشر ، وما هم عليه من الترقب الذي يضرب بثقله وشدته على النفوس ، خوفاً من أن تكون السوءى هي العاقبة ؛ ولا تعجب من هذا الترقب المضني ، وقد دنت الشمس من رؤوس الخلائق ، وألجمهم العرق ، وأحاطت بهم الشدة الشادة من كل صوب !!

وفي نصوص الحديث النبوي بيانٌ أيُّ بيان لهذه الأهوال المفزعات المرعبات ، التي تكون في ذلك اليوم المشهود . كان ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام للأمة كي يأخذ المسلم بالأسباب التي تخلصه منها ، مستعيناً بالله عز وجل ، مخلصاً في العبودية له والضرع إليه ؛ عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح باباً جعل عنوانه قول الله تعالى في سورة المطففين ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ فقال رحمه الله : «باب ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾» ثم روى بسنده عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» وكان من فقهه أجزل الله مثوبته، أن عاد فأورد الحديث عن ابن عمر أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع تحت باب قول الله تعالى : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وقال ابن عباس : وتقطعت بهم

الأسباب أي الوُصُلات في الدنيا ».

وروى مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ قال: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» وفي رواية ابن المثنى قال : « يقوم الناس » لم يذكر «يوم» . وقد عنون الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم لهذا الحديث وما تلاه ، في الكلام على أهوال يوم القيامة بقوله : «باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها ».ثم إن هذا المشهد الذي تنفطر لهوله الأكباد ، حملت إلينا دواوين السنة روايات أكثر تفصيلاً في شأنه؛ الأمر الذي يزيد المؤمن حذراً على حذر ، ويحمله على المسارعة إلى أخذ الأهبة، والعمل لما بعد الموت ، والسير في طريق الصادقين الذين يُعِدُّون لذلك اليوم عُدَّته ، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾.

وتحت الباب المومى إليه قريباً ، من كتاب الرقاق في الجامع ، روى البخاري بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم » وروى مسلم بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺقال : «إن العرق ليذهب يوم القيامة في الأرض سبعين باعاً ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم » يشك ثور أيهما قال . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ إلى العجز ومنهم من يبلغ وسط فيه ــ وأشار بيده ألجمها فاه ـ رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ، ومنهم من يغطيه عرقه ـ وضرب بيده وأشار » رواه أحمد والطبراني وإسناد الطبراني جيد.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

شرُّ الندامة... يوم القيامة

من الحقائق التي لا غنى عن استدامة تقريرها ووعي مدلولها : أن ما جاء عن النبي ﷺ من كشف عـن تلك الأهوال التي تحيط بالناس يوم القيـامة ، كان ـ إلى جانب أنـه صورة من صور الأمانة في التبليـغ ـ دعوةً مؤكَّدةً إلى المنهـج المتكامل الذي على المسلم سلوكـه في الدنيا ، وهو يمضي ما قُدر لـه من العمر ، كيما يكون مرمـى بصره ـ وهـو يتحرك على ساحـة الحياة بـواقعية وبصيرة ـ سـلامةَ العـاقبة وحسن المآب في الآخرة ، فـلا ينسى ـ وهو يقـود حركة الحياة ـ أن الدار الآخرة هي دار القرار ، وأنها هـي الحياة الحقيقية ، كما قال الله تعـالى في سورة العنكبوت وهي سورة مكية : ﴿ **وما هـذه الحياة الدنيـا إلا لهو ولعب وإن الـدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ كما لا يغفل ـ وهو يخوض معركة العمل لنفسه ولأمته ـ عن تلكم العظـائم ، التي تطبع مشاهد القيامـة يوم الحشر الأكبر ، حيث الخزي المردي على الكافرين . ﴿ **و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ [الأحقاف : ٣٤] .

ولقد أخذ الصحابة رضوان الله عليهم بهذا المنهـج ، وكذلك فعل من تبعهم بإحسان عبر تـاريخ الأمة الطويـل . روى ابن أبي شيبة في «مصنفه » عـن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله : « إنما أخاف عليكم اثنين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طـول الأمل ينسي الآخـرة ، وإن اتباع الهوى يصد عـن الحق ،وإن الدنيـا قد ترحلـت مدبرة ، وإن الآخـرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنـون .. فكونوا مـن أبناء الآخرة ، فـإن اليوم عمـل ولا حساب ، وغـداً حساب ولا عمـل» وقد جـاء عن عبـدالله بن مسعـود أنه كـان يكثر في خطبـه أن يقول : «شرُّ العَـذَل ـ أي الملامـة والعتب ـ عند الموت ، وشر الندامة يوم القيامة » .

كنت مسوقاً إلى التذكير بذلك المنهج الذى لايخفى على ذي بصيرة إليه ، وبما كان له من آثار في حياة المسلمين الصادقين ؛ بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان : بين يدي الرحلة المباركة ، مع روايات أخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في شأن ما يكـون من الشدة يوم البعـث والنشور ، لبيان ما يجب مـن الارتباط بين المعرفة وبين والسلوك على هذا الصعيد . وقـد أوردت من قريب ما روى البخاري بسنده عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العرق ليـذهب يوم القيامة في الأرض سبعين باعاً ، وإنـه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم ». ورأينا تفصيلاً لهذا الإجمال ، فيما روى أحمد والطبراني . وروى الإمام مسلم في صحيحه ما يدل على أن النـاس يكونـون في العرق على قـدر أعمالهم ؛ فقال رحمه الله : حـدثنا الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنـا ابن حمزة عن عبدالرحمن بن جابر قال : حدثني سُليْم بـن عامر قال : حدثني المقداد بن الأسـود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« تُـدنى الشمس يوم القيـامة من الخلـق حتى تكون منهم مقـدار ميل. قال سُليـم بن عامـر : فوالله ما أدري مـا يعني بـا لميل ، أمسافـة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين ؟. قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهـم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكـون إلى حَقَويه ، ومنهم مـن يُلجمه العرق إلجامـاً ، وأشار رسـول الله ﷺ بيده إلى فيه » . وأخـرجه الترمـذي في كتاب صفـة القيامـة من الجامـع الصحيح ــ وهو السنـن ـ وقـال : حديث حسن صحيح .

الحَقْوُ : مشدّ الإزار عند الخصر .

ولقد يـردعلى بعض الأذهان إشكـال في هذا ، بسبـب ما عرف الإنسـان من قانون المسافة بين الشمس والأرض اليوم ، وأن ذلك في غاية الدقة، وأنها لو كانت أقرب لكـان كذا ، ولو كانـت أبعد لكان كـذا .. وجوابنا على ذلك أن هـذا الذي يتحدث عنه الـرسول ﷺ من الغيب الـذي على المسلم أن يؤمن بـه ،لأنه صادر عن الصـادق المصدوق عليـه الصلاة والسلام. ومـا اكتشفه الإنسـان ـ بطـريق

العلم ـ من قوانين ، يجب أن يصحبه أن الذي أجرى الكون بقدرته التي لا تحدُّ، وحكمتِه التي لا تتناهى : هو الله تبارك وتعالى .. وإذا كان الأمر كذلك : فهو ـ جل شأنه ـ قادر بالأولى ،على أن يحيط الناس بالأهوال ـ يوم القيامة ـ كيف يشاء، وعلى النظام الذى يريد ، فهو الخالق القادر الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ،لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .ثم إن قضية البعث والنشور كلّها ـ وبجميع مافيها هي من نوع ما نقول ؛ فالذي قدر على إيجاد الحياة من العدم ـ وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ـ قادر على أن يحي الموتى ، وأن يبعث الخلائق ليوم لا ريب فيه، وإذن فليس من العلم في شيء أن نحتكم فيما يكون من الغيب الذي جاء به الخبر الصادق، إلى قوانين اكتشفناها ــ وهي من خلق الله تبارك وتعالى ـ ثم نجعلها حاكمة على قدرة الله وحكمته خصوصاً وأن الأمر أمر عالم الغيب في الآخرة .

وفي تبيان لتلك القضية المرعبة، قضية ما يصيب الناس من العرق، وما ينالهم من النصب ، في ذلك المشهد من مشاهد ذلك اليوم العظيم، جاء في كلام الشيخ محمد بن أبي جمرة: « ومن تأمل الحالة المذكورة ، عرف عظم الهول فيها ، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدنى الشمس من الرؤوس .. فكيف تكون حرارة تلكم الأرض ، وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً ، مع أن كل واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه . فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ إن هذا لما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة . ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة أن ليس للعقل فيها مجال ، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ، ويدخل تحت الإيمان بالغيب. ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه . وفائدة الإخبار بذلك ؛ أن يتنبه السامع فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات ، ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرّع إليه في سلامته من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه».

اللهم اجعلنا من صادقي الإيمان بالغيب ، الـذين تغشاهم رحمتك ، فينالون إحسانك وفضلك في دار الكرامة والإحسان يا سميع الدعاء ، يا كريم العطاء .

يوم لا ظلّ إلا ظله

ما يزال الكلام موصولاً بالحديث عن الحشر، يوم يقوم الناس حفاةعراة غرلاً لرب العالمين ، وذلك في ضوء ما ورد من الأخبار الموثقة عن الصادق المصدوق سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وغير خاف ما تفيض به السنة ، من إبراز لتلكم الملامح المرعبة المذهلة ، التي تطبع المشاهد في ذلك اليوم الذي لا قبل للعباد بما يكون فيه إلا بفضله تعالى وعونه كما قال جل ثناؤه في سورة الحاقة : ﴿فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

وليس عجباً من العجب ـ والعرق يلجم الناس والهول لا يفتأ يشتد في الضرب على القلوب ـ أن يتمنى متمنٍّ أن يريحه الله ولو بالمصير إلى النار . فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليُلجمه العرق يوم القيامة فيقول : يارب أرحني ولو إلى النار » رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد ، وأبو يعلى ، ومن طريقه ابن حبان إلا أنهما قالا : « إن الكافر ليلجمه العرق فيقول ..» الحديث .

ومما يزيد في شدة ذلك الهول الهائل ، ويضاعفها أضعافاً مضاعفةً ، ما يبصر الإنسان ، مما يلقى غيره من الناس إضافة إلى ما يلقى هو نفسه . ولقد أشار إلى ذلك الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أخذاً مما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد روى الطبراني عنه بإسناد جيد قال : « الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ؛ والذي نفس عبدالله بيده : إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيح في الأرض قامتَه، ثم يرتفُع حتى يبلغ أنفه وما مسّه الحساب . قالوا : مم ذلك يا أباعبدالرحمن ؟ قال: مما يرى الناس ويلقون » .

وهذا الذي نرى من الإخبار عن تلكم الساعات ، المثقلة بها لا يكاد يحتمل في ذلك اليوم العبوس القمطرير ، يوجب أن يكون المؤمن أكثر استمساكاً بحبل الله المتين ، وتصديقاً بما جاء من تلك النُذُر عن سيد المرسلين ، وأن يكون أشدّ حرصاً على تزكية نفسه ، وأخذها بكل ما هو مرضٍ لله ولرسوله ، كيما يحشر في عداد أهل الفلاح إن شاء الله ، وينتظمه عقد من يقيهم الله شرّ ذلك اليوم ويلقيهم نضرة وسروراً ، ويجزيهم بما صبروا جنة وحريراً .

ولا ينسى المرء حين يذكّر نفسه والآخرين بذلك ، أن يذكر معه أن النبي ﷺ قد أسلم المؤمنين بهديه الكريم، إلى كثير من أبواب الخير ، التي إذا ولجوها ، أظلهم الله في ظله وأكرم مثواهم ، وجعلهم في زمر الناجين الفائزين . وإني مذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ببعض ما ورد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام من البشارة لأناس تزكو نفوسهم، فيكونون على المستوى اللائق، خشيةً لله ومراقبة له سبحانه ، فيوفيهم الله أعمالهم ويظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وبشذرات مما ورد من الترغيب بعمل من الأعمال ، وأن فعل ذلك من المؤمن، يكون سبيله لأن ينعم بظل عرش الله في ذلك اليوم العظيم ، الذي يتسم بمشهد الخلائق وهم يعانون من هول الحر وما ينالهم من العرق الذي يُلجم كلاً بحسبه ، كما ورد في النصوص . قال الإمام البخاري : حدثنا مسدَّد : حدثنا يحيى عن عبيدالله قال: حدثني خُبيبُ بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ إمام عادل ، وفي رواية إمام عدْل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلّق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وقد روى البخاري هذا الحديث في عدد من الأبواب في كتابه الجامع كان منها «باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد » من كتاب الأذان ، و «بابُ

الصدقة باليمين » من كتاب الزكاة و«بابُ فضل من ترك الفواحش » من كتاب الحدود ، كما أورده مختصراً في «باب البكاء من خشية الله عز وجل » من كتاب الرقاق. ورواه الإمام مسلم بلفظ مطابق تقريباً ،حيث أخرج في صحيحه بالسند المتصل عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وله عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة بلفظ « ورجل معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه » . وقد أخرج الترمذي هذا الحديث في كتاب الزهد من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ ولكن مع التخالف في قليل من الألفاظ، والتقديم والتأخير في ذكر بعض السبعة المذكورين ، المنعم عليهم بتلك الكرامة يوم القيامة ، من الإظلال في ظل عرش الله فقال رحمه الله : حدثنا الأنصاري قال: حدثنا معن قال : حدثنا مالك عن خُبيب بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه ، إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله، فاجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» . قال أبوعيسى وهذا حديث حسن صحيح .

والله المسؤول أن يقينا شدة الهول يوم الدين ، وأن يكرمنا بما يكرم به عباده الصالحين . فيظلّنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وصلاة الله وسلامه على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .

من سبل النجاة.. في الهدي النبوي

عندما يدار الحديث عن يوم الفصل ــ وما أدراك ما يوم الفصل ــ وتعلن النصوص إعلانها في شأنه خطاباً للعقول والقلوب ، كيما يحسن المؤمن التزود لرحلة البقاء ، يبدو من الضرورة بمكان ، استذكار حقيقة أن النبي ﷺ لم يدع باباً من أبواب الخير إلا دلّ أمته عليه ، ورغّب فيه ، ولا باباً من أبواب الشر إلا نبّه إليه وحذّر منه ، كل أولئك كان منه ـ فداه أبي وأمي ــ درءاً للجهالة والسقوط ، وحرصاً على حسن العاقبة، والمعافاة من تلكم العظائم التي تشهدها عرصات القيامة ، يوم يشتد الكرب فلا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . إن وعد الله حق .

والهدي النبوي ــ وهو بيان الكتاب المعجز ــ يفيض ترغيباً وترهيباً بهذه الحقيقة ، فهو نور يهدي إلى ما فيه سعادة الدارين ، والنجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين . أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ـ أو كلمة نحوها ـ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ، ويصلُ فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو نيته فأجرهما سواء ، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربّه ، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته فوزرهما فيه سواء » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام

أحمد في المسند والبغوي في « شرح السنة» . وجاء عند أحمد أيضاً برواية فيها شيء من الاختصار ، قال رحمه الله : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر رجلٍ أتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ،فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء . ورجلٍ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فيه ، ينفقه في غير حقه . ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً يقول : لو كان لي مال مثل هذا ،عملت فيه مثل الذي يعمل . قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء ».

ودلالة هذا الحديث، على ما يصل بالمؤمن ـ أن لو عمل بمقتضاه ـ إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة ، دلالة واضحة ليس فيها لبس أو غموض ، وهنالك ينجو بفضل الله، مما يعاني الناس في مشاهد القيامة ، من الهول وما ينتابهم من الرعب الشديد ... وما على المؤمن ـ إذا كان على ذكر من يوم الحساب وما فيه ـ إلا أن يسلك طريق النجاة التي أوضح معالمها ، من أرسله الله رحمة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

وفي خطوة أخرى ، على هذه الساحة من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في تحديد المنهج الذي على المؤمن أن يسلكه ليكون ـ بفضل الله ورحمته ـ من الناجين الفائزين برضوان الله يوم الحسرة ، حيث تحدق الأهوال المتلاطمة وتبلغ القلوب الحناجر ، ويلجم الناس العرق ، ولا يسأل حميم حميماً ... في خطوة أخرى على هذه الساحة ، تطالعنا كلمات نورانية في ذلك الهدي الكريم ، تبصرّ المؤمنين بحقيقة هي على غاية الأهمية ، كيما يتنبهوا ، ويحذروا ، ويعملوا على أن لا تضرب الغفلة على قلوبهم ، تلك الحقيقة هي: أن الجنة قد حفت بالمكاره ، وأن النار قد حفت بالشهوات ، والسعيد السعيد من اجتاز الابتلاء؛ وهو اختبار يتناول ميادين الحياة كلها من حيث السلوك، فإما إلى جنة عرضها السماوات

والأرض، وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعْنب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت وحميد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات » وكذا رواه الترمذي ورواه مسلم بهذا اللفظ ، لفظ حفت عن أبي هريرة أيضاً ، فقال : وحدثني زهير بن حرب قال : حدثنا شبابة قال : حدثني ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله .

ونجد الحديث عند البخاري بلفظ « حجبت » على الأكثر وبلفظ « حفّت» أيضاً ؛ فقد عقد رحمه الله في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه «باب حجبت النار بالشهوات» ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » .

والحق أن الامتحان شاق وعسير ، ولكنه يسير على من يسّره الله عليه ؛ فالمؤمن يعزم عزمته مستعيناً بالله عز وجل ، فيصبر على اقتحام المكاره التي تقوده إلى الجنة ، ويصبر على محاذرة تلكم الشهوات التي تسوقه إلى النار وتجعله يعاني ما يعاني من أهوال اليوم العظيم،وسبحان من إليه المرجع والمآب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

العقبى بين المكاره والشهوات

في معرض التذكير بحقيقة كبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام، تتعلق بنصحه للأمة في الدلالة على طريق الخير وأبوابه، والترغيب بها والدعوة إليها ، والتنبيه على أبواب الشر ، والترهيب منها والتحذير من سلوك مسالكها ، الأمر الذي يضمن للمؤمن ـ بفضل الله وجميل عطائه ـ أن ينجو يوم الحسرة مما يغشى تلكم المشاهد من الهول ، وأن يكون ممن يفوزون بالجنة التي فيها ـ كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

أقول: في معرض التذكير بهذه الحقيقة، التي يجدر بالمؤمن أن يكون أبداً على ذُكر منها ، يحتاج الأمر إلى مزيد من الاستنارة بما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه من قول النبي عليه الصلاة والسلام : « حجبت النار بالشهوات وُحجبت الجنة بالمكاره» وبما أخرج مسلم عن أبي هريرة أيضاً ، وما أخرج هو والترمذي برواية أنس رضي الله عنه من قوله ﷺ : «حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» قال الإمام النووي في شرحه لرواية مسلم :«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات » هكذا رواه مسلم «حفت» ووقع في البخاري «حُفت» ووقع فيه أيضاً « حجبت» وكلاهما صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث برواية «حجبت» عند البخاري: كذا للجميع في الموضعين ـ يعني «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» إلا الفرْويَّ فقال : « حفت» في الموضعين ، وكذا هو عند مسلم من حديث ورقاء بن عمر عن أبي الزناد ـ يعني عن الأعرج عن أبي هريرة ـ وكذا أخرجه مسلم والترمذي من حديث أنس .

وليس يخفى على ذي بصر في أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام ، أن هذا

الحديث ـ بروايتيه « حفّت» و«حجبت» وكلاهما صحيح كما قال الإمام النووي ـ هو من بديع الكلام وفصيحه ، ومن جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ من التمثيل الحسن ، حيث المعاني الغزيرة في الكلمات القليلة ، وحيث البلاغة التي لا تكاد تدانى في كلام البشر ، والأسلوب الرائع الفريد في كلام خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، المتسق الاتساق كله ، مع أمانة البيان للكتاب الكريم المعجز، والمعنى: أن الجنة ـ كما قال العلماء ـ لا توصل إلا بارتكاب المكاره وأن النار توصل بالشهوات ، وكذلك هما محجوبتان ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار باقتحام الشهوات ، فأما المكاره : فيدخل فيها الجهاد في سبيل الله والاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها ، وكظم الغيظ والعفو والحلم ، والصدقة، والإحسان إلى المسيء ، والإنفاق في سبيل الله . والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر عن الشهوات ، والصبر على ما يصيب المؤمن في سبيل مرضاة الله عز وجل ورفع الظلم عن المسلمين ونحو ذلك ... وأما الشهوات التي النار محفوفة بها : فالظاهر ـ كما يقول الإمام النووي ـ أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك من كل ما هو محرم ، وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجر إلى المحرمة ، أو يجعل القلب قاسياً ، أو يشغل عن الطاعات ، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك .

هذا وقد أخرج الترمذي الحديث المشار إليه في «كتاب صفة الجنة» من الجامع الصحيح ـ السنن ـ ، وأورد رواية أنس رضي الله عنه ولفظها ـ كما ذكرت آنفاً ـ «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح . ثم أورد الحديث الذي يعتبر ـ بحق ـ تفصيلاً لما أجمل في سابقه ، فروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريلَ إلى الجنة فقال : انظر إليها و إلى ما أعددت

لأهلها فيها قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها قال : فرجع إليه، قال : وعـزتك لا يسمع بها أحـد إلا دخلها ، فأمـر بها فحفت با لمكـاره ، فقال : ارجع فـانظر إلى ما أعـددت لأهلها فيها ، قـال : فرجع إليهـا فإذا هي قـد حفت بالمكاره ، فرجـع إليه فقال : وعزتك لقدخفت أن لا يدخلهـا أحد . قال : اذهب إلى النار ، فـانظر إليهـا وإلى ما أعـددت لأهلها فيهـا ، فإذا هـي يركـب بعضها بعضاً، فـرجع إليه فقال : وعـزتك لا يسمع بها أحـد فيدخلها ، فأمـر بها فحفّت بالشهوات فقال : ارجع إليها ، فرجع إليه فقال ، وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها » قال : أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن حبان والحاكم والبغوي في شرح السنة .

وإني داع بما يدعو به عباد الله الصالحون : اللهم أجرنا من مشاهد هذا الهول يوم الحشر الأكبر ، ونسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه واتبع سنته وجاهـد في الله حق جهاده إلى يوم الدين .

بين المكاره والشهوات... الامتحان العسير

إنها لصورة عظيمة بالغة القوة والتأثير ، تثير القلب والعقل ، وتحفز إلى تخطي العوائق ، تلك التي أبرز النبي ﷺ ببيانه الفذ من خلالها ـ وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ـ أن بين المرء ، وبين أن يفوز بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، مهام عليه أن يقطعها ، بصدق الإيمان وصالح العمل ، ولو كان في ذلك شديد المخالفة للنفس والهوى ، وما يكون من حب النفس للعافية من المكاره والمصاعب .. تلك الصورة القوية المؤثرة هي التي أشرق بها قوله عليه الصلاة والسلام ــ على شيء من الاختلاف في الروايات ــ : «حفّت الجنة بالمكاره » أو «حجبت الجنة بالمكاره». وهذا جزء من حديث تحمل تتمته ـ كما سبق ـ صورة أخرى ليست أقل عظمة و إثارة للقلوب والعقول ، وحفزاً للهمم على تجاوز الصعاب، بغية الفوز بمرضاة الله تعالى ، والنجاة يوم الحسرة من عذاب غليظ.. أعني قوله عليه الصلاة والسلام : « وحفّت النار بالشهوات » أو «وحجبت النار بالشهوات » إنها صورة تقابل سابقتها ، ويبين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من خلالها ، أن بين المرء وبين لظى النزاعةِ للشوى ، حاجزاً عليه أن يطوِّع نفسه على عدم تخطيه وتجاوزه، لأن تخطيه وتجاوزه يعنيان الوقوع في حمأته ، والسقوط المردي في جهنم وبئس المهاد . ذلك الحاجز أو الحجاب : هو الشهوات المقعدة عن الخير وعمل الصالحات ، ولفظ الحديث يشمل تلك الشهوات ، بمختلف أنواعها وألوانها وبواعثها .

والنظر في الروايات ـ على تعددها ـ يسعف في تجلية المعنى المراد، والاستنارة بما قَصد إليه بهذا البيان نبي الهدى عليه الصلاة والسلام . ولعل من الخير التذكير بأن الحديث، حمل طابع الإجمال في روايتي الإمامين البخاري ومسلم، وهذا الإجمال الذي يؤدي غرضه في الكشف عن بواعث الصراع بين المؤمن والمكاره،

وبينه وبين الشهوات ، رأينا تفصيلاً له من قريب فيما روى أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرك والبغوي في شرح السنة ، حيث أوردتُ رواية الترمذي . ونحن على موعد مع مزيد من الإيضاح لهذه القضية الكبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يتحرّى لـلأمة طرائق الخير ، ويسلك بها مسالك الأمن يوم الخوف في عرصات القيامة ، وحسن المآب في البعد عن النار ودخول الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين . ها نحن أولاء نجد الحافظ ابن حجر يقرر في تناوله الحديث عند البخاري ، أن هذا النص الكريم من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها . واتجه الحافظ رحمه الله إلى أن الحديث الذى جاء فيه شيء من التفصيل لهذه القضية ، التي لها مالها من أثر في سلوك المؤمن ، من حيث البعد عن الغفلة ، والتطلع إلى العاقبة يوم الدين، فيه إيضاح الحديث الذى أدير عليه الكلام ، ولذلك أورده معزواً إلى من رواه واستعان بذلك على مزيد من وضوح المعنى وبيانه ،يقول رحمه الله: وقد ورد إيضاح ذلك من وجه آخر عن أبي هريرة ، فأخرج أبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريلَ إلى الجنة فقال : انظر إليها ، قال : فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها ، فرجع فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفّت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجوَ منها أحد ».

ثم بين أن هذا يفسر رواية الأعرج يعني رواية «حفت الجنة بالمكاره ، أو حجبت » الحديث، فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة نفسه فيه فعلاً وتركاً، كالإتيان بالعبادات على وجهها ، والمحافظة عليها ، واجتناب المنهيات قولاً

وفعلاً ، وأطلق عليها المكـاره، لمشقتها على العامل ، وصعوبتها عليـه، ومن جملتها الصبر على المصيبة ، والتسليـم لأمر الله فيهـا ، والمراد بالشهـوات : ما يستلـذ من أمور الدنيـا ،مما منع الشرع من تعاطيه ، إمـا بالأصالة ، وإما لكـون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات ، ويلحق بذلك : الشبهات ، والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم ، فكأنه قال :لا يـوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بـا لمكاره ، ولا إلى النـار إلا بتعـاطـي المحرمـات ، وهما محجـوبتـان : فمن هتـك الحجاب اقتحم .

ويمكن القول بـأن الحجاب الأول ، وهو ما دون الجنة مـن المكاره ، مطلوب اقتحامه ، أما الحجاب الثاني وهو مـا دون النار من الشهوات : فالمطلوب محاذرته والبعـد عنه ، لأن اقتحـامه يعنـي الوقـوع في النار والعيـاذ بالله ، يـؤكد ذلـك أنَّ «حُفَّت» ـ كما في الروايات الأخر ـ من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء ، فلا يتوصل إليه إلا بتخطيـه كما في قولـه تعالى في سـورة الكهف : ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ أي جعلنا النخل مطيفة بأحِفَّتِها . فالجنة لا يتوصل إليها إلا بصدق العزيمة في قطع مفاوز المكاره ، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات . على اتساع ميادين المكاره في كل ما يطلب من المسلم فعله ، واتساع ميـادين الشهوات في كل ما يطلب من المؤمن تركه .

وجميل ما كان من صنيع القاضي أبي بكر العربي في كتابه « عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي» فبعد أن أشار إلى روايتي « حفّت » «وحجبت» بيَّن رحمه الله أن معنى « حجبت » جُعلت المكارهُ بينها وبين طالبها حجاباً ؛ فلا يصل إليها حتـى يقتحمها ، وكـذلـك قـوله : « حفّـت» معنـاه جُعلـت حِفافَيْهـا : أي على جوانبها، وهو الحجـاب بعينه ، لأن لفظ الحجاب أبلغ في بيان المنـع من الوصول لأنه أخـص به في الضِّـدِّية وقـوله: « حفت النـار بالشهـوات » مثله في التنـزيل، وعكسـه في المعنـى .. وفي بيـان لروعـة التعبير النبـوي وسمـو الأداء الموصـل إلى المطلوب العظيـم بهذه الكلمات القليلة الجامعـة قال رحمه الله : (وهـو من بـديع

الفصاحة وغريب البيان ؛ فمعنى « حفت النار بالشهوات » أن الشهوات موضوعة على جوانبها ، فمتى اقتحم الشهوة سقط في النار ، وكذلك قوله «حُجبت»، أي جعلت الشهوات حجاباً بين العبد وبينها ، فإذا أتى الشهوة دخل النار ، لارتباطها معها واتصالها بها ،وأنها خطاطيفها ، فالنار لا يقصدها مرتكب الشهوة ،وإنما يقع فيها بالتسبب ، والجنة يطلبها ويقصدها المرء عن علم ، ولا يصل إليها إلا باحتمال المكروه . وفي هذا قال النبي ﷺ :« لما خلق الله الجنة والنار قال لجبريل : اذهب إلى الجنة فانظر إليها ، فرجع إليه وقال له : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ـ يعني اشتاق إلى دخولها أو احتال على دخولها ـ فلما خلق المكاره حولها قال له : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ،»وبمثل هذا أيضاً كان القول في النار).

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ بما بلَّغ فأحسن أيَّما إحسان ، وبين فسما بيانه أيَّما سمو ، ونسأله تعالى مزيداً من لطفه وتوفيقه .

من الخير ومبشرات التـوفيق للمـؤمن ،أن يكـون دائم الصلة بما يـذكره بـالله واليوم الآخر ، وما نطقت به السنن الإلهية من التكليف في هذه الدار العاجلة ، وما ينتظر المرء في دار الجزاء يوم يؤخـذ بالنواصي والأقدام ، ويوفَّى كل إنسـان حسابه كاملاً غير منقوص .

ومما يضمن دوام هذه الصلـة ، ويجعل منها المورد الثر ، بالطاعـة الذي يباعد بين المؤمن وبين الغفلة : النظر ببصيرة فيما ورد عن رسـول الله ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ في شأن اليـوم الموعود ، بشارةً كان ذلك أو نذارةً ، تـرغيباً أو ترهيباً، خصوصاً وأن إمام الهداة صلوات الله وأزكـى تسليماته عليه ، لم يدع أن يكون خير ناصـح في ذلك البيـان ، ولم يغفل شـاردة ولا واردة على ساحـة الهدى والتبصير . روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لاتتمنوا الموت فـإن هول المطّلع شديـد ، وإن من السعادة أن يطـول عمر المرء ويرزقـه الله الإنابة» وروي عـن عمر رضي الله عنـه قوله : « لـو أن لي ما في الأرض جميعاً لافتديـت به من هول المطّلع » .قـال ابن الأثير في النهاية : « يريـد بالمطَّلع الموقف يوم القيامـة ، أو ما يشرف عليه من الآخرة عقيب الموت ، فشبهـه بالمطّلع الذي يشرف عليه من موضع عال».

ومما يفرح قلـب المؤمن أنه ـ مع الـوعيد الشديد ، كما أسلفـت، والكشف مما يطبـق على العباد في ذلـك اليـوم المهول مـن الهم والفـزع البـالغين ، ومن تلكـم المخاوف التي لها سلطان أيُّ سلطان على النفوس ـ هنالك ما يبشر المؤمنين الذين يخلصون لله دينهـم ، ويجدُّون في عمل الصالحات ، والجهـاد في سبيل الله ــ وذكر رسول الله ﷺ فئـات منهم ــ أن الله يظلهم في ظلـه يوم لا ظـلَّ إلا ظلُّه ، وكنـت

أوردت في معرض الإشارة إلى ذلك ، ما صحّ عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله ... » الحديث .

ومما ينشرح له الصدر ، ويدخل على قلب المؤمن ما يجعله مسروراً ، فرحاً بفضل الله ورحمته ، أن العدد في هذا الحديث لا مفهوم له ، فلا يعني تعبير «سبعة» أن إظلال الله في تلكم الساعات المثقلة بالشدة والترقب المضني الذي لايكاد يوصف لما يحدث من القلق ـ مقصور على السبعة المذكورين ـ بمعنى أن ليس لآخرين سواهم تلك الكرامة التي يتفضل الله بها على أهل القرب ، فيكون الروح والريحان ـ بل الفضل أوسع وأشمل ؛ فهناك العديد من النصوص التي تؤكد ما لبعضهم ، وتبشر غيرهم بما عند الذي لا تنفذ خزائن رحمته ولا ينقصها العطاء. قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس فيما قرىء عليه عن عبدالله بن عبدالرحمن بن معمر عن أبي الحُباب سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » وكذلك رواه أحمد والدارمي. وظاهر النص ــ كما ترى ـ أن هؤلاء المتحابين بجلال الله ، بعظمته وطاعته لا للدنيا ، يغمرهم هذا الفضل ، فيكونون في ظله سبحانه من الحر والشمس، ووهج الموقف، وأنفاس الخلق ، وهذا ـ كما يقول القاضي عياض ـ قول الأكثرين . ونقل الإمام النووي عن عيسى بن دينار أن المعنى: كفُّهم من المكاره وإكرامهم، وجعلهم في كنفه وستره . ويبدو ـ والله أعلم ـ أن المآل واحد ، فإنهم ينعمون بهذه الكرامة الربانية من الإظلال والستر ، وهم بأشد الحاجة إلى ذلك ، ولله الحمد والمنّة .

وجاء هذا الحديث عند مالك في الموطأ بلفظ « لجلالي» باللام عوضاً عن «بجلالي» بالباء . والأنس بعبير الرحمة التي يفيض بها هذا النص الكريم، لمن يرقون إلى منزلة التحاب لعظمة الله لا للدنيا ، يأخذ بأيدينا إلى ميدان آخر من ميادين العطاء الإلهي في ساعات لا يسأل فيها حميم حميماً ، حيث دلّ رسول الله

أمته على ما يكون سبباً لهذا العطاء .

ففي باب الجهاد ، ومعاونة المجاهدين والغزاة في سبيل الله ، نقع في هدي النبي ﷺ على ما يبشر به من يكون عوناً للغازي في سبيل الله ، بالقدر الذى يستطيع ، أن له بذلك أن يظله الله يوم القيامة ، وأكرم بها من بشارة، ترتفع بالمؤمن المصدق بما يكون من أهوال الآخرة ، والرهق الذى يصيب الناس في المحشر ، إلى تجاوز ما يقعد عن الجهاد ومعاونةأهله ، كيما يفوز بمرضاة الله ويكون في عداد أولئك الذين تشملهم نفحات الرضا ، فيظلهم الله في ظله يوم لاظل إلاظله . قال الإمام أحمد في المسند ، حدثنا أبوسلمة الخزاعي قال : أنبأنا ليث ويونس قالا : حدثنا ليث عن يزيد بن عبدالله بن أسامة بن الهاد عن الوليد بن الوليد عن عثمان بن عبدالله ـ يعني ابن سراقة ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أظل رأس غاز أظله الله يوم القيامة، ومن جهز غازياً حتى يستقل ، كان له مثل أجره حتى يموت . قال يونس : أو يرجع ، ومن بنى لله مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة** » .

معنى «قال يونس: أو يرجع » أن يونس زاد في روايته بعد قوله أو يموت زاد «أو يرجع ». وتجدر الإشارة إلى أن راوي الحديث عثمان بن عبدالله بن سراقة ، أمه زينبُ بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فهو سبطه ، وقد روى عثمان عن جده مرسلاً ، كما أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه حديثه عن جده عمر بن الخطاب ، ومقتضاه ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ أن يكون سمع منه ، فالله أعلم. وقد ذكر الحافظ رحمه الله أنه وقع مصرحاً بسماعه منه عند أبي جعفر الطبري في كتابه « تهذيب الآثار» وذلك في ثلاثة أحاديث، منها الحديث الذى نحن بصدده . والحديث رواه أيضاً أبو يعلى الموصلي في مسنده، والحاكم وابن حبَّان والبزار ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي فقال : صحيح .

وعلى ساحة التعامل الاقتصادي ، وتنمية روح التعاون الأخوي بين المسلمين،

وإبعاد ما يكون من الجشع والطمع ، جاء الترغيب من النبي ﷺ لمن ينظر معسراً، أو يضع عنه من الدين: أن الله يظله في ظلـه يوم القيامة . روى مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويـل وقصة أبي اليَسَر ، أن النبي ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنـه أظله الله في ظله » وروى الإمـام أحمد بسنده عـن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أظل الله عبداً يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك لغارم » ونجـد عند الترمذي منْ روايـة أبي هريرة رضي الله عنه قـول النبي عليه الصـلاة والسلام : « من أنظر معسراً أو وضـع له، أظله الله يوم القيـامة تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله ». والذي عند ابن ماجه من رواية أبي اليسر رضي الله عنه قـوله صلـوات الله وسلامـه عليه: « مـن أحب أن يظلـه الله في ظله ، فلينظـر معسراً أو يضع له » .

والصدقة طريق ميمونة إلى فضل الله بالإظلال في ساعات الحشر ،وما أدراك ما سـاعات الحشر . روى الإمام أحمد عـن مرشد بن عبـدالله اليَزَني قال : حـدثني بعـض أصحاب النبـي ﷺأنه سمـع رسـول الله ﷺ يقول : « إن ظـل المؤمن يـوم القيامه صدقته» وفي رواية أخرى عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « كل امرىء في ظل صدقته ، حتى يفصل بين الناس أو قال : يحكم بين الناس».

أعود إلى التذكير النافـع إن شاء الله مرة أخرى ، بأن ما أوردتـه من النصوص المبشرة بظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، ليست للحصر ، ولكنها إيذان بأن طرق الخير الموصلة إلى النجـاة من أهوال القارعـة ، مفتحة الأبواب لمن يعملـون الصالحات، طـاعةً لله ولـرسولـه مخلصين ، ويستعلون على حطـام الدنيـا وزخرفهـا ، واضعين نصب أعينهـم أن يوم الديـن آتٍ لا ريب فيه ، وأن العاقـل من أخلص الـوجهة وتزوّد لذلك اليوم بخير زاد ... ويا بؤس من تقعده الغفلة عن المسارعة قبل فوات الأوان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ونضع الموازين القسط ليوم القيامة

من علامات الإيمان واستنارة القلب باليقين ، أن ترى المسلم ، خالص الوجهة في العبادة ، صادق العزيمة في التزود ليوم الحساب ، فتراه يُعدُّ العُدَّة لتلكم الساعات التي تعرض فيها الأعمال على الله ، فلا تخفى عليه جل شأنه من العباد خافية ، وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون . وغير خاف ما لتلكم الساعات من الثقل، كما أنها ساعات مترعة بالجهد والضيق الشديد ، يرى المرء رأي العين ـ وهي مطبقة عليه ـ مصداق قول الله جل شأنه في سورة الأنبياء : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ . فالحق تباركت أسماؤه وتقدست صفاته، يعطي كل ذي حق حقه ، كما جاء في الكتاب العزيز ، وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو سريع الحساب ، وكل شيء محصىً عنده في كتاب، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وعند العرض يوفي كلاً حسابه ويجازيه بعمله ، ولا يظلم ربك أحداً .

ولقد كان من دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ وهو يتوجه إلى البارىء مالك يوم الدين الذي يقف العبادَ في يوم الفصل للسؤال والجزاء ـ كان من دعائه بارك الله عليه وعلى آله في العالمين : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ قال العلماء : أي يوم تحاسب عبادك بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

من هنا كان ما نجد في الهدي النبوى ـ بياناً لما في القرآن الكريم ـ من الدعوة إلى يقظة القلب، لكيلا تعمى البصيرة ، فينسى المرء يوم الحساب ، ذلك لأن نسيان ذلك اليوم، ظلم للنفس ، ووقوف بها على حافة الهاوية ، يوم العرض

الأكبر والحساب ، وأي هاوية أشد وأعتى، من الوعيد الذي يحمله قول الله تعالى في سورة صّ ﴿ **إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾. لقدحق عليهم العذاب الشديد، بما تركوا من سلوك طريق الله الذي يباعد بين الإنسان وبين نسيان الآخرة، ووقوف العباد بين يدي رب العالمين. أو بأنهم تركوا العمل بما يقتضيه الإيمان بذلك اليوم ـ فصاروا كالناسين. والحسابُ ـ في واقع الأمر ـ قريب قريب، وطوبى لمن وضع هذه الحقيقة نُصب عينيه ، في هذه الدنيا ، ولم يقع في شرك الغفلة والنسيان واستبدال العاجلة بالآجلة ، ولقد جاء التحذير من الإعراض عن تلكم الحقيقة نتيجة الغفلة مبكراً في القرآن ؛ فقد افتتحت سورة الأنبياء ـ وهي سورة مكية ـ بقول الله جل ذكره : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ أخرج النسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿ **في غفلة معرضون** ﴾ قال «في الدنيا». وليس بدعاً أن يكون لمدلول هذه الآية، وما توجه إليه من التدبر والتذكر ، من أثر بالغ في سلوك من أكرمهم الله بيقظة القلب وتفتح البصيرة ، ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روي في ترجمة عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلّم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعَقِبك من بعدك. فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون**﴾ وروى الحافظ ابن عساكر قول بعضهم: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

فقيل له : من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ .

وإنه لمشهد عظيم من مشاهد القيامة ، جدير بأن يوقظ القلوب ، ويشحذ

العزائم للعمل الذى يُعقب ـ بفضل الله ـ النجاة يوم العرض الأكبر ، حيث يقول جبار السماوات والأرض: ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ أجل إنه لمشهد بالغ العظمة، توحي به الآية التي أشرنا إليها من قبل ، وهي الآية السابعة والأربعون من سورة الأنبياء ونعني بها قول الله عز وجل: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ وكم في حديث النبي ﷺ من النماذج التي تعكس ما يحمله هذا المشهد ـ الذى يضم الخلائق وموازين الأعمال ـ من علم الله المحيط، وقدرته التي لا تدانيها قدرة ، وعدله المطلق جل شأنه وله سبحانه المثل الأعلى ـ ناهيك عن الرحمة التي وسعت كل شيء ، وهو الحكيم في وضعها حيث يشاء . من هذه النماذج ما روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه الميزان قال : فيبعث به إلى النار ، قال : فإذا أدبر به، إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لا تعجلوا فإنه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها (لا إله إلا الله) فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان ».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح فزاد ؛ أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلك » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، ـ يعني ويصيح ـ فقال رسول الله ﷺ : ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها**

وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ، وإني أشهدك أنهم أحرار كلهم » .

هكـذا تعمل الهدايـة عملهـا ، في نفـوس الصادقين في التطلـع إلى الهدايـة، فتراهم إذا ذكِّـروا بيوم القيامة والحسـاب ، ذكروا ، فسما بهم حب الآخرة ومـافيها لأهل الإيمان ، على زخرف الـدنيا وحطامها ، وذلك طريـق أهل النجاة المفلحين الذين صفت قلوبهم من الأكدار ، فـانتفعوا بالهدي المحمَّدي ؛ إخلاص وجهة ، وعملاً للآخرة ففازوا بحسـن المآب في يوم لا مردَّ له من الله ﴿ إن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾.

من نوقش الحساب هلك

مـا أكثر مـا يقع النـاظـر في حديـث الـرسول عليـه الصلاة والسـلام : على النصوص التي تزيده يقيناً على يقين، بأن نبينـا ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى، حتى أدى أمانة البيان لكتاب الله الكريم ، خيـر ما يكون الأداء ، وبلغ عن ربـه ما أراد ـ جل شأنه ـ أفضل وأحكم ما يكون التبليغ .

وغير خاف ، أنَّ كثيراً من القضايا الكبـار ، كان يمكن أن تظل على إجمالها، أو عمومها و إطلاقها ، لولا بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك : العديد مـن الأمور العظـام التي ستكـون يوم القيـامـة ، وفي مقدمتهـا الحساب والنـاس معروضون على ربهم ،لا يملك الواحد لنفسـه ضراً و لا نفعاً إلا ما شاء الله . ولعلّ مـن المسلمات التي لا غنـاء عن استذكارهـا على الـدوام ، ما يجب على المؤمـن سـلوكه ـ كما أسلفـت غير مرة ـ من الاستعـداد لتلكم الساعات المثقلـة بالشدة ، حيث يقف الناس للمساءلة بين يدي رب العالمين ، وحيث الحقيقة المعلنة في قول الله جل شأنه : ﴿ **ونضع الموازيـن القسط ليوم القيامـة فلا تظلم نفـس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾. ولكن ما هي أبعاد ذلك بالنسبة للخلق ؟ أهو العرض ؟ أم هو مناقشـة الحساب ؟ ذلك ما تكفلت ببيانه السنة المطهـرة وكان من رحمة الله بـالناس: أن فصّل الإجمال الـوارد في كتاب الله ، من قلّده الله أمانة البيان عليه الصلاة والسلام .

هذه عائشة رضي الله عنها تسمع رسـول الله ﷺ يقول: « من حوسب عذب» وفي رواية «من نوقش الحساب عذب» فيقع ذلك من نفسها موقع الاستغراب مع الذى تعلم من قول الله تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ وهنـالك تحرص على أن تفهـم بيان ذلـك مـن صاحـب الشريعة عليـه

الصلاة والسلام ؛ ويؤدي رسول الله الأمانة ، ويجلّي ذلك الأمر على أتم صورة ـ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله ـ وكان من فقه الإمام البخاري رحمه الله أن استنبط من ذلك مراجعة من سمع شيئاً حتى يعرفه ، فعقد في كتاب العلم من جامعه الصحيح باباً عنوانه : « باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه» وقال هناك : حدثنا سعيد بن أبي مريم قال : أخبرنا نافع بن عمر قال : حدثني ابن أبي مُليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأنَّ النبي ﷺ قال : « من حوسب عُذب» قالت عائشة: فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قالت : فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك » .

والمراد بالعرض : عرض الناس على الميزان . ونوقش من المناقشة وأصلها الاستخراج ــ ومنه نقش الشوكة إذا استخرجها. والمراد هنا ــ كما يقول العلماء ـ المبالغة في الاستيفاء ؛ فمناقشة الحساب:تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه ، ولكن أين ما عند العبد أن يقوم لذلك؟ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (والمعنى أن تحرير الحساب يفضي إلى استحقاق العذاب ، لأن حسنات العبد موقوفة على القبول ، وإن لم تقع الرحمة المقتضية للقبول، لا يحصل النجاء) .

وفي الحديث ـ كما نرى ــ ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم ما تسمع من النبي عليه الصلاة والسلام ، جزاها الله عن المؤمنين والمؤمنات خير الجزاء، وأن النبي ﷺ ، لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم ، بل يتسع صدره لكل ما فيه سلامة البيان وإيصال الخير لعباد الله ، لما أنه المؤتمن على بيان الكتاب ، المبلغ ـ وهو صلوات الله وسلامه عليه الصادق المصدوق ـ عن الله ما أراد.

وعند الكلام في « التفسير » من الجامع الصحيح عقد الإمام البخاري عند الكلام على سورة ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ باباً عنوانه ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ وروى بسنده هناك أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب إلا هلك. قالت : قلت يارسول الله جعلني الله فداءك ،

أليس يقول الله عز وجل : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾؟ قال : ذاك العرض يُعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك ». وفي رواية لمسلم والترمذي وأبي داود ، وهي عند البخاري أيضاً قال ابن أبي مُلكية : « إن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبي ﷺ قال: من نوقش الحساب عذّب ، فقالت: أليس يقول الله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ ؟ فقال : إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ». وفي رواية « وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذّب» . وأخرج الترمذي في التفسير من كتابه الجامع بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيﷺ قال : « من حوسب عذب».

هكذا كشف النبي عليه الصلاةوالسلام ببيانه الفذّ ، عن هذه الحقيقة، وهي أن المراد من الآية الكريمة العرض ، حيث تعرض أعمال الناس على الميزان الذي يقيمه الله يوم القيامة بالقسط ، فيزن أعمال العباد ، ويجازيهم بتلك الأعمال ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر . أما من وقع في التحقيق والتدقيق والاستقصاء ــ ولا يكون ذلك إلا بما كسبت يداه ــ: فهو هالك، يكون نصيبه العذاب في جهنم وساءت مصيراً . ذلكم ما رأينا من قوله صلوات الله وسلامه عليه إيضاحاً لعائشة رضي الله عنها : «إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامةإلا هلك» . وكان الذي استوقف أم المؤمنين رضي الله عنها قوله عليه الصلاة والسلام ـ كما رأينا ـ من «نوقش الحساب عُذّب» مع أن الله تعالى يقول : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ .

أما بعد : فإن بيان النبي ﷺ لهذه القضية الكبرى ــ وهو الرحيم بأمته الحريص على نجاتها يوم الدين ـ جدير بأن يدفع المؤمن دفعاً صادقاً ، إلى مراجعة رصيده من العمل في الدنيا ، وهل هو جارٍ على سَنَن العمل المقبول صحةً وإخلاصاً ، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسَب، نسأل الله أن يتغمدنا بفضله ورحمته ويجعلنا من الذين لايُناقَشون الحساب يوم المعاد ، إنه أرحم الراحمين .

تحللوا من مظالمكم قبل يوم الحساب

إذا ذكر الرحماء من عباد الله ، فحيَّهلا بالرحمة المهداة نبينا محمد ﷺ سيد الرحماء ، فلقد أرسله الله رحمة للعالمين ، وجاء وصفه في الكتاب الكريم أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وإنها لرحمة تظهر آثارها ـ بلا استثناء ـ في كل جانب من جوانب هديه صلوات الله وسلامه عليه ، وحسبك أنه ﷺ لم يدع طريقاً يبلغ بصاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، إلا سلكه ودل الأمة عليه ، ولاطريقاً يودي بصاحبه إلى الشقوة ، إلاحذر منه ورغب عنه ؛ كل ذلك ببالغ الحكمة ورائع البيان.

وددت التذكير بهذه الحقيقة، التي لا يرتاب فيها إلا من عشيت منه البصيرة ، وسفه نفسه ، وانقلب ـ جامد الحس ، خبيث النفس ـ على عقبيه ، بين يدي التذكير مرة أخرى ببعض ما وجّه إليه النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في شأن السبيل المنجية يوم الدين ، يوم ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ وترى المشاهد المروّعة ،والأهوال الآخذ بعضها برقاب بعض، هنالك لا مفر ولا وزر ﴿ **إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ ، الناس موقوفون لرب العالمين، وأعمال العباد معروضة عليه سبحانه ، والموازين القسط، تؤذن بنتائج الأعمال، وحصاد ما زرع في الدار العاجلة ؛ فإما إلى الجنة التي وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإما إلى جهنم وبئس مثوى المتكبرين .

وبعد : فهذا لون من ألوان الهداية التي تحمل من رحمة النبي ﷺ بأمته، والحرص على نجاتها من تلكم الأهوال، ما الله به عليم . ونعني بذلك : تحذيره ﷺ من الظلم، وتجاوز الحدود التي شرعها الله ، تنظيماً للعلاقات بين العباد ؛ وما دام يوم الحساب واقعاً لا محالة : فعلى من كان عنده مظلمة لأخيه ، أن يتحلّل منها برد

الحقـوق ، والحصول على الـرضى والمسـامحة ؛ ذلـك لأن عدم التحلـل من تلكـم المظلمة ــ في استـمرار لتجاوز الحقوق والعـدوان على الآخـرين ـ طريـق للهلكة يوم الفصل ـ والعيـاذ بالله ـ وذلك بضياع الحسنات ، وإن لم يكـف ذلك مؤاخذة على الظلم والتعدي، وأكـل الحقوق، ينتقل إلى العقوبة بطرح سيئـات من سيئات المظلوم على الظـالم ، وسوءُ العـاقبة هنـالك واقـع لا محالة ، والعيـاذ بالله . أخـرج البخاري في كتاب المظـالم من الجامع الصحيح عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مـن كانت له مظلِمـة لأخيه من عرضـه، أو شيء، فليتحلّله منه اليـوم ، قبل أن لا يكون دينـار ولا درهم ، إن كان له عمـل صالح ، أخـذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » .

إن النبّي عليـه الصلاة والسـلام ـ وهـو يحمل أمـانة النصـح للأمـة في دينها ودنياهـا وآخرتها ـ يـريد للمؤمـن أن لا يلقى الله يـوم يقف الناس لـرب العالمين ، للمساءلة و الجزاء ، مثقـلاً بظلم أخيه أو إخوانـه المؤمنين ، ولذلك يدعـو لتحلّل الظالم من المظلمة التي لأخيه عنده . والمسارعة إلى ذلك: واجبة قبل فوات الأوان، وقبل أن لايكـون دينار ولا درهـم في ذلك اليـوم العصيب ؛ وإلا كـان ما رأينـا في النص مـن أخذ الحسنـات ، فإن لم تكف، طـرح على الظالم مـن سيئات صـاحبه المظلوم . وفي روايـة أخرى للبخاري جاءت في كتـاب الرقاق من الجامـع : يقول رسول الله ﷺ فيما يروي أبوهـريرة رضي الله عنه : « من كانت عنـده مظلمة لأخيه فليتحلّله منها ، فإنه ليس ثمَّ دينار ولا درهـم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه » ولقد كان من بلاغة النبيﷺ ، وحرصه على أن تأخذ الهداية في هذا الموضوع طريقها إلى النفوس : أنه ـ بجانب ما نـرى من الأمر بالتحلل من المظالم في الدنيـا ـ نقع على صورة أخرى وهي الترغيب العظيـم لأمته عليه الصلاة والسـلام ، بهذا الفعل ؛ وذلك بالـدعاء بالرحمة لمن يتحلّل أخاه من مظلمته .

ويفترض بالمؤمن أن يحرص الحرص كلَّه ،على امتثال أمر الرسول عليه الصلاة

والسلام ،لأن طاعته من طاعة الله ، وعلى المبادرة إلى فعل ما به تُنال الرحمة التي دعا بها صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تقدَّم ما أخرج الترمذي بسنده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال ، فجاءه فاستحلَّه قبل أن يؤخذ ، وليس ثمَّ دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وإن لم يكن له حسنات، حمَّلوه عليه من سيئاته» قال أبوعيسى ؛ هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث سعيد المقبري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

هكذا نرى الأمر تارة بقوله ﷺ: « فليتحلّل » والأمر يقتضي الوجوب ما لم يُصرف عنه بقرينة ،ولا قرينة ، ونرى الدعاء بالرحمة لمن يفعل ذلك تارة أخرى. وما أجمل أن يستضيء قلب المؤمن بهذا ، فيقلع هذا المؤمن عن الظلم، ويعمل جاهداً ، على أن ينفض عن كاهليه آثار التجاوز والاعتداء على الآخرين ، وذلك بسلوك السبيل التي وجه إليها الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام .

هذا : والمراد بالحسنات ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ : الثواب عليها، وبالسيئات: العقاب عليها ؛ وقد استُشكل إعطاء الثواب، وهو لايتناهى ، في مقابلة العقاب، وهو متناه ـ لأن الكلام على من لقي الله مؤمناً مع الذي اجترحه في الدنيا ـ وأجيب بأنه محمول على أن الذي يعطاه صاحب الحق من أصل الثواب ، ما يوازي العقوبة عن السيئة ، وأما ما زاد على ذلك ـ بفضل الله ـ فإنه يبقى لصاحبه . وهذا من عظيم منة الله تبارك وتعالى . وقد أوضح ذلك الإمام البيهقي بقوله : (سيئات المؤمن على أصول أهل السنة، متناهية الجزاء ، لأن من ثوابها الخلود في الجنة ؛ فوجه الحديث عندي ـ والله أعلم ـ أنه يعطى خصماءُ المؤمن المسيء من أجر حسناته ، ما يوازي عقوبة سيئاته، فإن فنيت حسناته، أخذ من خطايا خصومه ، فطرحت عليه ، ثم يعذب إن لم يعف عنه . فإذا انتهت عقوبة تلك الخطايا ، أدخل الجنة بما كتب له من الخلود فيها ،بإيمانه، ولا يعطى خصماؤه

ما زاد من أجـر حسناته ، على ما قابل عقـوبة سيئاته ، يعني مـن المضاعفة ، لأن ذلك من فضل الله يختص به من وافى يوم القيامة مؤمناً والله أعلم).

صلى الله وسلم على الرحمة المهداة نبينا محمد الـذي لم يأل جهداً في بيان الداء والدواء. ونسأل الله معافاته من الوقوع في الظلم، وبخاصة ما كان ظلماً يخرج عن الإيمان ، حتى نلقاه ـ جل وعلا ـ راضياً عنا بمنه وكرمه .

ويا ويح الظالمين الـذين يختم على قلوبهم ، فلا ينتفعون بهدي النبـي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ويبوؤون يوم القيامة بالخسران المبين، ويفتضح أمرهم على رؤوس الأشهاد ، جزاءً بما ظلموا ، وانتهكوا حرمات المؤمنين .

.. ثم طُرِح في النار

ما جاء في شأن الحساب والقصاص يوم القيامة ـ يوم الحسرة والندامة ـ من آي الكتاب الكريم ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، جدير بالكثير الكثير من التدبر والتفكر ، والعمل على تطويع السلوك في هذه الدار ، لما يعقب النجاة بين يدي الله عز وجل في ساعات ، لا يجد فيها المرء إلا ما كسب ؛ ومن ذلك أن يتخفف مما اكتسب من مآثم الظلم وتجاوز الحقوق. وقد أسعدتنا من قريب ، وقفة عجلى مع دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، من وقع في حمأة الظلم، إلى أن يتحلّل أخاه من مظلمته ، قبل أن يأتي يوم لا درهم فيه ولا دينار ، وإلا ناله البوار وسوء العاقبة ، ولسوف يندم عند القصاص ، ولات ساعة مندم .

وفي حديث موصول بهذا الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوعّد المهمل المسوِّف له حتى وقوع الواقعة ، تحسن الإشارة إلى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ندّد بمن تُعميه الشهوة والهوى ، فيخالف عن أمر الله، بالعدوان على الآخرين ، وتجاوز ما شرع الله من معايير تحكم العلاقات بين المؤمنين وسماه «المفلس» مهما كان شأنه من الغنى والرفعة فى أمور الدنيا . قال الإمام مسلم: حدثنا قتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر قالا : حدثنا اسماعيل وهو ابن جعفر بن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار » . وأخرجه الترمذي في «باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص» من كتاب صفة يوم القيامة فى الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ ثم

قال : قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح .

والملاحظ أن الحديث ـ كما أشرت آنفاً ـ أعطى تعريفاً دقيقاً للمفلس، كما هو في المعيار الأخروي ، حيث العبد بأمس الحاجة إلى ما يثقل موازينه من الخير، كيما يكون من أهل النجاة ، في ساعات تبلغ فيها الشدة مبلغها ، وتطالعك المشاهد المهولة بما تنخلع له القلوب ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .. ولكن هذا العبد ـ وهو على هذه الحال ـ يتوالى عليه الأذى ، بما قدمت يداه ، فلا تبقى له حسنات ، بل يطرح من سيئات من ظلمهم وآذاهم، ثم يُطرح في النار . ذلكم هو الإفلاس حقاً ، والمصابُ به هو المفلس بحق ، كما وضح ذلك في بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلك بأن من فقد المال أو قلّ ماله في الدنيا ، يزول ذلك عنه بالموت ، أو بالغنى تتفتح سبله من جديد ، أما ذاك الذي أصيب بفقدان حسناته عند القصاص والحساب ، ولم يكف ذلك بل طرح عليه من سيئات ضحاياه الذين أنزل بهم ظلمه في الدنيا ولفّهم بعدوانه الأثيم: فهو المفلس الهالك لأن الخسارة التي ما بعدها خسارة ؛ ما يصيب المرء هناك ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾. قال الإمام النووي في معرض شرحه للحديث : (معناه أن هذا حقيقة المفلس ، وأما من ليس له مال أو قلّ ماله : فالناس يسمونه مفلساً ، وليس هو حقيقة المفلس ، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته ، وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته . وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث : فهو الهالك الهلاك التام ، والمعدوم الإعدام المُقطع ، فتؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته ، أخذ من سيئاتهم، فوضع عليه، ثم ألقي في النار ، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه).

هذا وقد نقل عن بعض أهل البدع، إثارة شبهة مفادها : أن الحديث الذي نحن بصدده ، معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ لأن فيه أن هذا الظالم المؤذي، إذا لم يقض ما عليه بأخذ حسناته لمن ظلمهم وآذاهم ، يطرح عليه من سيئاتهم ، فكيف يتحمل أعباء إساءة الآخرين ؟ وجميل ما رد به الإمام المازري

المتوفى سنة ستة وثلاثين وخمسمائة للهجرة ، من أنه لا تعارض ؛لأن ذلك الظالم المعتدي عوقب بظلمه وتعديه حدود الله في تعامله مع الآخرين ، فما عومل به ، كان من أجل قضاء ما ترتب عليه من حقوق . قال رحمه الله : (وزعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وهذا الاعتراض غلط منه وجهاله بينة ، لأنه إنما عوقب بفعله ووزره وظلمه ، فتوجبت عليه حقوق لغرمائه ، فدفعت إليهم من حسناته ، فلما فرغت ، وبقيت بقية قوبلت على حسب ما اقتضته حكمة الله تعالى في خلقه وعدله في عباده ، فأخذ قدرها من سيئات خصومه ، فوضع عليه فعوقب به في النار ، فحقيقة العقوبة إنما هي بسبب ظلمه ، ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه ، وهذا كله مذهب أهل السنة، والله أعلم) .

والحق أن ما يحلّ بهذا الظالم لنفسه وللآخرين ـ والأعمال معروضة على الله ـ مظهر من مظاهر العدل الإلهي ،لأن كل امرىء بما كسب رهين ، ولا يظلم ربّك أحداً ، وقد حذّر النبي ﷺ ـ في بيانه للقرآن ـ من الظلم ، وأنذر من تعمى بصائرهم فيقعون فيه، أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك، ترى الإصرار من البعض على هذا الذي كان منه التحذير . روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺقال : «الظلم ظلمات يوم القيامة » وقد أحسن رحمه الله صنعاً حين جعل هذا الحديث عنوان باب في كتاب المظالم من الجامع الصحيح فقال: « باب الظلم ظلمات يوم القيامة» ثم أورد الحديث . فمن أراد الآخرة ، وأن يكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، حيث الظلام يلف الظالمين ، فعليه أن يسعى لذلك سعيه ، ويقف عند الذي وجه إليه الرسول عليه الصلاة والسلام .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، واجعلنا ممن يريدون الآخرة ويسعون لها سعيها، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ .

ماذا.. عن أول ما يحاسب به العبد

يوم الجمع يوم واقع لا ريب فيه ، والعباد كلهم راجعون في ظله إلى الله ، وهو سبحانه يجازي كلاً بعمله ، ويوفي الجميع دينهم الحق.

وكم تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من أهوال لا يجنَّبها إلا أهل الاستقامة المتقون ، الذين أنابوا في الدنيا إلى ربهم العليم الحكيم . ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾. أما الذين أعمتهم الضلالة ووقعوا في مهاوي الغفلة والظلم: فلهم عذاب جهنم يصلونها وبئس القرار ، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾ .

وفي مواجهة هذه الحقيقة التي نطق بها الكتاب ، وأعطاها حديث رسول الله ﷺ ما تستحق من البيان ، ما أشدَّ ما كان من حرص النبيﷺ ـ كما هو ثابت ـ على تجنيب أمته، مسالك الجنوح عن الصراط السوي ، لما يحمل ذلك من مخاطر تودي بصاحبها إلى الهلكة ، يوم يقوم الحساب .

وما مر بنا ـ من قبل ـ من صور هديه الكريم ﷺ في هذا المضمار ، يقودنا إلى صور أخرى ، ما بد من قراءتها ببصيرة المؤمن الذي تقوده المعرفة بما جاء عن الله ورسوله ، إلى العمل الصالح المخلص ، طلباً للنجاة يوم ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وتجعله يخاف أشد الخوف على نفسه، من الوقوع فيما حذّر منه ، وتوعد على فعله ، النبي عليه الصلاة والسلام .

ومن صور الهداية التي نلمح إليها : ما جاء عن النبي ﷺ في شأن الصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، بأنها أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله ، فإن كان من أهل إقامتها على الوجه الذي ينبغي ؛

علماً بـأحكامهـا ، وإخلاصـاً لله عـز وجل في أدائهـا، كـان ذلك عنـوان فلاحـه ونجاحه، وإن كان الأمر غير ذلك : فهنالك الخيبة والخسران ، أعاذنا الله والمؤمنين من شرهما. أخرج الترمذي بسنـده عن قبيصة بن حُريث أو حُريـث بن قَبيصة أنه قال : قدمـت المدينة فقلت : اللهم يسِّر لي جليساً صـالحاً قال : فجلست إلى أبي هريرة فقلت : إني سألت الله أن يرزقني جليسـاً صالحاً ، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما يحاسـب به العبد يـوم القيامة مـن عمله صلاتُـه ، فإن صلحت فقـد أفلحَ وأنجح ، وإن فسدت، فقد خاب وخسر ، فإن انتقـص من فريضته شيء قال عز وجل : انظـروا هل لعبـدي من تطوع؟ فيكمَّـل بها ما انتقص مـن الفريضـة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » قال : وفي الباب عـن تميم الداري ، قال أبوعيسى : حديث أبي هريرة حديث حسن غريـب من هذا الوجه . هذا : وقد أورد الترمذي هذا الحديث في الصلاة من كتابه الجامع باب «ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ».

وفي «باب المحـاسبة على الصـلاة » من كتاب السنـن الصغرى ـ المجتبى ـ أخرج النسـائي بسنده عـن همام عن قتادة عن حُريث بن قبيصـة قال : قدمت إلى المدينة ، قال : قلت : اللهم يسر لي جليساً صالحاً ، فجلست إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : فقلت : إني دعوت الله عز وجل أن ييسّر لي جليساً صالحاً فحدثني بحديث سمعتـه من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول مـا يحاسب به العبـد بصلاته فـإن صلحت فقد أفلـح وأنجح، وإن فسدت فقـد خاب وخسر ـ قال همام : لا أدري هـذا من كلام قتـادة أو من الرواية ـ فإن انتقص من فريضته شيء قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فيكمَّل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك » خالفه أبو العوّام .

وقال النسائي : أخبرنا أبـوداود قال : حدثنا شعيب يعني ابـن بيان بن زياد ابن ميمون قال : كتب علي بن المديني عنه . ثم أورد رواية أخرى ليس فيها ما ذكر

من قصة قبيصة بن حريث، أو حريث بن قبيصة ، ولفظها كما يلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وُجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع ، يكمَّل له ما ضيع من فريضة من تطوعه، ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلك » وفي رواية أخرى فيها شيء من الاختصار ؛ نجد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « أول ما يحاسب به العبد صلاتُه فإن أكملها وإلا قال الله عزو جل : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فإن وجد له تطوع قال : أكملوا به الفريضة ».

أما الإمام أحمد رحمه الله : فنجد الرواية عنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مع شيء من الاختلاف في اللفظ فقد جاء في المسند : حدثنا عبدالله قال: حدثني أبي قال : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعْمُرَ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «أول ما يحاسب به العبد صلاته ، فإن كان أتمها كتبت له تامة ، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل : انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع فتكملوا بها فريضته ؟ ثم الزكاة كذلك ثم يؤخذ الأعمال على حسب ذلك». وهذه رواية أبي داود وابن ماجة أيضاً. ورواه أبوداود كذلك بمعناه من رواية تميم الداري ، وأخرجه الحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . وواضح ـ كما يقول أهل الدراية ـ أن الحديث صحيح بشواهده .

هكذا يطلع علينا الهدي النبوي بالمكانة العظيمة العظيمة ، التي يعطيها النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ لإقامة الصلاة بأحكامها وخشوعها ، وصدق التوجه من خلالها إلى البارىء المصور الذي يعلم السر وأخفى، فالهول على أشده يوم الحساب، والناس في ترقب للمصير ، والساعات العصيبات ساعات حصاد لما قدم العبد في الدنيا ، في ظل ذلك المشهد الهائل المروّع الزاخر بالترقب والخوف، تجد أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة ،

وبجانب الأهمية المعطاة لإقامة الصلاة في الحديث على اختلاف رواياته، نجد فيه ما نجد من نصح سيد العالمين لأمته ، فهو يريد للمسلم أن يكون على يقظة قلبية يستعلي معها على الغفلة والمعوقات ، ويحسن التزود لتلكم الساعات العصيبات، لعل الله يحشره في زمرة السعداء الفائزين .

ولنا إن شاء الله عودة إلى هذا الحديث، نسعد ببعض معانيه الأخرى وأبعاده ، ونسأله تعالى أن يضيء قلوبنا بهدي نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كيما نسعد بإقامة الصلاة على وجهها ، وننجو يوم التغابن مع الناجين .

أكثروا ذكر هادم اللذات

حين يسلك المؤمن سبيل أهل الخشية الذين لا يفرِّطون في جنب الله ، وتؤرقهم شدائد يوم الحساب ، لما أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وتراهم إذا ذُكر الله وجلت منهم القلوب ، وخشعت الجوارح ، وذرفت من الخشية الدموع ، وإذا ذكروا هول المطَّلع، وما يكون في عرصات القيامة من مشاهد يشيب لها الوليد ، وكيف يحاسب العباد ويُسألون ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾.. حين يسلك المؤمن سبيل هؤلاء المتقين الأبرار ، تملك مراقبة الله عليه نفسه، ويصبح ما أخبر عنه القرآن وبينته السنة عن ذلك اليوم العصيب، كأنه أمام ناظريه يراه رأي عين ، وعندها لاينِي يجدُّ ، ويجتهد في تحصيل كل ما من شأنه، أن يثقل موازينه يوم الوعيد ، ويجعله بفضل الله من الفائزين بما بشر الله به ـ من تثقل موازينه ويأخذ كتابه بيمينه ـ من عيشة راضية وجنة نعيم ﴿**فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهيه نار حامية** ﴾ .

وهنا يرى هذا المؤمن لزاماً ، أن يغتنم الفرص المتاحة ، والنعم المسبغة عليه ـ وفق المنهج الرباني ـ لتكون عونه على ما يتطلع إليه في الآجلة ، شأنه شأن المؤمنين الصادقين ، الذين لا تشغلهم الفانية عن الباقية ،ولا يدعون طريقاً من طرق النجاة يوم الحشر الأكبر، إلا سلكوه ؛ أجل يغتنم كل ما أسبغ الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، وما رزقه من الوسائل وهيأ له من الأسباب ، للقيام بما كلِّف به حق القيام ، والتقرب إلى مولاه بجلائل الأعمال ، قبل أن تقوم في وجهه نوازع الهوى والشيطان ، وتقعده الصوارف والمعوقات ؛ وهكذا تجده كلما ذكر يوم الحساب وأهواله، ازداد حرصاً على مبادرة الفتن والعقبات ، وما سيكون من أمور الساعة ، بالأعمال الصالحة ، والقُرَب النافعة، لتكون زاده يوم اللقاء ،

وهنالك تغمره النفحات الإلهية ، وينعم بما يكرم الله به عباده الخاشعين له ، الخاضعين لجلاله ، الذين يعملون الصالحات مخلصين منيبين .

ولقد نبّه الرسول عليه الصلاة والسلام ــ وهو لا ينطق عن الهوى ــ على وجوب هذه المبادرة ، إذا أريدت النجاة في يوم يجد فيه العباد ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً . قال الإمام الترمذي : حدثنا أبو مصعب عن محرز بن هارون عن عبدالرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مُطغياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو مجهزاً ، أو الدجال فشرُّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر».

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث مُحرز بن هارون هذا . وقد روى بشر بن عُمر وغيره عن مُحرز ابن هارون هذا . وقد روى معمر هذا الحديث عمن سمع سعيداً المقبُريَّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وقال : «تنتظرون ».

هكذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يعنى في هذا الحديث ـ وهو يستخدم الواقع في التربية والتوجيه إلى الخير ـ بالحث على المسارعة إلى العمل، والمبادرة بالعبادة ، والتعجل بالطاعة ـ بأوسع معانيها والساحات التي تشملها ـ فإن العبد ـ كما يقول أبوبكر بن العربي ـ بين هذه السبعة الأحوال، في قواطع عن الأعمال؛ إما بفقر وإما بغنى ، وإما بكبر ، وإما بمرض ، وإما بموت، وهو أشد على العبد، إلى آخر ما ذكر عليه الصلاة والسلام . وقد أورد الترمذي بعد هذا الحديث ما روى أبوهريرة عن النبي ﷺ من قوله : « أكثروا ذكر هاذم أو ها دم اللذات » وجميل قول صاحب «عارضة الأحوذي » تعليقاً على هذا النص، وذكره في أعقاب حديث الأمر المبادرة (إذا تذكر العبد الموت وكان منه على رَصَدَ ، إذ هولُه بالمرصاد ، انقطع أمله وكثر عمله ، وهانت عليه لذاته ، ولم يكن للدنيا قدْر

عنده، إذ ليس بالحقيقة من قُطّانها ، وإنما هو ينزل نفسه بمنزلة الميت في كل حين من أحيانها ، فيعرض عن الدنيا ويقبل على الآخرة ، ويزْهَقُ الشيطان عنه ، ويلزمه الملك ، وخاصة إذا فعل فِعل عثمان رضي الله عنه وقال قوله). وقد مر بنا « أنه — رضي الله عنه ـ كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده شر منه ، وقال : ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » رواه الترمذي وغيره .

ألا ما أشد حرص النبي عليه الصلاة والسلام ،على توجيه الأمة إلى ما فيه الفلاح والفوز بمرضاة الله في الدنيا ويوم الدين ، وما أجمل أن يُتلقى هديُه عليه الصلاة والسلام بإيمان ويقين ، ورغبةٍ صادقة في العمل الصالح الذي يجده المؤمنون نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم المعاد .

ولعل من الخير ، أن نشير إلى أن الجيل القدوة الذي رباه النبي عليه الصلاة والسلام على عينه، وصاغت سلوكَه يدُه الصناع ، كان على أعز مكان وأغلاه في حسن التقبل لهدي النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وجعلِ الهوى تبعاً له في كل حال ، كل أولئك مع التناصح فيما بينهم، على الأخذ بهذا الخير العميم.

جاء في وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين استخلفه: « أوصيك بتقوى الله ياعمر إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار ، لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض .. ألم تر ياعمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفّت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً .. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا سمعت بهم قلت : إني أخاف أن لا

أكون مـن هؤلاء ، وذكـر أهل النار بـأقبح أعمالهم ، فأمسـك عن حسنـاتهم، فإذا سمعت بهم قلـت : إني لأرجو أن لا أكون منهم وذكـر آية الرحمة مع آيـة العذاب ليكـون العبد راغبـاً راهباً لا يتمنـى على الله غير الحق.فإذا حفظـت وصيتي، فـلا يكونـن غائب أحـب إليك مـن الموت وهو آتيـك ، وإن ضيعت وصيتـي ، فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه » .

اللهم ارزقنا خشيتك، وأسكـن قلوبنا محبتك . اللهم رحمتك نـرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقـل من ذلك ، وأصلح لنا شأننا كله واغفـر لنا ذنبنا كله برحمتك نستغيث ومن عذابك نستجير ، بيدك الخير إنك أنت التواب الرحيم .

الصحة والفراغ.. والمبادرة بالأعمال

الصدق في طلب النجاة يوم التغابن ، وأن يكون المرء في عداد من ينشر الله عليهم رحمته ، فيزحزحون عن النار ، ويُدخلون جنة النعيم ،.. هذا الصدق ، لابد له من أمارة تدل عليه ؛ وهي حسن الامتثال لما وجّه إليه القرآن الكريم، وبينه المصطفى سيد العالمين ؛ من اغتنام فرص الخير ، والمسارعة إلى كل ما هو من ذلك بسبب ، ناهيك عما يجب على المؤمن ، من أن يبادر بالأعمال الصالحة والقربات النافعة، ما يمكن أن يكون من الصوارف والمعوقات ، أو الركون إلى التسويف والخضوع لتسويلات النفس والشيطان، التي تؤذن بأن أجل العمل قد فات ، وأن الفائدة المتوخاة منه باتت في حيز المستحيل .

ومن حسن الامتثال المطلوب من المؤمن؛ المسارعة إلى التحقق بما هدى إليه النبي عليه الصلاة والسلام ، على ساحة العمل والسلوك ، وإلا كان الأمر أشبه بدعوى تفتقر إلى دليل .

وإني مذكر بما أسلفت عن النبي ﷺ في ذلك ، توطئة لاصطحاب ما جاء من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى حسن الإفادة من نعمتي الصحة والفراغ، وشكرهما الشكر الحقيقي ، لكيلا يقع المؤمن في البخس والنقص، على ساحة التعامل معهما ، فيكون من المغبونين .

أما عن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان : فقد روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنِّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال: فشرُّ غائبٍ ينتظر ، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر» وهذا ما يشدنا ـ كما أسلفت ـ إلى هديه ﷺ بشأن تلكما النعمتين العظيمتين : الصحة والفراغ .

قال الإمام البخاري : حدثنا مكي بن إبراهيم قال : أخبرنا عبدالله بن سعيد ، هو ابن أبي هند ، عن أبيه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ». أخرجه الترمذي وابن ماجه ، وقد رواه أحمد بتقديم كلمة الفراغ على كلمة الصِّحة إذ جاء عنده : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الفراغ والصحة » وأخرجه أبو نعيم في المستخرج عن عبدالله بن سعيد بسنده بلفظ « الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » وأخرجه الدارمي بزيادة « من نعم الله » فجاء عنده بلفظ: « إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس » .

والغَبْن : بفَتح الغين وسكون الباء : النقص في البيع ، يقال : غُبِن فهو مغبون أي منقوص في الثمن أو غيره ، وغَبِن رأيُه غبَناً بتحريك الباء من باب تَعِب : قلَّت حكمته وذكاؤه .

هكذا يكشف النبي ﷺ بهذه الكلمات الجوامع ، عن أهمية الصحة والفراغ في حياة المسلم ، مؤكداً وجوب استخدامهما فيما ينبغي ، ناعياً على الذين يتهاونون بأمرهما ولا يستعملونهما على الوجه المطلوب فيما يسعد في الدنيا ، ويقي ما تحمله عرصات يوم القيامة من مشاهد الهول وشديد الترقب في الآخرة ، مع أن الإيمان بما جاء عن الله ورسوله، في شأن الآخرة ، وحشر الناس ووقوفهم للمساءلة بين يدي رب العالمين ، كل أولئك يقتضي أن تستخدم الصحة في طاعة المنعم سبحانه وتعالى ، بأوسع ما تحمل كلمة الطاعة من معنى ، وأن يملأ الوقت بالنافع والمرضي عند الله ، والذي لا يفعل ذلك ، يكون مغبوناً لكونه باعهما بثمن بخس ، ولم يحمد رأيه في ذلك ، فاستبدل النقص أو الخسران بالربح .

وما من ريب في أن هذا الحديث ـ كما أسلفنا ـ من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، لأنه جمع في هذه الكلمات القليلة المعاني الغزيرة ، وذلك لبيان الأهمية البالغة لنعمتي الصحة والوقت في حياة الإنسان ، وموقع كل منهما في العمل

للآخرة ، ومتى يكون الربح ، ومتى تكون الخسارة على هذا الصعيد ؟ مشيراً صلوات الله وسلامه عليه ، إلى أن المقصرين المصابين بالغبن فيهما كثير .

وقد أشار ابن بطال كما نقل الحافظ ابن حجر ــ رحمهما الله ـ إلى أن المرء لا يكون فارغاً ، حتى يكون نقياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك، بأن توافر له الصحة والفراغ ، فليحرص على ألا يغبن ، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو مغبون .

وفي قوله ﷺ : « كثير من الناس » إشارة إلى أن الذي يوفَّق في ذلك ـ كما أسلفت ـ قليل ، وهو تنبيه منه ﷺ ، على ما يجب من عُلو الهمة، كيما يكون المؤمن في منجاة من الوقوع فيما وقع فيه أولئك المفرطون .

وزاد ابن الجوزي الأمر وضوحاً بما قرره ، من أن الإنسان قد يكون صحيحاً ولا يكون متفرغاً لانشغاله بكسب المعاش ، وقد يكون مستغنياً ، ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمع الصحة والفراغ ، وقصَّر في نيل الفضائل ، وجنح إلى الكسل عن الطاعة والعمل الصالح ؛ فهو المغبون الذي ناله الخسران ، ذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، حيث المسؤولية والحساب ، فمن استعمل صحته وفراغه في طاعة الله تعالى ، فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبة الانشغال ، والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم لكفى:

يسر الفتى طول السلامة والبقا　　　فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصِحَّةٍ　　　ينوء إذا رام القيام ويحمل

وأنت واجد أن العلاقة ماسة، بين دعوة النبي ﷺ إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ، قبل أن تقع الصوارف عن العمل ، وبين اهتمامه ﷺ بتلكم النعمتين: الصحة والفراغ ، إذ كيف يبادر بالأعمال الصالحة، من تهاون في شأن ما أعطاه الله من العافية، وما هيأ له من الوقت ؟ لقد تهاون في رأس المال الممنوح من الله ، فلا

بد أن يقلع عـن ذلك ويعامل الله ـ كما يقول الطيبي ـ بـالإيمان ومجاهدة النفس ، وعدوِّ الـدين ، ليربـح خَيْري الدنيـا والآخرة ، وعليـه أن يجتنب مطـاوعة النفـس ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح .

والواقع أنـه كلما تفتحت أمام الإنسان آفـاق الحضارة ، شعر بالقيمـة الهائلة للقدرة الصحية والوقت تماماً ، هذا في الدنيا .. فما بالك بأمور الآخرة ، مع الشعور بأن الصحة والفراغ نعمتان من الله ؟ إن الذي يقرأ بوعي وتدبُّر ما جاء في شأن يوم الفصل ، ويتجه ببصيرته إلى التفكـر بما يثقل ذلك اليوم من مشاهد تنـذر بالويل والثبور ـ مـا لم تدرك المرءَ رحمةُ الله ـ وما يجد العباد مـن الافتقار الكبير ، إلى مثقال الذرة عند ساعة الحساب .. إن الـذي يقرأ النصوص على هذا السنن ، يجد أن من العبث العابث، أن يستهين ، ولـو بأقل القليل من الوقـت ، وأن يتبع هواه فيخلد إلى أرض التواني والكسـل في طاعة الله ، والتزود لـذلك اليوم المهول ، ومـاذا نحن صانعـون بما نصت عليه الأحاديـث، من المسؤوليـة عن كل نعمة أنعـم الله تبارك وتعالى علينـا بها ؟ ماذا صنعنـا بها ، وكيف تقربنـا إلى الله تعالى ، أم أننـا لم نتقرب والعياذ بـالله ؟ يقول رسول الله ﷺ فيما روى الإمـام الترمذي : « يـؤتى بالعبـد يوم القيـامة فيقـول الله له : ألم أجعـل لك سمعـاً وبصراً ومالاً وولـداً ، وسخرت لـك الأنعام والحرث ؛ وتركتـك ترأس وتربع ، فكنت تظـن أنك ملاقي يـومِك هذا ؟ قال: فيقـول: لا ، فيقول لـه : اليوم أنسـاك كما نسيتني » . قـال أبو عيسـى : هذا حديث صحيح غريب .

ومعنى قوله : اليوم أنساك : يقـول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسّروه ، قال أبو عيسـى : وقد فسَّر أهل العلم هـذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قالوا : إنما معناه ، اليوم نترككم في العذاب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد بن عبدالله المبينِ عن الله ما أراد ، وعلى آله وصحابته ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء .

الخير يجلب الخير إن شاء الله : حقيقـة نذكرها ،وقـد أسعدتنا قبل هـذا وقفة مع ماجاء في هدي النبي عليـه الصلاة والسلام ، من أن أول ما يحاسـب به العبد يوم القيامـة من عمله الصلاة ؛ فـإن صلحت: فقد أفلح وفـاز بمرضاة الله ، و إن فسدت : فقد بـاء بالمذمة والخسران ، ومن عظيـم فضل الله أنه إن كان لـه تطوُّع جُبر به ما انتقص من الفريضة ، ثم الـزكاة كذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك . وقـد أوردت من قريب عـدداً من الروايات التـي تكشف عن هديـه عليه الصـلاة والسلام ، في منهـج التعامـل مع هـذه الفريضـة التي هـي أهم أركـان الإسلام بعد الشهـادتين ، وكيف أنه صلوات الله وسـلامه عليه، كان أحـرص ما يكـون، تنبيهـاً لأمته على مثـل هـذه القضـايـا ذات الحجم الكبير في سـاعـات الحساب يـوم القيامة ، الأمر الـذي يرتفع بـالمؤمن إلى مستوى المعرفـة الصحيحة بالأحكام، ثم المراقبة الصادقة لله عز وجل في صلاته وسائر عباداته وأعماله؛ لأنه إن أحسن هنـا ، فاز بجزاء الإحسـان هناك ، حيـث المصير رهن ـ بعـد فضل الله ورحمته ـ بمقدار ما يكون من صلاح العمل، والإتيان به على الوجه المطلوب ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ، ولما للصلاة من أهمية عظمـى في الإسلام ، كانت هي أول ما يحاسب به العبد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فليحتط المؤمن لدينه، بإقـامة الصـلاة حق إقـامتها ، كيما تكون ـــ إن شاء الله ـــ عنوان سـلامة العـاقبة والنجاة .

هذا : ومـن الروايـات التي أشرنا إليهـا ما أخـرج الإمام أحمد وأبـو داود وابن ماجة وغيرهـم أن رسـول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسب به العبد صـلاته؛ فإن كان أتمها كتبـت له تـامة ، وإن لم يكـن أتمها قـال الله عز وجـل : انظروا هـل تجدون لعبدي مـن تطوُّع فتكملوا بها فريضتـه ؟ ثم الزكـاة كذلك ثم تـؤخذ الأعمال على

حسب ذلك » ولفظ ابن ماجة « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته » وقال أبوداود: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا إسماعيل قال ، حدثنا يونس عن الحسن عن أنس بن حكيم الضبي قال : خاف من زياد أو ابن زياد ، فأتى المدينة ، فلقي أبا هريرة قال: فنسبني فانتسبت له فقال: يافتى ألا أحدثك حديثاً؟ قال : قلت بلى رحمك الله ، قال يونس : وأحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ؛ قال : يقول ربنا جل وعز لملائكته وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال :انظروا هل لعبدي من تطوُّع ؟ فإن كان له تطوع قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم ».

وروى أبويعلى بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة ، وآخر ما يبقى الصلاة، وأول ما يحاسب به الصلاة ويقول الله: انظروا صلاة عبدي ، فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة يقول : انظروا هل لعبدي من تطوُّع ؟ فإن وجد له تطوُّع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قال : انظروا هل زكاته تامة ؟ فإن كانت تامة ، كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل له صدقة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته » .

ومن الواضح أنه بمقدار الوعي المبصر لهذه الحقيقة التي يقررها الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، يكون الاهتمام الواعي الصادق ، بأداء تلك الفريضة على ميقاتها ــ كما أسلفنا ــ ، وإقامتها على الوجه الذي ينبغي، استيفاء لأحكامها والخشوع فيها أكثر وأوفر .

ومن الجدير بالذكر : أن علماءنا رحمهم الله لم يدعوا أن ينظروا مع هذا الحديث برواياته المتعددة ، ما ورد من أن أول ما يقضى بين ا لناس يوم القيامة في الدماء ،

وقد نقل صاحب « تحفة الأحوذي» عن العراقي في «شرح الترمذي » أنه لا تعارض بين حديث الباب، وهو حديث الصلاة ، وبين الحديث الصحيح : «إن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » فالحديث الأول محمول على حق الله تعالى ، وهذا الحديث محمول على حقوق الآدميين فيما بينهم . فإن قيل : فأيهما يقدم ، محاسبة العباد على حق الله ، أو محاسبتهم على حقوقهم ؟ فالجواب أن هذا أمر توقيفي ، وظواهر الأحاديث دالة على أن الذي يقع أولاً ، المحاسبة على حقوق الله تعالى قبل حقوق العباد. أما عن إكمال ما انتقص العبد من الفريضة بالتطوُّع : فيحتمل أن يراد به ـ كما يقول العراقي ـ ما انتقصه من السنن والهيئات المشروعة فيها ؛ من الخشوع والأذكار والأدعية ، وأنه يحصل له ثواب ذلك في الفريضة ، وإن لم يفعله ، وإنما فعله في التطوع ، ويحتمل أن يراد به ما انتقص أيضاً من فروضها وشروطها ، ويحتمل أن يراد ما ترك من الفرائض رأساً فلم يصلّه، فيعوّض عنه من التطوع ؛ والله سبحانه وتعالى يقبل من التطوعات الصحيحة عوضاً عن الصلوات المفروضة .

وقال القاضي أبوبكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» : (يحتمل أن يكون يكمَّل له ما نقص من فرض الصلاة وأعدادها بفضل التطوع ، ويحتمل ما نقصه من الخشوع ، والأول عندي أظهر ، لقوله : ثم الزكاة كذلك وسائر الأعمال ، وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل ، فكما يكمّل فرض الزكاة بفضلها ، كذلك الصلاة ، وفضل الله أوسع ، ووعده أنفذ ، وعزمه أعم وأتمُّ).

وأياً كان العدم أو النقص : فكون المسلم ممن يُعنى بالإتيان بالنوافل ، فذلك من أبواب الفضل الإلهي ، حيث يكمّل نقص الفريضة بالتطوع ، ونعمّا يصنع المؤمن ، حين يبادر المخاوف الأخروية بالأعمال الصالحة ، ويسارع إلى التقرب إلى مولاه ، وإبعاد نفسه من النار ، بحسن أداء الفريضة، والحرص على النافلة ، فالتطوع بالنوافل من أعظم القربات إلى الله ، ومن محاسن ذلك : ما يكون من جبر نقص الفريضة يوم الحساب . أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال : قـال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عـادى لي ولياً فقد آذنته بـالحرب وما تقرب إليّ عبـدي بشيء أحبَّ إليّ ممـا افترضته عليـه ، وما يـزال عبدي يتقـرب إليّ بالنـوافل حتى أحبّـه ، فإذا أحببته ، كنت سمعـه الذي يسمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ، ويـده التي يبطش بها ، ورجلـه التي يمشي بها ، وإن سألنـي لأعطينَّه ، ولئن استعـاذني لأعيذنَّه » الحديـث . وجاء في رواية لأحمد رحمه الله « .. ومـا تقرب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض ، وما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، إن سألني أعطيته . وإن دعاني أجبته ... » .

اللهم وفقنـا للعمل الـذي ننجو بـه يوم الحسـاب ، واجعلنا مـن الذيـن إذا أحسنـوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفـروا ، واحفظنا مـن الغفلة وطـريق الغـافلين حتى نلقاك وأنت راض عنا سميع الدعاء .

أهلية التكليف.. والمسؤولية يوم الحساب

تكريم الله للإنسان ، بجعله أهلاً للتكليف ، ثم المسؤولية عما كلف به، يحمل العاقل على مزيد من الاهتمام بأخذ الحذر من الغفلة أو نسيان يوم الجزاء، وما يكون في عرصات القيامة ، من مشاهد تطفح بالهول والرهبة من المصير ... ولقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء، فيما بيّن من مواطن المسؤولية والجزاء ما بيَّن ، وكشف عن أبعاد ذلك ، في تلكم الساعات العصيبة ، حيث يضع ربنا الموازين بالقسط ، ولا يجد المرء عندها إلاما قدّم . قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن قال : أخبرنا الأسود بن عامر قال : حدثنا أبوبكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبدالله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمره فيم أبلاه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وسعيد بن عبدالله بن جريج هو بصري وهو مولى أبي برزة رضي الله عنه وأبو برزة اسمه نضلةُ بنُ عبيد . وروى الترمذي أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :« لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عُمُره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » وهو حديث حسن . كما مر من قبل .

هكذا يكشف النبي ﷺ عن ميدان بالغ الأهمية ، من ميادين المسؤولية يوم الحساب ، حيث الأمور على أشدها هناك ، وهذا الميدان يشمل ـ فيما يشمل ـ سؤال المرء عن العمر ـ الذي هو فرصة متسعة من فرص العمل والتقرب إلى الله ـ فيم أفناه ، وسؤال عن العلم ـ الذي يقطع العذر ، ويكون حجة لصاحبه إن صحبه العمل ، أو حجة عليه إن لم يصحبه العمل ـ ماذا عمل به ، وإلى أي حد

طوَّع سلوكه لما علم ، وسؤال عن المال من أين جاء به هل اكتسبه من الطرق المشروعة، وفي أي الطرق أنفقه ؟ هل شكر المنعم المتفضل فأنفقه في مرضاة الله ، أم غفل عن الله وأنفقه فيما لايرضيه سبحانه ؟ وسؤال عن الجسم ـ الذى هو مركب الإنسان وهو يدير حركة الحياة ـ فيم أبلاه؟ وفي الرواية الأخرى ـ كما رأينا ـ سؤال عن الشباب بعد السؤال عن العمر ، وهو تخصيص بعد تعميم ، يدل على أهمية تلك المرحلة من مراحل العمر ، ويحمِّل الشباب ـ وهم نبض الحياة في الأمة ـ مزيداً من المسؤولية ، تتناسب مع الحيوية والقدرة على العطاء .

وها نحن أولاء أمام صورة مرعبة من صور المسؤولية والجزاء **﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ للّه ﴾** ، وهي صورة ذلك الإنسان الذي غفل عن الله ، وبدل أن يشكر النعم التي أنعم الله بها عليه ، بوضعها في طاعته سبحانه ، جنح عن الصراط السويِّ ، ولم يقدّم شيئاً من الخير ، فيمضى به إلى النار والعياذ بالله. **فقد أخرج الترمذي عن الحسن وقتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة وكأنه بَذَجٌ ، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله تعالى : أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ : فيقول** يارب جمعته وثمرته ، وتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به ، فإذا عبد لم يقدّم خيراً، فيُمضى به إلى النار ».

البَذَج بفتح الذال : ولد الضأن . قال أبوعيسى : وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قولَه ولم يسندوه .

هذا : وفي إسناد الحديث ضعف، ولكن يشهد له معنى الحديث الآتي ، وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، أفكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا؟ فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » أخرجه

الترمذي وقال : هذا حديث صحيح غريب ، ومعنى قوله « اليوم أنساك » يقول: اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسّروه . قال أبوعيسى ، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قالوا: إنما معناه: اليوم نترككم في العذاب وقد أُشير إلى ذلك من قبل .

من هنا كان السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ، على ترقب تام ليوم التلاق ، وما يكون في ساعات الحشر من الأهوال ، ووضع كل واحد من العباد أمام الذي هو مسؤول عنه من النعم؛ ماذا عمل بها وهل أدى حق الله فيها. والذي يُقض مضاجعهم : محاسبة أنفسهم وماذا أعدوا من الزاد لذلك اليوم العصيب. روى أبو نعيم في الحلية بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه بكى في مرضه ، فقيل له: ما يبكيك ؟ فقال : «أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بعد سفري ، وقلة زادي ، وأني أصبحت في صعود ومهبط على جنة ونار ، لا أدري لأيهما يؤخذ بي » وروي عن معمر قال : بلغني عن أبي هريرة أنه كان إذا مر بجنازة قال : «روحي فإنا غادون ، أو اغدي فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ويبقى الآخر ألا عقل ؟».

ثم كانت هذه اليقظة الإيمانية ، والتبصُّر فيما أخبر عنه النبي ﷺ من مشاهد القيامة ، وما يقع من شدة وكرب ووقوف للسؤال بين يدي رب العالمين ديدن من تبع الصحابة بإحسان ، في أخذ أنفسهم بالأعمال التي تكون بإذن الله سبيلهم إلى النجاة والفوز العظيم ، وفي مواعظهم البليغة ، ونصحهم لعباد الله المؤمنين . وهذا ما نجده عند التابعي الثقة العابد الزاهد سعد بن بلال رحمه الله. روى أبو نعيم بسنده عن عبدالرحمن بن أبي حوشب قال : سمعت بلال بن سعد يقول: «أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم: أما رزقه: فدارٌ عليكم، وأما رحمته : فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فأسبغ عليكم، وأما عقابه : فلم يعّجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على إلهكم ، أنتم تكلَّمون ، ويوشك الله تعالى يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود

منه الوجوه ﴿ **فاتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ اللهم اجعلنا هداةً مهتدين ، غير ضالِّين ولا مضلِّين ، وانفعنا بهدي نبيك المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين .

.. فاليوم أنساك كما نسيتني

لله ما أعظم ديـن الإسلام الذي أتم الله بـه النعمة على الأمة المحمديـة ، وما أعظم أن يكون المؤمـن ، على تقدير لهذه النعمة وشكران لها ؛وذلك بـالتزام حدود الله، واغتنام مـا آتاه الله في الدنيـا، من أجل العمل لـلآخرة ، وما مـن ريب في أن الطـريق إلى ذلـك ـ بعـد الإيمان ـ معـرفة صحيحـة متصلة بـأصول هـذا الديـن ومنابعه، وسلوك تزينه الاستقامة ، متسق مع تلك المعرفة. إن المؤمن ، حيث يأخذ نفسه بهذا المنهج القويم، يكون في كنف الله وستره وعونه ، ويكون من أبناء الآخرة الذين يقـدرون المسؤولية هناك قدرهـا ، ولا ينسيهم ما يكون في الدنيـا من زخرف ومتاع ، أنهم إلى الموت صائرون ﴿**وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور** ﴾.

ولقد بصّر النبـي ﷺ الأمة ـ وهـو لسيد النَّصَحَةِ الـرحماء ـ بما هو كـائن يوم القيامة من سـؤال الله عباده عما أنعم عليهم من نعم، مـاذا أدّوا حقه فيها ، وعلى أي وجه استخدموها ، هل كانوا على ذكر مـن يوم الدين وساعات الحساب، وما تحمل مشاهد القيامة، من الشدة والكرب، أم أنهم وقعوا في شرك النسيان، والغفلة والضياع ؟ أجل ،بصّر النبي ﷺ بذلك، ولم يدع زيادة لمستزيد ، وفي ذلك ما فيه، من امتحان التفاعل الإيماني عند الأمة ، ومقدار التأثر الذي ينعكس على السلوك في كل مـا هو من أمور الآخـرة بسبيل . قال الإمـام مسلم : حدثنا محمـد بن أبي عمر قال : حدثنا سفيـان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عـن أبي هريرة قال: «قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ قالوا : لا . قـال : فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليـس في سحابة ؟ قـالوا : لا . قـال : فو الذي نفسي بيـده ، لا تضارّون في رؤية ربكم ؛ إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد فيقول : أي فُلْ

ألم أكرمك وأسوّدك ، وأزوّجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني فيقول : أي فُل ألم أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يارب ، آمنت بكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ، فيقول الله : ههنا إذاً ، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليتعذر من نفسه، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » . وما من ريب في أن نطق هذه الجوارح على صاحبها المنافق ، وشهادتها عليه حيث أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، يذكّر بقول الله تبارك وتعالى في سورة يس : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

هذا : ومن الحقائق التي لايرتاب فيها إلا معاند مكابر ، أن الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ على عينه ، كان مثال التصديق ، وحسن الإفادة من هدي النبيﷺ في النفس ، وفي أداء الأمانة بتوجيه الآخرين ، وتذكيرهم بما يكون يوم القيامة، الأمر الذي يوجب على المؤمن، أن يتزود له فيحسن الزاد ، روى مسلم بسنده عن خالد بن عمير العدوي قال : « خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإن الدنيا قد آذنت بصُرم ، وولت حذّاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ، ولا يدرك لها قعراً ، والله لتملأن أفعجبتم !! ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرةُ أربعين سنة ، وليأتينَّ عليها يوم وهي كظيظ من الزحام . ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ، ما لنا

طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك ، فأتزرت بنصفها ، وأتزر سعد بنصفها . فما أصبح اليوم منا أحد، إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت ، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً ، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا » .

الصرم : الانقطاع والذهاب . ولّت حذَّاء : أي مسرعة الانقطاع. الصُّبابة: البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء يتصابها: يشربها . الكظيظ : الممتلىء .

ولقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه : «طريق الهجرتين وباب السعادتين » أبياتاً لواحد من أهل الخشية السالكين، نورد بعضها للعبرة والانتفاع إن شاء الله فيما يلي :

فيا عجباً من مُعرض عن حياته ... وعن حظه العالي ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أيَّ بضاعة ... أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فإن كان لا يدري فتلك مصيبة ... وإن كان يدري فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدري حين ينكشف الغطا ... ويصبح مسلوباً ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئاً بدون ما ... يساوي بلا علم وأمرك أعجب
لأنك قد بعت الحياة وطيبها ... بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازماً ... ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصدُّ وتنأى عن حبيبك دائماً ... فأين عن الأحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أيَّ تجارة ... أضعت إذا تلك الموازين تنصب

جزى الله خير جزائه ، نبينا محمد بن عبدالله ، ورضي الله عن أصحابه الكرام الذين آمنوا وصدّقوا وكانوا خير مثال يحتذى في العمل بهديه، صلوات الله وسلامه عليه وجزى الله الإمام ابن القيم خير جزائه على ما صنف وكتب في هذا الباب وذكَّر بصنيع أولئك الأصفياء . والله لايضيع أجر من أحسن عملاً .

كفى بنفسك اليوم شهيداً عليك

إذا ذكر يوم الوعيد، يوم تجيء كل نفس معها سائق وشهيد ، كان ذلك مدعاة لأن يزيد المؤمن من صلته بأخباره ، بمشاهده، ونذره، وأحواله ،كيما يكون على اليابسة، علماً وعملاً وأخذاً بأسباب النجاة التي يطمح إلى تحقيقها عباد الله الصالحون. ذلك بأن الفقه في أخبار ذلك اليوم ـ كما ترى في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ــ جدير ، بأن يدفع إلى العمل الجادّ المبصر للآخرة ، وأن يكون المعيار الأخروي هو المقدَّم في وزن الأعمال والتصرفات، وفي هذا الهدي النبوي ، ما يوحي ، بأن المؤمن عندما يعطي العمل للآخرة حقه من العناية ، معرفة بالأحكام وإخلاصاً لله عز وجل ، يكرمه الله بأن يكفيه أمر دنياه ، لأن الآخرة خير له من الأولى ، وهي بلا ريب خير وأبقى ، جاء في بعض وصايا الإمام سفيان الثوري رحمه الله قوله : « أحسن سريرتك يحسن الله علانيتك ، وأصلح فيما بينك وبين الله يصلح الله فيما بينك وبين الناس ، واعمل لآخرتك يكفك الله أمر دنياك . بع دنياك بآخرتك تربحْهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ».

ولقد ترك النبيﷺ الأمة على المحجة البيضاء، حيث كشف ـ وهو المؤيد بالوحي ــ بإحاطة تامة ـ كما أسلفنا ـ عما يكون في اليوم الموعود ، بين العباد وخالقهم جل شأنه وتباركت أسماؤه ، وعن المآل الذي يصير إليه، أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ورانت الغفلة على قلوبهم، فنسوا الله واليوم الآخر، وكانوا من أهل النار . وقد رأينا في صفحات خَلَتْ ما روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل قول المنافق يوم القيامة : «يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع فيقول الله : ههنا إذاً ، أي قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً .. ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك » ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه ،

لأن عمى القلب ، جعله يظن أن نهج النفاق الذي كان عليه في الدنيا، يمكن أن ينفع في هـذا اليوم العصيب أيضـاً .. «فيختم على فيـه ، ويقال لفخذه وعظـامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعُذر من نفسه» يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « وذلك المنافـق وذلك الذي يسخط الله عليه » . أرأيت إلى هذا المشهد المروّع من مشاهد القيامة ؟ أنكـر المنافق وكذب ، فأنطق الله جوارحه بالشهادة عليـه، فكانت هذه الجوارح شـاهد الله الذي يعلم السر وأخفـى عليه: الآن نبعث شاهدنا عليك .

هكذا تعلن الحقيقة إعلانها ، ويخسر الزيف وأهلوه ، ويكب المنافق في الدرك الأسفل مـن النار ، أمـا أعماله التي حسبهـا تنطلي على الآخريـن : فلم تغـن عنه شيئاً، لأنها فقدت أعز ركن وأغلاه ، وهو الإيمان .

وهذه صورة أخرى، من صور أخّاذة فيـاضة بالعظات والعبر ، تضمها تلك المشاهـد التي يفترض أن تشحذ العـزائم، وتباعد بين المرء، وبين النفـاق وأهله، وتُعلي قدر العلم الأخروي، في نظر المؤمن ، كيما يكون من المسارعين في الخيرات، والأعمال الصالحات التـي حرّرت من الشوائب والأكـدار ، أولئك الذيـن تكتب لهم النجـاة في سـاعـات الهول ، ويفوزون بـرضـوان الله ، وما أعـد لأهل الفـلاح والخشية من النعيم المقيم. أخرج الإمام مسلم بسنده عن سفيان الثوري عن عُبيد المُكتِب عن فضيل عـن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ ، فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا: الله وسوله أعلم، قال : من مخاطبـة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تُجرني من الظلـم، قال : بلى ، قال: فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قـال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه: انطقي ، قـال : فتنطق بأعمالـه ، قال : ثـم يخلّى بينه وبين الكلام ، قـال : فيقول: بُعداً لكنّ وسُحقاً فعنكن كنت أناضل » ورواه النسائي وابن أبي حاتم .

وغير خافٍ أن حديث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا : لون مبارك من ألوان البيان، لما جاء في القرآن الكريم حول هذا المشهد الناطق بما يؤول إليه أمر أعداء الله، من مثل قول الله جل وعز في سورة فصلت : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون** ﴾.

يوزعون : يساقون ويُدفعون إلى جهنم.

هذا : وقد ذكر الحافظ ابن كثير ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبوبردة: قال أبوموسى : «ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجحد ويقول : أي وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول: لاوعزتك رب ما عملته، قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه».

أما المؤمن : فيعترف بالخطأ ، ويرجو مولاه المغفرة ، قال شيخ المفسرين الطبري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا ابن عُلَيَّة قال : حدثنا يونس بن عُبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبوبردة : قال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه: « يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربّه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف ، فيقول: نعم أي رب عملت عملت عملت، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فودّ أن الناس كلهم يرونها . ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله، فيجحد ويقول : أي رب وعزتك، لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟

فيقول: لا وعـزتك أي رب مـا عملته ، فـإذا فعل ذلـك ختم الله على فيـه » . قال أبوموسى الأشعـري رضي الله عنه : فإني أحسب أول ما ينطق منـه الفخذ اليمنى، ثم تـلا :﴿اليـوم نختم على أفـواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشهد أرجلهـم بما كانـوا يكسبون﴾ .

اتقوا النار ولو بشق تمرة

كثيرة هي تلك الأحاديث، التي تضع العباد أمام الحقائق المذهلة التي تواجه الإنسان يوم القيامة، وفي الوقت نفسه، تقدم قوارب النجاة، وتأخذ بيد المكّلف إلى ساحة العمل المجدي في هذه الدار، وهو العمل الخالص لله عز وجل مهما قلَّ، مادام هو الممكن، ومادام قد فُعل على الوجه الذي بيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذا توافر للمسلم ذلك، كان العمل قميناً ـ بفضل الله تعالى ـ أن يقي صاحبه مصارع السوء في ذلك اليوم العصيب، حيث تشتد الحاجة إلى العمل المنجي، ويتعاظم الافتقار إلى جبار السماوات والأرض الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى؛ لأن الهول شديد شديد، والساعات تمر مثقلةً بالكثير الكثير، من الترقب والمشقة، حيث ترى كل أمة جاثية، ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، قال الإمام البخاري: حدثنا عمر بن حفص قال: حدثني الأعمش قال: حدثني خثيم عن عدي بن حاتم قال: قال النبي ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة ».

إنه الموقف الذي لا محيص منه، وهو حقيقة يؤمن بها المسلم، إيماناً يجعلها منه، كأنه يراها هنا في الدار العاجلة ويُحِسُّها، فليعدّ لها العدّة، وليحكّم المعيار الأخروي في العمل، والعاقل كل العاقل من تزوّد لتلك الرحلة، ولقي ربه بقلب سليم. وتحمل الرواية عند الإمام مسلم شيئاً من التفصيل، الذي يسعف في مزيد من وضوح الرؤية من أجل العمل والإعداد، فقد روى بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تِلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق

تمرة » ثم قال الإمام مسلم :زاد ابن حجر : قال الأعمش : وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله ، وزاد فيه «ولو بكلمة طيبة » وقال إسحاق : قال الأعمش : عن عمرو بن مرة عن خيثمة . وله في رواية أخرى عن عدي بن حاتم أيضاً قال : «ذكر رسول الله ﷺ النار فأعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . وجاء في رواية ثالثة لمسلم أيضاً «أنه ﷺ ذكر النار فتعوذ منها، وأشاح بوجهه ثلاث مرات ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وذلك ما نجده عند الإمام البخاري عن عدي بن حاتم : قال النبي ﷺ : «اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

وواضح أن هذا كلّه ، فيمن لا يجد إلا ذلك القليل مما يتقي به النار ، بذلاً في سبيل الله ، فما بالك بمن يجد ما هو أكثر وأوفر ؟ كيف لا يبني وقاية تقيه من النار، يصوغها من العمل المرضي لله عز وجل .... ؟

أما وقد دلّ النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ على الطريق ، وبيّن الأمر خير بيان ، فلا عذر لمعتذر يأتي يوم القيامة ، فيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا يجد المخرج من الوقوع في النار التي تستقبله ـ وهي مآب الطاغين ـ إلا ما قدّم في هذه الدنيا ، من الغرس الطيب والعمل الذي يكون نوراً بين يديه ، ومنجاة مما يقع فيه الخلق الذين عميت منهم البصائر في الدنيا ، حتى إذا نسوا الله في عاجل أمرهم ، عاقبهم بالنسيان في آجله ، وكان مأواهم النار وبئس القرار .

وفي تأكيد لمقام العمل هنا ، وأثره في ساعات المسؤولية هناك ، تطالعنا رواية الترمذي عن طريق الأعمش: « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة

وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه ، ثم ينظر أشأم منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدّمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ : « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . حدثنا أبو السائب قال : حدثنا وكيع يوماً بهذا الحديث عن الأعمش ، فلما فرغ وكيع من هذا الحديث قال : من كان هاهنا من أهل خراسان ، فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان ، لأن الجهمية ينكرون هذا . اسم أبي السائب: سلْمُ ابنُ جَنادةَ بن سلم بن خالد بن جابر بن سمرة الكوفي . والحديث رواه النسائي وابن ماجة والدارمي.

هذا : والناظر في هديه عليه الصلاة والسلام ، في شأن النهج الذي على المؤمن أن يسلكه في دار العمل هنا ، استعداداً ليوم المسؤولية والحساب والجزاء هناك ، نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يأل جهداً في أن يكشف لأمته عن ضرورة الحفاظ على الوقت، واغتنام الفرص، قبل أن يأتي اليوم الذي لا مردَّ له من الله ، حيث يفوز الذين استنفدوا الطاقة في مرضاة ربهم ، والتقرب إليه ، والتخلق بأخلاق المؤمنين حقاً ، والذين لهم مغفرة عند ربهم ورزق كريم. أخرج الترمذي في كتاب الزهد من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ عن يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : إن كان محسناً : ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً : ندم أن لا يكون نزع» فالمحسن يندم على أن لا يكون ازدادمن الإحسان الذي ينفع في ذلك اليوم العظيم ، والمسيء يندم على أن لا يكون انتهى عن الإساءة وتاب وأناب، عسى أن يغفر الله له ما فرط من ذنوب وآثام ..

ربنا اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ..

على جسر جهنم.. اللهم سلم سلم

كلما ازداد إقبـال المؤمن على الآخـرة ، وسلك مسـالك الـذين يخشـون ربهم ويخافون سوء الحسـاب .... ازداد حرصاً على إمعان النظـرات المتبصرة ، فيما جاء عن رسول الله ﷺ ــ وهو يبلغ الرسالـة، ويبين الكتاب ـ في شأن يـوم المعاد ، وما يقبل عليه العبادمن المسؤولية والجزاء، كلٌ بما قدّم وعمل . وهذا ـ بعون الله تعالى ـ طريقه لأن يكـون من أهل التوفيق ، الـذين لا تلهيهم الدنيـا بملذاتها وشهواتها ـ مهما كانت الـزخارف والمغريات ــ عن ذكر الله ، والتفكر بما يكـون يوم الحساب ، ولا تشغلهم ـ وهي دار الزوال ـ عن الآجلة التي هي دار القرار ،والتفكير بما يكون يـوم الحساب ، وفي الـوقت نفسـه ، يبلغ بهم الخوف والـرجاء ، أن يـديموا غسـل الحوبة بالندم والاستغفار ، ويقبلوا على التوبة قبل أن تبلغ الحلقوم .

و إذا كان الأمـر كذلك ــ ولب القضية وجـوهرهـا ما يكون مـن الإقبال على الآخرة ــ فالاستزادة من مخالطـة النصوص التي تؤذن بما يـزخر به اليوم الآخـر من مشاهد ، وتكشف عن الحقائق التـي درج المتخلفون عن ركب أهل التقوى ، أن يهوّنوا مـن شأنها، ويلبسـوها المعاني التـي تنصح بحب الـدعة والغفلـة... أقول: الاستزادة مـن مخالطة النصوص على هـذه الشاكلـة، رغبةً في العلم والعمـل : من التعقل الأخروي، أن يجعلها المؤمن هجيراه ، كيما يكون ذلك عوناً له على التأسي بأهل التقوى المحسنين ، والانصراف عن طريق الغـافلين الذين ينساهم ربهم يوم الدين.

وهذه الإشـارة ، ذات نسب إلى مـا نحن بسبيلـه ، من متـابعة الحديـث عن مساءلة الله عباده ، يوم لا يسأل حميم حميماً ، وما يكون من نصب الصراط الذي ما بد مـن أن يعبروا عليه ، وهم على يقين ، بأن المصير إمـا إلى جنة الخلد التـي وعد

المتقون ، وإما إلى نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه : « الصراط جسر جهنم» وقال هناك : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سعيد وعطاء بن يزيد أن أباهريرة رضي الله عنه أخبرهما عن النبي ﷺ ، حدثني محمود قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهري عن عطاء ابن يزيد الليثي عن أبي هريرة قال : «قال أناس : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال: هل تضاروّن في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة ، كذلك يجمع الله الناس فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه .. فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسرُ جهنم ، قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهمّ سلّم سلّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله . فتخطف الناس بأعمالهم ، منهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يُخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيُصبُّ عليهم ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبّة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، فيقول: يارب قد قشبني ريحها ، وأحرقني ذَكاؤها فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره ،

فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيصرفُ وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك: يارِبِّ قربني إلى باب الجنة ، فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك . فلا يزال يدعو ، فيقول : لعلّي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله له أن يسكت ، ثم يقول : ربّ أدخلني الجنة . ثم يقول : أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك ؟ ، فيقول : يارب لا تجعلني أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها ، قيل : تمنَّ من كذا . فيتمنى . ثم يقال له : تمنّ من كذا فيتمنى ، حتى تنقطع به الأماني ، فيقول له : هذا لك ومثله معه ، قال أبوهريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً » ثم قال البخاري : قال عطاء : وأبوسعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لايغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله : « هذا لك ومثلُه معه » قال أبوسعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « هذا لك وعشرة أمثاله » قال أبوهريرة : حفظت « ومثلُه معه » .

وهكذا يؤكد عطاء ـ وهو هنا عطاء بن يزيد الليثي المتوفى سنة سبع ومائة للهجرة ـ يؤكد موافقة أبي سعيد الخدري أباهريرة رضي الله عنهما في نص هذا الحديث بطوله إلا أن أباسعيد يحفظ « هذا لك وعشرة أمثاله » وأبوهريرة يحفظ «هذا لك ومثلُه معه » .

شبَّه رسول الله ﷺ كلاليب الصراط بشوك السعدان ، والسعدان : جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه، قالوا : (مرعى ولا كالسعدان). وقوله ﷺ : « أما رأيتم شوك السعدان » هو استفهام تقرير لاستحضار الصورة المذكورة ، وهي صورة خطف الكلاليب الناس بأعمالهم. ونقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنير قوله : «تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع التحرز والتصون تمثيلاً

لهم بما عرفوه في الدنيا وألفوه با لمباشرة ».

وورد في الحديث كلمة « امتَحشوا » وفي بعض الروايات « امتُحِشوا » ومعناها احترقوا . ذَكاؤها بفتح الذال : شدة وهجها قال ابن الأثير في « النهاية » : وفي حديث ذكر النار « قشبني ريحها وأحرقني ذَكاؤها » الذَّكاء : شدة وهج النار . يقال: ذَكَّيتُ النار : إذا أتممت إشعالها ورفعتَها . وذكت النار تذكو ذَكاً ـ مقصور ـ أي اشتعلت وقيل : هما لغتان .

وللحديث بقية ، نسعد فيها ثانية باصطحاب هذا النص الكريم المثقل بالتوجيه والعبر ، ونرى ماله من روايات أخر ، تسهم في مزيد من الوضوح وتبيُّن الملامح ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الذين يجوزون الصراط ملطوفاً بهم لا تخطفهم الكلاليب ، ولا تزِلّ بهم الأقدام ، منعماً عليهم بجنة الرضوان ـ فضلاً من الله ورحمة ـ إنه نعم المولى ونعم النصير .

الصراط جسر جهنم

في الحديث الذي أورده الإمام البخاري في بـاب عنوانه « باب الصراط جسر جهنم» مـن كتاب الرقاق في الجامـع الصحيح ـ كما رأينـا من قريب ـــ حقائق إيمانية لابـد من استـذكارها ، إذ نطـالع فيها نطـالع ، أن الصراط حـق ، وأن دعاء الرسل هناك حـق ، وأن الناجين يكرمون بحسب منازلهم ، وأن أهـل الضلالة ،لا يقـوون على جـوازه ، ويسقطـون في جهنـم. فقـد جـاء هنـاك : « ويُضرب جسر جهنم»، قال رسول الله ﷺ: «فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلِّم سلِّم » وفي رواية مسلم ـ كما سيأتي : « ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول مـن يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الـرسل ، ودعوى الرسل يـومئذ اللهم سلّم سلّم».

هكـذا يـدل الحديـث، على ثبـوت هـذا المشهـد العظيـم الهائل : الصراط يضرب ـ يُحدُّ ـ بين ظهري جهنم، وترى الناس محشورين للعبور عليه، وكلهم على هذا الترقب والحذر الشديد ، فالمؤمنون يكرمهم الله بالنجاة ، على حسب منازلهم، والآخرون ، يغمرهم ظلام الضلال ، فيسقطون في نـار لظى، أعاذنا الله برحمته ومنّه وفضله ، من هولها وعذابها الغليظ .

وأحقية وجود الصراط ، وأنه جسر جهنم، هـو مذهب أهل الحق كما يتضح من تـرجمة الإمام البخـاري للأحـاديث الـواردة في ذلك بقـوله :« الصراط جسر جهنم» وقال الإمام النووي رحمه الله : وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم، فـالمؤمنون ينجون على حسب حـالهم ـ أي منازلهم ـ والآخـرون يسقطون فيها أعاذنا الله الكريم منها .

والرسول ﷺ أول مـن يُجيز : أي أول من يمضي عليه ويقطعـه، يقال: أجزت

الوادي وجزته، لغتان بمعنى واحد، وينقل عن الأصمعي قوله: أجزته: قطعته وجزته : مشيت فيه والله أعلم.

ولشدة ما يكون من الأهوال ، وما يحمل ذلك المشهد من اضطراب النفوس ، خشية سوء المصير والوقوع في جهنم، لا يتكلم في حال الإجازة ، إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن كمال شفقتهم ورحمتهم للخلق ، يكون دعاؤهم: «اللهم سلّم سلّم ». نقول هذا ،لأنه قد يظن أن الكلام ممتنع يوم القيامة ، إلا في حال إجازة الصراط ، ففي ذلك اليوم المشهود مواطن، يتكلم فيها الناس ، وتجادل كل نفس عن نفسها ، ويسأل بعضهم بعضاً ، ويتلاومون ، ويخاصم التابعون المتبوعين كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .

وقد استنبط العلماء من دعاء الرسل « اللهم سلّم سلّم» في تلك الساعات العصيبة، ساعات إجازة الصراط ، أن الدعوات تكون بحسب المواطن ، فيدعى في كل موطن بما يليق به ؛وذلك ما علمناه رسول الله وعرف من هديه . وقد جاء في بعض الروايات أن شعار المؤمن على الصراط « رب سلّم سلّم » قال الإمام الترمذي : حدثنا علي بن حُجر قال: أخبرنا علي بن مسهر عن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعيد عن المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله ﷺ : « شعار المؤمن على الصراط رب سلّم سلّم » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب من حديث المغيرة بن شعبة لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق. وفي الباب عن أبي هريرة ، اللهم لطفك بعبادك .

ألا إن هذا الدعاء الذي يلهمه الله الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ والمؤمنين

عموماً ـ كما نصت هذه الرواية عند الترمذي ـ أنسب وأصلح ما يكون من الدعاء في تلك الساعات المثقلة بالحرج وشديد الرعب، حيث الخطر المحدق، والمصير المخوف المرتقب.

هذا والكلام على الصراط ـ جعلنا الله ممن يجوزونه بسلام ـ يصلنا بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام من أن الصراط هو أحد مواطن ثلاثة يطلب فيها النبي ﷺ، فهو لا يخطئها: الصراط والميزان والحوض. وأكرم الله أمتنا بأن سأل أنس بن مالك رضي الله عنه الشفاعة، فأمره أن يطلبه أول ما يطلبه عند الصراط؛ فإن لم يجده، فليطلبه عند الميزان، وإلا فعند الحوض. ذلكم ما أخرج الإمام الترمذي بسنده عن النضر بن أنس بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: سألت النبيﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. فقال: أنا فاعل. قال: قلت يارسول الله فأين أطلبك؟ قال: تطلبني أول ما تطلبني على الصراط قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان قال: فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن. قال أبوعيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وجاء في مسند الإمام أحمد حدثنا عبدالله قال: حدثني أبي قال: حدثنا يونس بن محمد قال: حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس قال: سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال: قال: أنا فاعل بهم، قال: فأين أطلبك يوم القيامة يانبي الله قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط، قال: قلت: فإذا لم ألقك على الصراط؟ قال: فأنا عند الميزان، قال: قلت فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: أنا عند الحوض لا أخطىء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة».

ألا ما أحوج الناس في ذلك اليوم العصيب، إلى رحمة الله الواسعة ولطفه الكبير. وهنيئاً لمن قدّموا في الدنيا ما يؤهلهم لتلك الرحمة وجميل اللطف، فتراهم، وقد أشرق عليهم نور الشفاعة المحمدية، وياويح من لم تدركه هذه الرحمة، من وخيم العاقبة وسوء المصير. ولقد يعجز العقل عن وصف ما يدخل من الفرح

على قلوب الناجين الذين تدركهم ألطاف الله وينالون الشفاعة ؛ روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن صهبان قال: سمعت أبابكرة عن النبي ﷺ قال: « يُحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبة الصراط تقادُع الفراش في النار ، قال : فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء ، قال : ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفعوا ، فيشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، وزاد عفان مرة فقال أيضاً : ويشفعون ، ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان » قال أبو عبدالرحمن حدثنا محمد بن أبان قال: حدثنا سعيد بن زيد مثله .

قال علماء اللغة : التقادع : التهافت والتتابع في الشيء ، كأن كل واحد يدفع صاحبه أن يسبقه، قال الإمام الرازي : وفي الحديث: «يحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار » .

اللهم اجعلنا في تلك الساعة المهولة، ممن يستجاب فيهم دعوة رسلك عليهم السلام : اللهم سلّم سلّم . يا أرحم الراحمين .

ذكرت النار فبكيت

أهل الفلاح الذين صفت بالتقوى قلوبهم ، واستنارت بالإيمان عقولهم ، لا يفتؤون يعملون من الصالحات ، ويأتون من القربات ما يزيد إيمانهم بالغيب، الأمر الذي يزيدهم طمأنينة على طمأنينة ، ويجعل ما أخبر به القرآن ، وبينته السنة: قريباً من نفوسهم، حتى كأنه بين ظهرانيهم يرونه بأم أعينهم، يشهدونه مصدقين ، ويحسّون وجوده الحق، لا يخالطهم في ذلك أدنى ريب أو التباس، الأمر الذي يسعف في الاستقرار النفسي ، والتفاؤل برحمة الله في عاجل الأمر وآجله . ومن هذه القضايا التي يريح الإيمان بها قلبَ المؤمن وعقله : أن الصراط حق. ومعلوم أن مذهب أهل الحق إثباته ، وأنه كائن لا محالة ؛ فهو جسر يضرب على جهنم ليعبر عليه الناس إلى مصيرهم ـ كما سبق الحديث عن ذلك آنفاً ـ فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم ، والآخرون يسقطون في نار السعير ، نعوذ بالله العزيز الرحيم من عذابها وشر بلواها .

والمؤمن عندما يتصور ذلك المشهد ، الذي هو حق لا ريب فيه ، يزداد خوفاً من سوء العاقبة والعقاب، كما يلوذ بربه خاشعاً خاضعاً ، رجاء المغفرة والثواب، ومن غير اللائق ولا المقبول ، أن يطيع المؤمن نفسه وهواه ، فيصيبه طائف من الغفلة، يجعله يتقاصر عن العمل الصالح في هذه الدار ، ويقعد عن النَّصَب في سبيل الله مع القاعدين . ولذلك ما بد من الدأب المبصر ، على تزكية النفس ومحاسبتها ، ومجافاة الهوى وشياطين الإنس والجن ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسَّاها ﴾ .. لا بد من ذلك ، كيما تكون مشاهد القيامة وما تحمل من الأهوال نصب عين المؤمن ، تذكره إذا غفل، وترتفع به إلى معايير الآخرة وعدم الركون إلى مغريات العاجلة إذا ونى .

ولقد دلّت الأحاديث الصحيحة على أن الناس يكونون على الصراط، وقد حصل ما حصل من تبدل الأرض والسماوات، بقدرة الواحد القهار، قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عليّ بن مُسهرٍ عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله؟ فقال : «على الصراط» وبهذا اللفظ رواه ابن ماجة في باب « ذكر البعث» من كتاب (الزهد) في السنن . والآية التي تشير إليها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، هي قوله تعالى في الآية الثامنة والأربعين من سورة إبراهيم: ﴿ يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ وقد سُبقت بقول الله جل وعز : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾. وأخرج الترمذي بسنده عن الشعبي أيضاً عن مسروق قال: « تلت عائشة هذه الآية: ﴿يوم تبدّل الأرض غير الأرض ﴾ قالت: يارسول الله ، فأين يكون الناس؟ قال : على الصراط ». قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وروي من غير هذا الوجه عن عائشة ، أُم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وقد كانت من أحرص الناس على فقه ما يتلى في بيت رسول الله ﷺ من الكتاب والحكمة ، وأن لا تدع أن تستفسر وتسأل وتستضيء بالجواب ، وأعطاها الله ما أعطاها ، من دقة الفهم والقدرة على النفاذ .. أم المؤمنين أجزل الله مثوبتها تخبرنا ، بأنها كانت أول من سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عن الآية المذكورة في سورة إبراهيم، قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا بن أبي عدي عن داودعن عامر عن مسروق قال: قالت عائشة: « أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ قالت: فقلت: أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : على الصراط » .

وغير خاف أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما تدل الروايات ـ قد كشف لها رضي الله عنها ـ وقد سألته هذا السؤال ـ أن أحداً من أمته لم يسأله عنه قبلها .

ولا يخفى ما في ذلك من التكريم لها ، ومن تقرير تلك الفضيلة فيها، فضيلة التطلع إلى المعرفة ، والفهم من صاحب الشريعة المؤيد بالوحي عليه الصلاة والسلام . وكم حملت أسئلة أم المؤمنين جزاها الله خير الجزاء ، إلى الأمة ما حملت من الخير ، والهداية في الدين والدنيا والآخرة . جاء في مسند أحمد : حدثنا عبدالله قال : حدثنا أبي قال : حدثنا عفان قال : حدثنا القاسم بن الفضل قال : قال الحسن : قالت عائشة : يارسول الله ﴿ يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ أين الناس ؟ قال: «إن هذا لشيء ما سألني عنه أحد من أمتي قبلك ، الناس على الصراط » والحق أن المدة التي يقضيها العباد وهم على الصراط، والتي لا نعرف مداها في عمق الزمن ، ساعات مثقلات بالخوف المضني ، والحذر الشديد الشديد، ولو كشف الغطاء عما يصيب النفوس من هول ذلك المشهد، لرأيت العجب العجاب . وأشد من هذا ما يكون من طبيعة الصراط ،وكيف هو ، وقد ضرب جسراً بين ظهري جهنم، ومما جاء في ذلك ما روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه من قوله : « ولقد بلغنا أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف». نسأل الله لطفه ونقول : يارب سلّم سلّم .

وحملت إلينا بعض النصوص صورة مهولة أخرى عن الصراط، وأنه من المواطن التي لا يذكر فيها أحد أحداً ، إذ كلٍّ واحد من العباد ، لديه من الحذر وخوف المصير حيث تخطف جهنم من أُذن لها أن تخطفه ـ ما يشغله عن الآخرين. أخرج أبوداود بسنده عن يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقل ، وعند الكتاب حين يقال:﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه ، أفي يمينه أم في شماله ، أم من وراء ظهره ، وعند الصراط ، إذا وضع بين ظهري جهنم» قال يعقوب: عن يونس ، وهذا لفظ حديثه. وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها قالت: « قلت:

يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : ياعائشة أما عند ثلاث فلا: أما عند الميزان حتى يثقل أو يخفَّ : فلا ، وأما عند تطاير الكتب، فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله: فلا ، وحين يخرج عنق من النار ـ يعني طائفة منها ـ فينطوى عليهم ويضغط عليهم، ويقول ذلك العنق : وكلِّت بثلاثة، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد فينطوي عليهم ، ويطرحهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أدق من الشعرة وأحدُّ من السيف ، عليه كلاليب ، وحسك، تأخذ من شاء الله، والناس عليه كالطرف ، وكالبرق، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون: رب سلمّ سلّم، فتموج ، فسالم، ومخدوش سلَم ـ أي كالأسير ـ ومكور في النار على وجهه ». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» : رواه أحمد وفيه ابن لهيعة ـ وهو ضعيف وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

وما من ريب في أن المؤمن الذي يداخله من الخشية ما يداخله ، حين يذكر هذا المشهد وأمثاله ، من مشاهد القيامة، يدفعه ذلك ـ بعون الله ـ إلى حسن التزود بالتقوى ، وذكر الآخرة وبذلك يأمن إن شاء الله يوم الخوف .

روى أبوبكر ابن أبي شيبة عن الحسن البصري أنه قال : «إن المؤمنين عجلوا الخوف في الدنيا ، فآمنهم الله يوم القيامة ، وإن المنافقين أخروا الخوف في الدنيا فأخافهم الله يوم القيامة» .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وهو المسؤول ــ جل شأنه ــ أن يسلك بنا ــ وهو ذو الفضل العظيم ـ طريق النجاة والأمن يوم يقوم الحساب .

فضل الله.. وآخر أهل الجنة دخولاً

أخرج أبو نعيم في «الحلية» من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن معمر عن يحيى عن الحسن البصري أنه قال: « إن المؤمن قوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق هذا الأمر على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من وُصلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيقول: ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله مالي عذر بها، ووالله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلَكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله ».

وددت أن تكون كلمات هذا التابعي القدوة رحمه الله، مدخلاً إلى ما نحن بسبيله ،من متابعة الكلام على الصراط الذي يُضرب يوم القيامة جسراً بين ظهري جهنم، حيث يكون المؤمن على أشد حال من الخوف والرجاء، يضرع معها إلى الله جبار السماوات والأرض الذي لا يسأل عما يفعل، أن يمنّ عليه بفكاك رقبته ونجاته من النار.

والذي يزيد الأمر شدة: ما يكون من مشهد الناس ـ وهم يعبرون جسر جهنم أو يحاولون العبور ـ وبهذا الجسر كلاليب مثل شوك السعدان؛ إنها صورة مرعبة، قربها رسول الله ببلاغته إلى الناس. كلاليب لا يعلم قدر عظمها إلا الله.. انظر إليها وهي تخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردَل، ثم ينجو. ومن الخير ـ زيادةً في البيان ـ استذكار ما جاء في ذلك عند الإمام البخاري، وذلك في الرواية المطوَّلة التي أخرجها عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق

من الجامع الصحيح ، تحت بابٍ عنوانه .« الصراط جسر جهنم » .

ورغبةً في تبيُّن المعنى المراد من مختلف جوانبه، يحسن إيراد بعض الروايات الأخرى. وفي خطوة إلى تحقيق ذلك . نتجه إلى ما جاء عند الإمام مسلم في صحيحه. إذ في الرواية شيء من الاختلاف عما جاء في رواية الإمام البخاري؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أباهريرة أخبره «أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ، فقال رسول ﷺ : هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ، قالوا : لا يارسول الله ، قال : هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، ويجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبَّعه، فيتبِّع من كان يعبد الشمس ، الشمس ،ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربُنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه . ويُضربُ الصراط بين ظهرَي جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان ، قالوا: نعم يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم المؤمن الموبَق بعمله ، ومنهم المجازى حتى يُنَجّى ».

إنه لمشهد مخيف حقاً ، ولا منجاة من مخاطره ، إلا بلطف من الله اللطيف الخبير ؛ وكم يحسن المؤمن إلى نفسه ، وينأى عن ظلمها ، إذا اتخذ من هول ذلك المشهد ، حافزاً يحفزه إلى طريق النجاة ، يسلكها بعزيمة صادقة ، وقلب متصل بالله الرحيم الرحمن ؛ فقد جاءبعد ذلك قوله ﷺ : «.. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يُخرِج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا

من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ، ممن يقولون : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود ـ تأكل النار من ابن آدم إلا السجود ـ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيُخرجون من النار وقد امتحشوا ـ أي احترقوا ـ فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحِبة في حميل السيل» ـ أي كما تنبت بذرة البقول والعشب في مجرى السيل من الطين والغثاء ـ والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته .

وفي بشارة تفرح قلوب المؤمنين ، قال ﷺ بعد ذلك : «ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ـ وهو آخر أهل الجنة دخولاً ـ فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ـ أي آذاني وأهلكني وغير جلدي وصورتي لهبُها واشتعالها ـ فيدعو ما شاء الله أن يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلتُ ذلك بك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله ، فيصرفُ الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها ، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول : أي رب قدِّمني إلى الجنة . فيقول الله : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول له: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أليس قد أعطيتَ عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أُعطيت ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ! فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو الله ، حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فإذا دخلها ، قال الله : تمنّه ، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكّره من كذا وكذا ، حتى إذا انقطعت به الأماني قال

تعالى : لك ذلك ومثله معه ».

قال عطاء بن يزيد : وأبوسعيد الخدري مع أبي هريرة ، لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدّث أبوهريرة : أن الله قال لذلك الرجل : ومثلُه معه ، قال أبوسعيد : وعشرةُ أمثاله يا أبا هريرة ، قال أبو هريرة : ما حفظتُ إلا قوله : لك ذلك ومثلُه معه . قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله ذلك لك وعشرةُ أمثاله . قال أبوهريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً ».

وليس هذا عجباً في سعة رحمة الله تعالى !! والمهم أن يتخذ المؤمن من هذا العطاء السخيّ ، باعثاً على أخذ الأهبة والإعداد لتلك الساعات العصيبات. وصلاة الله وسلامه على نبينا محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وصحابته الذين حملوا عنه هذا الدين ، وما به يسعد المؤمن في الدنيا ، وينجو به من أهوال يوم التناد ، يومِ قال فيه جبار السماوات والأرض : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ .

الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

الأحاديـث الواردة في شـأن الصراط ـ كما تؤكـد ضرورة الإيمان ، بأنـه واقع لا محالة ـ تكشف عـن مورد من مـوارد الاعتبار والعظة ، فيما هـو عليه؛ مـن وجود كلاليب فيـه ،تشد الهالكين إلى السقوط في جهنم ، بينما يتفاضل النـاجون حسب منازلهم. وقد استوعبـت هذه الأحاديث معالم ذلك المشهد المهول مـن مشاهد يوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل . ولئن كانت تلك النصوص من الهدي النبوي، تخبر الخبر الصادق ،عما سيحدث في ذلـك اليوم الذي يجعل الـولدان شيباً ، إنها في الوقت نفسه ،تحمّـل الناس أمانة العمل الذي يتسق مع هـذا الذي سوف يقع لا محالة ، فحلقـة المعرفـة تقود بلا كلفـة ولا عنت، إلى الحلْقـة التي تليهـا، وهي المسؤوليـة التي تقتضي شَغْـلَ الوقت بـالعمل الصـالح والاستنـارة بهدي الكتاب والسنة ،مـن أجل النجـاة يوم الديـن، والفوزِ بمرضـاة رب العالمين ، التـي مآلها جناتٌ تجري من تحتها الأنهار أعدت للمتقين. أمـا من رانت على قلوبهم الغفلة : وأعرضوا عما جـاءهم من البينات والهدى ، واستبدلـوا الذي هو أدنى بـالذي هو خير ، ناسين الله واليوم الآخر ، فمآلهم سوء العاقبة ، ونار ﴿**وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾.

وما من ريب، في أن من ثمرات الإيمان والعمل الصالح ، أن يعطى المؤمنون والمؤمناتُ يـوم القيامـة نوراً يسعـى بين أيديهم وبـأيمانهم. ولا تسل عـن موقعـه العظيم ـ والشـدة الشادة مستحكمة عند الصراط ـ قال تعـالى في سورة الحديد : ﴿**من ذا الـذي يقرض الله قـرضاً حسنـاً فيضاعفـه له ولـه أجر كـريم . يـوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيـديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم**﴾ ذكر الحافظ ابن كثير عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ أنه قال:

على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثـل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً ، من نوره في إبهامه يتقد مـرة، ويطفأ مرة . ورواه ابـن أبي حاتم وابـن جرير . وقـال الحسن البصري : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ يعني على الصراط .

وفي بعض الآثار : أن الناس كلهم يعطون النور ، ولكن نور المنافقين ينطفىء عند الصراط . قال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين ، فلما رأى المؤمنون ذلك ، أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين، فقـالوا : ربنا أتمم لنا نورنا . وفي حديث ابـن عباس عند ابن مردويه : فيعطى كل إنسان منهم نوراً ثم يوجهون إلى الصراط ؛ فما كان من منافق: طفـىء نورُه ، وفي لفـظ: «فإذا استـووا على الصراط ، سُلـب نور المنـافقين فقالـوا للمؤمنين : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ...﴾ » الآية .

ولا يرتاب مرتاب في أن ظلام الضلالـة والظلمِ في الدنيا ،ونسيانَ الله واليوم الآخر ، يعقبـان أصحابهما ، ما لا قبـل لهم به في تلكم اللحظـات الحرجات على الصراط ـ وقد ضرب جسراً على جهنم وسبحان اللطيف الخبير ـ أخرج أبوبكر بن أبي شيبة في مصنفه عن بشر بن عاصم قال: « كتب عمر بن الخطاب عهداً لبشر بن عاصم فقال : لا حاجة لي فيه، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة فيقفـون على جسر جهنم، فمن كان مطواعاً لله ، تنـاوله الله بيمينه حتى ينجيه، ومن كان عاصياً لله ، انحرف به الجسر إلى واد من نار يلتهب التهاباً. قال: فأرسل عمر إلى سلمان وأبي ذر ، فقـال لأبي ذر : أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم والله ، وبعد الـوادي واد آخر من نار . قال : وسأل سلمان ، فلم يخبر بشيء ، فقـال عمر : من يـأخذهـا بما فيها ؟ فقال أبـو ذر : من سلب الله أنفه وعينيه وأصرع خده إلى الأرض ».

وفي حديث موصول مع الكلام على الصراط جسرِ جهنم، تحسن الإشارة إلى

أن ما أوردتُـه من قبل، مـن روايتي البخاري ومسلـم، قد جاء عنـد الإمام أحمد في المسند بلفظ مختصر عنهما، ذلك ما روى هناك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال : « يضرب جسر على جهنم ، قـال النبي ﷺ : فأكـون أولَ من يجيز ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم ، وبها كلاليب مثل شوك السعدان، هـل رأيتم شـوك السعدان ، قـالـوا : نعم يـارسـول الله ، قال : فـإنها مثل شـوك السعدان غير أنـه لا يعلم قدر عظمهـا إلا الله تعالى ، فتخطف النـاسَ بأعمالهم، فمنهم الموبَق بعملـه ومنهم المخردَل » . وجاء في روايـة مسلم « فأكون أنـا وأمتي أول من يجيـز » قال الإمـام النووي : المعنـى أكون أنـا وأمتي أول مـن يمضي على الصراط ويقطعه ، يقال : جـاز الواديَ وأجازه : إذا قطعه وخلّفه . قـال القرطبي صاحب « المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » والمتوفى سنة ست وخمسين وستمائة : (يحتمل أن تكون الهمزة هنا للتعدية، لأنـه لما كان هو وأمته أول من يجيز على الصراط ، لزم تـأخير غيرهم عنهـم حتى يجوز ، فـإذا جاز هـو وأمته ، فكـأنه أجاز بقية الناس). ووقع في حديث عبدالله بن سلام عند الحاكم: « ثم ينادي مناد أين محمد وأمته ؟ فيقـوم فتتبعه أمته برُّها وفاجرهـا فيأخذون الجسر ، فيطمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون من يمين وشمال ، وينجو النبي والصالحون ».

والمخردل ـ كما يقـول ابن الأثير في النهاية ـ المرمـي المصروع ، وقيل : المقطّع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار .

هذا : وقد آن أن نصحـب رواية الترمذي وموضـع الكلام على الصراط منها؛ ففي ذلك إن شاء الله ، مزيد من تجلية المعنى المراد؛ فقد روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطّلع عليهم رب العـالمين فيقول : ألا يتبع كل إنسان ما كانـوا يعبدونه فيمثّل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون ، فيطّلع عليهم رب العالمين ، فيقول: ألا تتّبعون الناس ؟ إلى أن يقول: « .. فيعرِّفهم نفسَه ثم يقول : أنا ربكم فاتبعوني ،

فيقـوم المسلمون ، ويـوضع الصراط ، فيمـرون عليه مثـلَ جياد الخيـل والركـاب، وقولهم عليه : سلِّـم سلِّم . ويبقى أهل النـار ، فيطرح منهم فيها فـوجٌ ، ثم يقال: هل امتلأت ؟ فتقول: «هل من مزيد» ثـم يطرح فيها فوجٌ ، فيقال : هل امتلأت؟ فتقول : «هل من مزيد »؟ حتى إذا أوعبـوا فيها ، وضع الرحمن قدمه فيها ، وأزوى بعضها إلى بعـض ، ثم قال : قطْ ، قـالت: قطْ قـطْ ؛ فإذا دخل أهل الجنـة الجنة، وأهل النار النار ، قال : أُتي بالموت ملبَّباً ، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقـال : يا أهل الجنة ، فيطَّلِعون خائفين ، ثم يقـال : يا أهل النار، فيطَّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة ولأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون ـ هؤلاء وهؤلاء ـ : قد عرفناه ، هو الموت الذي وكِّل بنا ، فيضجع ، فيذبح ذبحـاً على السور الذي بين الجنة والنـار ، ثم يقال : يا أهـل الجنة خلودٌ لا مـوت ، ويا أهـل النار خلـودٌ لا مـوت » قال أبـو عيسـى : هذا حـديث حسـن صحيح... ومعنى قوله في الحديث : « فيعرِّفهم نفسه »: يعني يتجلى لهم .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾

ما أحوج الإنسان ، أياً كان موقعه في هذه الحياة ، إلى مخالطة ما أخبر عنه النبي ﷺ ـ وهو الرحمة المهداة ـ من أمور يوم القيامة ، وما يصحب ذلك من مشاهد مروّعة تدع الناس ـ إلا من رحم ربك ـ على حال لا تكاد توصف ، لشدة الهول وترقب المصير . فلقد كان ﷺ خير ناصح لأمته، بل لبني الإنسان أجمعين، من سبقه ومن لحقه ، عندما بشر وأنذر ، وكشف اللثام عما سيكون من سؤال القبر والنفخ في الصور ، والبعث بعد الموت ، والحشر والنشر ، والوقوف للمساءلة بين يدي رب العالمين ، ومن وضع الميزان ، وضرب الصراط بين ظهري جهنم.. ثم عما يؤول إليه أمر كل واحد من العباد ؛ من دخول الجنة ، أو القذف في النار ..

ذلك بأنه ﷺ جعل الناس ـ بصنيعه المبارك الميمون ـ على بينة من أمرهم؛ يعقل من يعقل ، فيشغَل النفس بتقوى الله والعمل الصالح ، ضماناً للزاد المناسب لتلك الرحلة ، فهو على ذكر مما يلزم لذلك، يجدُّ السّير ولا ينسى الله واليوم الآخر. ويصدُّ عن الحق من يصُد ؛ ترين على قلبه الضلالة ، وتلفُه بظلامها الغفلةُ عن الله ، ونسيانُ يوم الحساب ، وهنا ينقلب على عقبيه ظالماً نفسه ، ويحشر يوم القيامة أعمى، تخطفه كلاليب الصراط وتلقي به في جهنم ، لا يبالي الله به في أي وادٍ هلك!!

والعهد قريب بنصوص من هدي خير العباد ، مؤذنة بأن كلاليب الصراط ـ وهو الجسر المضروب بين ظهرى جهنم ـ تخطف الناس وهم يمرون عليه ـ على حسب منازلهم ـ والسعيد من أدركته رحمة الله ، فنجا من ذلك الهول ، وكان من الفائزين . وقد بلغت النصوص في هذا المقام حدّاً عظيماً ، في بيان ما ينفع الأمة بيانه من شؤون هذا الجسر الذي يُجعل ـ بقدرة الله تعالى ـ بين ظهري جهنم ، ولا

تسل عن الاختبار الصعب، الذي لا يعرف حاكماً ولا محكوماً هناك .

غير أن هنالك نصوصاً ، تحمل مزيداً من وصف ذلك الجسر ،يتجلى فيها المزيد من حرص النبي ﷺ على أمته ، أن ينالها ذلك الخطر المهول ، في حال المرور من فوقه ـ وقد اشتد الكرب ووجفت القلوب ـ. ففي باب﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ من كتاب التوحيد في الجامع الصحيح ؛ روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «قلنا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال هل تضارّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا : لا ، قال: فإنكم لا تضارّون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال: ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغُبرَات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا فيتساقطون في جهنم ، ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال: كذبتم لم تكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون ، حتى يبقى من كان يعبد الله من برّ أو فاجر ، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم . و إنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون و إنما ننتظر ربّنا ، فيأتيهم الجبار في صورةٍ غير صورتِه التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ... إلى أن يقول : ثم يؤتى بالجسر ، فيُجعل بين ظهري جهنم قلنا : يارسول الله وما الجسر ؟ قال : مدْحَضة مزِلة ، عليه خطاطيف ، وكلاليب ، وحسكةٌ مفلطحة لها شوكة عُقيفاء تكون بنجد يقال لها : السعدان ، المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب؛ فناجٍ مُسلَّم، وناج

مخدوش ، ومكدوس في نـار جهنم، حتي يمَّر آخـرهم ، يُسحبُ سحْبـاً ؛ فما أنتم بأشدَّ لي مناشدةً في الحق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمن يومئذ للجبّار .

وإذا رأوا أنهم قد نجـوا في إخوانهم(*) ، يقولون : ربنـا إخواننا الذيـن كانوا يصلون معنا ، ويصـومون معنا ، ويعملون معنا ، فيقول الله تعـالى : اذهبوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقـال دينار من إيمان ، فأخرجوه ، ويحرّم الله صـورهم على النار ، فيأتونهم ـ وبعضهم قد غاب في النار إلى قـدميه ، وإلى أنصاف ساقيه ـ فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبـوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا ، قـال أبوسعيد : فإن لم تصدقوني فاقرؤوا ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ . فيشْفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبـار: بقيت شفـاعتي ، فيقبـض قبضة مـن النار ، فيخـرج أقوامـاً قد امتحشوا، فيُلقـون في نهر بأفواه الجنـة يقال له: مـاء الحياة، فينبتون في حـافتيه كما تنبـت الحِبة في حميـل السيل، قـد رأيتموهـا إلى جـانب الصخـرة ، وإلى جانـب الشجرة ، فما كـان إلى الشمس منها، كان أخضر ، ومـا كان منها إلى الظـل ، كان أبيض، فيخـرجون كأنهم اللـؤلؤ ، فيجعل في رقـابهم الخواتيم، فيدخلـون الجنة ، فيقـول أهل الجنـة: هؤلاء عتقـاء الرحمن ، أدخلهـم بغير عمل عملـوه ، ولا خيرٍ قدموه ، فيقال لهم : لكم مارأيتم ومثله معه » .

هكذا يجيـب النبي ﷺ من سألـوه عن الجسر الذي يجعل بين ظهـري جهنم بقوله : «مدحضة مزِلّة » أي تزل فيه الأقـدام وتزلق ، «عليه خطاطيف وكلاليب» الخطـاطيف : جمع خُطّـاف . قال ابـن الأثير في النهايـة : وهو الحديـدة المعوجّـة كالكلّـوب يختطف بها الشيء يجمع على خطـاطيف. ومنه حـديث القيامـة « فيه خطاطيف وكلاليب ».

وكـأن مجيء اللفظين على هـذه الصـورة ، لأن الكلاليـب جمع كلّـوب وهـو حديدة معّوجة الرأس أيضاً . وهذا من بلاغته الفذّة عليه الصلاة والسلام ، لما أنه

(*) ولأبي ذر عن الكشمهني « وبقي إخوانهم » .

أراد أن يقّرب المشهد ، بكل ما فيه من الهول والمخاطر المرتقبة ، كي يكون المؤمنون على المحجة البيضاء ، في إدراك ما سيكون ، ويعقدوا العزم على حسن التزود في العاجلة الفانية ، لذلك اليوم . وفي الجسر مع الخطاطيف والكلاليب حسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء : أي ملتوية تكون بنجد يقال لها : السعدان .

هذا : وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمام الترمذي : بعد أن روى الحديث الجامع عن الرؤية ومخاطبة الرب عباده ، وتجليه للمؤمنين ، وعن الصراط وما يتعلق به ، وعن ذبح الموت وما إلى ذلك ـ وقد أوردت بعضه من قريب ـ بعد هذا: ذكر رحمه الله أنه حديث حسن صحيح ثم قال : وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذا ، ما يذكر فيه أمر الرؤية أن الناس يرون ربهم ، وذكرُ القدم وما أشبه . والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة: مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس، وابن المبارك ، وابن عيينة ، ووكيع ، وغيرهم : أنهم رووا هذه الأشياء ، ثم قالوا : تُروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تُروى هذه الأشياء كما جاءت ، ويؤمن بها ، ولا تُفسَّر ولا تُتوهم ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه . ثم قال : ومعنى قوله في الحديث: « فيعرِّفهم نفسه » يعني : يتجلّى لهم.

اللهم الطف بنا واجعلنا ـ بفضلك ـ عند المرور على الصراط من الناجين الفائزين ؛ فإنه لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، إنك أهل التقوى ، وأهل المغفرة ، والمحمود يا ربنا على كل حال .

في أعقاب القراءة النافعة إن شاء الله ، للحديث الجامع الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ وفيه ما يثير كوامن الإيمان بالغيب ، والرغبة الصادقة في معرفة المزيد عما تكون عليه حال الناس ، عند المرور على الجسر المضروب بين ظهري جهنم ـ تحسن القراءة المتأنية ـ بمشاركة العقل والقلب ـ لرواية أخرى له ففيها ما يطمئن قلب المؤمن ، ويزيد الأمر وضوحاً ،على طريق استجلاء المعاني وتبيُّن المراد . إذ جاء في تلك الرواية التي أخرجها رحمه الله في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ بعد الكلام على أحقية رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة ـ قول رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتَّبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار ؛ حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبَّرِ أهل الكتاب ـ يعني بقاياهم ـ فيدعى اليهود ، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عُزيراً ابن الله فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا: عطشنا ياربنا فأسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النار . ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم: ماكنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون؟ فيقولون : عطشنا ياربنا فأسقنا، قال : فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضه بعضاً ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من برٍ وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى ، في أدنى صورة من الصور التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا: ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول: أنا ربكم،

فيقولـون : نعوذ بالله منك لا نشرك بـالله شيئاً ـ مـرتين أو ثلاثاً ـ حتـى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هـل بينكم وبينه آية ، فتعرفونـه بها ؟ فيقولون : نعم ـ فيكشف عن سـاقٍ ، فلا يبقى من كـان يسجد لله من تلقاء نفسـه ، إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقـاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد ، خرّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقـولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحلّ الشفـاعة ، ويقـولون : اللهـم سلّم سلّـم ، قيل يـارسول الله ، ومـا الجسر؟ قال : دحض مَزَلّـةٌ ، فيه خطاطيف وكلاليب، وحسـك تكون بنجد ، فيها شوكـة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنـون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالـريح، وكالطير ، وكأجاويد الخيل الركاب ، فناج مسلَّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم؛ حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فو الذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بـأشدَّ منـاشدة لله في استقصاء الحق ، مـن المؤمنين لله ،لإخوانهم الـذين في النار ، يقولون : ربَّنـا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجـون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحرّم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه ، وإلى ركبتيه ، ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول: ارجعوا ، فمن وجدتـم في قلبه مثقال دينار من خير ، فأخرجـوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقـولون : ربَّنـا لم نذر فيهـا أحداً ممن أمـرتنا ، ثـم يقول: ارجعـوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير ، فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربَّنـا لم نذر فيها ممن أمرتنـا أحداً ، يقول : ارجعوا ، فمن وجـدتم في قلبه مثقال ذرة من خير ، فـأخرجوه ، فيُخرجـون خلقاً كثيراً ، ثم يقولـون : ربَّنا لم نذر فيها خيراً .

وكان أبـوسعيد الخدري يقـول : إن لم تصدقـوني بهذا الحديث ، فـأقرؤوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفهـا ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجـل : شفعت الملائكة وشفع النبيـون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الـراحمين ، فيقبض قبضة من النـار ، فيخرج منها قومـاً لم يعملوا

خيراً قط ، قد عادوا حُمماً ، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة ، يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحِبَّة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفرُ وأخيضرُ ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيضَ ، فقالوا : يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة ؛ هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة ، بغير عمل عملوه ، ولا خيرٍ قدّموه ، ثم يقول: ادخلوا الجنة ، فما رأيتموه ، فهو لكم، فيقولون ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول : لكم عندي أفضلُ من هذا ، فيقولون : يا ربّنا أيُّ شيءٍ أفضلُ من هذا ؟ فيقول : رضاي ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

ولمزيد من التوثيق الذي ينشده العلماء، قال مسلم : قرأت على عيسى بن حمَّاد زُغبَة المصري هذا الحديث في الشفاعة وقلت : أحدِّث بهذا الحديث عنك أنك سمعت من الليث بن سعد ؟ فقال : نعم . قلت لعيسى بن حمَّاد : أخبركم الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قلنا : يارسول الله أنرى ربنا؟ قال رسول الله ﷺ : هل تضارّون في رؤية الشمس إذا كان يومٌ صحوٌ ؟ قلنا : لا ، وسقت الحديث حتى انقضى آخره ، وهو نحو حديث حفص بن ميسرة ، وزاد بعد قوله : «بغير عمل عملوه ولا قدم قدّموه » «فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه ». قال أبوسعيد : بلغني أن الجسر أدقُ من الشعرة وأحدُّ من السيف . وليس في حديث الليث « فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين» وما بعده ، فأقربه عيسى بن حماد .

جاء في وصف الجسر ـ وهو الصراط ـ أنه دحض مزَلَّة أو مزِلّة بفتح اللام وكسرها والمراد : الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر ـ كما سبق ـ ويقال: دحضت الشمس أي مالت ، وحجة داحضة أي : لا ثبات لها. والله حسبنا ، وهو نعم الوكيل.

من نوقش الحساب هلك

من مشاهد اليوم الموعود التي كشفت عنها النصوص ، في حديث من لا ينطق عن الهوى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتي تدعو إلى كثير من العظة والتذكر، ومجانبة الغفلة ومسالك الغافلين ... من هذه المشاهد ، تلك التي تحمل إلى الأمة ما يكون من مناجاة الله العبدَ يوم القيامة ـ في عديد من الأحوال والصور ـ وما يكون من عرَضات ؛ عرضتان : جدال ومعاذير ، وعرضة تتطاير عندها الصحف في الأيدي ؛ فآخذٌ بيمينه ، وآخذٌ بشماله . وحديث العَرْض ــ من حيث هو ـ حديث كما يقول الإمام الترمذي في جامعه ــ السنن ــ حديث صحيح حسن، لكن حديث تعدد العرضات للعلماء فيه مقال . غير أن جوهر القضية الكبرى ، القضية التي ينبغي أن لا يبارح المؤمنَ تمثُّلها ــ وهو يكدح في هذه الحياة ـ أعني إيتاء الكتاب باليمين ، أو بالشمال ، أو من وراء الظهر ؛ فهو من الأمور المنصوص عليها في الكتاب العزيز ، وصحيح السنة النبوية المطهرة ــ كما سبق ــ ، والله اللطيف المستعان. قال الترمذي: حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك عن عثمان بن الأسود عن ابن أبي مُليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نوقِشَ الحساب هلك » قلت : يارسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ . قال : ذلك العرض » قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح حسن. ورواه أيوب أيضاً عن ابن أبي مُليكة. وروى بسنده عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات ، فأما عَرْضتان : فجدالٌ ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ». ورواه البعض عن الحسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، غير أن إسناد الحديث ضعيف لأن الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة كما أنه لم يسمع من أبي موسى . لذلك قال أبوعيسى : ولا يصح هذا

الحديث من قِبَلِ أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعيّ عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ ، قال أبو عيسى : ولا يصح الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى . وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري » كلام الترمذي هذا ثم قال : وهو عند ابن ماجة وأحمد من هذا الوجه ، مرفوعاً . وأخرجه البيهقي في « البيع » بسند حسن عن عبدالله بن مسعود موقوفاً .

هكذا يدفع الناس عن أنفسهم في المرة الأولى ، ويقولون : لم يُبلغنا الأنبياء، ويحاجُّون الله تعالى ـ وهو ما عُبِّر عنه بالجدال والمعاذير ـ وفي المرة الثانية يعترفون ويعتذرون ، بأن يقول كلٌّ : فعلته سهواً وخطأ وجهلاً ، أو نحو ذلك ـ كما قال صاحب « المرقاة شرح المشكاة » ـ أما في المرة الثالثة : فتتطاير الصحف في الأيدي؛ فمنهم آخذ بيمينه وهو من أهل السعادة ، ومنهم آخذ بشماله وهو من أهل الشقاوة ، عافانا الله من ذلك ، وجعلنا ممن يؤتون كتبَهم بأيمانهم، ويفوزون برضوان الله وما أعدّ لعباده المتقين في جنات النعيم .

وهذه صورة أخرى ، من صور مناجاة الله للعبد يوم القيامة ، تحمل البشرى بالمزيد من فضل الله ومغفرته لعبده المؤمن ، كما تحمل النذارة بما يؤول إليه أمر الكافرين والمنافقين ، حيث ينادى بهم على رؤوس الخلائق : ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾. وقد روى البخاري حديث هذه الصورة التي تحمل الوعد والوعيد ، في عدد من المواطن من كتابه « الجامع الصحيح» وجاءت إحدى تلك الروايات في كتاب المظالم «باب قول الله تعالى : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾». إذ قال رحمه الله: حدثنا موسى بن اسماعيل قال: حدثنا همّام قال: حدثني قتادة عن صفوان بن مُحرزٍ المازنيِّ قال : « بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما ، آخذٌ بيده إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يُدني المؤمن ، فيضعُ عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي ربّ.

حتى إذا قرره بـذنوبه ، ورأى في نفسه أنـه هلك ، قال : سترتها عليك في الـدنيا ، وأنا أغفرها لـك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافـرون والمنافقون : فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

والنجوى في الأصـل: السِرّ والمراد بها هنا ـ كما يقـول ابن الأثير ـ منـاجاة الله تعـالى للعبد يـوم القيامـة ، وسياق الحديـث يدل عليـه . وكنف الله تعـالى : ستره ورحمته ولطفه .

وللبخاري في رواية أخرى من طريق صفوان أيضاً « بينا ابـن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال : يا أبـاعبدالرحمن ـ أو قال يا ابن عمر ــ هل سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت النبي ﷺ يقول: « يُدنى المؤمن من ربه ـ وقال هشام : يـدنو المؤمن ــ حتى يضع عليه كنفـه فيقرره بذنـوبه : تعرف ذنـب كذا؟ يقول: أعرف ، يقول: ربّ أعرف (مرتين) فيقـول : سترتُها في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته . وأما الآخرون ـ أو الكفار ـ : فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ».

هكذا تجد أن الإيمان الصـادق ، مع التذكر عنـدما يمسُّ المؤمنَ طـائف من الشيطان ، والاعترافَ بالذنـب بين يدي الله عز وجل ، كل أولئك يكـون ـ بفضل الله ـ بـريد أن يوضـع هذا المؤمن ــ في تلك السـاعات العصيبات ــ في كنف الله، يقرِّبـه ويغفر لـه ويرحمه . أما الكفـار والمنافقون : فيجـزون بما كسبوا مـن الكفر، والعناد وظلم النفـس ، والعباد، أن ينادى بهم على رؤوس الأشهاد : هـؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، ويساقون إلى جهنم وبئس المهاد .

وتزداد الصـورة وضوحـاً يدعو إلى المزيـد من العظـة والاعتبار ، بما نـرى من رواية مسلم ، حيث روى بسنده عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال: سمعته يقول: « يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربـه عزوجل، حتي يضع عليه كنفه ، فيقرره بـذنوبه ، فيقول : هل

تعـرف؟ فيقول :أي رب أعـرف ، قـال : فإني قـد سترتها عليـك في الدنيـا ، وإني أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسنـاته . وأما الكفار والمنافقون : فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله» .

اللهم ثبتنا على الإيمان ، واسلك بنا طريق البررة الصادقين واحفظنا من شر الوقوع في حمأة المنافقين الكاذبين ، الذيـن يفتضح أمرهم على رؤوس الخلائق يوم الدين .

البطاقة المنجية

كلما أطال المؤمن الاصطحابَ المتبِّصر لحديث النبـي عليه الصلاة والسلام ، أكرمـه الله بالمزيد من المعـرفة التي تنير السبيل ، وتعين على تجاوز الصعـاب التي تعترض العمل الأخـروي ؛ من داخـل النفس ، أو من خـارجها. أقـول هذا ، على طريـق المتابعة لصـور أخر ، من مخاطبـة العبد ربه في سـاعات المساءلـة ، المترعة بالخوف والترقب . وذلك في اليوم الذي ترى الناس ، وقد أحاطت بهم شدة الهول من كل مكان ، فلكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه .

وفي ظل هذه الحقيقة ، نقف عند حديث ـ مرّ بنا نحوه في مناسبة أخرى ، من قبل ـ ينقل إلينـا ضحك النبي ﷺ من مخاطبة العبد ربّه ، وما يـؤول إليه الأمر من الختم على فيـه ، ونطق أركانـه التي أمرت بالنطـق بالشهادة عليـه ، ولا ينفعه أن يدعوَ عليهن بقوله : بعداً لكن وسُحقاً ، ذلكم ما روى مسلم بسنده عن الشعبى عن أنس بن مالك قال : كنا عنـد رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قـال: قلنا : الله ورسـوله أعلم ، قـال : من مخاطبـة العبد ربـه ، يقول: يارب ألم تُجرني مـن الظلم ؟ قـال : يقول : بلى ، قـال : فيقول: فـإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قـال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيـداً ، وبالكرام الكاتبين شهـوداً ! قال : فيختم على فيه ، فيقـال لأركانه : انطقي ، قـال : فتنطق بأعمالـه ، قال : ثـم يخلىَّ بينه وبين الكـلام ، قال : فيقـول : بُعداً لكـن وسُحقاً ، فعنكن كنت أناضل ».

معنى أناضل : أجادل وأخاصم.

هكذا أعذر الـرجل من نفسه ، حيـث أزال الله عذره من قبل نفسـه، بكثرة ذنوبـه وشهادة أعضائه عليـه بحيث لم يبق لـه عذر يستنـد إليه ، وكانـت شهادة

أعضائه استجابة لطلبه ، أن لا يظلم عندما قال : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، وتلك المخاطبة، التي خاطب بها ذلك العبد المثقل بالأوزار وعماية القلب ربه ؛ هي التي أضحكت رسول الله ﷺ ، وفي ذلك تنبيه أي تنبيه، على عدم الوقوع في شرك الغفلة التي تنسي العبدَ خالقَه العليم الخبير وتنتهي به إلى ما انتهى إليه حال ذلك العبد ، الذي لقي الله على حال ، أودت به إلى شر عاقبة وأسوأ مصير .

وياللّه ما أعظم نعمة الإيمان ، وما أكرم المؤمن الصادق ـ الذي أضاء نورُ الشهادتين قلبَه ـ على الله ، وما أحسن أن يقرَّ المؤمن بذنبه ، ويؤوب بالتوبة إلى مولاه .

ولننظر إلى أثر ذلك ، وما يؤول إليه مصير هذا العبد من عباد الله ؛ حيث المساءلة بين يدي ربنا الرحيم الرحمن ؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : **قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً ، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلَمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فيقول : لا ياربِّ ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضُر وزنَك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة؛ فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ؛ ولا يثقل مع اسم الله شيء »** . أخرجه الترمذي بإسناد صحيح في كتاب الإيمان من الجامع ـ سنن الترمذي ـ باب «ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله» . واللفظ له وأخرجه أيضاً ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم .

وفي رواية ابن ماجة شيء من التفصيل ، يزيد من وضوح هذه الصورة

المباركة، التـي تتجلى فيها رحمة الخالق جلّ شـأنه بعباده المؤمنين ، وتتعاظـم زنة الكلمة الطيبة لا إلـه إلا الله محمد رسول الله . قال رحمه الله : حدثنـا محمد بن يحي قال حدثنا ابن أبي مريم قال : حدثنا الليث قال : حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن الحُبُليّ قال: سمعت عبدالله عمروٍ يقول : قال رسول الله ﷺ : «يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدَّ البصر ، ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا ياربِّ ، فيقـول : أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ ثـم يقول : ألك عن ذلـك حسنة ؟ فيُهاب الـرجل ، فيقول : لا ، فيقـول : بلى إن لك عنـدنا حسناتٍ ، وإنـه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فيقـول : ياربِّ ما هذه البطاقة مع هـذه السجلات ؟ فيقول: إنك لا تُظلـم، فتوضـع السجلات في كفـة ، والبطاقـة في كفة ، فطـاشت السجـلات وثقلت البطاقة» ...

معنى يُهاب : يـوقع في هيبة . طـاشت: ارتفعت لخفتهـا . والبطاقة : الـرقعة الصغيرة . والسجل : الكتاب الذي كتبت فيـه الأعمال ، يقال : سجّل القاضي: قضى وحكم ، وأثبت حكمه في السجل .

هـذا : ومما تجدر الإشـارة إليه، أن الغفلـة عما جاء في الكتـاب العزيـز ، وفي هدي النبي عليـه الصلاة والسلام ، في شأن الارتباط التام بين العمـل في الدنيا ، والمسؤولية بين يـدي المولى عز وجل في الآخرة : مرض عضـال يعـاني منه كثير من المسلمين الذين أصبحوا يفكرون بعقول، كأنها عقول من لا يؤمنون بيوم الحساب، ويقيسون الأمور بالمقـاييس الماديَّة ، والمنافع العاجلـة، التي لا تقيم كبير وزن ، لما جاء مـن نصوص كثيرة واضحة الدلالـة في الكتاب والسنة ، حول هـذا الموضوع الجلل ، وأنى لهم العذر ، وقد كـان رسول الله ﷺ حريصاً الحرص كله ، على أن يبين للأمة ما يسلـك بها سبيل النجاة ، يوم توضع الموازين القسـط ليوم القيامة ، وتستعلن الحقيقة التي يحملها قول الله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يره.

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ !! فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ؛ فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة ، يحسُب ما خانوك وعصَوك وكذبوك وعقابَك إياهم، فإن كان عقابك إياهم وبقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم ، دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم ، فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضلُ ، فتنحّى الرجل وجعل يهتف ويبكي ، فقال له رسول الله ﷺ : أما تقرأ قول الله تعالى : **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾** فقال الرجل : يارسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرارٌ كلهم ». أخرجه الترمذي وهو حديث حسن . وقال أبوعيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان ،وقد روى أحمد بن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث . وأخرج الحديث أيضاً ابن جرير الطبري في « تهذيبه » والبيهقي .

وصلاة الله وسلامه على من أدى الأمانة ، فأحسن الأداء ، وبلّغ الرسالة، فأحسن البلاغ ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وصحابته البررة الأخيار ، وكل من أحسن التأسيَ والاتباع ، ورزق سلامةَ الفهم والانتفاع .

فيُمضى إلى النار!!

ما أشدَّ ما تحمل ساعات الهول يوم القيامة، من حصاد هو قاصمة الظهر، والطريقُ إلى سواء الجحيم ، إنه حصاد ما عمل أولئك الذين لم يقدِّموا خيراً ، وكانوا لا يرجون لله وقاراً ، ولا يرفعون بكلمة الهداية رأساً ، اجتالتهم الشياطين ، وركبهم الهوى ، ودرجوا على أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحَلُّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ .

وهذا الذي نتحدث عنه ، من تلك العاقبة وسوء المصير ، كان مما نبّه عليه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ وهو يبين عن الله ما جاء في شأن القيامة وأهوالها ـ فهذا إنسان يقفه الله بين يديه ، ويذكّره نعمَه عليه ، ويدّعي هو ويدّعي ، وفي خاتمة المطاف ، يُمضى به إلى النار ، لأنه خالي الوفاض من الخير ، فليس لديه أثارة من طاعة ، أو مخافةٍ لله ، تكون مفتاح نجاته من عذاب السعير .

جاء في كتاب القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ قوله رحمه الله : حدثنا سعيد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك قال : أخبرنا اسماعيل بن مسلم عن الحسن ، وقتادةُ عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَجٌ ، فيوقف بين يدي الله ، فيقول الله له : أعطيتك وخَوَّلْتُكَ وأنعمت عليك ، فماذا صنعت؟ (فيقول : يارب جمعتُه وثمَّرْتُه ، فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتِك به ، فيقول له : أرني ما قدمت فيقول : يارب جَمَعتُه وثَمَّرْتُهُ ، فتركته أكثر ما كان ، فارجعني آتِك به) فإذا عبدٌ لم يقدم خيراً ، فيُمضى به إلى النار » وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

البَذَج : ولد الضأن ـ كما مرَّ من قبل ـ وجمعه: بِذجان بالكسر . وقال ابن

الأثير في «جامع الأصول»: البَذَج : كلمة فارسية تكلمت بها العرب وهو أضعف ما يكون من الحُملان . قال أبوعيسى : وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قولَه ، ولم يُسندوه ، وإسماعيل بن مسلم يضعَّف في الحديث من قبل حفظه ، وفي ا لباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري . ولكن هذا الحديث يشهد له ما كنا أوردنا من قبل وهو ما أخرج الترمذي بسنده أيضاً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع؛ أفكنت تظن أنك ملاقي يومِك هذا ؟ قال : فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح غريب.

ومعنى قوله : «اليوم أنساك» يقول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسَّروه. قال أبوعيسى : وقد فسَّر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم﴾ قالوا : إنما معناه : اليوم نتركهم في العذاب . ومعنى «ترأس» : يكون رئيس القوم ، و «تربَع»: تأخذ ربُع الغنيمة كما كان في الجاهلية ، والمعنى : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً !

هذه الصورة المهولة ، التي يشهد الخلائق من خلالها ، عاقبة أولئك الذين نضَبت نفوسهم من الخير ، واستحبُّوا العمى على الهدى ، وتبعث في نفس العاقل ما تبعث من المخافة ، والرهبة من سوء المصير ... هذه الصورة ، تقابلها صورة أخرى في مشاهد يوم الدين ـ وما أكثر مشاهد الخوف والرجاء يومذاك التي تحمل في طياتها آثار رحمة الله بعباده الذين ما زال في أعماقهم بقية باقية من ندى الخير والإعتراف بالذنب والتسليم لما يقضي به الله رب العالمين ـ وليست بعيدةً وقفتُنا مع ما روى الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ؛ من حديث ذلك الرجل من أمة محمد ﷺ ، الذي يخلِّصه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فبعد أن يُنْشَرَ له

تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، فلا ينكر منها شيئاً ، ويعترف بأن الكتبة الحافظين لم يظلموه ، يقول الله له : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم ، فتُخرج بطاقة فيها ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تُظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفه ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء .

وإذا كانت النفحة المباركة تذكر بأختها : فهذه صورة أخرى، يبدّل الله فيها سيئات واحد من عباده ، حسناتٍ . أخرج مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها . فيقال له : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ـ وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال ـ له :فإن لك مكانَ كلِ سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

أما بعد : فهذا بيان النبي عليه الصلاة والسلام الذي ترك الأمة على بيضاء نقيةٍ ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فطوبى لمن انتفع بهذا الهدي الكريم، وعمل لما بعد الموت ، وكانت «مشاهد القيامة» من سلوكه في هذه الدار ، بحسبان .

لعل من الإنصاف للحقيقة ، وحسن تقدير عمل العاملين : أن نشير إلى أن ساعات الهول، وشديدَ الخوف يوم الفزع الأكبر، وما تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من صور تنخلع لها القلوب ، كل أولئك كان ملء سمع السلف الصالح وبصرهم؛ يذكرونه على أحوالهم كلها ، فيأخذهم ذلك إلى ساحة العمل، والاجتهاد في تقوى الله والعمل المبرور ، وشدِّ الأيدي على هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر به عن الداء والدواء ؛ ذلك بأنه ﷺ ـ كما أشرت غير مرة ـ لم يدع أن يبين لأمته ، ما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، حين كشف القناع، عما سيكون يوم الحساب، وعن الطرائق التي تجنِّب ـ إذا سلكت ـ ويلات ما ينتظر الغافلين المعرضين ، لما أن هذا السلوك مجلبة ـ إن شاء الله ـ لفيض رحمته سبحانه وتعالى ، ولطفه بعبده التوّاب المنيب إليه .

من ذلك ما جاء عنه ﷺ ، من توجيه إلى ملء ما قدّر الله من الحقبة الزمنية ـ التي هي عمر الإنسان ـ بالصالح من العمل ، ومحاولة حفظها من سيء العمل، وبيان أن الخيريَّة في الأولى ، وأن نقيضها في الثانية ؛والعاقل من ذُكِّر فتذكَّر .

وعلى هذا : يكون طول عمر المرء ـ مصحوباً بالتقوى وصالح العمل ـ سبيل النجاة بإذنه تعالى . والعكس بالعكس . نجد هذا فيما أخرج الترمذي وغيره ـ واللفظ للترمذي ـ عن عبدالله بن بسر «أن أعرابياً قال : يارسول الله من خيرُ الناس؟ قال : من طال عُمره وحسُن عمله » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما . وله من رواية أخرى عن أبي بكر عن أبيه « أن رجلاً قال : يارسول الله أيُّ الناس خير ؟ قال : من طال عُمُره وحسُن عمله ، قال : فأيُّ الناس شرٌّ ؟ قال : من طال عمره

وساء عمله » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

إنه المعيار الدقيق الذي يبدو ـ وهو من نور النبوة ــ على نسب صحيح من بيان قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ والطريق التي لا طريق غيرها ـ بفضل الله وعونه ـ إلى النجاة يوم الحساب ، يوم ترى الناس سكارى ـ حيارى ـ من شدة الهول وعظم الترقب والتساؤل ، عما يكون المصير ، وما هم بسكارى ـ ما شربوا المسكر الذي يذهب بالعقل ـ ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ أجل ... ولكن عذاب الله شديد ، والعاقل كل العاقل من تبصر وتفكر وعمل في العاجلة على أن يتزوّد بخير الزاد للآجلة .

وما من ريب أيضاً ، في أن معيار الخيرية وما يقابلها ،وكون ذلك منوطاً بطول العمر مع حسن العمل ـ من هنا ـ وبطول العمر وسوء العمل ـ من هناك ـ .. ما من ريب في أن هذا ، على صادق النسب إلى بيانه ﷺ ، لما جاء من هدي كتاب الله العزيز على هذه الساحة ــ وما أكثر ذلك وأوفره ــ من مثل قول الله الرحيم الرحمن في سورة آل عمران ، بدءاً من الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾.

وأنت واجد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، منهجاً لا يرتفع إلى دقته وسموِّه إلا نبي يوحى إليه ، وهو منهج قوامه ـ على صعيد التذكير بالمسؤولية يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ ربط واقع الإنسان المحدودِ وجودُه على هذا الكوكب ـ وهو يُمضي ما كتب له في دار الفناء من زمن يطول أو يقصر ـ بما سيكون يوم

الدين ، يوم تستعلن الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من الناس في الدنيا ، أولئك الذين أسلموا لغير الله وجوههم، وخضعت تصرفاتهم للشيطان ، والهوى والشهوات ، بدل أن تعنوَ للحي القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ـ تلك الحقيقةُ ، هي ما دل عليه بيقين قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ من المسؤولية الفردية : فكل فرد مسؤول بين يدي رب العالمين. يؤكد ذلك قوله سبحانه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

أخرج البخاري في كتاب الأحكام « باب من شاقَّ شاقَّ الله عليه » من الجامع الصحيح من طريق أبي تميمة الهُجَيْمِيِّ قال : شهدت صفوان ،وجُندَباً وأصحابه ، وهو يوصيهم ، فقالوا : هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ؟ قال: سمعته يقول: من سمَّعَ سمَّعَ الله به يوم القيامة ، قال : ومن شاقَّ شقَّ ـ أو شاقَّ ـ الله عليه يوم القيامة ، قالوا: أوصنا ، فقال : إن أول ما ينتن من الإنسان بطنُه ، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ، ومن استطاع أن لا يُحال بينه وبين الجنة، بملءِ كفٍ من دم أهراقَه فليفعل» .

صفوان : تابعي ثقة مشهود من أهل البصرة . وجُندَب : هو ابن عبدالله البَجَلي الصحابي المشهور ، وكان من أهل الكوفة ، ثم تحول إلى البصرة . وأصحابه: أي أصحاب صفوان .

أرأيت إلى هذا الارتباط !! من سمّع هنا في الدنيا ، سمّع الله به في يوم القيامة، ومن شاق هنا في الدنيا ، شق الله عليه أو شاق الله عليه يوم القيامة. سمّع فلان بفلان : إذا فضحه وأظهر عيباً كان يستره ، ومن فعل ذلك بالناس ، فإن الله يفعل به مثلَه ؛ بأن يهتكه ويكشف عيوبه للناس في الدنيا والآخرة .

قالوا : ويجوز أن يراد بالتسميع، الرياء ؛ فالله يعاقب المرائي من جنس عمله، فيظهر الى الناس ، أن غرضه طلب الرياء وأن عمله لم يكن خالصاً . ومن أدخل

المشقة على المؤمنين، فظلمهم وآذاهم ، أو شاقّهم بالمخالفة ومفارقة الجماعة ، فإن الله يعاقبه على ذلك يوم القيامة ، كما في حديث عائشة الذي رواه مسلم من قوله ﷺ : « اللهم من وليَ من أمر أمتي شيئاً ، فشقَّ عليهم ، فاشقُق عليه ».

وفي آخر الحديث الأسبق : وعيد شديد على قتل المسلم بغير حق ، يوضحه ما روى الطبراني عن جندَب قوله : « تعلمون أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحولنَّ بين أحدكم وبين الجنة ـ وهو يراها ـ ملءُ كف دم من مسلم أهراقه بغير حلِّه » .

أهْراقه : أراقه ؛ لأن الهاء في هَرَاقَ بدلٌ من همزة أراق .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واشرح صدورنا للعمل الذي يسلك بنا سبيل النجاة والفوز المبين يوم الهول الأكبر، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير ، الذي عمل على أن تصلح عاجلة العباد ، بما نبه عليه ، مما يكون في الآجلة من المساءلة والحساب . وعلى آله وصحابته ومن استمسك بسنته إلى يوم الدين .

الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة

كان فيما رأينا من هدي النبي ﷺ ، على ساحة الكشف عما يكون يوم القيامة، وما يلقى الناس من شدائد ـ وقد استبانت بلا لبس حقيقة ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان على المنهج الأقوم في بيانه للأمة ، عندما أوضح العلاقة بين حركة الحياة في سلوك المسلم ، وبين السؤال عن كل صغيرة وكبيرة يوم القيامة ، وفي ذلك ما فيه ، من بناء البواعث الذاتية ، على العمل الصالح ، والاستقامة على طاعة الله وتقواه ، في السر والعلن ، كائناً ما كان الثغر الذي أقام الله عليه المسلم في هذه الدار الفانية ، التي هي معبر للدار الباقية. وطوبى لمن كان على ذُكر من هذه الحقيقة أبداً ، فلم يخضع لوساوس الغفلة ، ولا نسي الخالق الذي يعلم السر وأخفى ، ولا يوم الحساب . ونصوص الهدي النبوي التي سعدنا بالرحلة معها من قريب، ليست للحصر ، بل تأخذ بأيدينا ، إلى نماذج مضيئة أخرى ، تزيد الأمر وضوحاً ، وتعين في تثبيت المستقيم على الطاعة، وإيقاظ الغافل ، أن لو كان حريصاً على التذكر وانتهاج سبيل المبصرين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

ها نحن أولاء أمام مشكلة كبرى ــ هي مشكلة الظلم ــ يطالعنا التوجيه المحمدي بالكشف عن واقع الصلة بينها ، وبين العقوبة المعدّة للظالم في الآخرة ، فيُرهِّب من الظلم ، ويبين بكثير من الوضوح والجلاء ، أنه ظلمات يوم القيامة . ولست بحاجةٍ إلى التنبيه على ما تعنيه كلمة «الظلمات » في ذلك اليوم العصيب ، ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ ولكن لا نور للمنافقين والظالمين والكافرين . ولندع للذهن أن يذهب كل مذهب في تفسير هذا العنوان وهو الظلمات لهؤلاء ، بينما نور البررة الأخيار يسعى بين أيديهم

وبأيمانهم. أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة » وكلام الرسول ﷺ هذا كلام المبلغ عن الله عز وجل، وطاعته ﷺ من طاعة الله ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وامتحان المسلم في مقدار الامتثال والتنبه، كائن أبداً في العمل بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، فليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة فيما جاء عن الله ورسوله، أن يقول واحد منهم: أفعل أولا أفعل .. فمقتضى الإيمان : أن يمتثل المسلمون والمسلمات لما قضى الله ورسوله من الأمر ؛ ومما يناقض دعوى الإيمان: عدم الامتثال والاستسلام . قال الله تعالى : **﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ﴾. ثم ماذا يفعل الغافلون والظالمون ، وهم على دعوى الإيمان مقيمون ؟ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليماً ﴾** . من أجل هذا كان أهل البصيرة أحرص ما يكونون على صالح العمل ، وأن تستنير صحائفهم بالتقوى ومجانبة الظلم يوم تعرض الأعمال على الله تبارك وتعالى ، ويثير المخاوف في نفوسهم أيُّ خسران يلحق بهم ، على ساحة العمل الأخروى .

من أمثلة ذلك ـ والأمثلة تكاد تعز على الحصر ـ ما يرى الناظر من خبر أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وخوفِها من أن يكون الآخرون سبقوها بالهجرة حقاً ، وأنهم أحق برسول الله ﷺ ، ثم فرحِها وفرحِ كل الذين هاجروا من اليمن، وألقتهم السفينة في الحبشة ، وعادوا مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، حيث وافَوْا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لهم . روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « بلغَنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا

مهاجرين إليه ، أنا وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بردة ، والآخر : أبورُهم ـ إما قال: في بضعة و إما قال: في ثلاثة وخمسين،أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ـ قال : فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، قال : فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً . قال : فوافينا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا ـ أو قال : فأعطانا منها ـ وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم ، قال : فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ : سبقناكم بالهجرة ، قال : فدخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة ، وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عميس ، فقال عمر : آلحبشية هذه؟ آلبحرية هذه ؟ فقالت أسماء : نعم ، فقال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت ، وقالت كلمة : يا عمر ، كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعداء البُغضاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك ، قال : فلما جاء النبي ﷺ قالت : يانبي الله ، إن عمر قال كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : ليس بأحق بي منكم ، وله لأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم ـ أهل السفينة ـ هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً ، يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ .

قال أبو بردة : فقالت لي أسماء : فلقد رأيت أبا موسى و إنه ليستعيد هذا الحديث مني » .

وفي كلام موصول بقوله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة» ظلماته : مخازٍ وفضائح على رؤوس الأشهاد ، وسَوْقٌ إلى جهنم وبئس المهاد.. أين هذا الذي نرى في حديث أسماءَ بنتِ عُميس رضي الله عنها ، من عدل النبي ﷺ ، حين أعطى لكل ذي حق حقَّه في شأن الهجرة ، ومن امتثال عمر ، ورغبة أسماءَ في أن لا تُحرَمَ شيئاً من ثواب الهجرة ومالها من ضياءٍ في تاريخ الإسلام!!.. أين هذا ، من سلوكِ ظالمٍ يُعقِبُ ظلمات الخزي ، والندامةِ يوم القيامة!! وليس بنافع الظالمين اعتذارهم القميءُ عما أجرموا في الدنيا ، وتعسَّفوا في استعمال الحق عندما كانوا من ذوي السلطان، ولاهم يُرجَعون إلى الدنيا، ليعملوا غير الذي عملوا هناك من قباحات ـ كما يزعمون ـ!! ذلك قوله جلَّ ثناؤه في سورة الروم : ﴿ فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولاهم يُسْتَعْتَبون ﴾.

ولقد كان من فقه الإمام البخاري يرحمه الله ، ما يُرى في عدد من تراجم أبواب (كتاب المظالم) في الجامع الصحيح عنده ، من توثيق العلاقة ، بين ظلم الظالم في الدنيا ، وعقابة الصارم ـ على ساحة المسؤولية ـ يوم الحساب ، وما تكون عليه حاله المهينة والناس قيام ينظرون ؛ فتحت قوله : (كتاب المظالم) جاء قوله : «في المظالم والغصب وقولِ الله تعالى : ﴿ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنَّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم ﴾ : رافعي رؤوسهم . المُقْنِعُ والمقمِحُ واحد »

المهطع : الذي ينظر في ذِلةٍ وخشوع لا يقطع بصره ، ومقنعي رؤوسهم : رافعيها ليعودوا فيطأطئوها.. وهكذا.

ونقرأ تحت «باب قصاص المظالم» « قال مجاهد : «مهطعين » مُديمي النظر. وقال غيره : مسرعين لا يرتدُّ إليهم طرفهم. ﴿وأفئدتهم هواء﴾ يعني جُوفاً لاعقول لهم. ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل، أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال.

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ » .

ويا ويح الظالمين الذين يهون عليهم أن يُلغوا ـ بتصرفهم ـ إنسانية الإنسان ، وحقوقه، وما كرّمه به ، غافلين أو متغافلين عن حقيقة أن « الظلم ظلمات يوم القيامة» وأن « دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب» ؛ فإذا غفلوا هم وزبانيتهم ، فإن الله ــ الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً ـ لا يغفل سبحانه. وما أكثر النصوص في ذلك!! جاء في حديث أخرجه أحمد من رواية عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة .. كان منها في قوله ﷺ : «وأما الديوان الذي لايترك الله منه شيئاً : فظُلْمُ العباد بعضهم بعضاً ؛ القصاص لا محالة » [المسند: ٦/ ٢٤٠].

اللهم انصر عبادك المستضعفين ، وأهلك أعداءك الظالمين الجاحدين ، أنت الناصر وأنت المعين ، ولاحول ولا قوة إلا بك ياذا الجلال والإكرام .

الشفاعة العظمى

عندما تذكر الأمور العظام، التي تزخر بها مشاهد القيامة ـ حيث الشدَّة الشأَّدةُ تضرب بجرانها على الخلائق ـ ما بدٌّ من أن يذكر معها، ما أعطى الله نبينا محمداً ﷺ من الخصائص ـ ومنها الشفاعة العظمى ـ في شأن القضاء بين العباد، وإراحتهم من هول الموقف، وشدائده المذهلة، حيث يجد الناس أجمعون، أنهم بأمس الحاجة إليه ﷺ، ليخرجهم من المأزق المطبق عليهم بأثقاله ومصاعبه، ولا يجدون بعد رحلة طويلة، طلباً للخلاص ولو إلى الجحيم ... لا يجدون غيره صلوات الله وسلامه عليه، شافعاً بين الأنبياء والرسل عليهم السلام، يحقق لهم عند مالك يوم الدين جل شأنه ما هم متطلعون إليه، من القضاء بين العباد، لينفضوا إلى المساءلة، ومن بعدها إلى ما يكون من المصير هذا إلى جانب ما أعطي صلى الله وسلم وبارك عليه من الشفاعة لأمته، على حسب المنازل، وما يتطلع إليه أولئك الذين تخفق قلوبهم طلباً للنجاة، أو التخفيف من نتائج المساءلة بين يدي رب العالمين.

أخرج الإمام البخاري في كتاب التيمم من الجامع الصحيح بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» وفي رواية أخرى له عن جابر رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيُما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت

الشفاعة» . قال ابـن دقيق العيد ـ كما نقل عنه الحافظ ابـن حجر ـ: (الأقرب في كلمة الشفـاعة ــ هنا ـ أن الـلام فيها للعهد ، والمراد الشفـاعة العظمـى في إراحة الناس مـن هول الموقف ،ولا خـلاف في وقوعهـا) وكذا جزم النـووي وغيره . أما الشفاعة الخاصة بـأمته عليه الصلاة والسلام على حسب المنـازل ـ وهي مصداق كونه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ـ فقد جاء النص عليها في عدد وافر من الأحاديث، وفي بعض تلك الأحاديث: أنه صلوات الله وسلامه عليه ، اختبأ دعوته المستجابة شفاعةً لأمتـه يوم القيامة ، قال الإمـام البخاري : حدثنا إسماعيل قـال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لكل نبي دعـوة مستجابة يدعـو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتي شفـاعةً لأمتي في الآخرة » وأخـرج مسلم بسنـده عن أبي زرعـة عن أبي هـريرة رضي الله عنـه قال : «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، فيستجـاب له فيؤتاها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة » ورواه مالك في « الموطأ » .

وجاء ما يعطي مزيداً من الوثوق بهذا ، في رواية أخرى عند البخاري ومسلم، وهي أن أباهـريرة رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : إن نبـي الله ﷺ قال: « لكل نبي دعـوة يدعوهـا ، فأنا أريـد إن شاء الله أن أختبىء دعـوتي شفاعة لأمتـي يوم القيامـة ، فقال كعـب لأبي هريرة : أنـت سمعت هـذا من رسـول الله ﷺ ؟ قال نعـم».

ونقع في بعض تلك النصوص المباركة، على أن الشفاعة نائلة ـ إن شاء الله ـ من مات من هذه الأمة المحمدية، على التوحيد الخالص ـ فهو لايشرك بالله شيئاً ، ولا يدعـو من دونه أحـداً ـ الأمر الـذي يوجـب المزيد من العنـاية بأمـر الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي عليهـا مدار الإسلام وأخذ الحذر من كل ما يجفوها ، أو يسير بالمسلم على خـلاف ما تقتضيه ، كي لا يقع في شيء من من الشرك الأصغر ـ وما أكثر الدواعي الشيطانية إليه ـ فضلاً عن الوقوع في الشرك الأكبر ؛ فالـذين تهفـو قلوبهم إلى شفاعـة المصطفى عليه السـلام ، ما بـدٌّ من أن

يدخلوا من هـذا الباب المشرق الوضاء. قال الإمام مسلم : حدثنـا أبوبكر بن أبي شيبة وأبوكريب واللفظ لأبي كريب قالا : حـدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن أبي صـالح عـن أبي هريـرة قال : قـال رسول الله ﷺ : «لكـل نبي دعـوة مستجابـة ، فتعّجل كـل نبي دعوته ، وإني اختبـأت دعوتي شفاعـة لأمتي يوم القيامـة ، فهي نائلـة إن شـاء الله ، مـن مات من أمتـي لا يشـرك بالله شيئـاً » وأخرجـه الترمذي بنحوه .

ومما يجد ر ذكره : أن سلامة القاعدة بـالنسبة للمسلم ـ وهي أن يلقى الله وهو لا يشرك به سبحانه شيئاً ـ عنوان خيرية في تلكم الساعات ، التي يكون العبد فيها أحوج ما يكون إلى نفحـة من نفحات الرحمة الربانية ، تـدفعه إلى أن يكون في زمرة الناجين ؛ فمما جـاء في شأن الشفـاعة أيضـاً ، وأنها لأهل الكبـائر من أمتـه عليه الصلاة والسـلام : ما روى أبـوداود في كتاب السنـة من « السنـن » عن أشعـثَ الحُدَّاني عن أنـس بن مالـك رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال : « شفاعتـي لأهل الكبائر من أمتي » قال المنذري : وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » بالإسناد الذي أخرجه أبوداود . وأخرج الترمذي بسنده عن معمر عن ثابت عن أنس رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : « شفاعتـي لأهل الكبـائر مـن أمتي » قـال أبوعيسى : هـذا حديث حسن صحيح غـريب من هذا الوجـه ، وفي الباب عن جابر . ثم روى بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال : رسول الله ﷺ: « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» قال محمد بن علي : فقال لي جابـر : يامحمد ، ومن لم يكـن من أهل الكبائر ، فما لـه وللشفاعة ؟ قال أبوعيسى : هذا حـديث غريب من هذا الوجه ، يستغـرب من حديث جعفر ابن محمد .

هذا ، وجاء الحديـث برواية أخرى فيهـا التأكيد بـ (إنَّ) ، والنـص على يوم القيامة ؛ فقد أخـرج ابن ماجة بسنده عن جعفـر بن محمد عن أبيه عن جـابر بن عبـدالله رضي الله عنهما قال : سمعـت رسول الله ﷺ يقـول : « إن شفـاعتي يـوم

القيامة لأهل الكبائر من أمتي » .

وإلى أن نلتقي على متابعة ما ورد من تفصيل ما يحدث بين يدي الشفاعة العظمى والشفاعة الخاصة : أود التذكير بدءاً بنفسي ، بحقيقة أن الطريق إلى رحمة الله يوم الحساب ، والتكرمةِ بشفاعة نبينا المصطفى خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام : إخلاصُ الدين لله، وتزكية النفس. لتكون طيِّعة السلوك وفق مقتضيات الإيمان ، ثم صدق توجه العبد لله ـ الذي لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خيره ـ أن يتغمده برحمته ، ويجعله ممن تنالهم شفاعة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

والفضل أولاً وآخراً له سبحانه ، ولكن على المؤمن أن يأخذ بأسباب النجاة من النار والفوز بالجنة ، امتثالاً لأمر الله ورسوله بذلك ، وإنه لأمرٌ من مقتضيات أهلية التكليف ، بعد نعمة الإيمان .

دلالة ما نطقت به صحاح الأحاديث، في شأن ما خُصّ به النبي ﷺ من الشفاعة العظمى ، دلالة سامية عميقة، تعبّر عن جانب مما أكرم الله به نبيه ﷺ من عظيم القدر والشرف ؛ ذلك لأنها شفاعة ، تأخذ طابع العموم لجميع الخلائق المحشورين في الموقف، إلى ربهم يوم الدين ، أن يريحهم الله من أهوال الموقف، ويقضيَ بينهم ؛ فهي شفاعة للقضاء والفصلِ بين العباد كلهم، دونما تمييز . ولك أن تتصور بثاقب ذهنك وفكرك ، أيَّ منجاة يصيرون إليها بعد شفاعته عليه الصلاة والسلام ؛ ولذلك كانت الشفاعةَ العظمى . وقد أكرمه الله ــ والأمة من ورائه ـ بالدعوة المستجابة التي اختبأها شفاعة لأمته في ذلك اليوم يومِ الدين .

والحق أن الشفاعة العظمى ــ وهي من المكارم التي خصه الله بها ــ وكانت عظمى، لما أنها تتعلق بالخلائق عموماً ـ كما سلف ـ لا بالأمة المحمدية على وجه الخصوص ـ هذه الشفاعة ثبت في السنة تفصيل القول فيها ، وفي المقدمات التي تسبقها ، حيث يلجأ العباد إلى عدد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كي يكونوا شفعاءهم عند الله ، من أجل فصل القضاء ، يدفعهم إلى ذلك رغبة الخلاص من ساعات الكرب الشديد المرهق ، والهم المطبق على صدورهم، والضيق الحرجِ الذي لا يجدون منه فكاكاً ، أجل يدفعهم إلى ذلك : رغبة الخلاص من هذا الذي هم فيه ؛ ولكن الرسل يعتذرون ، وتظل رغبة الفصل في القضاء بين الخلائق قائمة، ويستجيب رسول الله ﷺ ، فيشفع ويشفَّع و يتحقق ـ بإكرام الله ـ المطلب العام الجلل . وما رأيناه من قبل في هذا الشأن قليل من كثير .
وقال البخاري : حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن زيد قال : حدثنا معبد بن هلال العَنَزِيُّ قال : اجتمعنا ناسٌ من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت البُناني إليه يسأله عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في

قصره ، فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذنّا فأذن لنا ــ وهو قاعد على فراشه ـ فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أدلَّ من حديث الشفاعة ، فقال : يا أباحمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألون عن حديث الشفاعة فقال : حدثنا محمد ﷺ : إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض ، فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، فيأتونني فأقول : أنا لها، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخرُّ له ساجداً ، فيقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمعْ لك ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفّعْ ، فأقول : يارب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ؛ فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمعْ لك ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ ساجداً ، فيقال: يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع لك ، وسل تُعْطَ واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق، فأفعل ».

يقول راوي الحديث عن أنس: فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن ، وهو متوارٍ في منزل أبي خليفة ، فحدثنا بما حدثَنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : ياأباسعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه، فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع فقال: هيه ، فقلنا: لم يزد على هذا ، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي، أم كره أن

تتكلـوا ، فقلنا ياأباسعيد ، فحدثْنـاه ، فضحك وقال : خُلق الإنسان عجولاً ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أحـدثكم . حدثني كما حدثكم به ، قال : « ثـم أعود الرابعة ، فأحمده بتلـك المحامد ، ثم أخـرُّ له ساجداً ، فيقـال : يامحمد ارفع رأسـك ، وقل يُسمع ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفّع ، فـأقول : يارب ائذن لي فيمن قال لا إله الله ، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ، لأخرجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله».

وأخرج هذا الحديث أيضاً من روايـة أنس رضي الله عنه مسلم في صحيحه، ولفظه في آخر الرواية قال ـ أي الحسن ـ : قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع ، ولقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ ، أو كره أن يحدثكم فتتكلوا . قلنا له: حدِّثْنا ، فضحـك وقال : خُلق الإنسان مـن عجل ، ما ذكرت لكـم هذا ، إلا وأنا أريد أن أحدثكمـوه . «ثم أرجع إلى ربي في الرابعـة ، فأحمده بتلك المحامـد ، ثم أخرُّ له ساجداً فيقال لي : يامحمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك، وسل تُعْطَ، واشفع تُشفّع ، فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله . قال : ليس ذاك لك ـ أو قال : ليس ذاك إليك ـ ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي ، لأخرجن من قال لا إلـه إلا الله» قال ــ أي معبد بـن هلال العنـزي راوي الحديث عـن أنس ـ فأشهـد على الحسن أنـه حدثنـا به أنه سمـع أنس بـن مالـك ،ـ أُراه قـال : قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع ـ .

قوله عز وجل : «وجبريائي» فهو بكسر الجيم: أي عظمتي وسلطاني وقهري. قال الإمام النووي وأما قوله : فأشهـد على الحسن أنه حدثنا به .. إلى آخره ، فإنما ذكره تأكيداً ومبـالغة في تحقيقه وتقريره في نفس المخاطـب ، وإلا فقد سبق هذا في أول الكلام والله أعلم .

هذا : والذي عليه المحققون أن ما ذكر من تلكـم الشفاعة للأمة ، يكون بعد الشفاعة في فصـل القضاء ، وهو ما كان يـرجوه العباد، وانتهوا بطلبـه إلى الرسول عليـه الصلاة والسـلام . ونسـأله تعـالى أن يكتبنـا في زمرة مـن تنـالهم شفاعتـه ـ صلوات الله وسلامه ـ يوم الحساب .

المقام المحمود.. وفصل القضاء

الناظر في نصوص السنة الواردة في شأن الشفاعة العظمى، يوم الحشر الأكبر، تلك المكرمة التي خُصَّ بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام - فيما خصه الله به من المكارم - لا يجد عند الإحاطة بداً من اعتقاد أن ذلك ، سوف يكون من المشاهد المؤثرة المبشرة ، التي تفرح نفوس المؤمنين ، وتُدخل المزيد من الطمأنينة إلى قلوبهم ، ويفترض أن يُسرَّ بها كل امرىء ، أوتي قدراً من الإنصاف والعقل السليم ؛ ذلك بأن هذه الخصوصية في حقيقتها : إكرام الخلائق بالفصل في القضاء يوم الدين - وقد شفع لهم خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام - بعد اشتداد الكرب وتفاقم الخطب ، وتمنيهم - لشدة ما هم فيه من الهم والحزن - الانصراف ولو إلى النار .

ومع الخطوة الأولى ، لتَبَيُّنِ الحجم الذي تأخذه هذه القضية ، كان اصطحاب واحدة من روايات الإمام البخاري - من قريب - وفيها الإشارة إلى أن الشفاعة العظمى: إحدى عدد من الخصائص التي أُكرم بها النبي عليه الصلاة والسلام، دون رسل الله جميعاً ؛ فكل من سئل الشفاعةَ من الأنبياء - بدءاً بآدم وانتهاء بعيسى عليهم الصلاة والسلام - صدر منه الاعتذار . وتبلغ الشدة مبلغها في الناس ، ويطبق عليهم الغم القاتل من كل مكان ، فيأتون رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه ، فيقول : أنا لها ، ويكون ما يكون من إكرام الله له ، والاستجابة لشفاعته .

والذي تجدر الإشارة إليه: أن هذه الشفاعة العظمى،عند أكثر العلماء: المقام المحمود الذي جاء التصريح به في القرآن الكريم ، وذلك بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر

كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ و «عسى» في كتاب الله للتحقق، لا للترجي شأن الأفعال التي على هذه الشاكلة كلها . قال الإمام الطبري : (عسى ولعل من الله واجبة). فالمقام المحمود ـ بفضل الله ـ حاصل يومذاك لسيدنا محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

أخرج الترمذي في كتاب التفسير من الجامع الصحيح « سنن الترمذي » عن داود بن يزيد الزُّغافِري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾ سئل عنها قال : « هي الشفاعة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن ، وداود الزُّغافري هو داود الأزدي ابن يزيد بن عبدالله ، وهو عم عبدالله بن إدريس . وأخرجه أحمد في المسند . وقال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل بن أبان قال : حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول:« إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كلُّ أمة تتبع نبيها ، يقولون : يافلان اشفع ، حتي تنتهيَ الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » . وهذا واضح ـ كما ترى ـ في تفسير ابن عمر رضي الله عنهما للشفاعة العظمى بالمقام المحمود ، الذي ورد ذكره في قوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

الجُثا : جمع جُثوة ــ بالضم ـ كخطا وخُطوة: الشيء المجموع. قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » (ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهما : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تتبع نبيها » أي جماعة . فيكون المعنى: يصيرون جماعات كل جماعة تتبع نبيها. وحكى ـ رحمه الله ـ أن هذه اللفظة وردت « جُثيٌّ » بتشديد الياء جمع جاثٍ ، وهو الذي يجلس على ركبتيه .

هذا : وقد جاء في بعض الروايات ما يؤكد أن الشفاعة العظمى ـ وهي المقام المحمود ـ إنما تكون ليقضى بين الخلق ـ كما سبق ـ . من ذلك ما روى البخاري عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال : سمعت حمزة بن عبدالله بن عمر رضي الله

عنهما قال : قال النبي ﷺ : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتيَ يوم القيامة ، وليس في وجهه مُزعـة لحم ، وقال : إن الشمس تدنو يوم القيامـة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ؛ فبينما هم كذلك، استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ ، وزاد عبدالله : حدثني الليث قال : حدثني ابن أبي جعفر « فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشي حتي يـأخذ بحلقـة الباب ، فيـومئذ يبعثـه الله مقامـاً محموداً، يحمـده أهل الجمع كلهم ».

هكذا يـأخذ النبي ﷺ بحلقـة باب الجنـة ، ويظهر فضلُه على سـائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، بما يعطى من ذلك المقام العظيم الذي يحمده أهل الجمع كلُّهم . قال الحافظ في « فتح الباري » : (والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى ، التـي اختصّ بها ، وهي إراحة أهـل الموقف من أهوال القضـاء بينهم، والفراغ من حسابهم . والمراد بأهل الجمع : أهل الحشر ، لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم) .

من هنا نجد أنـه، لما كان هذا المقام مقامَ الشفاعـة لفصل القضاء ، وإراحة أهل الموقف ـ على اختـلاف مللهم ونِحَلِهم ـ من تلكم الأهـوال، أهوالِ القضاء بينهم، ومعـرفة المصير بعـد الحساب ... كـان مقامـاً محموداً يحمـد فيه النبـيَّ ﷺ الخلائقُ جميعُهم ، وهـو ما ذهب إليـه الأكثرون الذيـن اتجهوا إلى أن معنى قـوله تعالى: ﴿**عسى أن يبعثـك ربك مقامـاً محموداً**﴾ افعل الذي أمـرتك به من إقـامة الفرائض في أوقاتها ، والتهجد بالليل ، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى .

وتجدر الإشارة إلى أن شيـخ المفسرين الإمـام الطبري ـ بعـد أن قرر أن أكثـر أهل التأويـل ، على أن المقام المحمود ، هو الذي يقـومه ﷺ يوم القيامـة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم مـن عظيم ما هم فيـه من شدة ذلك اليـوم .. ـ أورد بسنده عدداً من الآثار التـي تؤيد ما ذهب إليه . من ذلك مـا روى عن ابن عباس رضي

الله عنهما قوله: ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة، كما روى عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ **فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة يوم القيامة . وروى مثل ذلك عن مجاهد ولكن بلفظ : شفاعة محمد يوم القيامة. وقال رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن قال : حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه قال : « يُجمع الناس في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا ، قياماً لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ، ينادى يامحمد فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهديُّ من هديت ، عبدك بين يديك ، وبك وإليك ، ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى ».

وأنت ترى أن الحاجة إلى النظر في مزيد من النصوص، قائمة، بغيةَ استجلاءٍ أوفرَ لهذه المكرمة التي اختص الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام وما يتعلق بها. واللهَ أرجو أن يكون لنا من هدي النبي ﷺ في هذا الأمر العظيم ، ما يزين القلوب بالخشية من يوم الحساب ، ويحفز على سلوك الطريق الأقوم التي تجعل صاحبها أهلاً لنيل شفاعة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام والفوزِ بالجنة ، والنجاةِ من عذاب السعير .

المقام المحمود.. وثمرة الدعاء بالوسيلة

في متابعة للكلام على واحد من أعظم مشاهـد القيامة ، وهو مشهد الشفاعة العظمى من النبـي ﷺ للناس ، من أجل فصل القضـاء بين الخلائق .. يبدو من الضرورة بمكان ، أن يتخذ المسلمون من ذلك ، باعثاً على المزيد من اليقين بعظمة قدر المصطفى صلـوات الله وسلامه عليه عند الله ، وما يقتضي ذلـك، من محاسبة النفـوس على التقصير في جنب الله، وفي حسـن التأسي بـه صلـوات الله وسلامـه عليـه ؛ فليـس من الإنصاف في شيء ، زعـمُ التقدير الكـامل ، والمحبة الصـادقة للنبي عليـه الصلاة والسـلام ، ثم المجـافاةُ عـن سنته ، ومظـاهرةُ أعـداء الله على شريعته. إن مشهد الشفاعة العظمى يوم الدين، جدير بالكثير من التأمل المبصر ، الذي يدفع إلى العمـل ، ويحرك العزائم، ويوقظ الهمم، إلى ما فيـه استئناف طريق الخير ، والتحويـلُ الصادق للسلوك ، كيما يتسـق مع الـذي هدى إليه صـاحب هذه الشفاعة التي خصه الله بها تعظيماً لقدره عليه الصلاة والسلام .

وهنـا لابد مـن استذكـار مـا قالـه المحققـون من العلماء : مـن أن الشفاعـة العظمى، هي المقـام المحمود الذي ورد ذكره في سورة الإسراء . وهذا يـرشد إلى ما روى النسائي بـإسناد صحيـح من حديـث حذيفـة رضي الله عنه قـال : « يجتمع الناس في صعيـد واحد ، فـأول مدعـوٍ محمد ، فيقـول: لبيك وسعـديك والخير في يـديك والشر ليـس إليك ، المهـدي من هـديت ، عبـدك وابن عبـديك ، وبـك وإليـك، لا ملجأ ولا منجـا منك إلا إليـك ، تباركـت وتعـاليت » فهـذا قولـه : «﴿عسى أن يبعثك ربك مقـاماً محموداً﴾» وصححه الحاكم . ومـن الواضح أن هـذا تفسير من حـذيفة رضي الله عنـه للمقام المحمـود الذي اختـص الله به نبينـا محمداً عليه الصـلاة والسلام ، في ذلك اليوم الذي تشخص فيـه الأبصار ، وتبلغ الشدة فيه أن تضـع كل ذات حمل حملها ، فتكون شفاعتـه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ، سبباً في أن يريح الخلائق ربُهم من عظيم ما هم فيه من الهم والغم والضيق . وهذا لا ينسي ما أكرمه الله به من شفاعته عليه الصلاة والسلام لأمته ، إذ اختبأ دعوته ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ لتحقيق ذلك جزاه الله عن الأمة خير الجزاء .

ثم إن حديث حذيفة رضي الله عنه ، قد أخرجه الطبري في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ـ كما مر بنا من قبل ـ ولكن بلفظ « يُجمع الناس في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاةً عراةً كما خُلقوا ، قياماً ، لا تكلمَّ نفس إلا بإذنه ، ينادي : محمد، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك...» الحديث . فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى .

وهنا لاغنى عن التذكير بما أخرج الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: « إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : **يافلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، وذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**».

وكان لابد من هذا التذكير ، لدفع ما قد يتوهم، من أن بين حديث ابن عمر هذا، وحديث حذيفة رضي الله عنهم، شيئاً من المنافاة ؛ والواقع غير ذلك ، فلا منافاة بينهما ،لأن هذا الكلام ـ كما يقول الحافظ في الفتح ـ كأنه مقدمة للشفاعة.

أما بعد : ففي هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، الذي أكرم الله به هذه الأمة، ما يرغِّب المسلمين بشيء ذي صلة بالمقام المحمود ، لو فعله المسلم بخلوص نية وصدق توجه إلى الله عز وجل ؛ هوّن الله عليه من كُرب يوم القيامة، وحلت له شفاعة النبي ﷺ . وما أحوج الناس في يوم يقول الله فيه : **﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾** إلى تخفيف الكرب ، وشفاعة صاحب الشفاعة صلوات الله وسلامه عليه . ذلكم ما رغب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من الدعاء حين يسمع المسلم النداءَ : أن يؤتيَ الله النبي الكريم صلوات الله وسلامه

عليه الوسيلةَ والفضيلَة ، وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده ، وأن المسلم إن فعل ذلك :حلت له شفاعة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

أخرج البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح تحت «باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة » ثم قال البخاري : رواه حمزة بن عبدالله عن أبيه ـ يعني ابن عمر ـ عن النبي ﷺ . وأخرجه البخاري باللفظ نفسه، عن جابر في كتاب الأذان من الجامع الصحيح « باب الدعاء عن النداء ».

هكذا تتفتّح أبواب الخير للمسلم ، ويأخذ بيده البيان النبوي الكريم، إلى ما لو دعا به، فاز بتلك النعمة العظيمة ، التي لا يقدر قدرها، وهي نيل شفاعة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

هذا : وقد جاء بيان « الوسيلة» المدعو بها للنبي عليه الصلاة والسلام ، فيما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليَّ ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة ، حلّت له الشفاعة » وأخرجه أبوداود في سننه عن عبدالله بن عمر أيضاً ، ولكن بلفظ « فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة» .

ولقد كان من تمام النعمة ، ورود تفسيرٍ لمعنى الوسيلة في بعض روايات الحديث.. فقد أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا : يارسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال: أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وغيرهم .

أما عن الفضيلة الواردة في الدعاء المطلوب : فذهب الحافظ ابن حجر إلى أنها المرتبة الزائدة على مراتب سائر الخلق ، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى ، أو تفسيراً للوسيلة . ولم يجد الحافظ بداً من اللجوء إلى هذه الاحتمالات ، لأنه لم يَرِدْ نص توقيفي ، بتحديد معناها ، كالذي ورد في معنى الوسيلة.. وكل ذلك خير إن شاء الله.

وفي كلام موصول بالحديث عن المقام المحمود ، تجدر الإشارة إلى أن ما جاء في السنة هو - في حقيقته - لون من ألوان البيان التقريري ، لتلك العِدَةِ الربانية الكريمة ، التي اقترنت بفعل التحقق «عسى» في سورة الإسراء أعني قوله عز وجل : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ . ومن إكرام الله لأهل الإيمان ، ما فتح ربنا لكل منهم - مكلَّفين ومكلَّفات - من هذا الباب المبارك على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام .. البابِ الذي يصل بالمؤمن، إلى أن يكون - بفضل الله ورحمته - من الفائزين بشفاعة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؛ فعلى كل مؤمن ومؤمنة - قياماً بهذا الحق - أن يكون في دعائه عندما يسمع النداء: قوله : «وابعثه - يعني خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه - مقاماً محموداً - أو المقام المحمود - الذي وعدته».

ولكم يُغْبَطُ أولئك الذين يرزقون ، أن تكون ألسنتهم رطبة بذكر الله، والصلاة على النبي صلى الله وسلم وبارك عليه ، وأداءِ هذا الدعاء ، وما كان على شاكلته، حقَّ الأداء ، بقلب حاضر ، ونفس راضية مطمئنة ؛ فذلك عنوان خير غامر ، يهدي صاحبه - برحمة الله - إلى حسن العاقبة يوم الدين ، والحظوةِ بشفاعة سيد المرسلين، ولا تسل عما يكون بعد ذلك ، من الخلود في النعيم المقيم، والفوز برضوان من الله أكبر ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

مشهد ما يكون لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، من المقام المحمود، يوم يقف الناس لرب العالمين ، المقامِ الذي يحمده عليه الخلائق أجمعون ، لما أنه يخرج بهم إلى فصل القضاء ، والفراغِ من الحساب، والانتهاء إلى معرفة المصير ، بعد أن غشيهم من الهم والغم ما غشيهم ، وبعد أن ضرب عليهم الترقب المردي سداد.. هذا المشهد العظيم في ذلك اليوم ، ذو دلالة واضحة على أحقية الوفاء ، بتلك العدة المباركة في سورة الإسراء ، لسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه لا أحد أوفى بوعده من الله . وقد زاد الأمر إشراقاً ، مجيءُ عدد من نصوص السنة ، التي حملت البيان التقريري لهذا العطاء الرباني له عليه الصلاة والسلام ، والذي يتسبب بهذا الخير للناس أجمعين يومذاك ؛ ذلكم ما رأينا من الأحاديث التي ترغِّب في ان يدعو المسلم إذا سمع النداء، بأن يؤتي الله النبي ﷺ الوسيلة والفضيلة ، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده ، وأن المسلم إن فعل ذلك، وجبت له الشفاعة .

وكان من عناية علمائنا بهذا الأمر العظيم ، أن تبصروا في مجيء بعض الروايات بلفظ المقام المحمود معرَّفاً ، ومجيءِ بعضها منكَّراً ؛ فقد جاءت روايات النسائي وابن حبان وابن خزيمة بلفظ « وابعثه المقام المحمود» بالتعريف، وجاءت رواية البخاري ـ كما رأينا من قبل ـ بلفظ التنكير . «وابعثه مقاماً محموداً » وهو محمود لأنه مقام يحمده فيه الأولون والآخرون . وهو ـ في الأصل كما يقول الإمام النووي ـ مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، والرواية بتنكير « مقاماً » كأنها حكاية للفظ القرآن . ونقل عن الطيبي قوله : (إنما نكَّره لأنه أفخم وأجزل كأنه قيل : مقاماً محموداً أي محموداً بكل لسان) وهذا لا يتنافى ـ والله أعلم ـ مع الرواية بالتعريف، لأن ا المآل ـ كما يقول العلماء ـ إلى المقام الذي جاء

التصريح به في القرآن .

ومن الخير أن نشير ، إلى أن رواية التعريف ، جاءت أيضـاً من طريق علي بن عياش شيخ البخاري بالسند إلى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، حيث ورد فيها «.. وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إلا حلت له شفاعتي يوم القيامة » ونقع في رواية للبيهقي على زيـادة « إنك لا تخلف الميعاد» . وعقد الإمام ابـن خزيمة في «جماع أبواب الأذان والإقامة» من صحيحه باباً عنوانه « صفة الدعاء عند مسألة الله عز وجل للنبي ﷺ الـوسيلة واستحقاق الداعي بتلك الدعـوة الشفاعة يوم القيامة» ثـم قال : أخبرنا أبو طاهر قـال : أخبرنا أبوبكر قال : أخبرنا مـوسى بن سهل الـرمليُّ قال : أخبرنا عليُّ بـن عياش قال : حـدثنا شعيب بـن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عـن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قـال النبي ﷺ : «من قال إذا سمع النـداء : اللهم رب هذه الدعـوة التامة والصلاة القـائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعـدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة ».

وقال ابـن حبان في (باب الأذان) مـن صحيحه : « ذكر إيجاب الشفـاعة في القيامـة لمن سأل الله جلّ وعلا لصفيـه صلى الله عليه وسلم المقام المحمـود عند الأذان يسمعه » أخبرنا ابن خزيمة قال : حدثنـا محمد بن يحيى قال : حدثنا علي ابن عياش قال : حـدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عـن جابر قال: قـال النبيﷺ : «مـن قـال حين يسمع النـداء: اللهـم رب هذه الـدعـوة التامـة والصلاة القـائمة ، آت محمـداً الوسيلـة والفضيلة ، وابعثـه المقام المحمـود الذي وعدته ، إلا حلّت له الشفاعة يوم القيامة ».

ومن الواضح أن ابـن حبان ، فيما ترجم للحديث، كان كـلامه فيما ذهب إليه مـن الترجمة ، أكثر دلالـة على أهمية النظـر إلى المقام المحمـود في فقه النـص ، إذ جعل سؤال المقام المحمود للنبي ﷺ في الدعاء عند سماع النداء، هو الأساس في

إيجاب الشفاعة؛ ذلك قوله ـ كما رأينا ـ « ذكر إيجاب الشفاعة في القيامة لمن سأل الله عز وجل لصفيِّه ﷺ المقام المحمود عند الأذان يسمعه » وفي ذلك مافيه من التوجيه ـ من خلال الترجمة المشعرة بفقه الحديث ـ إلى تلكم المكانة العظيمة للمقام المحمود ، الذي خُصّ به النبي ﷺ دون أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والذي جعله الله باباً كريماً من أبواب الفضل على الخلائق جميعاً ؛ ومعاذ الله أن ينقص ذلك من قدر الوسيلة والفضيلة ، تلكما المنزلتين العظيمين الجليلتين، والحمد لله الذي خصّ ـ بفضله ـ نبينا محمداً ﷺ بالعدد الوافر من الخصائص، وجعله سيد ولد آدم بإطلاق .

أما الإمام ابن خزيمة : فقد اتجه في الترجمة التي وضعها للحديث، إلى الوسيلة، وهي المنزلة التي علمنا من خلال الأحاديث الصحيحة ، أنها منزلة فريدة في الجنة لا تليق إلا له عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان ما ورد بشأنها مما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ؛ فمن سأل لي الوسيلة ، حلّت له الشفاعة ».

هذا : وهنالك أقوال أخر في المقام المحمود ، لست بسبيل التفصيل فيها؛ كالجلوس على العرش ، والجلوس على الكرسي ، وأخذ لواء الحمد ؛ ويظهر أن المقام المحمود ـ كما يحكي بعض المحققين ـ هو مجموع ما يحصل له ﷺ في تلك الحالة ، وفي مقدمة ذلك الشفاعة العظمى . وكأن بعض الأمور مقدمات للشفاعة ، إذ يشعر قوله ﷺ في آخر الحديث : « حلّت له شفاعتي» أن الأمر المطلوب له ، هو الشفاعة .

ومهما يكن من أمر : فإن التراجم التي وضعها علماؤنا أجزل الله مثوبتهم

للأحاديث ــ وقد رأينا منها صنيع البخاري وابن حبان وابـن خزيمة ـ هي صورة من فقهـم لتلك الأحـاديث ، ومخالطتهـم العقلية والقلبيـة لسنة المصطفـى عليه الصلاة والسـلام . وهذا يتضح ــ أكثر مـا يتضح عند الإمـام البخاري رحمه الله ، حتى قالوا : فقـه البخاري في تراجم أبواب الصحيح أو في تـراجمه . وقد يختلف اجتهادهم في وضـع هذا العنوان أو ذاك . ولكن الشراح رحمهـم الله ـ على تفاوت مراتبهم ـ لم يألـوا جهداً في بيان ما يجب بيانه من الحديث ، وقـد رأينا من قبل أن الإمام البخـاري قد تـرجم لحديـث سؤال المقـام المحمود للـرسول عليـه الصلاة والسلام في كتاب الأذان من الجامع الصحيح بقوله : «باب الدعاء عند النداء» . وترجم له في كتاب التفسير عند إيراد مـا جاء في شأن سورة الإسراء بقوله : « باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً».

والأهمُّ الأهمُّ وراء ذلـك كله بالنسبة للمسلم ، أن يكون على بينـة من أمره ، يدرك مدى المسؤولية التي حُمِّلَها ببيان النبي عليه الصلاة والسلام للكتاب ، وأن يكون مـا جاء عنـه في شأن القيـامة ــ على وجه الخصـوص ـ نصـبَ عينيه خـوفاً ورجاءً، فلا يقعده عن العمل رجاء ؛ فذلك فتنة الشيطان ، ولا ييئسه من رحمة الله وشفاعـة النبي ﷺ خـوف ؛ فذاك تـوهم الغـافلين . وليكن على ذكـر دائم لقولـه تعالى : ﴿ ومـن أراد الآخرة وسعـى لها سعيها وهـو مؤمـن فأولئـك كان سعيهـم مشكوراً﴾ .

حديث رسول الله ﷺ المبينِ عن الله ما أراد، منبع ثرٌّ من منابع العطاء الخيرّ ، وحسبك أنه بيان الكتاب المعجز ، والطريق المشرقة إلى فهم هذا الدين؛ ما كان منه ذا صلة بعالم الغيب، وما كان ذا صلة بعالم الشهادة ، ومن هنا كانت طاعة رسول الله ، من طاعة الله، لما أنه المبلغ عن الله ، والمبين كتابه . ومن هنا أيضاً كانت عناية العلماء بسند الحديث ومتنه .

حملني على التقديم ـ أو التذكير ـ بهذه المعاني ، ما أجد من دواعي المتابعة لفهم أهل العلم ، من النصوص الواردة في شأن ما اختصَّ الله به نبينا محمداً ﷺ، من « المقام المحمود » الشفاعة العظمى، من أجل فصل القضاء بين الخلق ، وهو مقام يحمده فيه الأولون والآخرون ،وليس أحد إلا وهو تحت لوائه فيه ، حيث يسجد بين يدى جبار السماوات والأرض ، ويقال : اشفع تشفّع ، وتكون شفاعته لجميع الخلائق، في إزالة هول الموقف ، والانصراف إلى فصل القضاء .ومن النصوص التي أعنيها ـ على هذه الساحة ــ ما روى البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنها ـ والعهد باصطحابه قريب ــ أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة » وأخرجه النسائي وابن خزيمة وابن حبان بلفظ « المقام المحمود» بالتعريف .

فقد استشكل بعض العلماء ـ كما يقول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» جعل استحقاق الجنة ، ثواباً لقائل ذلك ، مع ما ثبت من أن الشفاعة للمذنبين! وهذا من المستشكِل، محاولة لتجلية الأمر ، وفهم المراد من خلال النصوص مجتمعة دون بتر واحد عن الآخر .

قال الحافظ رحمه الله : وأجيب بأن له صلى الله عليه وسلم شفاعاتٍ أخرى ؛ كإدخال الجنة بغير حساب ، وكرفع الدرجات ، فيعطى كل أحد ما يناسبه . ثم ذكر ما نقل القاضي عياض عن بعض شيوخه، أنه كان يرى اختصاص ذلك ـ يعني الشفاعة ـ بمن قاله مخلصاً ، مستحضراً إجلال النبي عليه الصلاة والسلام، لامن قصَد بذلك مجردَ الثواب ، ونحو ذلك ، ولكنه لم يرتضِ هذا الرأي فقال : وهو تحكُّم غير مرضيّ ، ولو كان إخراج الغافل اللاهي، لكان أشبه .

هذا : ومما يجدر التنبيه عليه ، أنه كلما كان المرء أعمقَ تصوراً و إدراكاً لمشاهد القيامة ، وما تزخر به من الشدة الأليمة والهول المطبق ـ وهذا لا يكون إلا بتزكية النفس على الوجه المطلوب ـ كان أقربَ إلى المستوى الذي يستطيع ، معه بما يرزق من حلاوة الإيمان واستنارة البصيرة ، أن يقدر مشهد الشفاعة العظمى ـ وهي المقام المحمود الذي يحمده الأولون والآخرون ـ حَق قدره .

فهذا المقام الذي يشفع فيه النبي ﷺ للخلق ـ من لدن آدم إلى يوم الدين ـ من أجل فصل القضاء ، هو في أحد وجهيه : خصوصية للنبي عليه الصلاة والسلام ، لا يشركه فيها نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، وفي الوجه الآخر : نعمة عظمى لا يكاُد يدرك مداها، تُسبَغ على الخلائق أجمعين ، وهو في الوقت نفسه: إعلان أحقية الوفاء بالعِدة المباركة ؛ ومن أوفى بعهده من الله !!

وفي نظرات ثاقبة لهذه الخصوصية العظيمة، التي يشهدها الخلق ويحمدونها، كانت للعلماء وقفاتٌ دقيقة رقيقة ، عند تفسيرهم للآيات المتعلقة بها ؛ من ذلك ما نرى عند الإمام القرطبي مثلاً . إذ قال عند تفسير الآية التي تلي قوله تعالى : **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** وهي قوله عز وجل: **﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾** قيل : المعنى أمِتْني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، ليتصل بقوله : **﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾** كأنه لما

وعده بذلك ، أمره أن يدعو ، ليُنجزَ له الوعد .

وقيل : أدخلني في المأمور ، وأخرجني من النهي .

وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته ؛ من إخراجه من بين المشركين ، و إدخاله موضع الأمن ، فأخرجه من مكة ، وصيَّره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة ، فنزلت ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وتقديم القول الأول وهو : (أمِتْني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق، ليتصل بقوله : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له الوعد) يوحي بأنه لا تعارض مآلاً ، بين ما ذكر من الأقوال . فالفضل كائن في الدنيا والآخرة . ووعد الله حق وصدق .

ولعل مما يؤيد ذلك: ما نجد عند صاحب «التحرير والتنوير» في بيانه لمعنى الآية المذكورة ؛ فهو يرى أنه لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالشكر الفعلي ، عطف عليه الأمر بالشكر اللساني ، بأن يبتهل إلى الله، بسؤال التوفيق في الخروج من مكان ، والدخول إلى مكان ، كيلا يضرَّه أن يستفزَّه أعداؤه من الأرض ليخرجوه منها ، مع ما فيه من المناسبة لقوله تعالى: ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ فلما وعده بأن يقيمه مقاماً محموداً ، ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حالَه ، في كل مقام يقومه. وفي هذا التلقين إشارة إلهية إلى أن الله مخرجه من مكة إلى مهاجَره .

وفي تأكيد لهذا المعنى، واتساع في دلالته ، كانت الإشارة إلى أنه في المدُخل والمُخرج من قوله تعالى : ﴿ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق ﴾ اختير هنا الاسم المشتق من الفعل المتعدي، للإشارة إلى أن المطلوب، دخول وخروجٌ ميسّران من الله تعالى، وواقعان بإذنه. وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركين ، لتتم المناسبة بين المسؤول ،وبين الموعود به ـ وهو المقام المحمود ـ . وهذا السؤال

يعمُّ كل مكان يدخل إليه ، ومكان يخرج منه . والصدق هنا : الكمال وما يحمد في نوعه ، لأن ما ليس بمحمود فهو كالكذب ، لأنه يخلف ظن المتلبِّس به .

أعود مرة أخرى ، إلى تذكير نفسي ، ومن يؤرقهم طلب النجاة يوم الدين ، بأن بيان النبي ﷺ في شأن القيامة ؛ بشارةً ونذارةً ، وما أعطاه الله من المقام المحمود، والشفاعة لأمته ، التي هي من بواعث الرجاء ، لمن تقلقهم شدة الخوف .. كل أولئك أمانة في أعناق المسلمين ، وإشعارٌ بالمسؤولية التي لا يتخذها وراءه ظهرياً ، إلا من سَفِهَ نَفْسَهُ وظلمها ، وأعرض عن الحق ، اتباعاً للهوى وطاعةً لشياطين الإنس والجن .

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى ما به نكون من أبناء الآخرة ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون سوء الحساب ، وبذلك لا نُحْرمُ ـ بفضل الله ومنِّه ـ شفاعةَ نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ما تقتضيه أخبار الشفاعة

مما لا يختلف في شأنه عاقلان ، أن الأخبار الصادقة الواردة في شأن عالم الغيب ـ ومنها أخبار القيامة وما يكون يوم يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ـ أمانة في أعناق المسلمين من الواجب أن يولوها، ما هي جديرة به من التبصُّر الواعي ، الذي يقود إلى أخذها مأخذ الجد ،على ساحة التصور ، وعلى ساحة السلوك وتصريف الأمور . وليس العهد بعيداً بالكلام على الشفاعة العظمى ، تلك المكرمة الربانية، التي أوتيها نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، والتي يحمده عليها الأولون والآخرون ، وكم لذلك من دلالات ، ينبغي أن تأخذ أبعادها في حسِّ المؤمن وضميره ، كي تنعكس مزيداً من ا لحب له عليه الصلاة والسلام ، ومضاعفةً للعمل على إحياء سنته ، والتزودِ بتقوى الله ليوم الحساب .

والكلام على الشفاعة العظمى: يشدُّنا إلى الكلام على شفاعته بأمته ؛ فهو صلى الله عليه وسلم إمام النبيين ،وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم ، وله في الوقت نفسه شفاعة خاصة بأمته ــ على تفصيل فيما تعطيه النصوص ـ. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر قال : حدثنا زهير يعني ابن محمد عن عبدالله بن محمد عن الطفيل ابن أُبيٍّ بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، غير فخر » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً ـ أو شِعباً ـ لكنت مع الأنصار ». ولأحمد في رواية أخرى : حدثنا زكريا قال : حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أُبَيّ بن كعب عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ..» فذكر نحوه .

ولفظ الروايـة الأولى : نجده عند ابن ماجة ؛ إذ روى في «السـنـن» بسنده عن الطفيل بـن أبي بن كعب عـن أبيه أن رسول الله ﷺ قـال : « إذا كان يوم القيـامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ، غير فخر ».

والتحدث بتلك النعم العظمـى ـ مصحوباً بذلك التواضع الـرفيع ـ واضح في كلامه عليه الصلاة والسلام . ولقد يقدُر المرء بعض قَدْرَ تلك الخصائص، أو كلَّه ـ مع التوفيق ـ إذا كان على ذكر مما يـزخر به ويزخر ذلك اليوم ، من ساعات عصيبات وهـول هائل، تـرى الناس مـن شدتـه لا يلوون على شيء ، ويبلـغ بهم الخوف ، أن يقول كل واحد منهم : نفسي نفسي .

ويبدو ـ والله أعلم ــ أن النبي صلوات الله وسلامه عليه ــ وهو أعلم الناس بـأحوال ذلـك اليوم وأهوالــه ، وما فيـه النجاة ــ بفضل الله ــ من ذلـك الكرب العظيم ـ ... كان كِلفاً بأن يبيِّن لأمته ما خصّه الله به من الفضل ، الذي يستعلن يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لما يترتـب على ذلك وأمثاله، من الاعتزاز الإيماني ، والحوافـز النافعـة المجدية ، على طـريق السـالكين المنيبين إلى الله . وقد يكـون ، كشف عن ذلك غير مرة . وفي عدد من المنـاسبات ـ على طريق الهداية والتبليغ ـ أخرج الترمذي في كتـاب المناقب من الجامـع الصحيح ـ سنن الترمـذي ـ بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونـه ، قال : فخرج ، حتى إذا دنـا منهم سمعهم يتذاكـرون ، فسمع حديثهـم ، فقال بعضهـم : عجباً أن الله عـز وجل اتخذ مـن خلقه خليـلاً ، اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما هذا بـأعجبَ من كلام موسى، كلّمه تكليماً ، وقال آخر : فعيسـى كلمة الله وروحه ، وقـال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخـرج عليهم ، فسلّم وقال : قد سمعت كلامكم، وعجبكم أن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، ومـوسى نجـيُّ الله ،وهـو كذلـك ، وعيسى روح الله وكلمتـه وهـو كذلـك، وآدم اصطفاه الله وهو كـذلك . ألا وأنا حبيب الله ، ولا فخـر ، وأنا حامل لـواء الحمد يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافـع وأول مشفَّع يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول

من يحرِّك حِلق الجنة ، فيفتح الله لي ، فيدخلُنيها ومعي فقراء المؤمنين، ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ،ولا فخر» قال أبوعيسى : هذا حديث غريب . وأخرجه الدارمي بهذا اللفظ في المقدمة من « السنن ».

وللترمذي في رواية أخرى عن أبي بن كعب أيضاً عن النبي ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر» .

ألا ما أشد الحاجة في ذلك اليوم العصيب، إلى تلك الشفاعة ، وما أكرم محمداً ﷺ على الله ، حتى جعله أول شافع ومشفّع يوم القيامة . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن فروخ قال : حدثني أبوهريرة رضي الله عنه قال : قال: رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفّع ».

وهذه المكرمات التي تنطق بها النصوص ، والتي تتبدى مشرقةً على رؤوس الخلائق ، يوم الفصل مترابطةٌ تمام الترابط، آخذٌ بعضها برقاب بعض، مبينةٌ تمام الإبانة ، عن إكرام الله للأمة المحمدية، ببعثه من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما على المسلم ، إلا أن يكون على النهج السوي في دار العمل هنا ، النهجِ الذي يؤهله لأن يكون بفضل الله ، الإنسان الباني الجدير بالتمكين، والعزة في الدنيا ، ولنيل الشفاعة في الآخرة ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ جاء في شرح الإمام النووي لهذا الحديث: (وأما قوله ﷺ : « يوم القيامة » مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة ، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدُدُه لكل أحد ، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه ، بخلاف الدنيا ، فقد نازعه ذلك فيها، ملوك الكفار وزعماء المشركين ، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك ؛ لكن كان في الدنيا، من يدعي الملك، أو من يضاف إليه مجازاً ، فانقطع كل ذلك في الآخرة).

وإني مورد ـ إضافة إلى ما مر بنا من قبلُ ـ بعضاً من الروايات التي تقرر ما

ذُكِرَ وتؤكده . فقد جاء الحديث عند الإمام أحمد في المسند بلفظ « الأرض» بدلاً من «القبر» إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفّع » وله في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر ».

هذا : وبجانب ما كشف عنه عليه الصلاة والسلام ، من تلكم الفضائل التي شاء الله أن يختصه بها ، وأن تكون طائفةٌ منها يوم القيامة ـ ومنها الشفاعة العظمى وشفاعته بأمته ، وهي الأمة المرحومة ـ بيَّن صلوات الله وسلامه عليه ، أنه ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد سأل سُئِلَ الشفاعة ، وعلمُه ﷺ بها تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل، جعله ـ والله أعلم ـ يختبيء دعوته للشفاعة ، ويجعلها لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً ، أ و لأهل الكبائر منهم، كما ورد في بعض النصوص.

اللهم تفضل علينا باتباعهم عن نبيك المصطفى ورسولك المجتبى ، والعمل ـ على بصيرة ـ بهديه القويم ، كيما نكون ممن تنشر عليهم رحمتك يوم الدين ، وتدركهم شفاعته صلوات الله وسلامه عليه ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾.

اللهم أمتي أمتي!!

لا بِدْعَ ـ ورسول الله عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وساعات يوم الفصل ، ساعات مثقلة بما يقضُّ المضاجع ، ويسلمُ القلوب إلى شديد الخوف وعظيم القلق ـ أن يكون ما أُعطيه صلوات الله وسلامه عليه ــ من المنزلة العظيمة عند الله، وما خُصَّ به من خصائص ، ليست لأحد من الأنبياء والمرسلين ــ روحاً وريحاناً على الأمة المحمدية ، ونوراً يضيء الطريق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للأبرار الصالحين ؛ ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام كان ــ وهو يأخذ المسلمين بأسباب الهداية والتمكين في هذه الدار دار الممر والعمل والجهاد ــ لا يني أن يكون شفيقاً على الأمة ، أغلى ما تكون الشفقة وأعلاها ، فهو أبداً يخاف أن تتنكب الجادةَ ، فيصيبَها يوم المعاد ، ما أصاب الأمم التي خالفت عن أمر الله ، وعصت رسله ، والله عزيز ذو انتقام .

قال الإمام مسلم : حدثني يونس بن عبد الأعلى الصَدَفيُ قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبدالرحمن ابن جبير عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني .. ﴾ الآية وقول عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾. فرفع يديه ، فقال : اللهم أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله عز وجل: ياجبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ــ وهو أعلم ـ فقال الله: ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك » وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية عبدالله بن عمرو أيضاً . وفي الحديث ـ كما يقول العلماء ـ البيان الواضح لكمال شفقته ﷺ على أمته ، واعتنائه بمصالحهم ، واهتمامه بأمرهم ، ناهيك عن

البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً، بما وعدها الله تبارك وتعالى بقوله: «سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

ولا تسل عما في هذه الكلمات النورانية المباركة، من بيان عِظم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ، الأمر الذي له ما له من الأثر، في جلب الخير العميم للأمة، التي يفترض أن تكون على مستوى الشكران لهذه النعمة العظيمة؛ إيماناً وعلماً وعملاً، وجهاداً في سبيل الله. وما أشد الحاجة - يوم يقف الناس لجبار السماوات والأرض، وتحدق بالناس المخاطر - إلى هذا اللطف الإلهي الكريم، ومنه هذه الشفاعة كما سيأتي. ولقد اتجه الإمام النووي إلى أن هذا الحديث من أرجى الأحاديث لهذه الأمة، أو أرجاها. وواضح، أن الحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ، إظهار شرفه صلوات الله وسلامه عليه، وأنه بالمحل الأعلى، فيُسترضى، ويُكرم والله أعلم.

وما من ريب في أن الحديث موافق لقول الله عز وجل في سورة الضحى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وأما عن قوله تعالى: «ولانسوءك» فيما أمر به جبريل عليه السلام، أن يبشر به النبي ﷺ: فنقل النووي عن الإمام عبدالله بن إسماعيل التميمي الأصبهاني: أنه تأكيد للمعنى، أي لا نحزنك، لأن الإرضاء قد يحصل بحق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار، فقال تعالى: نُرضيك ولا ندخل عليك حزناً، بل ننجي الجميع، والله أعلم.

والحق أن رحمة النبي ﷺ بالمؤمنين، وإشفاقه من سوء العاقبة للأمة يوم الدين: كل أولئك، مما زاد في تأثره القلبي، حتى البكاء، وتفاعله مع قوله جل شأنه في سورة إبراهيم: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقوله تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام في سورة المائدة - كما ورد في النص الذي نحن بصدده - ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. حتى قال الحافظ ابن

كثير رحمه الله: وهذه الآية ـ يعني آية المائدة ـ لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قام بها ليلة، حتى الصباح يرددها. وقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ، ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فلما أصبح قلت : يارسول الله مازلت تقرأ هذه الآية ، تركع بها وتسجد بها ؟ قال : إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي ، فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً» وله من طريق آخر وسياق آخر بسنده عن جَسْرْة بنت دجاجة «أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الرَّبذة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم ، انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أخلَوا المكان ، رجع إلى مكانه يصلي ، فقمت خلفه ، فأومأ إليَّ بيمينه ، فقمت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود، فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله ، فقام عن شماله، فقمنا ثلاثتنا ، يصلي كل رجل منا بنفسه ، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو ، فقام بآية من القرآن يرددها ، حتى صلى الغداة، فلما أصبحنا ، أومأت إلى عبدالله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود ، بيده : لا أسأله عن شيء ، حتى يحدث إليَّ ، فقلت: بأبي أنت وأمي ، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا ، لوجدنا عليه ، قال : « دعوت لأمتي » قلت: فماذا أجبت ، أو ماذا رد عليك؟ قال : «أُجِبْتُ بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة» قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : بلى ، فانطلقت معنفاً قريباً من قذفة حجر ، فقال عمر : يارسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة ؛ فناداه أن ارجع فرجع . وتلك الآية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ » .

هذا: وقد أورد النسائي حديث قيام الرسول ﷺ بالآية المذكورة ، في كتاب الصلاة من السنن الصغرى « المجتبى » وجعل عنوانه « ترديد الآية » ثم روى

بسنده عن قدامة بن عبدالله قال : حدثتني جَسْرَة بنت دَجاجة قالت : سمعت أبا ذر يقول: « قام النبي ﷺ ، حتى اذا أصبح بآية ، والآية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ». أما البيهقي : فقد أورد الحديث في كتاب الصلاة من السنن الكبرى تحت باب « ترتيل القراءة » إذ روى بسنده هناك عن خرشة بن الحر عن أبي ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ذات ليلة، وهو يردد آية، حتى أصبح بها يركع وبها يسجد ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ قلت: يارسول الله مازلت تردد هذه الآية حتى أصبحت قال : «إني سألت ربي الشفاعة لأمتي وهي نائلة من لا يشرك بالله شيئاً » ثم جاء برواية جسرة رحمها الله .

صلى الله وسلم على الرؤوف الرحيم با لمؤمنين ، الشفيق عليهم في الدنيا ويوم الدين ، وردَّ المسلمين إلى حسن التأسي به، وإلى ما فيه الانتفاع بهديه ، كيما تصلح حالهم في العاجلة ، ويظفروا بالسعادة الأبدية في الآخرين .

شفاعته ﷺ وفضله

أسعدتنا من قريب، وقفة مباركة طيبة ، مع بعضٍ من نصوص الهدي النبوي الناطقة برأفة النبي ﷺ ، ورحمته بالمؤمنين ، وكمال شفقته عليهم، وإشفاقه أن يصيبهم النكال يوم المعاد ـ وقد بلغت القلوب الحناجر ، وامتلأت خوفاً وجزعاً ـ وأن تُسلكَ بهم سبيل تجافي سبيل الفوز بالجنة، والنجاة من النار . وما من ريب في أنه صلوات الله وسلامه عليه، قد أعطي بجانب الشفاعة العظمى ـ وهي المقام المحمود ـ الشفاعة الثانية الخاصة بأمته ، وتحمل إلينا نصوص السنة ابتهاله إلى الله، أن يعطيه تلك الشفاعة ، وأنه اختبأ دعوته التي منّ الله بها عليه، شفاعة لأمته في الآخرة، كما حصلت الإشارة إلى ذلك من قبل . وهذه ضميمة من الأحاديث في شأنها ، تزيد المؤمن يقيناً على يقين بوقوعها يومذاك ؛ ففي كتاب الدعوات من الجامع الصحيح ، عقد الإمام البخارى باباً عنوانه : « لكل نبي دعوة مستجابة » وقال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة ، ثم قال رحمه الله : وقال لي خليفة : قال معتمر : سمعت أبي عن أنس عن النبي ﷺ قال: لكل نبي سأل سؤلاً ، أو قال: لكل نبي دعوة قد دعا بها ، فاستجيبت، فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

ومن فقه الإمام البخاري في تراجم الأبواب، أنه أورد هذا الحديث أيضاً في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح تحت «باب المشيئة والإرادة » فأخرج بسنده عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة ، فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وقد أسلفت من قبل أن علمه ﷺ بما يحمل يوم القيامة من الأهوال، حيث الضرورةُ الملحة لبارقة أمل

تُشعر بالنجاة ، وتجاوز الصعاب المروّعة ، إلى الزحـزحة عن النار ، ودخول الجنة ، مع الذي ملأ الله به قلبه من الرحمة بالأمة ، والشـفقة عليها. كل أولئك ـ والله أعلم ـ جعله جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ، يتجه هذه الوجهة في اختباء دعوته، شفاعة لأمته يومئذ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً . فأنت واجـد أنـه آثر أمتـه بهذه الـدعـوة ، وكـان حكيماً ـجـدَّ حكيم ، في وضـع الأمـور مواضعها، لأن الناس أحوج ما يكونون في ذلك اليوم إلى الشفاعة ، فجعل الدعوة فيما ينبغي ، وفي أهـم أوقات الضرورة الملحـة ـ كما أسلفنـا ـ نـاهيك عما في هـذا الحديث، من بيان فضله صلوات الله وسلامـه عليه على سائر الأنبياء ، وماله من كرامة متميزة ــ وهو النبي المصطفى عند الله عز وجل ـ قـال ابن بطال : (في هذا الحديث بيـان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبيـاء ، حيث آثر أمته على نفسـه وأهل بيته بـدعوتـه المجابة ، ولم يجعلهـا أيضاً دعاءً عليهـم بالهلاك كما وقـع لغيره ممن تقـدم) وقال ابـن الجوزي: (هذا مـن حسن تصرفـه ﷺ لأنه جعـل الدعـوة فيما ينبغي، ومن كثـرة كرمه، لأنه آثر أمتـه على نفسه ، ومن حسن نظـره ، لأنه جعلها للمذنبين مـن أمته، لكونهم أحـوج إليها مـن الطائعين) وقال النـووي (فيه كمال شفقته ﷺ على أمته ، ورأفته ، واعتناؤه بالنظـر في مصالحهم ، فجعل دعوته ، في أهم أوقات حاجتهم) .

هذا : وقد أخرج الإمام مسلم هذا الحديث في عدد من الروايات ، وفي أكثرها يحمل النص عبارة ـ ان شاء الله ـ فقد روى بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبـي دعوة ، وأردت إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعـة لأمتي يوم القيامة » وله في رواية أخرى عن ابن شهاب أن عمرو بن أبي سفيان بن سفيان بن أسيد بن جـارية الثقفي أخبره أن أبا هـريرة قال لكعب الأحبـار : إن نبي الله ﷺ قال : «لكل نبي دعـوة يدعوها ، فأنا أريد إن شاء الله أن أختبـىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». فقال كعب لأبي هريرة: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال أبـوهريرة : نعم . وفي بعـض الروايات، مـا يشعر بأن الأنبياء عليهـم الصلاة

والسلام تعجلوا دعواتهم المستجابة ، وأنه ﷺ اختبأ دعوته شفاعة لأمته يوم الدين ، وأن هذه الشفاعة نائلة إن شاء الله من مات من الأمة المحمدية لا يشرك بالله شيئاً . قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر ابن أبي شيبة وأبو كريب ـ واللفظ لأبي كريب ـ قالا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » وفي رواية أخرى « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، فيستجاب له فيؤتاها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وفي لفظ « دعابها في أمته » وفي آخر « دعاها لأمته ».

وهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً ، ولابد من النظر فيها مجتمعة . ومعناها ـ كما يرى الإمام النووي ـ أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة ، وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقي دعواتهم : فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب، وبعضها لا يجاب . ونقل عن القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون المراد : لكل نبي دعوة لأمته كما في الروايتين الآخيرتين والله أعلم .

وبعد: فلابد من الإشارة ؛ إلى أن عدداً من الروايات ـ كما سيأتي فيما بعد إن شاء الله ـ يحمل تقييد نيل الشفاعة، بعدم الشرك بالله تعالى ، وكما رأينا آنفاً . من هذه الروايات ما نجد في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ حيث أخرج أبوعيسى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة إن شاءالله من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح . والروايات بهذا القيد : تقتضي التذكير بما سلف ، من أن العلماء ، قد وفَّقوا بين تعليق الشفاعة على التوحيد، وبين ما جاء من كونها لأهل الكبائر ، ويأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله !

رزقنا الله التوحيد الخالص ، والعمل بما يقتضيه ، وصلى الله وسلم وبارك على الشافعْ المشفع ، وعلى آله وصحابته الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه صدقاً في المواطن ، وإخلاصاً في الطاعة ، وإحساناً في التزود ليوم لا ريب فيه ، فكانوا أجدر الناس بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، التي اختبأ الدعوة المستجابة لها ، رحمةً بأمته وإشفاقاً عليها ، جزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وآتاه الوسيلة والفضيلة ، وبعثه المقام المحمود الذي وعده في كتابه العزيز .

الشفاعة.. والتوحيد الخالص

لا يسأم المؤمن ـ وهو يسعى للآخرة سعيهـا ـ من معاودة النظر في كل ما هو من مبشرات النجاة يوم الدين بسبب . ومن عيون ذلك : ما ورد من الخبر الصادق في شأن شفاعة ﷺ لأمته ، عند الله بإذنـه يوم تَجِفُ القلوب ، وتستولي الخشية من سوء القرار ،على النفوس . وإنها لبشارة عظمى، جديرة بأن يعمل المؤمن ، ليكون يومئذ من أهلها .

ولقد كان مـن فضل الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام أن لكل منهم دعوة مستجـابة . ولأمر ما ، تعجّـل كل نبي دعـوته في الدار العاجلـة ، وأكرم الله الأمة المحمديـة ، بأن اختبأ رحمة العالمين سيـدنا رسول الله عليه الصـلاة والسلام دعوته شفاعة لأمته يوم الحساب . كما رأينا عند البخاري ومسلم والترمذي .

ومن الـروايات التي جاء فيهـا ذكر التعجُّل : مـا أخرج ابن ماجـة في كتاب الزهد «باب ذكر الشفاعة » من السنن بسنـده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله ﷺ: « لكل نبـي دعوة مستجابـة فتعجّل كـل نبي دعـوته ، وإني اختبأت دعـوتي شفاعـة لأمتي، فهـي نائلـة من مـات منهم لا يشرك بـالله شيئاً » وأخرج الإمام مـالك في الموطأ عن أبي الـزناد عن الأعرج عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « لكل نبي دعوة يـدعو بها ، فأريد أن أختبـي دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة » . ومما يجدر ذكره : أن شفاعة النبي ﷺ الخاصة هذه ، قد جاء ذكرها في بعض الروايات ، مضمومـة إلى حديث الشفاعة العظمى بطوله ؛ الأمر الـذي يوحي ــ والله أعلم ـ بتعدد المواقـف التي كان صلى الله عليـه وسلم، يكشـف فيها لأمتـه عما سيكون يـوم الفصل ، ويثير في قلـوب أصحابـه كوامـن الإيمان ، من أجل العمل والإعداد لذلك اليوم العظيم، ومن ورائهم من يدخل في

هذا الدين ، حتى يرث الله الأرض ومـن عليها ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن علي ابن زيـد عن أبي نضْرة قـال : خطبنا ابـن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة فقال : قال رسول الله ﷺ : «إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد يُنجَزها في الدنيا ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنـه الأرض ولا فخر ، وبيدي لـواء الحمد ولا فخر ، آدم فمـن دونه ، تحت لوائي ولا فخر ؛ ويطول يوم القيامةعلى الناس، فيقول بعضهم لبعض، انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر ، فليشفع بنـا إلى ربنا فليقـض بيننا ... إلى أن يقـول : فيأتـون عيسى فيقـولون : ياعيسـى اشفع لنا إلى ربـك فليقض بيننا ، فيقـول : إني لست هناكم ، اتُّخِذْتُ إلهاً من دون الله ، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ، ولكن أرأيتم لو كان متاع في وعـاء مختوم عليه، أكان يقـدر على ما في جوفه حتـى يُفَضَّ الخاتم ؟ قال : فيقولـون : لا ، فيقول: إن محمداً ﷺ خاتـم النبيين ، وقـد حضر اليوم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال رسول الله ﷺ ، فيأتونني فيقولون : يامحمد اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا ، فأقول : أنا لها ، حتى يأذن الله عز وجل لمن يشاء ويرضـى ، فإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يصـدع بين خلقه ، نادى منـادٍ : أين أحمد وأمته ، فنحن الآخـرون الأولون ، ونحن آخر الأمم ، وأول من يحاسـب ، فتُفرج لنا الأمم عن طريقنا ، فنمضي غُرّاً محجلين من أثر الطَّهور ، فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلهـا ، فنأتي باب الجنة ، فآخذ بحَلْقة البـاب ، فأقرع الباب، فيقال : من أنت ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتح لي ، فآتي ربي عز وجل على كرسيه أو سريره ـ شك حماد ـ فأخرُّ له ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي، وليس يحمده بها أحد بعدي ، فيقال: يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه . وقل تُسمع واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقول : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا وكذا ــ لم يحفظ حماد ـ ثم أعيد فأسجد ، فأقـول ما قلت ، فيقال: ارفع رأسـك ، وقل تُسمـع ، وسل تُعطـه ، واشفع تشفّـع ، فأقـول : أي رب أمتي أمتـي، فيقول : أخـرج مـن كان في قلبـه مثقال كـذا وكـذا دون الأول ، ثم أعيـد

فأسجد ، فأقول مثل ذلك فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه ، واشفع تشفّع فأقول: أي رب أمتي أمتي، فيقال : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا كذا دون الأول، ثم أعيد فأسجد فأقول مثل ذلك ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفّع ، فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا كذا دون ذلك ».

هكذا يبدأ الحديث بخصائص ، يذكرها النبي ﷺ بتواضع جمٍ ، وأدب لا يجارى ، ومنها اختباء دعوته شفاعة عند الله ـ بإذنه ـ لأمته في الآخرة . ويكون من الحكمة أن يسهب صلوات الله وسلامه عليه في الكلام النيّر المبارك عن الشفاعة العظمى ، حيث يتحقق للخلائق ما يريدون ، ثم يذكر ﷺ استجابة ربه الكريم المنان ، لدعوته فيما أراد من الشفاعة بأمته، على تلكم الصور التي نطق بها النص من كلامه عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر ـ وهو الصادق المصدوق ـ عن ذلك كله .

ومما يؤكد شفقة النبي ﷺ على أمته ، وحرصه على أن تكون من أهل النجاة يوم الحسرة ، ما جاء عنه صلوات الله وسلامه ، عليه أنه خُيِّر بين الشفاعة وغيرها، فاختار الشفاعة، جزاه الله خير ما يجزي نبياً عن أمته ، جاء في كتاب القيامة من الجامع الصحيح سنن الترمذي : حدثنا هنّادٌ قال : حدثنا عبْدة عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبي المليح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : قال رسول الله ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي ، فخيّرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة ، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً ». وقد روي عن أبي المَليح عن رجل آخر من أصحاب النبيﷺ عن النبيﷺ، ولم يذكر عن عوف بن مالك، وفي الحديث قصة طويلة . حدثنا قتيبة قال : حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبي المليح عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ نحوه . وهذا ما نجده عند ابن ماجة بلفظ مقارب، مع شيء من الزيادة ؛ فقد أخرج في كتاب الزهد، باب «ذكر الشفاعة » من السنن عن سُنَيْم بن عامر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون

ما خيّرني ربي الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه خيّرني بين أن يُدخل نصفَ أمتي الجنة ، وبين الشفاعة . فاخترت الشفاعة » قلنا : يارسول الله ! ادع الله أن يجعلنا من أهلها ، قال : هي لكل مسلم » .

وما أحسبني بحاجة إلى تجديد التذكير بأن الشفاعة ـ كما تعطي النصوص ـ منوطة بالتوحيد الخالص لله عز وجل ، ومن كان على التوحيد الخالص، لم يقعده الفرح بها ـ وهي من فضل الله ورحمته بهذه الأمة ـ عن أخذ نفسه بأسباب الاستقامة ، وخشية الله بالغيب ، وتقواه سبحانه في السر والعلن ، والحرصِ على أن يكون هديُ الشافع المشفّع صلوات الله وسلامه عليه، طريقه المسلوكة إلى دار البقاء ، يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة ، وهنالك توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

المبشرات.. وشحذ الهمم للطاعة

ما من ريب في أن أحاديث الشفاعة، تجعل الرجاء بفضل الله ورحمته، يربو ويتعاظم، الأمر الذي يدع المؤمن أقرب إلى الطمأنينة، بأنه من أهل النجاة والفوز، في تلكم الساعات الفاصلة يوم اللقاء، ولكن يفترض في الوقت نفسه ، أن تكون ثمرة التفاعل مع تلك الأحاديث، والتأثر بمدلولاتها وعطائها ، حافزاً فعّالاً من حوافز الاستزادة من كل ما يقرب إلى الله زلفى في هذه الدار ، دارِ التكليف والعمل، وباعثاً من بواعث الحرص، على أن تزين تصرفات المؤمن تقوى الله وخشيته ـ جل شأنه ـ بالغيب ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾. ومن الأهمية بمكان ، استذكار أن السلف الصالح رضوان الله عليهم، ما كانت تزيدهم المبشرات، إلا قوة في شحذ الهمم للمسارعة إلى الطاعة والجهاد ، وإعداد العدة ليوم الحساب ، حتى كأنهم يرون الجنة والنار رأي عين ، بل إن بعضهم كان إذا رأى النار في الدنيا ، أذكرته نار الآخرة جهنم، وأصابه من الرعب والخوف من سوء العاقبة ما أصابه ، لما يتقالُّ من عمله ـ مهما كان هذا العمل ـ إذا وزن بما يجب أن يكون . على أن إخلاص التوجه إلى الله في طلب الرحمة، يوم لا ينفع إلا الرحمة ـ ومنها شفاعة النبي ﷺ ـ من الأمور التي لا ينبغي لمؤمن أن يغفل عنها ، أو يقصر في أن يرجوَها بذِلَّة وخشوع وخضوع .

أقول هذا وفي الجعبة شذرات مباركات، تتعلق بنصوص الشفاعة والتفاعل معها ، صُنعَ المخبتين المنيبين. من ذلك ما ذكرت المصادر عن الثقة العابد الربيع ابن خُثَيْم ـ من جلة التابعين ـ الذي قال له عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «لورآك رسول الله ﷺ لأحبك ».

أخرج أبونُعيم في الحلية بسنده عن بكر بن ماعز أنه قال : « انطلق الربيع بن خُثَيْم وعبدالله بن مسعود إلى شاطىء الفرات ، فمرّ بأولئك الحدادين ، فلما رأى

تلك النيران ، خرّ مغشياً عليه ، فرجع إليه ، فقال: ياربيع ! فلم يجبه ، فانطلق فصلّى بالناس العصر ، ثم رجع إليه ، ياربيع ياربيع، فلم يجبه، ثم انطلق فصلى بالناس المغرب ، ثم رجع، ياربيع ياربيع ، فلم يجبه، حتى ضربه برد السَّحر ».
ورواه أبووائل عن عبدالله . كما أخرج أبو نُعيم بسنده أيضاً عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبدالله بن مسعود ومعنا الربيع بن خُثَيم ، فمررنا على حداد ، فقام عبدالله ينظر حديدة في النار، فنظر ربيع إليها ، فتمايل ليسقط ، فمضى عبدالله، حتى أتينا على أتون على شاطىء الفرات ، فلما رأى عبدالله النار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ إلى قوله ﴿ثبوراً ﴾ قال: فصعِق الربيع ، فاحتملناه ، فجئنا به إلى أهله ، قال : ثم رابطه إلى المغرب فلم يفق ، ثم إنه أفاق فرجع عبدالله إلى أهله .

هذا: والذي يلي قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ تغيظاً وزفيراً ﴾ قوله سبحانه : **﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾** .

ولقد أردت هذه الكلمات، أن تكون ذكرى ــ والذكرى تنفع المؤمنين ــ بين يدي المتابعة الهادفة لكلمات مضيئات في شأن البشارة ، بأن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، لابد أن يشفع عند الله يوم الحشر الأكبر للمذنبين من أمته، الذين ماتوا وهم لا يشركون بالله شيئاً .. عسى أن يستزيد من العمل العاملون ، وأن يوفق المقصّرون ـ وأنا منهم ـ إلى الحرص على أن تكون مبشرات الشفاعة ، غير مقطوعة النسب عن نصوص التكليف، والدعوة إلى الأخذ بكل ما يُربي الإيمان في النفوس، ويحفز على الجهاد والاستكثار من القربات؛ طاعةً لله وإخلاصاً في تقواه ، شأنَ السلف الصالح الأمناء على العمل بدين الله ، الذين كانوا على إرث النبوة في ذلك، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير . وهذه مسألة مهمة ـ والله أعلم ـ على طريق تزكية النفس ، والانتفاع بالأخبار الصادقة عن يوم الدين ، كيما يكون لها سلطانها على السلوك ؛ فإذا اقترن ذلك ، بصورة عملية من صنيع السلف

الصالح ، تثير الرغبة في التأسي ، كان ذلك خيراً على خير .

ونعود إلى ما نحن بسبيله. قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عبدالصمد قال: حدثنا محمد بن أبي المليح الهذليُّ قال : حدثني زياد بن أبي المليح عن أبيه عن أبي بردة عن عوف بن مالك الأشجعي «أنه كان مع النبي ﷺ في سفر ، فسار بهم يومهم أجمع ، لا يحُلُّ لهم عقدة ، وليلته جمعاء ،لا يَحُلُّ عقدةً إلا لصلاة ، حتى نزلوا أوسط الليل ، قال: فرَقب رجل رسو ل الله ﷺ حين وضع رحله ، قال: فانتهيت إليه ، فنظرت فلم أر أحد إلا نائماً ،ولا بعيراً إلا واضعاً جرانه نائماً . قال: فتطاولت، فنظرت حيث وضع النبيﷺ رحله ، فلم أره في مكانه ، فخرجت أتخطى الرحال ، حتى خرجت إلى الناس ، ثم مضيت على وجهي في سواء الليل، فسمعت جرْساً ، فانتهيت إليه فإذا أنا بمعاذ بن جبل والأشعري ، فانتهيت إليهما، فقلت : أين رسول الله ﷺ ؟ فإذا هزيز كهزيز الرحا ، فقلت : كان رسول الله ﷺ عند هذا الصوت ، قالا : اقعد اسكت، فمضى قليلاً ، فأقبل حتى انتهى إلينا، فقمنا إليه ، فقلنا : يارسول الله فزعنا إذ لم نرك ، واتبعنا أثرك ، فقال: إنه أتاني آتٍ من ربي عز وجل، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة ، فقلنا : نذكِّرك اللهَ والصحبة إلا جعلتنا من أهل شفاعتك ، قال : أنتم منهم ؛ ثم مضينا ؛ فيجيء الرجل والرجلان ، فيخبرهم بالذي أخبرنا به ، فيذكِّرونه اللهَ والصحبةَ ، إلا جعلهم من أهل شفاعته ، فيقول: فإنكم منهم ، حتى انتهى الناس فأضبّوا عليه ، وقالوا : اجعلنا منهم قال : فإني أشهدكم أنها لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً ».

وأخرجه أحمد من طريق أخرى عن عوف بن مالك الأشجعي أيضا قال: «عرّس رسول الله ﷺ ـ ذات ليلة ـ فافترش كل منا ذراع راحلته ، قال : فانتهيت إلى بعض الليل ؛ فإذا ناقة رسول الله ﷺ ليس قُدّامَها أحد ، قال : فانطلقت أطلب رسول الله ﷺ ، فإذا معاذ بن جبل وعبدالله بن قيس قائمان ، قلت: أين رسول الله ﷺ ؟ قالا : ما ندري ، غير أنا سمعنا صوتاً بأعالي الوادي، فإذا مثل

هزيز الرحا قال: امكثوا يسيراً ، ثم جاءنا رسول الله ﷺ فقال : إنه أتاني آت من ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة، فقلنا : ننشدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك ، قال : فإنكم من أهل شفاعتي ، قال : فأقبلنا معانيق إلى الناس ، فإذا هم قد فزعوا وفقدوا نبيهم ، وقال رسول الله ﷺ : إنه أتاني الليلة من ربي آت ، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، قالوا: يارسول الله ننشدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك ؛ فلما أضبُّوا عليه قال : فأنا أشهدكم أن شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمتي ».

معانيق : أي مسرعين . وهزيز الرحا : صوت دورانها . قال ابن الأثير : (وفيه «إني سمعت هزيزاً كهزيز الرحا » أي صوت دورانها). فلما أضبّوا عليه : أي فلما أكثروا عليه ، يقال : أضبّوا : إذا تكلّموا متتابعاً ، و إذا نهضوا في الأمر جميعاً .

جزى الله نبينا محمداً ﷺ ـ على ما اختار ـ من الشفاعة للأمة ــ ما هو أهله ، وكتب لنا أن نكون في الآخرة من أهلها ، ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عموم الشفاعة.. وأسعد الناس بها

هذه خطوة أخرى ، مع نصوص من الهدي النبوي، تسعف ــ بعون الله ـ في تجلية ما يبدو في الظاهر تعارضاً بين تلك النصوص الواردة في شأن من يكونون أهلاً لأن تنالهم شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ إذ هناك ما يدل ، على أنها لمن مات لا يشرك بالله شيئاً ، وهنالك ما يدل ، على أنها لأهل الكبائر من الأمة . ولم يُعجز العلماءَ ذلك ، عن التوفيق بين دلالات النطق الكريم ـ كما أشرت من قبل ـ وتبيُّن القاعدة التي يقوم عليها هذا الإكرام من الله عز وجل ، حين أعطى نبيه المصطفى ﷺ العطاء الجزيل ، وحقق له ما أراد من الرحمة بأمته.

عقد الإمام أبوداود في « كتاب السنة » من السنن باباً في الشفاعة قال فيه: حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا بسطام بن حريث عن أشعث الحداني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » وبهذا اللفظ أخرجه ابن حبان و الحاكم.. وبهذا اللفظ أيضاً ، ومن الطريق نفسها رواه أحمد في المسند . وأخرجه البخاري كذلك في « التاريخ الكبير » عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ولكن بلفظ « شفاعتي لأهل الكبائر » وأخرج الترمذي في «كتاب القيامة » من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ــ بسنده عن معمر عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال : رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن جابر : ثم روى بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال محمد بن علي : فقال لي جابر : « يامحمد من لم يكن من أهل الكبائر ، فماله وللشفاعة ؟» قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه يستغرب من حديث جعفر بن محمد. قال «صاحب تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي » : والحديث

ضعيف لضعف محمد بن ثابت ، ولكنه يعتضد بحديث أنس المذكور ، رواه الطبراني عن ابن عباس ، والخطيب عن ابن عمر وعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنهم. والحاجة إلى الشفاعة قائمة لرفع الدرجات، إن لم يكن المسلم ممن أشير إليهم في هذه النصوص . ونجد عند ابن ماجة رواية بزيادة « إنّ» المؤكدة ولفظ « يوم القيامة» حيث روى بسنده عن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي » وله في رواية أخرى تحمل شيئاً من التفصيل والتعليل عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « خُيِّرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ؟ لا ، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين » قال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

والملاحظ ، أن العلماء يتأولون هذا الحديث الذي خصّ بالشفاعة أهلَ الكبائر من الأمة، بأنه يعني الشفاعة التي هي دعوة النبي ﷺ التي ادخرها لأمته؛ فالإضافة في كلمة « شفاعتي» بمعنى ال العهدية، أي الشفاعة التي وعدني الله بها ، ادَّخرتها لأهل الكبائر من أمتي ، وفسّر ذلك ـ كما نقل عن المناوي ـ بأنه لوضع السيئات، والعفو عن الكبائر ، وأما الشفاعة لرفع الدرجات : فلكل من الأتقياء والصلحاء الذين استحقوا هذا الإكرام بتقواهم وصلاحهم . وقد ورد في بيان ذلك العديد من نصوص السنة المطهرة ، من ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن .

ومهما يكن من أمر : فإن الأساس في الموضوع : أن يلقى المسلم ربه وهو على الدين الخالص، توحيداً لله تبارك وتعالى ، وبُعداً عن كل ما يعكر صفو هذا التوحيد ؛ وذلك بأن يموت ـ يوم يموت ـ وهو على قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خالصاً من قلبه ونفسه ، روى البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح

بسنده عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت ياأباهريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولَ منك، لما رأيت من حرصك على الحديث !! أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » . وفي رواية « من قِبَلِ نفسه» ومن الواضح أن في قول النبي ﷺ : «من قال لا إله الا الله » احترازاً من المشرك. ولابد من التنبيه على أن المراد من الحديث: النطق بالكلمة الطيبة بجزأيها ، لكن قد يكتفى ـ كما يقول العلماء ـ بالجزء الأول من كلمتي الشهادة لأنه صار شعاراً لمجموعهما . فإذا قال الموحد: « لا إله إلا الله ، فالمقصود : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وقد اتجه الحافظ ابن حجر ، إلى أن أفعل التفضيل في قوله ﷺ: « أسعد الناس بشفاعتي..» على بابه ؛ فكل أحد يلقى الله على التوحيد الخالص ، يحصل له سعد بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، ولكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها ؛ فإنه ﷺ يشفع في الخلق جميعاً لإراحتهم من هول الموقف والقضاء بينهم، ويشفع في بعض الكفار ، بتخفيف العذاب ، كما صح في حق أبي طالب ، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها ، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها ، وفي بعضهم بدخول الجنة بغير حساب ، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها ؛ فظهر الاشتراك بالشفاعة ، وأن أسعدهم بها المؤمن ، المخلص والله أعلم .

هذا ولعل أباهريرة رضي الله عنه سأل هذا السؤال ، عند تحديثه ﷺ بقوله «وأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي » ـ كما مر بنا ـ غير مرة . ثم إنه غير خافٍ ما يدل عليه قوله ﷺ « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من قِبَل نفسه » من ضرورة الإخلاص في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الذي ينبني عليه ما ينبني ، وأن يكون ذلك باختياره . وقد وقع في رواية أحمد وصححه ابن حبان من رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ما يفيد ضرورة

تصديق القلبِ اللسانَ ، واللسانِ القلبَ ، وقد جاء في تلك الرواية « وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله يصدّق لسانَه قلبُه ، وقلبَه لسانُه ».

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر في « الفتح » من أن الشفاعة المسؤول عنها هنا : بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ في شأنها : أمتي أمتي ، فيقال له : أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان ؛ فأسعد الناس بهذه الشفاعة ، من يكون إيمانه أكمل ممن دونه ، وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف: فأسعد الناس بالشفاعة : من يسبق إلى الجنة ، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم ، وهو من يدخلها بغير عذاب، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من يصيبه لفح النار ولا يسقط .

والحاصل ــ كما يقول الحافظ رحمه الله ــ أن في قوله « أسعد » إشارة إلى اختلاف مراتبهم في السبق إلى الدخول، باختلاف مراتبهم في الإخلاص ولذلك أكده بقوله : « من قلبه » مع أن الإخلاص ؛ محله القلب ، ولكن إسناد الفعل إلى الجارحة ، أبلغ في التأكيد والله أعلم .

الحوض.. والكوثر

من المشاهد العظيمة الغامرة بفضل الله و إحسانه يوم الدين ، مشهد الحوض وورده؛ وقد جاءت النصوص لتدل بوضوح لا يحتمل اللبس ، على أن نبينا محمداً ﷺ يكرمه الله بالحوض يوم القيامة ، وهو الحوض الذي من ورده شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وثبت أنه ﷺفرط الأمة على الحوض ، أي سابقها إليه كالمهيىء له .

قال القاضي عياض رحمه الله في «إكمال العلم» ـ كما نقل الإمام النووي ـ: أحاديث الحوض صحيحة ،والإيمان به فرض ، و التصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة .

قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب ، يعني ابن عبدالرحمن القاريّ، عن أبي حازم قال : سمعت سهلاً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعتَ سهلاً يقول؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهدعلى أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: «إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي » .

كما عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه: «باب في الحوض وقول الله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ وقال عبدالله بن زيد قال النبي ﷺ : اصبروا حتى تلقوني على الحوض».

ثم جاء بعدد من الأحاديث كان منها ما روى بسنده عن أبي عوانة عن سليمان عن شقيق عن عبدالله عن النبي ﷺ « أنا فرطكم على الحوض » .

وقد جمع الروايات بطرقها الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه « البعث والنشور» بأسانيدها وطرقها المتكاثرات فقال القاضي عياض : وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً .

وهذا الذي نرى من كون النبي ﷺ فرط الأمة على الحوض ـ أي سابقها إليه ـ جاءت به الرواية عند مسلم وغيره أيضاً. قال الإمام مسلم : حدثني أحمد بن عبدالله بن يونس قال : حدثنا زائدة قال : حدثنا عبدالملك بن عمير قال: سمعت جندباً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول :« أنا فرطكم على الحوض» .

وتضع الأحاديث أيدينا على صفات لهذا الحوض الذي يكرم الله به نبيه ﷺ ومن يقسم له أن يرده من أمته . روى البخاري بسنده عن ابن أبي مُليكة قال: قال عبدالله بن عمرو : قال النبي ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً ». وله في الجامع الصحيح أيضاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه » ، قال أبو بشر: قلت لسعيد : إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : « النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه ». وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : « والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية. آنيةُ الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ماعليه ، يشخُب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ . عرضه مثلُ طوله، ما بين عمان إلى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» أخرجه مسلم.

وها نحن أولاء نجد الترمذي يختص صفة أواني الحوض بباب خاص في

كتاب القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ وقد أخرج بسنده هناك عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر قال : «قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكِبها في ليلة مظلمة مصحية . آنيةُ الجنة ، من شرب منها شربة لم يظمأ آخر ماعليه ، عرضُه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وفي بيان لتلكم الكرامة العظيمة لإمام النبيين عليه الصلاة والسلام ، وتذكيرٍ للأمة بالعلاقة بين الكوثر والحوض، كيما تسلك طريق الشكر للنعمة ، وتكون لها الحظوة بذلك العطاء الإلهي لنبيها صلوات والله وسلامه عليه ... نجد الرسول الكريم، يكشف عن بعض ذلك في عدد من نصوص الهدي النبوي؛ روى أبو داود في كتاب السنة من السنن بسنده عن المختار بن فلفل قال: سمعت أنس ابن مالك رضي الله عنه يقول : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً فرفع رأسه متبسماً ، فإما قال لهم : وإما قالوا له : يارسول الله لم ضحكت؟ فقال: إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها فلما قرأها قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعَدَنيه ربي عز وجل في الجنة ، وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيتُه عدد الكواكب ».

وتطالعنا بعض الروايات ، بما فيه الجمع بين كونه ﷺ فرطَ الأمة على الحوض، وبين بعض صفات الحوض ؛ من ذلك ما روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إني فرط لكم على الحوض، وإن بُعْدَ ما بين طرفيه كما بين صنعاءَ وأيلة كأن الأباريق فيه النجوم » .

اللهم آت أنفسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها. اللهم اجعلنا ممن يجدّون في طلب الآخرة بالاستقامة على طاعتك وطاعة رسولك ، علماً وعملاً ، وجهاداً، حتى نكون ممن يكرمون بورود حوضه ﷺ ، فلانظمأ بعد ذلك أبداً .

نصوص الحديث النبوي، واضحة الدلالة ، في إنبائها عما يكون من إكرام الله جل شأنه لإمام الهداة نبينا محمد علية الصلاة والسلام ، بالحوض المورود ، وكيف يتعدى ذلك إلى الأمة المحمدية ، حيث يتفضل الله على من يشاء بوروده على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأن من قُسم له أن يرده ، شرب ، ومن شرب منه شربة لم ينله ظمأ ، ولا سقم بعدها أبداً . وهنا لابد من وضع العلاقة بين الحوض وبين الكوثر الوارد ذكره في سورة الكوثر ، بالحسبان .

وتقودنا هذه الحقيقة التي دلت عليها الكلمات الهاديات ، إلى النظر فيما كان عليه السلف الصالح ــ جزاهم الله عن الأمة كل خير ـ من إيمان عميق بهذه المكرمة العظيمة ، حتى كأن الواحد منهم يراها في هذه الدار ــ حيث عالم الشهادة ــ ماثلةً أمام ناظريه . ومن سعي حثيث على طريق العبودية الخالصة والتقوى ، والنصح للأمة ، والمحبة الصادقة للرسول ﷺ ، وحسن اتباعه والتأسي به ، كيما يكونوا من أولئك الواردين على الحوض ، الذين ينعمون بما تفضل الله به عليه وعلى أمته ، وما خصّه به في الدنيا والآخرة، من الفضائل العظام.

قال الإمام الحجة أبو محمد عبدالحق الإشبيلي الأزدي المتوفى سنة ٥٨١ في كتاب « العاقبة » بين يدي إيراده أحاديث الحوض : (قد سمعت ـ رحمك الله ـ بعطش هذا اليوم والتهابه ــ يعني يوم القيامة ـ وما يصل إلى القلوب من أُواره واحتراقه ، وأن الماء في ذلك اليوم أعز موجود وأعظم مفقود ، وأن لا منهل مورود، إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ ، ولا مشرب لأمته سواه ، ولا تبرد أكبادهم إلا به ، وأن الشربة منه ، تروي من الظمأ ، وتشفي من الصدى ، وتُذهب كل داء، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبداً ، وأنها ترد العقل العازب ، والشباب

الذاهب ، ويؤوب معها من الزمن الصالح ما لم يكن قبل بآيب ، وأنه لا يرد ذلك الحوض إلا من ورد في الدنيا حوض شرعته ، وتمسك بسنته ، وتوفي على ملته، وإلا فيجلى عنه ، ولا يدنو منه ، ولا يكاد ، ويضرب عنه ضرباً تتقطع له الجوانح والأكباد).

وإذا كان تأكيد القناعة الإيمانية ، بأن الحوض محقّق الوجود ـ يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ نافعاً ، فإن متبصّراً بالنصوص، لا يرتاب في أن وصف النبي ﷺ له ـــ كما مرّ بنا من قبل ـــ لم يدع ريبة لمستريب ، في استيقان وجوده، الأمر الذي دعا أهل الخشية ، إلى الجمع بين الإيمان بهذه الحقيقة ، وبين العمل الذي يكون ـ بتوفيق الله ـ طريقهم إلى ورود الحوض ؛ونرا هم يدعون الله تعالى أن يرزقهم في الدنيا علمه، وفي الآخرة رزقه ؛ فإن من صفاته: أن من شرب منه لم يظمأ أبداً . أخرج الإمام مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إني لَبِعُقْرِ حوضي أذود الناس لأهل اليمن ، أضرب بعصاي حتى يرفضَّ عليهم . فسُئل عن عرضه فقال : من مقامي إلى عمان . وسئل عن شرابه ؟ فقال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يَغُتُّ فيه ميزابان يمُدّانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من ورق» .

عُقر الحوض : مؤخره ، وقوله : لأهل اليمن ، أي لأجل أن يرد أهل اليمن ، والذَّود : الطرد والدفع . يرفضُّ : يتفرق ، وارفضّ الدمع إذا جرى متفرقاً مترششاً ، والمراد : حتى يسيل عليهم ماء الحوض . وقوله ﷺ يَغُتُّ فيه ميزابان هو من غت الماءُ يَغُتُّ إذا جرى جرياً له صوت ، قال ابن الأثير : وقيل : يدفق الماء فيه دفقاً متتابعاً .

والنبي ﷺ يُرضيه ويُثلج صدره، أن يكون أكثر النبيين عليهم الصلاة والسلام وُرّاداً على حوضه ؛ لأن لكل نبي حوضاً ، والكل يريد كثرة الواردين. أخرج الترمذي بسنده عن قتادة عن الحسن عن سمُرة قال: قال رسول الله ﷺ :

«إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهـون أيُّهم أكثرُ واردةً، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة» . قال أبو عيسى : هـذاحديث غريب ، وقد روى الأشعـث بن عبدالملك هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه سمُرة ، وهو أصح .

ولما كان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فـرط الأمة على الحوض ، رأينـاه يدل من سأله الشفاعة يوم القيامة، على مواطن وجوده صلوات الله وسلامه عليه؛ وهـي الصراط والميـزان والحوض ، فـإن لم يلقـه على الصراط ولا عنـد الميـزان ، فليطلبه عند الحوض ، لأنه ﷺ لا يخطىء هذه المواطن الثلا ثة ـ كما مرّ ذلك من قبل ـ وقد روى الترمذي الحديـث الكاشف عن ذلـك في باب «ما جـاء في شأن الصراط» من جامعه الصحيح « السنن» قال رحمه الله : حدثنا عبدالله بن الصباح الهاشمي قال : حـدثنا بدل بن المحبّر قـال : حدثنا حرب بـن ميمون الأنصاري أبو الخطاب قال : حدثنا النضر بن أنس بن مـالك عن أبيه قال : « سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يـوم القيامة ، فقال : أنـا فاعل ، قـال: قلت: يارسول الله، فـأين أطلبك ؟ قال: أولَ ما تطلبني على الصراط قال : قلت : فإن لم ألقك؟ وفي رواية ـ فإن لم ألفِك ـ أي أجدك ـ على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميـزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطـيء هذه الثلاث المواطن ». قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وأخرجه الإمام أحمد ـ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ـ. جاء في المسند: حدثنا عبدالله قال : حـدثني أبي قال : حدثنا يونس بن محمـد قال : حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنـس رضي الله عنه قال : «سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يـوم القيامة، قـال : أنا فاعـل بهم ، قال : فأيـن أطلبك يوم القيـامة يانبي الله قـال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قال : قلـت : فإذا لم ألقك على الصراط قال : فأنا عند الميزان ، قال : قلـت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فأنا عند الحوض لا أخطيء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة ».

وهـذا الحديث الـذي دلّ على تلكم المواطـن التي لا يخطئهـا سيد العـالمين صلـوات الله وسلامـه عليه يـوم القيـامة ، والتـي تسبّـب بالكشـف عنها سـؤال الصحابي الجليل أنس بن مالـك رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة ، أورده الحافظ ابن كثير في «البدايـة والنهاية » وقال : رواه الترمـذي من حديث بـدل بن المحبَّر وابن ماجة في سننـه من حديث عبدالصمد؛ كلاهما عن حـرب بن ميمون بن أبي الخطاب الأنصاري البصري مـن رجال مسلم ، وقد وثقه علي بـن المديني وعمرو ابن علي الفلاّس، وفرقا بينه وبين حرب بن أبي عبدالرحمن العبدي أيضاً .

ولنا عودة إلى هذا الحديـث الميمون ـ إن شاء الله ـ طلباً للمـزيد من الاستنارة بمعانيه وأبعاد الإيمان به في حياة أهل الإيمان ، ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلنـا ممن يردون الحوض في ذلـك اليوم العصيب ، الحوضِ الـذي، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً ، وهو ـ سبحانه ـ المحمود على كل حال .

الورود على الحوض متى يكون؟

البيان الشافي عن الحوض المورود ، ومكانته على ساحة الإكرام والمثوبة لعباد الله الصالحين ، الـذين لم يغيّروا ولم يبدلوا ، وظلـوا على العهد ؛ وفاءً بالموثـق الذي قطعوه على أنفسهم بالإيمان ... هذا البيان في حديث النبي عليه الصلاة والسلام، صفحة مباركة، ينتظمها عقد ما يدل على عظيم قدره صلى الله عليه وسلم ومكانته الرفيعـة عند الله عـز وجل ـ ومـن ورائه أمته ــ وما يكـون له يوم القيـامة ــ حيث الأهوال العظام والمصائب الجسام التي تضرب على قلوب الناس بالأسداد ـ من خصائص ومكارم ، وهـو في الوقت نفسه، لون مشرق بالـغ التأثير ، من الهدي في دعوة المسلمين إلى الاستمساك بما مـنَّ الله عليهم ، من الكتاب والسنـة ، والعض بالنواجذ على ما فيهما من النور والهداية ــ وكل ما في الكتاب والسنة نور وهداية ـ والاستعـلاء على نوازع الأهـواء والشياطين ، كيما يكـون كـل مسلم ومسلمـة على الطريق التـي تصل بصاحبها ــ وهو يسارع إلى مغفرة الله وجنتـه في دار الخلد إلى منزلـة أن يكون ـ بـرحمة الله وفضله ـ أهلاً لـورود الحوض على نبيه الشافـع المشفَّع عليه الصلاة والسـلام ، فيشرب منه ، ولا يظمأ بعد ذلك أبـداً، ولا يذاد عنه، كما تذاد الإبل الضالة ، يطردها من يطردها عن ورود الماء .

أقول هـذا : لأنه قد ثبـت في صحاح الأحاديـث : أن الرسول ﷺ يـرى يوم القيامـة أناسـاً من أمتـه يذادون عـن الحوض، كما تذاد الإبـل الضالـة ، فيقول : «أليسوا من أمتي ؟ فيقال له : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وأنـت ترى أن الله تعـالى ، شـاء بحكمته أن يكـون المصطفـى عليه الصـلاة والسلام فَـرَطَ الأمة على الحوض ، وقد كشف ﷺ في كثير مـن أحاديثه عـن ذلك، فأبان أنه فـرط أمته على الحوض، أي سابقهم كالمهيىء له . وذلـك وجه من وجوه

رحمته بالمؤمنين إذ أنه ـ كما صنعه سبحانه على عينه ـ بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وحين يدار الحديث عن رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين ، تطل على هذه الساحة واحدة من وقائع كثيرة ، تدل أوضح دلالة على رأفته ورحمته بالواحد من أفراد الأمة؛ فهو لا يضيق ذرعاً براغب في الشفاعة يوم الحساب ، يلحُ عليه في الطلب، والسؤال عن موعد اللقاء في عرصات القيامة ، ويكون الحوض ثالث ثلاثة من المواطن التي حدّدها صلوات الله وسلامه عليه، مكاناً لهذا اللقاء ، كي يحقق للسائل طلبته في أن يفوز بشفاعته ﷺ ، ويسلكه الله في زمرة من يخلدون في الجنة دار المتقين ، وهو الرحيم المتفضل سبحانه .

ودليل ذلك ما جاء في رواية لأحمد والترمذي ، أوردتها في مناسبة أخرى، أن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، سأل النبي ﷺ الشفاعة وكان من جواب الرسول الكريم: أنه فاعل إن شاء الله . ويصرُّ أنس على معرفة المكان الذي يطلب فيه الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، كي يطمئن قلبه ، ويستريح إلى أنه من أهل الشفاعة بإذن الله، يدعوه إلى ذلك أدبه مع الله وخشيته بالغيب ، وصدق محبته لنبيه صلى وسلم وبارك عليه .

ولما استجاب ﷺ لطلبه قال له : يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، وخشي أنس أن لا يقسم له لقاء ، فقال : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : «فاطلبني عند الميزان . وكذلك احتاط رضي الله عنه للأمر بعد الثانية فقال : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ عندها قال صاحب الحوض المورود عليه الصلاة والسلام : « فاطلبني عند الحوض المورود ؛ فإني لا أخطىء هذه الثلاث مواطن ». أرأيت إلى خلق الرأفة والرحمة الذي وصف الله به نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، كيف تجلّى واضحاً مشرقاً غاية الإشراق في هذه الواقعة التي سوف تقع في يوم يشيب لهوله الوليد ؟

وفي حديث موصول بما سبق ، نذكر ما أخرج أبوبكر البزار بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرط بين أيديكم ، فإن لم تجدوني فإني على الحوض ، وسيأتي أقوام رجال ونساء ، ثم لا يذوقون منه شيئاً ».

هذا وسؤال أنس بن مالك رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة يوم القيامة، دعا العلماء للتساؤل عن هذه الشفاعة ، فقالوا : المقصود بالشفاعة التي سألها أنس كما جاء النص: الشفاعة الخاصة من بين هذه الأمة ، دون الشفاعة العامة . وتبياناً لقوله : قلت يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال الطيبي رحمه الله : أي في أي موطن من المواطن التي أحتاج لشفاعتك أطلبك لتخلصني من تلك الورطة ؟ فأجاب ﷺ : «عند الصراط ،وعند الميزان ، وعند الحوض » أي أفقر الأوقات إلى شفاعتي: هذه المواطن .

وقد يبدو شيء من التعارض الظاهري بين ما يتقرر في هذا الحديث، وبين الذي مر بنا من قبل ، من حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه أبوداود: فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال ﷺ: « أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً،عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل؟،وعند الكتاب حين يقال: هاؤم اقرؤوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » قال الطيبي : جوابه لعائشة بذلك ، لئلا تتكل على كونها حرمَ رسول الله ﷺ ، وجوابه لأنس ، كيلا ييأس.

واتجه بعض العلماء في التوفيق بين الحديثين اتجاهاً آخر : فقد نقل صاحب تحفة الأحوذي عن القاري قوله : فيه أنه خادم رسول الله ﷺ ، فهو محل الاتكال أيضاً ، مع أن اليأس غير ملائم له أيضاً. فالأوجه أن يقال : إن الحديث الأول محمول على الغائبين ، فلا أحد يذكر أحداً من أهله الغُيَّب، والحديث الثاني محمول على من حضره من أمته . وهكذا بيّن النبي عليه الصلاة والسلام لأنس

رضي الله عنه ، ومن وراء ذلك للأمة ، أنه لا يتجاوز هذه المواطن الثلاثة في ذلك اليوم العصيب الزاخر بالمشاهد المؤذنة بالمصير ، ولا أحد يفقده فيهن جميعاً ، فلابد أن يلقاه في موضع منهن .

وتحسن الإشارة بعد هذا : إلى أن الحديث يدل على أن الحوض بعد الصراط ، وإلى ذلك أشار الإمام البخاري في صحيحه ، حيث أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وإيراد البخاري لأحاديث الحوض ، بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط : إشارةً منه إلى أن الورود على الحوض ، يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه، وأَيَّدَ ذلك بالحديث الذي نحن بصدده .

ثم ذكر الحافظ ، أنه قد استشكل كون الحوض بعد الصراط ، بما ورد ـ كما سيأتي ـ من أن جماعة يُدفعون عن الحوض، بعد أن يكادوا يردون ، ويُذهب بهم إلى النار . ووجه الإشكال: أن الذي يمر على الصراط، إلى أن يصل إلى الحوض، يكون قد نجا من النار ، فكيف يُرد إليها ؟ قال رحمه الله : ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض ، بحيث يرونه ويرون النار ، فيدعون إلى النار ، قبل أن يخلصوا من بقية الصراط . وذهب أبو عبدالله القرطبي في كتابه « التذكرة في أحوال الموت وأمور الآخرة » إلى أن الصحيح ـ كما يرى ـ أن للنبي ﷺ حوضين؛ أحدُهما في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخلَ الجنة ، وكل منهما يسمى كوثراً ، ولم يرتض الحافظ ذلك ،لأن الكوثر نهر داخل الجنة ـ كما تدل النصوص ـ وماؤه يصب في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يُمَدُّ منه .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عمر بن عبدالعزيز.. وورودُ الحوض

كلما أنعم المؤمن النظر فيما يكون يوم القيامة من مشاهد وأهوال ، وما يطلع على الناس، من المكرمات العظام لنبينا محمد ﷺ ، ومنها الحوض المورود، وإكرام الأمة المحمدية بوروده والشرب منه، إلا من أثقلته المعوقات ، أو دُفع عنه بسبب مخالفته عن أمر الله ورسوله .. كلما أمعن المؤمن النظر في هذا ، ازداد إيماناً بضرورة التصديق الذي لا تشوبه شائبة ، بأن ما أخبر عنه الرسول ﷺ واقعٌ لا محالة ، وأن على المؤمن ــ في هذه الدار ـ وهي مزرعة الآخرة ــ أن يبذل قصارى جهده على طريق العمل الصالح والتقوى ، كي يكون يوم القيامة من الفائزين، ويحظى بكرامة الورود على ذلك الحوض الذي صحَّ من صفاته العظيمة، ما صحّ عن النبي ﷺ .

وقد سلف القول فيما كان من اختلاف العلماء، في أن الحوض ؛ هل هو قبل الصراط ، أو بعده ،وما رجحه الحافظ وكثير من العلماء، أنه بعد الصراط ، غير أن الأهم في الموضوع ، ما ذكرت من ضرورة الإيمان به ، والعمل على أن يكون المسلم من أهل وروده إن شاء الله .

من أجل هذا : كانت النقمة الشديدة بعد ثبوت النصوص التي بلغت مبلغ التواتر ـ كما يرى المحققون ـ على من يبدو منه شيء من التشكك في أمر الحوض ووروده ؛ فقد سمع أنس رضي الله عنه قوماً يتذاكرون الحوض ، فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتحاورون في الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ .

قال القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » : وفي حوضه يقول الشاعر :

ياصاحب الحوض من يدانيكا   وأنت حقاً حبيب باريكا

وجميع ما قيـل بعد ذلك في تفسيره ـ يعني الحوض ـ قـد أعطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه صلى الله عليه أزكى صلاة وسلَّم تسليماً كثيراً .

ولكم كان أهل الخشية والإيمان بـالغيب، إيمانَهم بعالم الشهادة ، يخافون على أنفسهم، أن لا يكون لهم حظ الـورود الذي هو من أعظم ما يكـرم به المؤمنون يوم الدين . ذلك لأن الكيِّس ـ كما قال عليـه الصلاة والسلام ـ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجـز من أتبع نفسه هـواها وتمنى على الله الأماني . قـال بعض العلماء عند الكلام على قول الرسولﷺ :« إن لكل نبـي حوضاً يُباهون أيُهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة » : فهذا رجاء رسول الله ﷺ ؛ فليرج كل عبد أن يكون في جملـة الواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ، ومغتراً ، وهـو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد: من بث البذر ، ونقى الأرض وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بـالإنبات ، ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد . أمـا من ترك الحراثة والزراعـة وتنقية الأرض وسقيهـا: وأخذ يـرجو مـن فضل الله ، أن ينبـت له الحب والفاكهـة ، فهذا مغتر ومتمـن ، وليس مـن الراجين في شيء ، وهكـذا رجاء أكثـر الخلق، وهو غرور الحمقـى نعوذ بالله من الغرور والغفلة ، فـإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيـا ، قال الله تعالى : ﴿ فلا تغرنكـم الحياة الدنيا ولا يغـرنكم بالله الغرور ﴾.

وهذا يقودنا إلى مثل رائع من أمثلـة الإيمان العميق، بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الحوض ، والحرص على السلوك الموصـل بعون الله، إلى الفوز بمكرمـة الورود عليه، والشرب منه ، مع صدق الإنابة والتحسر على التقصير .. ذلكم هو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه .

قال الإمام الترمذي : حدثنا محمد بن اسماعيـل قال: حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا محمد بن المهاجر عن العباس عن أبي سلام الحبشي قال : بعث إليّ عمر بن عبدالعـزيز ، فحملت على البريد قـال : فلما دخلت عليه قلـت : يا أمير المؤمنين

لقد شق علي مركبي البريد ، قال يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك ، ولكن بلغني عنك حديث تحدثه عن ثوبان عن النبي ﷺ في الحوض ، فأحببت أن تشافهني به، قال أبو سلام : حدثني ثوبان عن النبي ﷺ قال : حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكاويبه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السُّدَد » قال عمر : « لكني نكحت المتنعمات ، وفتح لي السُّدَد ، ونكحت فاطمة بنت عبدالملك ، لا جرم أني لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد رُوي هذا الحديث عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي ﷺ ، وأبو سلام الحبشي اسمه ممطور وهو شاميّ ثقة .

ثم إن الذي فعله عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، لا يعدو أن يكون العدول عما هو تجاوز للحد المطلوب في النظافة والتنظيف ، مما يعد تنعُّماً وترفاً ، وليس النظافةَ المطلوب شرعاً أن يكون عليها المؤمن ؛ وإذا لوحظ ما كان عمر أجزل الله مثوبته من الترف ، قبل أن يلي الخلافة ، ازداد الأمر وضوحاً فيما عناه ، جزاه الله عن الأمة كل خير .

من كذب به.. لا سقاه الله منه

ما من ريب في أن المؤمن المصدق بما جاء عن رسول الله ﷺ من الغيب، كالذي أوردت من أحاديث الحوض فيما سبق، يكون في نعمة غامرة من الطمأنينة واستنارة القلب وراحة النفس في الدنيا، كما يكون له ـ إذا مات على ما ذاق من حلاوة ذلك الإيمان ـ الحظ الأوفى في الآخرة إن شاء الله ؛ وما ظنك بأولئك الذين يمشي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ويردون على الحوض يشربون منه، حيث رسول الله ﷺ فرطهم عليه!! أما أولئك الذي يغشاهم من الشك ما يغشاهم: فلا تسل عما يساورهم من القلق النفسي، والتوهم المضني ،والحيرة القاتلة ؛ فهم على حال ينهش قلوبهم فيها الاضطراب ، ولا يفتؤون يصطلون بنار الخواء الروحي. وما أسوأ أن يهمل المرء عقله، ويتجاوز الدليل الناصع والحجة القاطعة، إلى حيث سلطانُ الهوى والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، فهنالك الخسران المبين في الدنيا ويوم الدين .

أخرج أبو داود بسنده إلى أبي طالوت عبدالسلام بن أبي حازم قال: « شهدت أبا برزة رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد، فحدثني فلان، سماه مسلم، يعني ابن إبراهيم، وكان في السِّماط ، فلما رآه عبيد الله قال : إن محمديكم هذا الدحداح ـ يعني القصير ـ ؟ ففهمها الشيخ فقال : ما كنت أحسب أني أبقى في قوم يعيرونني بصحبة محمد ﷺ ، فقال له عبيد الله : إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين، ثم قال : إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئاً ؟ قال أبو برزة : نعم ، لا مرة، ولا اثنتين، ولا ثلاثاً ، ولا أربعاً ، ولا خمساً ، فمن كذَّب به فلا سقاه الله منه، ثم خرج مغضباً ».

السِّماط : الصفُّ من الناس .

وأورد الحافظ عبدالرزاق الصنعاني هذه الواقعة في المصنف، برواية فيها طول، وذلك عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : (شك عبيد الله بن زياد في الحوض، الذي يُذكر ـ وكانت فيه حرورية ـ ميل إلى الفرقة من الخوارج ، فقال : أرأيتم الحوض، ما أراه شيئاً ، فقال له ناس من صحابته : فإن عندك رهطاً من أصحاب النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فاسألهم . فأرسل إلى رجل من مزينة ، فسأله عن الحوض، فحدثه، ثم قال : أرسل إلى أبي برزة الأسلمي، فأتاه وعليه ثوبا حَبِرَةٍ، قد ائتزر بواحد وارتدى بالآخر، قال راوي الخبر : وكان رجلاً لحيماً إلى القصر فلما رآه عبيد الله ضحك ثم قال : إن محمديكم هذا الدحداح ؟ قال : ففهمها الشيخ فقال : واعجباه ، ألا أُراني في قوم يعدُّون صحابة محمد ﷺ عاراً !! قال : فقال له جلساء عبيد الله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض؛ هل سمعت رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يذكره ، فمن كذب به فلاسقاه الله منه . قال : ثم نفض رداءه وانصرف غضبان. فأرسل عبيد الله إلى زيد بن الأرقم ، فسأله عن الحوض ، فحدثه حديثاً مونَقاً أعجبه ، فقال : إنما سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ... ولكن حدثنيه أخي . قال: فلا حاجة لنا في حديث أخيك) .

ويبدو أن الحديث الذي نفى زيد أن يكون سمعه من رسول الله ﷺ ، هذا الحديث.. وإلا فقد حدث هو بأحاديث عديدة عن الحوض ، فقال أبوسبرة ـ رجل من صحابة عبيد الله ـ: فإن أباك حين انطلق وافداً إلى معاوية رضي الله عنه، انطلقت معه، فلقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فحدثني من فيه إلى فِيَّ حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ ، فأملاه عليَّ وكتبته ، قال : فإني أقسمت عليك لما أعرقْتَ هذا البرذون ،حتى تأتيني بالكتاب ، قال : فركبت البرذون، فركضته حتى عرق، فأتيته بالكتاب ، فإذا فيه: (هذا ما حدثني عبدالله بن عمرو ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « « إن الله يبغض الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ ، والذي نفس محمد بيده، لاتقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء

الجوار ، وقطيعة الأرحام ، وحتى يُخوَّن الأمين ويؤتمن الخائن ، والذي نفس محمد بيده، إن أسلم المسلمين ،لمن سلم المسلمون من لسانه ويده ، وإن أفضل الهجرة، لمن هجر مانهاه الله عنه ، والذي نفسي بيده ، إن مثل المؤمن كمثل القطعة من الذهب، نفخ عليها صاحبها، فلم تتغير ولم تنقص ، والذي نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة، أكلت طيباً ووضعت طيباً ، ووقعت فلم تكسر ، ولم تفسد ، ألا وإن لي حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين أيلة إلى مكة ، أو قال : صنعاء إلى المدينة، وإن فيه من الأباريق مثل الكواكب ، هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل؛ من شرب منه ،لم يظمأ بعدها أبداً » قال أبو سبرة : فأخذ عبيد الله الكتاب، فجزعت عليه ، فلقيت يحيى بن يعمر ، فشكوت ذلك إليه . فقال : والله لأنا أحفظ له مني لسورة من القرآن ، فحدثني به كما كان في الكتاب سواء).

هذا ، وقد سبقت الإشارة فيما مضى إلى أن كثيراً من المحققين يرون بالدليل، أن أحاديث الحوض، بلغت مبلغ التواتر، فالسعيد السعيد : من استمسك بما جاء عن الله ، وعن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، ولم يصرفه صارف عن مقتضى التصديق الجازم، ثم راح يعمل بعمل المخبتين المقربين، الذين لا تلهيهم الدنيا بمتاعها وزخرفها عن الآخرة، الآخرة التي هي دار البقاء، وفيها من إكرام الله لنبيه ﷺ ، ولمن آمن به وصدق بما جاء به ، مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ وكما أن الحوض مكرمة تفضل الله بها على نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فورود ذلك الحوض ، من فضل الله على الأمة المحمدية ، وهنيئاً للصادقين صدقهم ، يردون ذلك الحوض ، ويشربون منه ، فلا يظمؤون بعد ذلك أبداً .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ـ الذي استودع الأمة أمانة الإيمان بالغيب والعمل بما يقتضيه ذلك الإيمان ـ ، وعلى آله وصحابته الذين لم يغيِّروا ولم يبدِّلوا ، أما المنافقون : فلهم شأن آخر !

ولعل من الخير أن نشير ، إلى أن ما كان من عبدالله بن زياد وميله إلى رأي الخوارج في الحوض، يذكّر ـ وبضدها تتميز الأشياء ـ بما ذكرنا من قريب عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وأرضاه، الذي كان ـ على عظيم عدله وورعه وتقواه ـ يخشى أن لا يكون من الذين يردون الحوض ، وأن يحجزه عن ذلك ، ما حظي به من نعيم الدنيا ، مع أنه كان من أزهد الناس فيها، وهو في سدة الحكم ، بل كان رحمه الله مضرب المثل في ذلك . أما عبيدالله هذا !!ـ وكان والياً على البصرة والكوفة ـ فإلى جانب إساءته البالغة في قتله الحسين رضي الله عنه سبط رسول الله ﷺ ... والمخالفةِ عما يليق من سلوك الوالي مع أصحاب الرسول ﷺ فيما هو ثابت على أكمل وجه من الصحة، صدر عنه ذلك التشكك الجاهل المُهين .. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية» أنه كانت في ابن زياد، جرأة ومبادرة إلى ما لايجوز ، ومالا حاجة به؛ لما ثبت في الحديث الذي رواه أبو يعلى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ «أن عائذ بن عمرو ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ دخل على عبيدالله بن زياد فقال : أي بُني !! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم » فقال له : اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ ، فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم ».

« الحطمة »: هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار ، يلقي بعضها على بعض ويشتد عليها. ضرَبه ﷺ مثلاً لوالي السوء ، ويقال أيضاً : «حُطم» بلاهاء . نخالة : يعني أن عائذاً ليس من فضلاء الصحابة وعلمائهم . وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه .

قال ابن كثير : وروى غير واحد عن الحسن أن عبيدالله بن زياد ، دخل على معقل بن يسار يعوده . فقال له : إني محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من رجل استرعاه الله رعية، يموت يوم يموت ، وهو غاش رعيته، إلا حرم الله عليه الجنة ».

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ اللهم لا تضلنـا بعد الهدى ، واحفظنا من نـزغات الشياطين والهوى، وأوردنـا يوم القيامة حوض نبيك المصطفى عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم . والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...

في مستهل هذه الكلمات الموصولة بالحديث عن مكرمة الحوض التي أعطيها النبي عليه الصلاة والسلام ، أود أن أدعو بما دعا به بعض علمائنا يرحمهم الله حين قال: اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة ، خصّ الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله في الدنيا علمه ، وفي الآخرة ذوقه ؛ فإن من صفاته: أن من شرب منه لم يظمأ أبداً .

والواقع أن من التوفيق ، أن يدعو المؤمن ربه مخلصاً، بأن يرزقه الله في الدنيا إيماناً ، يثمر العلم بتلك المغيَّبات التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ ومن عيونها : الحوض المورود ـ وأن يرزقه كذلك، وورود هذا الحوض والشربَ منه يوم الجزاء ،فإنه لا يحرم ذلك إلا محروم ، وقد دعا بعض أصحاب النبي ﷺ ـ كما أسلفنا ـ على من كذَّب به أن لا يسقيه الله عز وجل منه.

ومن البداهة بمكان ، وجوب أن يكون المؤمن شديد الخوف من مثل هذا ، حريصاً الحرص كلَّه ، على تجنب ما يورث الوقوع فيه أو فيما يوصل إليه . جاء في مسند أحمد قول عبدالله ابنه : حدثني أبي قال: حدثنا عبدالرزاق قال: أنبأنا معمر عن مطر عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : « شك عبيدالله بن زياد في الحوض ، فأرسل إلى أبي برزة الأسلمي، فأتاه ، فقال له جلساء عُبيدالله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض ، فهل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ؟ قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يذكره ، فمن كذب به فلا سقاه الله منه » وقد مرّ بنا ـ من قريب ـ ما روى أبوداود في السنن وعبدالرزاق في المصنف من أن عبيدالله بن زياد، كان منه موقف الإنكار للحوض ، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنه قد رجع عن ذلك والله أعلم بحقيقة الحال . قال الحافظ : وعند أحمد من طريق

عبدالله بـن بريـدة عن أبي سبرة الهذلي قال : «قـال عبيدالله بـن زياد : مـا أصدِّق بالحوض ، وذلك بعد أن حدثه أبوبرزة والبراء ، وعائذ بن عمرو ؛ فقال له أبوسبرة: بعثني أبوك في مال إلى معـاوية ، فلقيني عبدالله بن عمرٍو فحـدثني، وكتبته بيدي من فيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مـوعدكم حوضي ..» الحديث . فقال ابن زياد حينئذ: أشهد أن الحوض حق ». ويبدو أن الصحابة الذين حدثوا هذا الوالي عن الحوض كان يسوءهم ما يرون منه في شأن التصديق ، وليس هذا غريباً ، فهم على اليقين الذي لا يتزعزع مـن التصديق بذلك ، ويرون منـه ما يرون !! روى أبو يعلى الموصليُّ من طريق سليمان بن المغيرة عن ثـابت عن أنس رضي الله عنه قال: «دخلت على ابـن زياد ــ وهم يذكـرون الحوض ـ فقال : هـذا أنس فقلـت : لقد كانت عجائز بـا لمدينة كثيراً ما يسألن ربهن أن يسقيهن مـن حوض نبيهن ». قال الحافظ: وسنده صحيح .

والحق أنه فيما وراء التصـديق ـ وقـد تواترت أحـاديث الحوض ـ فـإن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ـ لم يدع أن يرغب في كل ما ينتهي با لمسلـم إلى ورود الحوض، ويرهّب مما يمكن أن يجعله من المحرومين مـن ورده حفظنا الله من ذلك ؛ فـا لمؤمنون المستقيمون على طـاعة الله الذين يقومون بعبادته جل وعلا حـق القيام ـ وفي مقدمة ذلك الصلاة بشرائطها وأركانها وواجباتها وسننها والخشـوع فيها ، وكل ما يتعلق بها من الطهـارة الظاهرة والطهارة البـاطنة ــ. هـؤلاء المؤمنون المتقون يعـرفهم النبي ﷺ حين يـردون عليه الحوض، غراً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيرهم، ونعمت الكرامة هذه، ونعم عطاء الكريـم هذا . أخرج ابن ماجة بسنده عن ربعـي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ، والذي نفسي بيده لآنيتُه أكثر من عدد النجوم ، ولهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل، والـذي نفسي بيده إني لأذود عنـه الـرجال كما يـذود الـرجل الإبـل الغـريبة عـن حوضه. قيـل : يارسول الله أتعرفنـا ؟ قال : نعم تردون عليَّ غُـراً محجلين من أثر

الوضوء ،ليست لأحد غيركم » وأخرج بسنده أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه أتى المقبرة فسلّم على المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون . ثم قال: « لوددنا أنا رأينا إخواننا» قالوا : يارسول الله أو لسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي . وإخواني الذين يأتون من بعدي ، وأنا فَرَطُكم على الحوض . قالوا : يارسول الله ، كيف تعرف من لم يأت من أمتك ؟ قال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجلة بين ظهراني خيل دُهْمٍ بُهْمٍ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجَّلين من أثر الوضوء ، قال : أنا فرطكم على الحوض ...» الحديث .

ولا يدع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أن يرغب في كل ما من شأنه النجاة يوم القيامة ، وورود الحوض ، ويرهّب من كل ما هو عكس ذلك . ها هو ذا ترغيبه ﷺ في استقامة السلوك ، وتحكيم ضوابط الإسلام في كل ما يأخذ المسلم أو يذر ، في علاقته بالآخرين ، مهما علت منازلهم في هذه الدار أو دنت. فمن اقتحم العقبة ، وحكَّم في كل شأن من شؤونه معايير الكتاب والسنة ، فهو القريب من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض ، ومن خالف عن أمر الله ورسوله ، واتبع هواه في معاونة الظالمين ، ومظاهرة أهل الباطل، وتصديقهم بكذبهم ، وحيفهم على أهل الحق ، فليس من الرسول ﷺ في شيء ، وليس الرسول ﷺ منه في شيء ، ولا يرد عليه الحوض . قال الحافظ أبوبكر عمرو ابن عاصم الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين في كتاب « السنة» : حدثنا أبوبكر قال : حدثنا الفضل بن دكين عن سفيان عن أبي حصين عن عاصم العدويّ عن كعب بن عجرة قال : قال : رسول الله ﷺ : « إنه سيكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم ، فصدَّقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه ، وليس يرد عليّ الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه ، وهو وارد عليّ الحوض ». ثم أورده من طريق أخرى من رواية الشعبي قال: حدثني العدوي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ مثله.

وإذا كـان الأمر كـذلك : فـالواجـب أن يبادر المسلـم إلى عمل مـا رغّب بـه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام ، واجتناب ما نهى عنه، وحذَّر من الوقوع في حمأته ، كيما يبرهن على محبته له عليه الصـلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض، وتلكم هي السعـادة الحقيقية ؛ أما طاعـة الشيطان والهوى ، وممالأة الظالمين وتصـديقهم بكذبهم : فتلكم قاصمة الظهر ، وبريد الخسران يوم العرض على الله ، وعدمُ ورود الحوض على الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه .

ألا إنه البـلاغ المبين من سيد الخلـق ﷺ، والعاقل مـن استمع القول فـاتبع أحسنه ، ولم يدع أن يسلك في عاجلته الطريق المأمونة التي تنتهي به ـ بفضل الله ـ أن يكون في الآجلة من أولئك الذين يعرفهم رسول الله ﷺ بسيماهم ، ويردون عليه الحوض . ولله عاقبة الأمور .

السمة التـي أوضح النبـي ﷺ ، أنه يعْـرف أبناء الأمـة بها، وهم يـردون عليه الحوض، ألا وهـي أنهم يردون غـرّاً محجلين مـن آثار الـوضـوء ، وهي لهم وليسـت لأحدغيرهم.. هذه السمة المباركة التي كشف عنها الهدي النبوي، يحمل ذكرُها ما يحمل من الترغيب في سلوك السبيل التي تجعل المسلم ـ كما سلف من قبل ـ من أهل الورود على الحوض ، والحظوة بالشرب منه ، ولا تسل عن السعادة الغامرة في ذلك ، حيث يحصل هذا والرسول ﷺ هناك ، لما أنه فرط الأمة على الحوض .

وليـس مـن مكـرور القـول ، التذكير بحقيقـة أن المصطفـى عليـه الصـلاة والسلام، لم يدع ـ وهو إمام الهداة وسيد الرحماء ـ أن يرغِّب أبداً في كل ما هو خير في الدنيا والآخـرة ، وأن يحذر من كل ما هو شر كـذلك . وكان من مظـاهر تلكم الهداية النبوية ، أنه فتح للأمة طريق الرغَب بالدلالة على ما يضمن ـ بتوفيق الله ـ الورود على الحوض والشرب منه ، كما آذن بشتى أساليـب التذكير ، بالوعيد على ما يكون سبباً في الحيلولة دون المسلم ، ودون أن يَسْعد بالورود والشرب ، وهذا من الأسلوب العملي الموفق غـايه التوفيق، في تـربية النبي ﷺ وهديـه ، فهو يدل على الغاية العظيمة، ويرسم طريقها ، مرغباً مبشراً ، ويحذِّر من الداهية المنكرة، ويشير إلى ما هو سبيلها ، متوعِّداً منذراً.

من أجل هذا، كان لابد من متابعـة الرحلة مع تلكم النصوص، التي تجلّت فيها عظمـة الهدي النبوي ، والحكمةُ الـرائعة في تـوجيهه عليه الصـلاة والسلام ، وكريمِ يده الصّنـاع ، التي اتخذت من التذكير بالآخرة ، والترغيـب فيما يكون من تكرمة الله لعباده المؤمنين هناك ـ ومن ذلك ورود حوضه صلوات الله وسلامه عليه الذي أكرمـه الله به وأعطاه الكوثر يَمُـدُّه من الجنة ـ اتخذت من ذلـك وسيلة، هي من أنجـع الوسـائل في إعطاء العمـل الأخروي حقـه، في هذه الحيـاة، بعيداً عـن

الغفلة والنسيان ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن سعد بن طارق عن ربيع بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه. قالوا : يارسول الله وتعرفنا ؟ قال : نعم ، تردون عليَّ غراً محجّلين من آثار الوضوء ليست لأحد غيركم ».

والملاحظ هنا : أن الوضوء الذي هو مفتاح الصلاة ـ وهي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تكون آثاره نوراً على مواضعه في جبهة المؤمن وغيرها يوم القيامة ؛ وبهذا النور ، يعرف محمد ﷺ أمته .

قال أهل اللغة : الغرة بياض في جبهة الفرس ، والتحجيل بياض في يديها ورجليها ، ومن هنا قال العلماء: سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة : غرة وتحجيلاً ، تشبيهاً بغرةالفرس والله أعلم . فالمسلمون الذين عُنوا بتلكم الفريضة العظيمة المباركة وإسباغ الوضوء لها ـ كما ينبغي ـ يردون على النبي ﷺ وهو على الحوض ، غراً محجلين ، يسطع النور من وجوههم ومن بقية المواضع من آثار الوضوء . أجل يردون على النبي ﷺ ـ وهو فرط الأمة عليه ـ يتقدمهم ليرتاد لهم ويهيء لهم، ما يحتاجون إليه مما يضمن سلامة الورود والشرب.

وفي هذا الحديث وأمثاله ـ كما يقول الإمام النووي ـ بشارة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً ، فهنيئاً لمن كان رسول الله ﷺ فرطه .

وأنت واجد عند الصحابة رضي الله عنهم ـ دائماً ـ ما يدل على حسن الامتثال لما وجه إليه، ونبّه عليه رحمة العالمين عليه الصلاة والسلام ؛ وذلك ما نجده عند أبي هريرة رضي الله عنه هنا في هذه المسألة، حيث يحرص الحرص كلّه على ما فيه الأجر ، وأن يكون من وراد الحوض يوم الدين . وهذا وأمثاله في جيل الصحابة ـ الذين هم القدوة بعد رسول الله ـ كثير كثير . روى الإمام النسائي في السنن الصغرى « المجتبى» بسنده عن أبي حازم قال : كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ

للصلاة ، وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه ، فقلت: ياأباهريرة ما هذا الوضوء؟ فقال لي: يابني فرّوخ أنتم ههنا ! لو علمت أنكـم ههنا ما توضأت هذا الوضوء ـ أي خاف مـن ظنهم بـه تغيير أمر مشروع ـ سمعـت خليلي يقول :« تبلـغ حلية المؤمن حيث يبلغ الـوضوء » ثم قال النسائي : أخبرنا قتيبة عن مـالك عن العلاء ابن عبدالـرحمن عن أبيه عن أبي هريرة « أن رسـول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: السـلام عليكم دار قـوم مؤمنين ، وإنـا إن شاء الله بكـم لاحقون ، وددت أني قـد رأيت إخـواننا ، قـالوا : يـارسول الله ألسنـا إخوانـك قال : بـل أنتم أصحـابي، وإخواني الـذين لم يأتـوا بَعْدُ وأنا فـرطهم على الحوض ، قـالوا : يارسـول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيـت لو كان لرجل خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ في خيل بُهْم دُهم ألا يعـرف خيله ؟ قالوا : بلى ، قال : فـإنهم يأتون يوم القيـامة غُراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض».

قـال علماؤنـا في معنى « وددت أني قـد رأيـت إخـوانـنـا » أو «أنا قـد رأيـنـا إخواننا» كما في رواية مسلـم: أي رأيناهم في الحياة الدنيا. قـال القاضي عياض: وقيل: المراد تمني لقـائهم بعد الموت . وقال الإمـام الباجي : قولـه ﷺ : « بل أنتم أصحابي » ليـس نفياً لأخـوتهم ، ولكن ذكرَ مـرتبتهم الـزائدة بالصحبـة ، فهؤلاء إخـوة صحابـة ، والذيـن لم يأتـوا، إخوةٌ ليسـوا بصحابـة، كما قال تعـالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

وتظل لهؤلاء الذيـن جاءوا من بعده ـ ويلقاهم عليه الصـلاة والسلام ،غراً محجلين، مستنيرة مواضع الوضوء فيهم، وهو على الحوض يرتاد للأمة ـ تظل لهم هذه المكانة ، وفي ذلـك ما فيه من الترغيب بالأعمال التي توصـل ـ بإذن الله ـ إلى تلك الثمرة المباركة الطيبة .

أما منزلـة الصحبة : فرزق ميمون لا يجارى ولا يبارى ، فمـن لقى النبي ﷺ مؤمناً ، ورآه ، ولـو مرة في عمره ، وحصلت له مـزية الصحبة: أفضل مـن كل من

يأتي بعـد؛ فإن فضيلة الصحبـة ـ من حيث هـي ـ لا يعدلها عمـل . قال العلماء : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . قـال القاضي عياض : واحتجوا بقوله ﷺ : « لو أنفق أحـدكم مثـل أحد ذهبـاً ما بلغ مُـدَّ أحدهـم ولا نصيفه » ، وهـذا لايمنع مضاعفـة الأجر للآحقين حين يبلغون مـن الإحسان أن يضاعـف لهم الأجر ؛ لأن الصحابة كانوا يجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون .

هذا : والدُّهم في قوله ﷺ: « في خيل دُهم بُهم ، أو بُهم دُهم» ـ كما في بعض الروايات ــ جمع أدهم وهو الأسود ، والدهُمة : السواد ، والبُهـم : جمع بهيم وهو في الأصل : الذي لا يخالط لونه لون سواه .

أما بعد : فكم يحسن المؤمن إلى نفسه في الدنيا ويوم الحساب ، إذا هو استقام على أمر الله هنا ،لأن في ذلك ضمان حسن العاقبة ـ بإذن الله ـ من نيل الشفاعة ، وورود الحوض ، نـاهيك عـن الـرضى والطمـأنينة النفسيـة في هـذه الدار ،ومـا أحـوجنا في هـذا العصر الـذي اضطربـت فيه المعـايير ، واشتـد القلق ، وكثـرت الأمراض النفسية ... ما أحوجنا إلى تلك الطمـأنينة التي تدفع هذه المساوىء في الأجسام والنفوس : فهل نحن فاعلون ؟

السيماء.. والبشارة والنذارة

هذه متابعة لرحلة، اقتضاها الكلام على الحوض وأهمية وروده يوم القيامة، حيث الظمأ الذي يكاد يقتل الناس؛ وهي رحلة مع نصوص من الهدي المحمدي، تكشف عما خصت به الأمة المسلمة من السيماء، التي يعرفها النبي ﷺ بها وهو يتقدمها على الحوض - يهيء لها أمر الورود والشرب - تلك أنهم يردون في تلك الحقبة الفاصلة من الزمن، غراً محجلين من آثار الوضوء .. أجل غراً محجلين تشرق وجوههم وجباههم وأطرافهم، بنور الوضوء، في ذلك اليوم الذي يلاقي الناس فيه من الأهوال ما يلاقون، ويتميز المؤمنون عن غيرهم بأنهم - وقد رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، واتخذوا من منهاج الله نبراساً - يتميّزون بما كانوا عليه في الدنيا من الإيمان بالغيب، وبما قدّموا من الأعمال الصالحة التي يقتضيها الدين الخالص، وبما صدقوا مع الله في طاعته وطاعة، رسوله عليه الصلاة والسلام، فتراهم ينالون كرامة الله وفضله، بأن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ويردون الحوض على النبي صلوات الله وسلامه عليه، حيث يكون هو فرطَ الأمة هناك، كما ثبت في الصحيح من الأحاديث.

وفي ظل هذه المتابعة: نذكر ما روى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تردون عليَّ الحوض غُراً محجلين من الوضوء سيماءَ أمتي ليس لأحد غيرها » هذه السيماءُ - العلامة - التي خصت بها الأمة المحمدية، هي - بجانب كونها جديرة بإثارة الهمم والعزائم، من أجل العمل لذلك اليوم الذي تظهر فيه أحقية من يستأهل الورودعلى حوض النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام - تبدو حافزاً عظيماً يحفز على تمام العناية بإقامة الصلاة، وفي مقدمة ذلك: استكمال الطهارة على الوجه الذي ينبغي، وفي ذلك إيذان بوجوب طهارة القلب والخشوع، الخشوع الذي جعله الله في مقدمة الخصال، التي بها يفوز

المؤمنون بالفلاح ، وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ الآيات وهي من سورة المؤمنون . وقد أحسن ابن ماجة حين أخرج الحديث المذكور في كتاب الزهد من سننه، تحت باب عنوانه ـ كما أسلفنا ـ «بابُ صفة أمة محمد ﷺ » وفي «باب ذكر الحوض » من كتاب الزهد أيضاً أخرج بسنده ـ عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن . والذي نفسي بيده لآنيتُه أكثرُ من عدد النجوم ، ولهُو أشدٌّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه ، قيل : يارسول الله أتعرفنا ؟ قال: نعم ، تردون عليَّ غُرّاً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيركم » .

ونجد في الموطأ رواية للإمام مالك تحمل ـ بجانب الكشف عن الخصوصية المذكوره للأمة المحمدية ـ بأن الرسول ﷺ يعرف من يأتي من أمته ـ وقد سبقهم إلى الحوض يرتاد لهم ويهيء ـ بأثر الوضوء لكونهم يأتون غرّاً محجلين من الطهارة المباركة .. تحمل بجانب ذلك نهياً شديداً من المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، عن فعل أي شيء يتسبب في أن يطرد صاحبه عن حوضه عليه الصلاة والسلام « فلا يُذادنَّ أحد عن حوضي كما يذاد ـ أي كما يطرد ـ البعير الضال ؛ فقد أخرج إمام المدينة عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا أن شاء الله بكم لاحقون . وددت أني قد رأيت إخواننا ، فقالوا : يارسول الله : ألسنا إخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي . وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ ، وأنا فَرطهم على الحوض . فقالوا : يارسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال: أرأيتم لو كان لرجل خيلٌ غُرٌّ محجّلةٌ في خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجّلين من الوضوء ، وأنا فَرطهم على الحوض ؛ فلا يُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ...» الحديث. ورواه ابن ماجة وغيره .

فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: وإذا كان الأمر كذلك ـ حيث العناية بالصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين تورث بفضل الله ، هذه الخصوصية ـ فلا يفعلنَّ أحدٌ فعلاً يخالف فيه عن هذا الخير العظيم ، لكيلا يبوءَ بالحرمان من ورد الحوض ،لأن أولئك المحرومين، الذين اجترحوا ما لا يستحقون معه ذلك الورود المبارك، والشربَ الذي لا يُظمَأُ بعده أبداً ـ يطردون عن الحوض كما يطرد البعير الضال ، لأن البعير الضالَّ لا صاحب له فيسقيَه ويعنى به ـ أعاذنا الله جميعاً من ذلك ، ومنَّ علينا بفضله وإحسانه، كيما نسعد بشفاعته ﷺ، وورود حوضه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومما ينبغي أن لا يغفل عنه مسلم ، أن المعرفة المشار إليها ، تشعر بالمزيد من الترقب، وخشية أن لا يكون المرء في عداد أولئك الذين تدركهم العناية ، فيردون الحوض؛ إذ الناس عطاش ، فيشربون منه، فلا يعرف الظمأ بعدها إليهم سبيلاً . ذلك بأن هذه النصوص، التي كشفت عن أن الرسول عليه الصلاة والسلام، يعرف أمته بآثار الوضوء، ينبغي أن تجعل المؤمن في غاية الحذر من التهاون والغفلة؛ لأن المسلم إذا كان من أهل الورود فيا للكرامة والنعمة الفائقة، وإذا كان لا سمح الله ممن أثقلتهم أوزارهم، وعندها يذاد ـ يطرد ـ كما يذاد البعير الضال ؟ فياللخيبة القاتلة ، والخسارة التي لا تعوَّض .

وهذا الذي نومىء إليه من معرفة النبيﷺ أمته ـ وهو فرطها على الحوض يوم القيامة ـ يرى الناظر في نصوص السنة العديد من النصوص التي تقرره وتؤكده، وقد أوردت بعضها فيما سبق . على أن في بعض الروايات ما يوحي بعلاقات أخر ، غير التي ذكرت فيها أوردته . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أمتي أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة ، قالوا : يارسول الله ، من رأيت ومن لم تر ؟ قال : من رأيت ومن لم أر ، غُراً محجّلين من أثر الطُّهور» وله في رواية أخرى عن أبي الدرداء

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلي بين يديَّ ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك . فقال له رجل : يارسول الله، كيف تعرف أمتك بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال : هم غُرٌّ محجَّلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتَوْنَ كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريتُهم » وفي رواية أخرى له « فأعرفهم أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ».

اللهم اهدنا بهداك ، ووفقنا لصالح القول والعمل ، حتى نلقاك راضياً عنا يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى

الإفـاضة في الحديـث عـن يوم التنـاد في الكتاب والسنـة، تـوحي بما ينبغـي للمؤمن أن يكون عليه، من يقظة بالغة ـ وهو يمضي ما كتب له من العمر في هذه الدار ـــ.. ولذا فالحديث عـن هذا اليوم الـذي لا ريب فيه، يوم الفصـل الذي يجمع الله فيه الخلائق للمساءلة والحساب؛ فمنهم شقي وسعيد ... الحديث عن ذلك اليـوم ،وما يزخـر به من مشاهـد البشارة والنذارة: ذكـرى متجددة يهشُّ لها قلـب المؤمـن وَيَبَشُّ، ويستبشر ويخاف .. يستبشر ويفـرح بما أعـد الله لعبـاده الصالحين، مما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين في استدامة وخلود. ويجِلُ قلبه ويخاف من سـوء العاقبـة، وما أعـد الله لأهلِ الضلالـة الغافلين، مـن نار تلظـى وبئس القـرار.

وفي كـلا الحالين: تـرى من رُزق العقـل الأخـرويَّ، يضـاعف مـن العمـل الصالـح، ويحاسب نفسه، ويجدُّ السير إلى الجنـة سلعةِ الله الغـالية ... يجدُّ السير إليهـا على طـريـق أهـل الخشيـة والفـلاح، المنيبين إلى ربهم، الـراجين ثـوابـه، والخائفين عقابه يوم الدين.

ثم إن تلـك الذكرى ـــ والذكرى تنفـع المؤمنين ـ تـرتفع بالمؤمـن، إلى حيث النظرةُ الإيمانية المتبصرة إلى حقيقـة هذه الدار الفانية، وما يجب فيهـا من الصدق مع الله، والغرس الطيب الذي يصلح زاداً للـدار الباقية؛ لما أن العاجلة دار ممر، لا دار مقر، دار عمل يقدم المرء بين يديه، والحصاد هناك ،حيث يوفيه الله حسابه والله سريع الحساب.

وإنها لقضية، تبلغ من الأهمية وتوجيه السلوك، أن تقف المرءَ على اليابسة من أمره، فـلا يكون مـن أولئك الـذين قـال الله فيهم: ﴿ كـلا بل تحبـون العاجلـة.

وتذرون الآخرة ﴾ تقفه كذلك ، وهو لا يفتأ يذكر أن لله سُنَنًا في المثوبة والعقوبة ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فالعاملون للدنيا ـ على غير بصيرة وحسبان للآخرة ـ سُنَّتْ لهم عاقبة يغشاهم ظلامها في جهنم وبئس المهاد . والعاملون للآخرة ـ على نفاذ في البصيرة وإخلاص في الوجهة ـ سنت لهم عاقبة نعمّا هي ؛ مرضاة الله تعالى ، وعطاء إلهي لايُحَدُّ ، من ورود على الحوض ، ونعيم مقيم في دار المقامة والخلود. وشتان بين الطريقين والغايتين ، وهل يستوي السالكون طريق الهداية والنور ، والسالكون طريق العماية والضلال؟! لا يستوون عند الله ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾.

وما من ريب، في أن كلاً من الوعد بحسن العاقبة وكريم العطاء ، ومن الوعيد بالمهانة وسوء المصير ، يقع موقعَه الفاعل المؤثر من عقل المؤمن وقلبه، حين يكون على تزكية لنفسه، وعدم الانقياد لهواه ، فيحمله الوعد الصادق ـ كما لايخفى ـ على أن يأخذ أمر النجاة في الآخرة، على أنه جدٌّ لا هزل فيه ، وأن لا يقصر في محاسبة نفسه، ودينها في تحكيم لشريعة الله ، ومراقبة له عز وجل ، وعمل لما بعد الموت ؛ أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب، ويقض مضاجع الصالحين : فينأى به عن طريق أهل الغفلة الذين نسوا الله واليوم الآخر ، وغرّتهم الحياة الدنيا، وغرّهم بالله الغرور . وتراه يمشي على الأرض ، كأن نار السعير بلهيبها ومن يصلاها ، من الضالين والظالمين، أمام ناظريه ، وكأن العقاب المتوعّد به، أقرب إليه من أمور دنياه، وما يلهيه عن ذكر الله ، وترقب يو م الحساب . وصدق ربنا إذ يقول :﴿فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى ﴾ .

كان لزاماً ، أن أبدأ بهذه الكلمات ، مجتازاً بها إلى ما أريد ، من متابعة الحديث عن واحد من مشاهد القيامة ، لما أن في الجَعبة بعضاً مما تفيض به المصادر

الأصلية من أحاديث نبوية كريمة تُبينُ عن وعد الله ورسوله ، لأولئك الذين يستضيئون بنور التقوى ، ويستقيمون على طاعة الله ، قولاً وعملاً في العقيدة والعبادة والسلوك؛ في تعاملهم مع الله ، وفي تعاملهم مع عباده ، ويصبرون على ذلك، منضبطين بميزان الحق الذي لا يعول، مهما كانت التكاليف والواجبات .

وهذا الوعد الذي ندندن حوله : مثوبةُ الكريم المنان سبحانه في الآخرة ، ومن هذه المثوبة، الورودُ على حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام والشربُ منه، ناهيك عن الفوز بشفاعته صلوات الله وسلامه عليه ، والدخول في زمرة من يكرمهم الله بالجنة التي لا يزول نعيمها ، ولا تنقضي مظاهر الإكرام فيها ، فهي مستَقَرُّ الأبرار ، ودار المتقين .

كما أن في تلك النصوص، ما يحمل الوعيد الشديد، لأولئك الذين يُحدثون ما يُحدثون بعد رسول الله ﷺ ، تغييرا وتبديلاً ، ومخالفةً عن الصراط السوي ، حتى إذا عُرضوا على ربهم، كان من عاقبتهم بما أحدثوا من السوء أى : أنهم يطردون عن الحوض الذي تهفو إلى وروده نفوس المؤمنين، وتتطلع إليه همم عباد الله الصالحين. وعندما يأسى رسول الله ﷺ على هذا الفريق من الناس، الذين دلّته أمارات معينة على أنهم من أمته ـ في الأصل ـ عندما يأسى عليهم، وقد عرفهم بسيماهم ، وهم يذادون عن الحوض ، يقال له : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» .

هذه واقعة ،لا يدع رسول الله عليه الصلاة والسلام، أن يدعو في أعقابها ـ وقد طلب منه ذلك ـ لواحد من الصحابة عليهم الرضوان أن يغفر الله له ويرفع منزلته يوم القيامة . كما لا يدع أن يدعو لأخيه ـ الذي طلب الدعاء ـ بمغفرة ذنبه والدخول يوم القيامة مُدْخلاً كريماً. وفي ذلك ما فيه من الوعد بتلك المثوبة الفائقة ،على ما فعلا رضي الله عنهما ، والرضى عن صنيعهما والترغيب فيه . أخرج الإمام البخاري في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أبي موسى الأشعري

رضي الله عنه قـال : « لما فرغ النبـي ﷺ من حُنين بعـث أبا عـامر على جيـش إلى أوطاس، فلقي دريد بـن الصِّمة ، فقُتل دريد وهزم الله أصحابه . قـال أبوموسى: وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبوعامر في ركبته رماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيـت إليه فقلت : يـاعمِّ من رمـاك ؟ فأشـار إلى أبي موسى فقـال : ذاك قاتلي الذي رمـاني ، فقصدتُ له فلحقته فلما رآني ولّى ، فـاتبعتُه وجعلت أقـول له : ألا تستحْيي ، ألا تثبتُ ! فكـفّ ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتُـه ، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء . قال: ياابن أخي، أقـرىء النبي ﷺ السلام وقـل له : استغفـر لي . واستخلفَني أبوعـامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمَل ، وعليه فراش قد أثر رمـال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامـر وقوله : قل لـه استغفر لي ، فدعـا بماء فتوضأ ، ثـم رفع يديه فقـال: اغفر لعُبيدٍ أبي عامـر ـ ورأيت بياض إبطيه ـ ثـم قال : اللهم اجعله يوم القيـامة فوق كثير من خلقك مـن الناس . فقلت : ولي استغفر ، فقال : اللهـم اغفر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريماً . قال أبوبردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى ».

أوطاس : من النـوادر التي جاءت بلفظ الجمع للواحـد ، وهو وادٍ في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل . وكـانت غزاة أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهـر ، ذلك أنه لما هزم الله المشركين يوم حنين بعـث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعـري وأبا موسى في آثـار من التجأ إلى أوطاس مـن المشركين . ولما قتل أبوعامر ، أخذ اللـواء أبوموسى ثم كان ما دل عليه الحديـث ، وحظي كلٌّ من أبي عامر ـ وهو عم أبي موسى ـ وأبي موسى رضي الله عنهما ـ وقد أبليا البلاء الحسن ـ حظيـا بكريـم العطـاء لهما يوم القيـامـة ، بفضل دعـاء رسـول الله عليه الصـلاة والســلام ، كفاء الجهاد في سبيل الله والإخلاص فيه .

في حديث عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، من تفاعل مع الذي دعت إليه نصوص الكتاب والسنة، من عدم الركون إلى الدنيا ـ وهي دار الفناء الآيلة إلى الزوال ــ والتطلع أبداً إلى ما يثقل الموازين في دار البقاء ، يوم يضع الله الموازين بالقسط ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، ولا يظلم أحد شيئاً ، وأن يكون قلب المؤمن وعقله من الوعد والوعيد بحسبان .. في حديث عن هذه القضية الكبرى ، في حياة من ينشُدون مرضاة الله ورسوله والسعادة في الدنيا ويوم يقوم الحساب ، أوردت ما أخرج الإمام البخاري في باب غزاة أوطاس من كتاب المغازي في الجامع الصحيح من حديث أبي عامر وأبي موسى الأشعريين ، وكيف أن أباعامر رضي الله عنه لم ينس وقد أصيب بسهم أثبته في ركبته جشمي من المشركين، وكان ذلك سبب استشهاده : لم ينس ـ وهو على هذه الحال، من استقبال ما أعد الله للشهداء من الكرامة في دار البقاء ـ : أن يوصي أباموسى بعد أن استخلفه على الناس ـ وهم يطاردون فلول الأعداء في أوطاس ـ أن يرجو رسول الله ﷺ أن يستغفر له .

كل ذلك حرصاً منه رضي الله عنه أن يكون في عداد من تسلم لهم أمور الآخرة، ويحظون بما يكون من تكرمة يوم القيامة لمن أخلصوا دينهم لله ، وعبدوه حق عبادته ، وجاهدوا في سبيله ؛ ومن ذلك ورودهم على الحوض، في وقت يشتد فيه الكرب على الناس ، ويبلغ بهم العطش مبلغه ؛ ويردونه على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه راضية نفوسهم ، شاكرة ألسنتهم وقلوبهم ، فرحين بفضل الله عليهم، أنهم لا يُبعدون عنه ولا يذادون .

ويُنفِذُ أبوموسى رضي الله عنه ما أوصاه به أبوعامر ، وهو يجود بنفسه، ويدعو النبيُّ ﷺ بعد أن رفع يديه إلى السماء ورؤي بياض إبطيه، قائلاً: « اللهم اغفر لعبيدٍ أبي عامر » ولا يكتفي بهذا ، بل يقول بعدها : « اللهم اجعله يوم القيامة

فوق كثير من خلقك من الناس » وهنيئاً لأبي عامر رضي الله عنه ، ما دعا له به سيد العالمين عليه الصلاة والسلام .

وتتحرك خطرات الإيمان في نفس أبي موسى، ويرغب صادقاً ـ وهو على هذه الحال من اللجأ إلى الله من أجل أبي عامر ـ في أن يكون له حظ من دعاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . قال رضي الله عنه فقلت: ولي استغفر . وكان لأبي موسى ما يريد ؛ إذ قال رسول الله وهو الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه: « اللهم اغفر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً ». قال أبوبردة ـ عمر أو الحارث بن أبي موسى ـ إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

وليس بخافٍ ما يدركه المؤمن ببصيرته ، أن كلاً من الصحابيين الجليلين، كان حريصاً على أن يدعو له رسول الله بالمغفرة ، وهما في حال الوفاء ببيعهما الذي بايعا به الله سبحانه ، من بذل الأموال والأنفس في سبيل الله عز وجل ، كيما يسلم لهما ـ بفضل الله ـ جهادهما ، ونصرتهما لدين الله ،والفوز بمنازل المجاهدين يوم الدين .

وعلّم رسول الله أمته، حين دعا للأول ثم للثاني، أن من خير الدعاء للمؤمن، دعاءً يرفع درجاته يوم القيامة ، ويجعله بفضل الكريم المنان ، ممن يدخلهم جل شأنه في دار القرار ، مُدخلاً كريماً ، يصل بهم إلى مستقر رحمته ، الجنةِ التي وعد عباده الصالحين .

ولعل مما يزيد في النفع إن شاء الله ، إيراد رواية الإمام مسلم للحديث الذي نسعد بإشراق هديه من صنيع المصطفى ﷺ وصاحبيه ، ففيها مزيد من الإيضاح، يعين على استجلاء أبعاده ومراميه ، في توجيه المؤمنين إلى الحرص العملي الصادق على التزود في هذه الدار الدنيا ، بما يثقل الموازين في الدار الآخرة ، وينجي من شدائد يوم الحشر ، ومصاعبه العظام . ويا نعم ما يكون ما وراء ذلك من عيشة

راضية، في جنة عالية قطوفها دانية ، يقال لأهلها وقد غمرهم الرضوان فيها : ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. وها هي ذي روايته رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي بردة عن أبيه قال : لما فرغ النبي ﷺ من حنين ، بعث أباعامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصِّمَّة ، فقتل دريد وهزم الله أصحابه ، فقال أبوموسى : وبعثني مع أبي عامر ، قال : فرُمي أبوعامر في ركبته ، رماه رجل من بني جُشَم بسهم ، فأثبته في ركبته ، فانتهيت إليه فقلت : ياعمٌ من رماك ؟ فأشار أبوعامر إلى أبي موسى فقال : إن ذلك قاتلي ، تراه ذلك الذي رماني. قال أبوموسى : فقصدت له - أي لمن رمى أباعامر - فاعتمدته فلحقته . فلما رآني ولّى عني ذاهباً ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحيي ؟ ألست عربياً ؟ ألا تثبت؟ فكفّ ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا أنا وهو ضربتين ، فضربته بالسيف فقتلته ، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت: إن الله قد قتل صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء - أي انصب من موضع السهم - فقال : يابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك أبوعامر : استغفر لي . قال - أي أبوموسى - واستعملني أبوعامر على الناس، ومكث يسيراً ، ثم إنه مات. فلما رجعت إلي النبي ﷺ دخلت عليه - وهو في بيت على سرير مُرمل وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه - فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقلت له : قال : قل له : يستغفر لي . فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر » حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس » فقلت : ولي يارسول الله فاستغفر ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريماً » قال أبوبردة : إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

السرير المرمَل: هو المعمول بالرُمال وهي حبال الحُصر التي تضفر بها الأسرة.

اللهم ارض عن أبي عامر وأبي موسى وعن أصحاب نبيك أجمعين ، بما

جاهدوا وصبروا ، وبما صدقـوا ما عاهدوا الله عليه ، فكان لَهم مـن الخير في الدنيا والآخرة ما كان .

اللهم اغفـر لنا ذنـوبنا ، وأدخلنـا يوم القيـامة مُـدخلاً كـريماً ، واجعلنا ممـن ينتفعـون بسير أولئك المجـاهـدين الصـادقين ، وأوردنا يـوم المعـاد حوض نبيـك المصطفى نشرب منه ، فلا نظمأ بعد ذلك أبداً إنك ولي ذلك والقادر عليه .

أن يصبر المؤمن نفسه على طاعة الله ، ويحرص أشـد الحرص ـ وهو يمضي ما كتب له من العمـر في الدنيا ـ على أن يكون من أهل الإنـابة والخشية ، وأن يكون هجيراه تقـوى الله في السر والعلن ، كيما يحشر ـ بفضـل الله ـ في زمرة المرحـومين الذين لا يخطئهم، أن يلقوا رسول الله ﷺ في عرصـات القيامة ،حيث الهلع الذي يغشى النـاس ، والشدة التي لا ينفـع معها، إلا ما قـدم المرء من صالـح العمل، ويسعدون بما يكرم الله بـه عباده المتقين، من ورود حوض المصطفـى عليه الصلاة والسلام .. أن يصبر المؤمـن نفسه على هذا المسلـك المبارك الميمـون ، وأن يكون النظر إلى الغاية في الآجلة دأبَه وهجيراه ، أمر مبشر مطمئن ، ولايختلف على أهميته في حياة المسلم عاجلاً وآجلاً ، اثنان من أهل البصيرة ، الذين ذاقوا حلاوة الإيمان بالغيب، وعقلوا عن الله وسوله، ما جاء من الأخبار في ذلك ـ ومن هذه الأخبار ما ورد في شأن الحوض ـ حتى كأن ذلك كله مرئي رؤية عين ، لا يخطئه الناظر .

ومن أبجديات المعتقـد على هذه الساحة ، أن طاعة رسـول الله في التصديق بذلك ، والرغبـةَ فيما رغب به والحذرَ مما رغب عنه : من طـاعة الله تعالى ، والمؤمن بحسّه النامي ، ينبغي أن يحسن التعامل مع نصوص كلٍ من الوعد والوعيد .

وهذا الـذي ندير حوله الحديـث ، يدعو إلى التـذكير ، بما ثبت مـن حرص النبي ﷺ على أن لا تخطىء شفـاعته أياً من أفراد أمتـه ، وأن لا يحرم واحد منهم الورود على الحوض ، ولكـن الناس يظلمون أنفسهـم، بمجانبـة الصراط السوي، طاعةً للهوى والشيطان . فقد مر بنا من قريب تحديده صلى الله عليه وسلم لبعض المواطن التي هي مظنة وجوده عليه الصلاة والسـلام يوم القيامة ، فإذا أراد مؤمن أن يلقاه ، فليلقه عند واحـد منها ، ذلكم ما أخبر به أنس بـن مالك رضي الله عنه

أنه سأل رسـول الله ﷺ أن يشفع له يوم القيـامة ، فقال : أنا فـاعل إن شاء الله . يقول أنس : قلت : فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط ، قلت فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبني عنـد الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطـن . وهو حديث أخرجـه الترمذي بـإسناد حسـن ، وليس بعيداً عهـدنا بها ينبىء عن أسـاه عليه الصلاة والسلام ، على أولئـك الذين كانـوا يذادون عن الحوض ، وكان مـن رحمته بأمته وشفقته عليها ، أن سأل عن سبب ما يحصل ، فأجيب بأن هؤلاء ، قد غيّروا وبدّلوا .

وحديث المواطن الثـلاثة ، ينقلنا إلى ما أوردنا فيما سبق ، مـن أن الناس يبلغ بهم الهلع والخوف ، من سوء القرار ، أن لا يذكروا أهليهم في مواطن ثلاثة ـ منها الصراط والميزان ـ حتى يعلـم كلٌّ ما يفعل الله به بعدها ، ذلكـم ما أخرج أبوداود في «السنن» كتاب السنة عن عائشة رضي الله عنهـا قالت : «ذكرت النار فبكيت، فقـال رسول الله ﷺ: مـا يبكيـك ؟ قلت : ذكـرت النار فبكيـت ، فهـل تذكـرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً ؛ عند الميزان حتى يعلـم أيخف ميزانه أم يثقـل ؟ وعند تطاير الصحـف ، حتى يعلم أيـن يقع كتـابه ، في يمينـه أم في شماله ، أم مـن وراء ظهـره ؟ وعند الصراط إذا وضـع بين ظهـري جهنم ، حتـى يجوز » وهـو حديـث حسن . قـال ابـن الأثير في « جامـع الأصـول» : وفي رواية ذكـرها رزيـن: « قالـت : قلـت أوقيل : يـارسول الله هـل تذكرون أهليكـم يوم القيامة ؟ قالـت : أو قيل : فأين نجـدك ؟ قال :لا أخطىء ثلاثة مواطن : عند الميزان ، وعند الصراط ، وعند الحوض ».

ومما ينبغـي التنبيه عليـه ، أن هذا التحديـد المشار إليه ، قـد صحبه نـوع من تخصيص الحوض بالذكـر ، من بعض الوجوه ؛ من ذلك مـا أخرج الترمذي من تقرير ، أن فقراء المهاجرين أول الناس وروداً عليه. وفي كتاب « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخـرة » للإمام القرطبي المتوفى سنـة إحدى وسبعين وستمائة، وقال

أنس بن مالك رضي الله عنه : « أول من يرد الحوض على رسول ﷺ الذابلون الناحلون السائحون الذين إذا جنّهم الليل استقبلوه بالحزن » . وحين كان الرسول ﷺ يتحدث إلى الأنصار في أعقاب قَسم ما أفاء الله على المسلمين في « حُنين» أخبرهم ـ وهو ينظر بنور الله ـ أنهم سيلقون أثرةً ، وأمرهم بالصبر حتى يلقوه على الحوض ؛ وكان ذلك إيذاناً منه صلوات الله وسلامه عليه، بما سيكون لهم من الأجر ، وما سينالون من ورود حوضه عليه الصلاة والسلام ، فخصَّ الحوض بالذكر ، دليلَ الأهمية وعظيمِ كرامة الله بوروده . وأجدر بمن آمنوا بنبيِّهم عليه الصلاة والسلام وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أن يكونوا في مقدمة الورّاد الذين يشربون من مائه المتدفق من الكوثر ، فلا يعرف الظمأ إليهم، بعد أن شربوا سبيلاً.

ولا يخفى أن هذه قضية تتخطى حدود الزمن ، لتغزو العقول والقلوب ، فتشحذَ الهمم، وتوقظ من الركون إلى المعوقات الملهيات عن الطريق الصاعدة، في ملء ساعات العمر وأيامه، بالمجدي من العمل في ضوء ضوابط الإسلام ، لا في ضوء الضوابط الغازية ، التي لا تغني يوم الدين عن صاحبها فتيلاً ، بل ربما كانت عائقاً دونه ، ودون أن يبلغ ما يبلغه حداة ركب الإيمان ، ومَحَبَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام ، العاملون بسنته ، ونصرتِها في كل ميدان .

وهذه عودة إلى النص : أخرج البخاري في كتاب المغازي من « الجامع الصحيح » بسنده عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال : « لما أفاء الله على رسوله يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ؛ فخطبهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : يامعشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي ،وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالةً فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال : كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ .

قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا !! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً ، لسلكت واديَ الأنصار وشعْبَها ، الأنصار شعار، والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» .

وأخرج الخطبة وقصتها الإمام مسلم في صحيحه وغيره ، وختمت الرواية بقوله عليه الصلاة والسلام : « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» . وهذه الكلمات النبوية المشرقة تجمع إلى ما بينت من مكانة الأنصار ، وأمرهم بالصبر على ما سيلقون من أثرة ، ما يكون من إكرام الله لهم، جزاء صبرهم ورضاهم أن يردوا على الحوض ، ويلقوا رسول الله ﷺ عند الورود . ودلالة ذلك على عظيم الإنعام والإكرام بالحوض ، لا تخفى.

وهكذا يسلّي رسول الله ﷺ الأنصار الذين أحبوه الحب العظيم، ولم يألوا جهداً في نصرته ،ولم يبخلوا بأية معاونة لإخوانهم المهاجرين ؛ يسليهم رسول الله ﷺ ـ ومن ورائهم الأمة ـ عما يفوتهم من الدنيا ، بما يحصل لهم ـ بفضل الله ـ من ثواب الآخرة . وعنوان ذلك ، لقياهم رسولَ الله صلوات الله وسلامه عليه على الحوض.. يلقونه وقد سبقهم إخوانهم فقراء المهاجرين بالورود .

وما من ريب في أن المؤمن عندما يقدِّم جانب الآخرة على الدنيا ، يكون في غاية التعقل ، بله الذوق الإيماني ، لأنه بذلك يقدم الباقي على الفاني، والآخرة خير وأبقى . فليصبر المؤمنون الذين يفوتهم شيء من الدنيا على طريق جهادهم ، ونصرتهم للحق وأهله، حتى يلقوا رسول الله ﷺ على الحوض . وأنعم بها من كرامة، وأجزل بها من عطاء ، لقيا صاحب الشفاعة عليه الصلاة والسلام ، ووُرودُ حوضه والشرب منه، يوم المساءلة والحساب .

فاصبروا حتى تلقوني على الحوض

كان فيما أوردت من خطبة النبي ﷺ في الأنصار، بعد قسم غنائم حُنين التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما، تسليته صلوات الله وسلامه عليه من فاته شيء من الدنيا، بما يحصل له من ثواب الآخرة؛ فقد أخبر الأنصارَ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وهذا من دلائل النبوة ـ أنهم سيلقون في قادمات الأيام أَثَرَةً ـ أو أُثْرَةً ـ فَيُسْتَأْثَر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق، ودعاهم إلى الصبر على ذلك، لأن ما عند الله خير وأبقى. وحظهم في الآخرة أعلى وأغلى. وقد خصّ الحوضَ بالذكر عند البيان لهذه الغاية التي ينتهي إليها المؤمن المصدق، لما في ورود الحوض على النبي ﷺ من التكرمة لأهل الإيمان الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يغيروا ولم يبدلوا. ذلكم قوله صلى الله عليه وسلم: «فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

وتحسن الإشارة هنا، إلى أن بعض روايات الحديث الأخر، تحمل شيئاً من التفصيل يكشف عن أن الذين صدر منهم العتْب بعد العطاء الكبير للمؤلفة قلوبهم، وعدمِ إعطاء الأنصار، هم ناس حديثة أسنانُهم وليس غيرهم، كما يكشف عن العلة التي من أجلها، خصّ رسول الله ﷺ أناساً غيرهم بالعطاء، وأن ما عومل به الأنصار، كان متسقاً مع ما رزقوا من سمات الخير، وهو في الوقت نفسه تكرمة لهم، تكشف عما لرسول الله ﷺ من حسن الظن في تقدير الأمور؛ فالناس يذهبون بالشاء والبعير، وهم يذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالهم، كما أن بعض الروايات ـ كما سيأتي ـ تنص على أن القوم بَكَوْا حتى أخضلوا لحاهم، بعد أن سمعوا ما سمعوا من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، البالغ السمو والإشراق في تكرمتهم، وهدايته لهم. أخرج البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ناس من الأنصار ـ

حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن ، فطفق النبي ﷺ يعطي رجالاً المائة من الإبل ـ فقالوا : يغفر الله لرسوله ﷺ ، يعطي قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم!! قال أنس : فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم في قبة من أدم ، ولم يَدْعُ معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟ فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يارسول الله : فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثة أسنانُهم : فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبي ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به ، قالوا : يارسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي ﷺ : ستجدون أَثرة ـ أو أُثرة ـ شديدة حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ ، فإني على الحوض » هكذا يدّخر الله للأنصار في الآخرة ، خير عوض لما صبروا عن فواته في الدنيا ، وما أجمل هذه الكلمات التي تفيض بالبشارة الكريمة والهدي الصالح ، وتترقرق كأنها حبات اللؤلؤ وأين منها ذلك !! « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أو « فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ ؛ فإنِّيَ على الحوض ».

يقررها النبي ﷺ للذين صدقوا العهد ، ووفوا بالبيعة ، فآووا ونصروا وآثروا إخوانهم المهاجرين ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يتخلفوا عن ساحة من ساحات البذل ندبهم رسول الله ﷺ إليها ، وصدق فيهم وفي أمثالهم ، قول الحكيم الخبير : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً** ﴾ .

وماذا أنت راءٍ وراء هذه الجوامع من الكلم ، التي ارتفعت بسموها إلى حيث يصف ﷺ علاقته بالأنصار بقوله : « لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار» وقوله : « الأنصار شعار والناس دثار» فلولا المكانة الدينية العظيمة للهجرة ، وأنه عليه الصلاة والسلام حريص على أن لا تتبدل بغيرها ـ وذلك لعظيم شرفها ـ

لكان امرءاً من الأنصار . والأنصار شعار ـ وهو الثوب الذي يلي الجسد من الجسد ، والناس دثار ـ والدثار الثوب الذي فوق الشعار ـ .

أرأيت إلى هذا الفارق ؟ الأنصار شعار ، والناس دثار . إنها استعارة يدركها العربي ، وكل من تذوق شيئاً من أساليب العربية ، ويفقه معناها العميق المعبر عن مدى قرب الأنصار منه عليه الصلاة والسلام ، وقربه منهم ، وكونهم بطانته وخاصته . وكان ذلك بتلكم الكلمات القليلة عدداً ، الجامعة الغزيرة معنىً.

ولا بدع : فقد أوتي صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ـ جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً . وما أجمل التناسق بين الشكل في سمو بلاغته ، وبين المضمون في صدقه وإصابته كبد الحقيقة ، قال الحافظ ابن حجر في صدد الشرح لهذه القطعة من الحديث : (وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم ـ يعني الأنصار ـ منه وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته ، وأنهم ألصق به ، وأقرب إليه من غيرهم . زاد في حديث أبي سعيد : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وبالله حظاً » .

لقد عمل صدقهم في حب الرسول الكريم عمله ، فنالوا هذا التوجه ـ المؤذن بالرفعة ـ منه عليه الصلاة والسلام في الدنيا ، كما سيقت إليهم بشرى أنهم ملاقوه على الحوض . « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أي اصبروا واحتسبوا ما تلقون من الأثرة في أمور الدنيا، حتى تموتوا ؛ فإنكم ستجدونني على الحوض، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على الصبر ، فأكرم بالبشرى ، وأكرم بالموعد على الحوض، في لقاء النبي عليه الصلاة والسلام هناك ، وأعظم بهذا الجزاء على الصبر ﴿ إنّما يُوَفَّى الصَّابرُون أجْرَهم بغير حساب ﴾ .

هذا : ونجد عند الإمام أحمد في المسند رواية، يبرز فيها شديد تأثر الأنصار

بكلام النبي ﷺ والحقائق التي طرحها حين خاطب فيهم القلوب والعقول ؛ فقد جاء في تلك الرواية ـ وهي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ قول النبي ﷺ: «يامعشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل ، قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ، قالوا :وبماذا نجيبك يارسول الله ، ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا ، تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلْتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولوسلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا ».

وواضح هنا كل الوضوح ، ما يدل عليه بكاء القوم الشديد ، حتى أخضلوا لحاهم من فرط التأثر والانفعال ، بما وجه إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم ـ كما يقول الحافظ في شرحه لرواية البخاري ـ (إقامة الحجة على الخصم ، وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه ، وحسن أدب الأنصار في تركهم المماراة ، والمبالغة في الحياء ، وبيان أن الذي نقل عنهم كان عن شبانهم الأحداث لا عن شيوخهم و كهولهم ؛ وفيه مناقب عظيمة لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم ـ كما أسلفنا ـ وأن الكبير ينبه الصغير على ما يغفل عنه ، ويوضح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق ؛ وفيه المعاتبة واستعطاف المعاتَب وإعتابه عن عتبه، بإقامة حجة من عتب عليه، والاعتذار والاعتراف).

اللهم اجعلنا هداة مهديين وبلغنا منازل الأبرار يوم القيامة وأحلل كريم رضوانك على الأنصار وعلى المهاجرين ، وأصحاب رسول الله أجمعين .

إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم

في قراءة مبصرة لما يفيض بـه الهدي النبوي الكريم، مـن دعوة المسلم إلى أن يكون ـ على حالاته كلها ـ مذكراً ما يكون من المساءلة ـ بعد أن يوضع في كل عنق كتاب منشور ـ أمام قيوم السماوات والأرض في يوم لاريب فيه .

وفي قراءة أخـرى مثلها ، على صعيد مـا يدل على رحمته صلى الله عليـه وسلم بأمته، والتنبيـه على اجتناب كل ما من شـأنه حرمان المرء مـن نفحات الرحمن في ذلـك اليوم العصيـب ـ ومنهـا الورود على حـوضـه صلوات الله وسـلامه عليـه ـ والانتظامُ في عداد مـن يطردون عن ذلك الحوض، بما كسبت أيديهم مـن المخالفة عـن سواء الصراط ــ كما تقدم مـن قبل ــ نقع في الأحـاديث التـي تبرز مشاهـد القيامـة، على العديـد من النصـوص التي تحمل شـديد النـذارة والوعيـد المفزع، لأولئـك الذيـن ظلموا أنفسهـم ، وتنكبوا الجادة ، مـوغلين في مهاوي الضـلال، فباؤوا بالخزي والحرمان ، من ورود ذلك الحوض المبارك يومذاك . وهذا يعني أنهم من المبعدين الـذين خسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانـوا يكسبون . ولو رأيتهم وهم يـذادون عنه ويطردون ، لرأيـت العدل الإلهي في أسمى صوره وأبهاهـا ـ ولله المثل الأعلى ـ والعدل من العليم الحكيم جلّ شأنه ، عين الحكمة ومفصِل الحق . ذلك بأنهم اتبعوا غير سبيل المؤمنين، فولاهم الله ما تولَّوا ، ولم ينالوا ما ناله أولئك الذين ظلوا على العهد ، حتى وافتهم آجالهم ، وهم على الصراط السوي .

فالذين ينقلبون على أعقابهم، ويتخذون هدي المبلغ عن الله ما أراد، ظهرياً ، أنّى لهم ورود حوضه عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا : كان من دلائل نبوته صلى الله وسلم وبارك عليه أنه ـ كما أكّد بما لا يقبل الشك ـ وجود الحوض في الآخرة وهو ما تشهد به صحاح الأحاديث ـ

نبه على ما سيكون يومئذ من حال أولئك الهلكى ؛ إذ القلوب لدى الحناجر ، والأقنعة التي كانت تتخذ جُنّة في الدنيا ، غير نافعة أصحابها ، وكلٌّ صائرٌ إلى عاقبة ما كسب في دار الفناء .

من أجل هذا : لا تعجب إذا رأيت النبي ﷺ ، يحذر من التنافس في الدنيا، والوقوعِ في أحابيل الضلال التي يزينها شياطين الإنس والجن ، ومن طاعة الهوى المردي، والنفسِ الأمارة بالسوء ، والاستسلامِ للشهوات ، لأن ذلك موجب للغفلة والبعد عن الله ، مما يؤدي بصاحبه ـ إن لم يراجع نفسه ـ إلى أن يكون في زمرة الذين تدركهم الشقوة ، فيطردون عن الحوض والعياذ بالله . أخرج الإمام البخاري في كتاب الرقاق «باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ » من الجامع الصحيح بسنده عن عقبة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أحُد صلاته على الميت ، ثم انصرف على المنبر فقال : إني فَرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن ، وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ــ وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » .وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في « باب الصلاة على الشهيد » من كتاب الجنائز، وفي « باب علامات النبوة » من كتاب الفضائل. كما أورده في « باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» . وفي هذه الروايات كلها جاء قول الراوي : « ثم انصرف إلى المنبر » أما هذه الرواية التي أثبتها هنا من : « باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ » فقد جاءت العبارة فيها بلفظ « ثم انصرف على المنبر » وجاء في بعض الروايات « إني قد أعطيت» بدل « وإني أعطيت » كما هي العبارة هنا .

وفي هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ وأعلام من أعلام نبوته؛ منها ـ كما سبق ـ تأكيد وجود الحوض وأنه فرط الأمة إليه ، وإخباره عن المحرومين من الورود، وتخوفه على الأمة ، من الوقوع فيما يقتضي الإبعاد عنه، في تلكم الساعات العصيبات، وبخاصة ما يتعلق بأمر التنافس في الدنيا ، الذي لا تخفى الآثار

السيئة للوقوع فيه، لأن التنافس المقصود هنا، هو ذلك الذي يؤدي إلى التنافر المردي، والسرف، والتعدي لحدود الله. ولذلك أخرج البخاري الحديث المذكور ـ وهذا من فقهه رحمه الله ـ في علامات النبوة من كتاب الفضائل في الجامع الصحيح.

وقد أشار الحافظ ابن حجر يرحمه الله، إلى أن في الحديث إنذاراً بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ، وقد فتحت عليهم الفتوح، وآل الأمر في بعض الأحيان إلى الاختلاف المشاهد المُحَسِّ، مما يشهد بمصداق خبره ﷺ. ووقع من ذلك في هذا الحديث إخبار ﷺ بأنه فرطهم أي سابقهم وهو كذلك، وأن أصحابه لا يشركون بعده، فكان كذلك، ووقع ما أنذر به من التنافس في زهرة الدنيا، وما خاف على المسلمين حصوله. وتقدم في معنى ذلك ـ كما يقول الحافظ ـ حديث عمرو بن عوف مرفوعاً « ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على الذين من قبلكم ».

ومما يجب التنبيه عليه، ما يُرى من أن النبي ﷺ ذكر الحوض في قوله: « والله إني لأنظر إلى حوضي الآن » وقرن ذلك بأنه شهيد على الأمة يوم القيامة، وبالتحذير من التنافس في الدنيا. وفي ذلك ما فيه من توجيه الأمة إلى ضرورة القيام بكل ما من شأنه درءُ المفاسد التي تقود إلى السوأى، والمصير المخزي يوم الحساب.

وآية ذلك: أن من يحرصون على تجنب تلك المفاسد، ويسلكون طريق الصلاح، والإصلاح في القول والعمل، يكرمهم الله تعالى، بأن يلقوه على الحوض، فيردون ورود الفرِح بفضل الله، المطمئن إلى مصير السعداء في جنة تجري من تحتها الأنهار، ولا يُبعدون كما يُبعد الذين ضيَّعوا أمانة الطاعة، والعمل بشريعة الله.

ثم إن في الاقتران المومى إليه ، إيذاناً بما يجب من الابتعاد الصارم ، عن كل ما يكون سبباً في ذلك الإبعاد عن الاستمتاع بتلك النعمة العظيمة ، التي هي عنوان التوفيق والقبول، في ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، والسعيد من أدركته الرحمة فكان من الناجين . قال ابن التين رحمه الله : (النكتة في ذكره ـ يعني الحوض ـ عقب التحذير الذي قبله . أنه يشير إلى تحذيرهم من فعل ما يقتضي إبعادهم عن الحوض) .

وأنت واجد أنه ﷺ ، بدأ الكلام بعد انصرافه إلى المنبر بقوله : « إني فرط لكم وإني شهيد عليكم » ثم أكد وجود الحوض يوم الفصل تأكيداً لا مزيد عليه ، وذلك بقوله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ: « وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن » الأمر الذي يدل على أن الله كشف له عنه لما خطب ـ والله أعلم ـ .

ولما كانت المنافسة في زهرة الدنيا، بزخرفها وشعبها الوفيرة المتنوعة ، تأتي في مقدمة ما يوقع المرء فيها لا تحمد عقباه في الدنيا ويوم الدين ـ ومن ذلك عدم ورود الحوض ، أعاذنا الله من ذلك ـ أوسع العلماء القول فيها تيسيراً لحصول الانتفاع بهديه عليه الصلاة والسلام . من ذلك ما نرى عند صاحب « فتح الباري» رحمه الله ؛ فعند الكلام على الحديث ، وشرح تلك المنافسة ـ التي تخوّف الرسول ﷺ على الأمة، بدءاً بأصحابه رضي الله عنهم منها ـ أشار إلى حديث أبي سعيد الذي أورده البخاري في أوائل كتاب الرقاق من الجامع الصحيح «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ». وقد جاء في هذا الحديث قول الرسول ﷺ : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض . قيل : وما بركات الأرض ؟ قال: زهرة الدنيا . فقال له رجل : وهل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه يُنزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل؟ قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير . إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطاً أو يُلِم،

إلا آكلة الخَضِرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ، فاجترَّت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حُلوة ؛ من أخذه بحقه ووضعه بحقه ، فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل لا يشبع».

صلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم معلم الناس الخير ، على ما بلغ فأحسن التبليغ ، وعلى ما بين مبشراً ومنذراً ، فأحسن البيان .

وكم يصادف المسلمَ كلَّ يوم من الوقائع التي تدل أبلغ الدلالة وأوضحها، على أحقية ما نبه عليه وحذّر منه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام !!. وليحذر الذين يعرضون عن الهدي المحمدي، ويستبدلون الذي هو أدنى ـ من الأفكار الدخيلة والشهوات القاتلة ــ بالذي هو خير ، أن تصيبهم يوم العرض الأكبر قارعة الحرمان من أن يكونوا في زمرة وُرَّاد الحوض ...

وللحديث صلة تتاح من خلالها ـ إن شاء الله ـ نظرات في بعض الروايات الأخر ، ونسأله تعالى أن يحشرنا في زمرة الناجين الفائزين بما وعد الرحمن عباده بالغيب، إنَّ وعده كان مأتيّاً .

سُحقاً سُحقاً لمن غيّر بعدي!!

ما كنا بسبيله مـن الكلام على تحذير النبيﷺ أصحابه الكـرام ، والأمةَ من ورائهم ، مـن الوقـوع فيما يكون سببـاً في الحيلولـة دون الواحـد منهم، ودون ورود الحوض يوم الـدين .. يقتضينا تجديـد الصلة بما حمل الهدي النبوي المبـارك ، من بيان لقضيـة كبرى ، قضية فئـام من النـاس يعرفهـم يوم القيـامة بسيما تميـزهم ، ويراهم يبعدون عـن حوضه وهم مقبلون عليه ، وعندما يتسـاءل عن سبب هذا الأمـر الخطير ، أمرِ إبعـاد هـؤلاء عـن الحوض ، يجاب بما يدل على أن السبـب في ذلك، جنوحهـم عن سبيل الهدى إلى مزالـق الضلال، فيقول النبي عليـه الصلاة والسلام: « سُحقاً سحقاً » .

جاء في كتـاب الرقـاق من الجامع الصحيـح تحت قول البخـاري : « باب في الحوض وقول الله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر» قوله رحمه الله : حدثنا سعيد بن أبي مريم قـال : حدثنا محمد بن مطرِّف قـال : حدثني أبو حازم عن سهـل بن سعد قال النبي ﷺ : « إني فرطكم على الحوض ، من مرَّ عليَّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم ».

لقد عرفهم النبيﷺ ـ والمعرفة حاصلة بسيماء دلت عليها أحاديث ـ مرّ من قبل بعض منها ـ ولكنهم غيّروا وبدّلوا ، فلم تغن عنهم تلك السيماء شيئاً ، لما جاء الأمر الإلهي ، بأن يحال بينهم وبين الرسول الكريم ، لكيلا يردوا الحوض.

وهذا العلَم من أعلام النبوة في هذا الـذي سوف يكون لا محالة ، يزيد المؤمن حرصاً على أخـذ نفسه، ومن ولاه الله أمرهم بطـاعة الله تعالى ، والوفـاءِ بعهده جلَّ شأنـه ، وعهد رسـوله عليـه الصلاة والسلام ، كيما يـوفق في تجنـب طريـق الغفلة والغافلين ، وتكون الآخرة ـ أبداً ـ منـه بحسبان . قال علي بن أبي طالب رضي الله

عنه : « ارتحلت الدنيـا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكـل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبنـاء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فـإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

ومـن الواضـح ، أن هـؤلاء الذيـن يعرفهـم النبـي ﷺ ـ وهـو على الحوض ، ويعرفونه ، ثم يحال بينه وبينهم ، فيصرفون عنه ـ جاءت النصوص التي تدل ـ كما سبقت الإشارة ـ على أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، فرجعوا القهقرى ، وأحدثوا ما لم يأذن به الله ورسـوله . من تلك النصوص : ما جاء عنـد الإمام البخاري بعد الحديث السابق الذي جاء فيه : ـ كما سبق ـ « ليردنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهـم » حيث قال رحمه الله : قال أبو حـازم : فسمعني النعمان بن أبي عيَّاش فقال : هكذا سمعت من سهـل ؟ فقلت : نعم ، فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري ، لسمعتـه وهو يزيـد فيها : فأقـول ـ القائل النبـي ﷺ ـ : « إنهم مني، فيقـال : إنك لا تدري مـا أحدثوا بعـدك ، فأقول : سُحْقـاً سحُقاً لمن غيَّر بعدي ». وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سُحْقاً : بُعداً . يقال : سحيق : بعيد ، سحقه وأسحقه : أبعده .

ولا يخفى أن الرسـول ﷺ ما كان ليدعـو بقوله : « سُحْقاً سُحْقـاً » لمن بدّل بعده ، إلا لأن المخالفة عن أمر الله ورسوله بالتبديل، أمر كبير ممقوت ، وبخاصة إذا كان من يقـع في ذلك الجنوح المهلك، ذا كلمة مسموعـة وأثر في المجتمع ؛ إذ هنالـك يحمل آثـار وزره، ووزر الذين كـان له الأثـر في وقوعهـم أيضاً في التغيير والتبديل .

ومهما يكن من أمر : فإن في كلامه ﷺ التحذير البالغ للمسلمين من الوقوع في هذه المهلكـة، مهلكةِ التغيير والتبديل ، و إحـداثِ ما لم يأذن بـه الله في منهج حيـاتهم ، لما أن ذلك يعـود على فاعلـه والمتسبـب به ، والـراضي مع القـدرة على الإنكار والتغيير ، بعاقبـة السوء في الآخرة ، ومن ذلـك: الحرمان من ورود الحوض

الذي هو من كرامة الله لخاتم النبيين ثم لأمته .

هذا : والأحاديث التي تحمل هذا الوعيد ، وتكشف عما يعاقب به أولئك الذين أحدثوا ما أحدثوا ، من الجنوح عن الصراط السوي، بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، تشعر بأن مواقف الهداية في شأن هذه القضية، قد تعددت ، لما يبدو من ألوان الكلام في توجيه النبي ﷺ وعداً ووعيداً . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن الحارث أن بُكَيراً حدثه عن القاسم بن عباس الهاشمي عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام «أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمشُطني ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : أيها الناس ، فقلت للجارية : استأخري عني ، قالت : إنما دعا الرجال ، ولم يدع النساء ، فقلت : إني من الناس ، فقال رسول الله ﷺ : إني فرطكم على الحوض فإياي لا يأتينَّ أحدكم ، فَيُذَبَّ عني كما يُذبُّ البعير الضال، فأقول : فيم هذا ؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سُحْقاً » ثم روى مسلم من طريق أخرى عن عبدالله بن رافع قال : كانت أم سلمة تحدث «أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط : أيها الناس فقالت لما شطتها: كفي رأسي » بنحو حديث بكير بن القاسم بن عباس .

ومن الملاحظ أن بعض العلماء حمل هؤلاء الذين يطردون عن الحوض ، كما يطرد البعير الضالُّ ، على المنافقين ؛ قالوا : ولذا قال ﷺ : سُحْقاً ؛ إذ لا يقول ذلك في مذنب أمته ، بل يهمه أمره ، ويشفع له . وقيل : هؤلاء صنفان : عصاة مرتدون عن الاستقامة ، لا عن الإسلام ؛ فهؤلاء بدلوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة. والصنف الثاني : مرتدون إلى الكفر والعياذ بالله ، واسم التبديل والإحداث، يشمل الصنفين .

على أن هنالك بعض الروايات ، التي تحمل مزيداً من التفصيل في شأنهم؛

فرواية تنص على أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، وأخرى تنطق بأنهم نكصوا على أعقابهم ـ أو رجعوا على أعقابهم ـ إلى آخر ما هنالك . من ذلك ما أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح بسنده عن ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قال النبي ﷺ : « إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليَّ منكم ، وسيؤخذ ناس دوني ، فأقول : يارب مني ومن أمتي، فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم » فكان ابن أبي مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا ، أو نفتن عن ديننا .

وإني لأدعو ـ وقد تجارت بنا الأهواء وتداعت علينا الأمم وغزتنا الأفكار المضلّلة ـ بدعاء ابن أبي مليكة : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن في ديننا . ولله عاقبة الأمور .

المشهد المروّع..

يذودهم الرسول عن الحوض!!

أبنـاء الآخرة: هـم الجديـرون بأن يغبطـوا على سلـوكهـم، الذي لا يحيـد عما يقتضيه العمل للنجـاة، يوم ترجـف الراجفة تتبعها الـرادفة . ولقد أثنـى الله تبارك وتعالى على أولئك الذين يجمعون إلى تسبيـح الله في بيوته التي أذِن أن ترفع ، وأداء ما افترض الله عليهم من صلاة وزكاة وغيرهما ، وأن الـدنيا لا تلهيهم عن ذكر الله وعبـادتـه .. يجمعـون إلى ذلـك كلـه ، أنهم ﴿ **يخافون يـوماً تتقلـب فيه القلـوب والأبصار**﴾ وهو يـوم القيامة ؛ ذلكم قـوله جل ثناؤه في سـورة النور : ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عـن ذكر الله وإقـام الصلاة وإيتـاء الزكـاة يخافون يـوماً تتقلـب فيه القلوب والأبصار** ﴾ وكان من كرمه وفضله سبحانه ، أنه يجزيهم الجزاء الأوفى ، في ذلك اليـوم الذي يخافـونه ، ويعملون مخلصين ، ليكـونوا فيـه من النـاجين ، فقال تعالى: ﴿**ليجزيهم الله أحسن مـا عملوا ويزيدهـم من فضله والله يرزق مـن يشاء بغير حساب** ﴾ .

ويوم تقـع الواقعـة ، وتجيء بثقلها الصاخّـة ، وتمدُّ الطامـة الكبرى بإذن الله مدّها ، ويبرز العباد لله الواحد القهار .. هنالك تبدو الحاجة ملحّة ، إلى قبس من رجـاء ، يفرِّج ــ بعـون الله ـ الكـربـة ، و يكشف الغُمَّـةَ ، ويعين على تبيّن المصير، ويكرم الله العبـاد ، بنبينا محمد عليه الصـلاة والسلام ، فتكون الشفاعـة العظمى للفصل في القضـاء ، وإراحة الناس من كـربات الموقف المثقـل بالحسرات ؛ ولا تسل عن إكرام الله للأمة المحمديـة !! ومن هذا الإكرام : ورود الحوض ـ بصفاته التي بينها هو صلوات الله وسلامه عليه ــ وهنالك يعلن الاختبار الدقيق العميق

إعلانه ، فبجانب أهل الرضى الذين يكرمهم الله بورود ذلك الحوض على النبي ﷺ ، وينعم عليهم بالشرب منه ، فلا يظمأون بعد ذلك أبداً ... بجانب هؤلاء، تبرز حال أولئك الذين تحول إساءتهم ، دونهم ودون أن يردوه ويشربوا منه ـ كما سلفت النصوص في هذا ـ ذلك بأنهم نُبِّهوا فلم يتنبهوا ، وذُكِّروا فلم يتذكروا ، وأحدثوا بعد رسول الله في الدين، ما لايتفق مع كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام : ولقد يغشى قلوبهم الخزي ، فتأكلها الندامة ،ولات ساعة مندم .

والذي تجدر الإشارة إليه ، أن في بعض الروايات الأخر ، التي جاءت في شأن هذه القضية البالغة الأهمية ، ما يزيد الأمر وضوحاً على وضوح ، وينبه على أخذ الحذر الشديد في هذه الدار ، وعدم الوقوع في تلك الطامات التي وقع فيها أولئك الفئام من الناس ، فكان جزاؤهم أن يذادوا عن الحوض على رؤوس الأشهاد ، مصحوباً ذلك بإبلاغ النبي ﷺ وبارك عليه ، أنهم مازالوا يرجعون القهقرى في دينهم ، الأمر الذي قعد بهم عن أهلية الورود .

أخرج الإمام مالك في الموطأ من حديث طويل يرويه أبوهريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ : « وأنا فرطهم على الحوض ، فلا يذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلمّ ، ألا هلمّ ! فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : فسُحْقاً ، فسُحْقاً ». وجاءت هذه القطعة من الحديث عند ابن ماجة من رواية أبي هريرة أيضاً بلفظ «... أنا فرطكم على الحوض ، ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضالّ ، فأناديهم : ألا هلمُّوا ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم ، فأقول : ألا سحقاً سحقاً » وأخرجه الإمام أحمد .

ولئن كان في الروايات التي سلفت، ما يخبر عن أن هؤلاء النفر من الناس ، سوف يطردون ويبعدون عن الورود ، وكان فيها وعيد الرسول ﷺ على المخالفة، وتحذيره من الرجوع القهقرى في الدين ، الأمر الذي يعقب المصاب الأخروي

الأليم، في الطرد عن الحوض ... إن هنالك روايات تكشف عن أن الرسول ﷺ، سوف يتولى بنفسه ذود بعض الناس عن ذلك الورود الكريم، لما أنهم خالفوا عن سبيل الله، وأذعنوا لدواعي النفس والهوى والشيطان. جاء في مسند أحمد قول عبدالله ابنه: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن محمد بن زياد أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفس محمد بيده لأذودنَّ رجالاً منكم عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض » وفي رواية له أيضاً عن محمد بن زياد قال: سمعت أباهريرة رضي الله عنه يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: « والذي نفسي بيده لأذودنَّ عن حوضي رجالاً كما تُذاد الغريبة من الإبل ».

ويلاحظ هنا قسَم النبيﷺ على هذا الأمر المخيف المرعب، الذي يفترض أنه يزيد المؤمن خشيةً من الغفلة التي تسوء معها العاقبة يوم الحسرة، وتكون طريقاً للخزي المبين، والخسارة التي لا تعدلها خسارة، إلا أن تكون مثلها أو من نوعها، نسأل الله العافية.

على أن هنالك من الأحاديث، ما يدل أيضاً على أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، يذود الناس من أجل أناس بأعيانهم، ذلكم ما أخرج الإمام أحمد في المسند قال: حدثنا عفان قال: حدثنا همام قال: حدثنا قتادة عن سالم عن معدان عن ثوبان أن النبيﷺ قال: « أنا بعُقر حوضي يوم القيامة أذود عنه الناس لأهل اليمن، وأضربهم بعصاي حتى يرفضّ عليهم، قال: قيل للنبي ﷺ: ما سعته؟ قال: من مقامي إلى عمان، يَغُتُّ فيه ميزابان يَمُدَّانه » وبهذا اللفظ رواه ابن حبان وقد سبقت الإشارة إليه.

الصحابي الجليل ثوبان: هو مولى رسول الله ﷺ. عُقر الحوض: بضم العين: موضع الشاربة منه ـ كما يقول ابن الأثير في النهاية ـ أي أطردهم لأجل أن يرد أهل اليمن. حتى يرفضّ عليهم: حتى يسيل عليهم. ومعنى يغُتُّ فيه

ميزابان : أي يدفقان فيه الماء دفقاً متتابعاً ـ كما سبق ـ .

ولأحمد من رواية أخرى عن ثوبان أيضاً ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا عند عُقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن ، إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضَّ عليهم ، وإنـه ليغتُّ فيـه ميزابان ؛ أحـدهما من ورِق والآخـر من ذهـب، ما بين بصرى وصنعاء ، أو ما بين أيلة ، أو قال : من مقامي هذا إلى عمان ». وفي رواية له أيضاً «... فسئـل رسول الله ﷺ عـن عرضـه فقال : مـن مقامـي هذا إلى عمان . وسئل عـن شرابه فقال : أشـد بياضاً من اللبـن ، وأحلى من العسل ، يصـب فيه ميزابان يمدانه من الجنة ، أحدهما ذهب والآخر ورق » .

جزى الله عنـا نبينا محمداً ﷺ خير مـا جزى نبياً عـن أمته وجنبنا الـوقوع فيما يكون سببـاً للذَّود عـن حوضه ، وبلّغنـا ـ بمنـه وكرمه ــ منازل الأبـرار المتقين مع الصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقاً .

العملَ العملَ... ومن ورد أفلح

من الحقائق التي تجدر مراعاتها عند النظر في هدي النبي ﷺ ، ما يدل عليه هذا الهدي الميمون من أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى أدى أمانة البيان لكل ما يلزم بيانه خير الأداء ، سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة ، أو بعالم الغيب؛ ومما يتعلق بعالم الغيب إخباره ﷺ وبارك عليه وعلى آله عن الحوض ومن أين يستمد ماءه ، وما هي صفاته ، ثم عن حال أولئك الذين يراهم فيعرفهم بسيماهم يوم القيامة وإذا بهم يذادون عنه كما تذاد الإبل الضالة ، ويعلم عليه الصلاة والسلام حينذاك أن طردهم عن الحوض ، إنما كان بسبب أنهم أحدثوا بعده في الدين ما لايتفق مع الكتاب والسنة ، وما زالوا يرجعون القهقرى، في التزامهم بالطاعة والإنابة إلى الله . وقد سلف من النصوص، ما يفصح عن هذا الأمر الجلل ، ويحمل تحذير الأمة من الإقدام على ما أقدم عليه أولئك الذين غيّروا وبدّلوا ، فعوقبوا بهذا الحرمان من ورود الحوض الذي منَّ الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته من بعده . مع أن من أعظم البشائر ، أن من ورده وشرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبداً . وهذه حقيقة يتجاهلها أولئك الجانحون المفرِّطون .

ومن الجدير بالملاحظة حقاً ، أن الناظر في مجموع الروايات الواردة في هذا، يغلب على ظنه أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد عرض هذا الموضوع في العديد من المناسبات ـ والله أعلم ـ مؤكداً ما يجب فعله ،وما يجب تركه من أجل الحظوة بتلك المنة الكبرى ، منة الورود على الحوض والشرب منه .

من أجل هذا : كان حسناً ـ إن شاء الله ــ إيراد زمرة أخرى من الروايات تنمُّ عن تنوع أساليب الهدي النبوي في هذا ، والهدي النبوي ــ كما نعلم ــ قاطع العذر ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، أمضى حياته كلها بعد الرسالة ، في

التبليغ عن الله ، والبيان الذي اؤتمن عليه بشتى الأساليب النافعة التي دلت على صدق نبوته ، وأحقية أمانته فيها ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . وقد حافظ أئمة الهدى من جهابذة العلماء على حديثه صلى الله عليه وسلم من بعده ، بما حفظوا ودوّنوا ، وقعَّدوا قواعد الجرح والتعديل ، والقبول والرد ، وكان أن أفنوا أعمارهم في خدمة السنة المطهّرة ، بمنهجية بالغة الدقة ، وأمانة منقطعة النظير . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفع قومه ، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة ، و إني أيها الناس فرطكم على الحوض ، فإذا جئتم ؛ قال رجل: يارسول الله أنا فلان بن فلان وقال آخر : أنا فلان بن فلان ، فأقول : فأما النسب: فقد عرفته ، ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى » رواه أبو يعلى ورجاله - كما يقول الهيثميُّ - رجال الصحيح غير عبدالله بن محمد بن عقيل ، وقد وثِّق .

هكذا لا ينفع من أحدث في دين الله ، بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، وارتد القهقرى، نسب ولا أرومة ؛ فهو يذاد عن الحوض بما قدّمت يداه في الدنيا، ولا يظلم ربك أحداً . وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا فرطكم على الحوض ، فمن ورد أفلح ، ويجاء بأقوام فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أي رب ! فيقال : مازالوا بعدك مرتدين على أعقابهم » وأخرجه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه .

ولا ريب في أن من نعم بالورود فقد أفلح ، لأن ذلك عنوان النجاة والفوز العظيم ، في ذلك اليوم العصيب الذي تغمر الناس فيه - مع الأهوال العظام - رهبة المصير . أما من لم يرد : فأين منه الفلاح !! ولو سلك سبيل الفالحين ؛صِدْقَ إيمان ، وصلاحَ عمل، مستعيناً بالله ، صادق التوكل عليه ، لحظي بهذا الفضل الكبير، ولكنه لم يفعل ولا حول ولا قوة إلا بالله . وأخرج ابن حبان في صحيحه بالسند عن ابن جريج قال: حدثني أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبدالله

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرطكم بين أيديكم ، فأنا على الحوض ما بين أيلة ومكة ، وسيأتي رجال بآنية وقُرب ثم لا يذوقون منه شيئاً » . وتدل بعض الروايات على أن بعض الناس يرفعون إليه رؤوسهم وهو على الحوض ، فيُجتذبون ويُقطعون عن أن يكونوا من وراد الحوض . والروايات السابقة التي تحمل شيئاً من التفصيل ، وقفتنا على سبب اجتذاب هؤلاء وقطعهم، وهو أنهم أحدثوا بعد رسول الله ﷺ ما أحدثوا ، وما يزالون يرجعون القهقرى ؛ فبدلاً من التوبة النصوح ، والعودة إلى حظيرة الإيمان الذي لا تشوبه شائبة ، والسلوك الذي يكون انعكاس الإيمان ، كان منهم الإصرار على ما فعلوا ، والتراجع المخزي الذي يجرُّ على صاحبه أوخم العواقب . أخرج أبوبكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة في كتاب « السنة» بسنده عن علي بن زيد عن الحسن عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « ليردنّ علي الحوض رجال حتى إذا رفعوا إليّ رؤوسهم اختُلجوا دوني » اختُلجوا : اجتذبوا واقتطعوا . وله في رواية أخرى بلفظ « ليردنَّ أقوام عليَّ الحوض حتى إذا رفعوا رؤوسهم اختلجوا دوني»

ونحن واجدون في بعض الروايات، ما يدل أكثر وأكثر ، على مزيد اهتمام النبي ﷺ بورود الواردين من أمته ،وأنه ينتظر من يرد عليه من المسلمين ، وتكون المفاجأة التي يلزم المؤمنَ أن يثبت على طريق الإسلام ، لكيلا يكون من صُناع تلك المفاجأة .

قال أبوبكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني في كتاب « السنة » : حدثنا أبو المغلِّس عبدربه بن خالد ، قال : حدثنا الفضيل بن سليمان عن عبدالله بن عثمان ابن خُثيم أنه سمع ابن أبي مليكة يحدث عن عائشة رضي الله عنها « أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وأنا أسمع: إني فرطكم على الحوض ، أنتظر من يرد عليَّ منكم، واللهليقتطعنَّ رجال دوني» وله من رواية أخرى بسنده عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير قال : حدثني جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول :

«أنا بين أيديكـم فإن لم تجدوني ، فأنا على الحوض والحوض مـا بين أيلة إلى مكة . وسيأتي رجال ونساء يطردون فلا يطعمون منه شيئاً ».

وتطالعنا رواية أخرى له رحمه الله من طريق عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ؛ فمن ورد عليَّ أفلح . ويؤتى بقوم فيؤخذ بهم ذات الشمال ».

ألا ما أجمل وأدعى للتفاؤل بالنجاة يوم القيـامة والفوز بإكرام الله للمؤمنين ، أن يستقبل المؤمن مـا ثبت من هدي النبـي ﷺ وبيانه في هذه المغيّبـات ـ ومنها كرامـة الحوض لنبينا ﷺ والأمـة من بعده ـ بقلب تـزينه حـلاوة الإيمان ، فتهش نفسه لـذلك وتبـش ، ويحزم أمره على طريـق العمل الصالـح ، والتزود بـزاد عباد الرحمن المتقين ، كيما يفوز بما يفوزون به من الفضل الإلهي، ومنه ورود ذلك الحوض والشرب منه ، يوم يحشر الناس لرب العالمين .

وعلى صعيد التربية والتذكير بأمور الآخـرة وما فيها : تبدو الحاجة ملحّة ، إلى إعطاء الإيمان بالغيب ، والتصديق بحقيقة المغيبات التي جاءت الأخبار الصادقة فيها ، مزيداً مـن العناية التي تعتمد على جلاء القلوب وصفـاء النفوس ، وتنويع الأساليب النـافعة في الإقلال من أثر الضـوابط المادية الغازية ، وعـوامل الجفوة ، وقسوة القلب . والله المستعان .

كلما صفا القلب ولان لذكر الله ،كان أكثر تفاعلاً مع الكلمة الخيّرة ، من هدي النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن، لكيلا تذهب به قسوة القلب، إلى حيث يقف موقف الجفوة ، لما حملت إلينا أحاديث رسول الله ﷺ من أخبار اليوم الموعود ، وما اكتنف ذلك من الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة ؛ فتراه يرجو رحمة الله ، ويخاف عذابه ، ﴿والله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

وفي السنة المطّهرة: معالم على طريق المؤمنين ، كم تسعف ـ إذا أُخذت مأخذ الجد وعزائم الرجال ـ في تحديد المسار الصالح الذي يضمن بإذن الله، حسن الانتفاع بما تدل عليه الأخبار المومى إليها ، وتأخذ بيد المؤمن ـ أن لو ثبت على هذا المسار المضيء بطاعة الله والإخلاص في الدين ـ إلى خير عاقبة يوم القيامة، وأسلم مصير .

من هذه المعالم : ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن . وقد سلفت الإشارة إلى هذا الحديث في بعض المناسبات من قبل .

أدْلج ـ بإسكان الدال ـ سار من أول الليل . قال الحافظ أبو محمد شرف الدين الدمياطي المتوفى سنة خمس وسبعمائة في كتابه « المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح » : (والمعنى أن من خاف الله تعالى شمَّر في طاعته ، وسار إليه عجلاً مع السابقين من السالكين ؛ فإذا مضى ليل المجاهدة وانفجر فجر الآخرة ، ورأى ما قطعه في سرى سيره من المفاوز والمخاطر، وشاهد قرب منزلته من الحبيب

عليه الصلاة والسلام ، وانقطاع من أقعده الكسل ، وغره الأمل ، أنشد لسان حاله : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى ») .

قادني إلى هذه الكلمات ، ما توحي به أحاديث الحوض التي أسعدنا اصطحابها، مما ينبغي استذكاره والانتفاع به علماً وعملاً في الطريق المسلوكة ـ بعون الله ـ إلى القرب من رسول الله ﷺ يوم الدين ، وورود حوضه ، والاطمئنان إلى الفوز بما يسهر في طلبه المشمّرون في الطاعة ، السالكون طريق المجاهدة والجهاد ، من نعيم لا يزول ، ورضوان من الله القدوس السلام المؤمن المهيمن ، سبحانه وتعالى .

فالرحلة الطيبة التي نعمنا معها بصحبة عدد من تلك الأحاديث ـ بمختلف الروايات ـ في شأن تلك المكرمة الربانية ، التي هي من مظاهر الإنعام الإلهي على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، وحافز مبارك من حوافز الخير ، التي تبعث على شحذ الهمم ، وتقوية العزائم في المسارعة إلى الرضوان .. هذه الرحلة ـ كما وقفتنا على أن وجود الحوض على الشكل الذي وصفه به النبي ﷺ حقيقة لا يماري فيها إلا من سفه نفسه ، أو قل حظه من الهدى ـ أخذت بأيدينا إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تصديق لا يقبل الشك بوجود ذلك الحوض ، وأخذ ما كان في تلك النصوص ، من الوعد بوروده والشرب منه، والوعيد بالطردعنه والإبعاد، مأخذَ الجد وصدق العزيمة ، كيما يستقيم السير ، وتحسن العاقبة .

وقد كان آخرَ ما أوردته على هذه الساحة الميمونة ، طائفةٌ من الأحاديث التي رواها أبوبكر عمرو بن أبي عاصم في « كتاب السنة » . وحملت إلينا تلك النصوص ـ فيما حملت من الخير والهداية ـ ترغيباً واضحاً في السلوك الذي تزينه استقامة المتقين ، وخضوع المخبتين ، وعزائم أولي الألباب ، والذي يجعل المؤمن ـ بفضل الله ورحمته ـ من وّراد ذلك الحوض ، المزدان بإكرام الله لنبيه المصطفى

ولأمته ، والمكرَمين بالشرب منه في ذلك اليوم الزاخر بالأهوال ، والعطش الشديد يوم القيامة .

ولم يقتصر الأمر في تلكم الأحاديث على هذا ، فقد حملت نصوصها النيِّرات ـ مع ذلك الترغيب ـ ترهيباً شديداً من الوقوع فيما نبه عليه النبي ﷺ ،وحذر منه بالغ التحذير ، من تمرُّغ في وهدة الانحراف عن الجادة ، والرجوع القهقرى عن منهج الله ، الأمر الذي يعقب صاحبه الطرد المهين عن الحوض ، والحرمان من وروده والشرب منه .

ويزيد الأمر شدة ، ويجعل لون العقوبة فاقعاً شديد التأثير ، أن الرحمة المهداة ﷺ يكون هناك ؛ لأنه ـ كما أخبر وهو الصادق المصدوق ـ فرط الأمة على الحوض إذ يقدُمها، ويهيء للورَّاد ما به ينعمون بتلك الفضيلة العظيمة والكرامة البالغة .

هذا : وفي صورة من صورة الترابط والتواؤم ،بين المعرفة وبين المسؤولية التي تقتضيها تلك المعرفة في الإسلام ـ لأن المعرفة بالدين ليست ترفاً ثقافياً ، ولكنها بريد المسؤولية والطريق إليها ـ . في صورة من صور هذا الترابط : أحسن الإمام أبوبكر عمرو بن عاصم الشيباني حين أتبع أحاديث الحوض التي أخرجها رحمه الله ، بما يشعر ـ على وجه اليقين ـ الرغبة الإيمانية الصادقة والتطلع النقي الخالص، إلى أن يكتبه الله في عداد أولئك الذين تدركهم العناية، فيطوَّقون كرامته ورود الحوض والشرب منه ؛ فهو مؤمن بما جاء عن الرسول ﷺ ، لا يعتوره شك ولا يخالجه إعراض ، وإنه ليرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله ممن يحظون بتلك الكرامة، لما أن ذلك عنوان رضاه سبحانه ، وسمة من سمات الصدق ، في محبة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال أبوبكر ـ أجزل الله مثوبته ـ : (والأخبار التي ذكرناها في حوض النبي ﷺ توجب العلم ، أن يعلم كنه حقيقته ، وأنها كذلك ، وعلى ما وصف به نبينا عليه الصلاة والسلام حوضه ، فنحن به مصدقون غير مرتابين ولا جاحدين،

ونرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به ، وخذل المنكرين له والمكذبين به عن الإقرار به والتصديق به ، ليحرمهم لذة شربه ، أن يوردنا فيسقيَنا شربةً نعدم لها ظمأ الأبد بطوله ، ونسأله ذلك بتفضله) ذلكم ما دعا به هذا الإمام الكبير جزاه الله عن الأمة كل خير . وأُراني أقول مثنياً على هذه الكلمات المشرقة بصادق التضرُّع والخشية : اللهم تقبل هذا الدعاء ، وأشركنا جميعاً بكريم العطاء ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة ، توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

وهكذا ندرك ، من خلال موقف هذا الإمام من أهل الحديث عمرو بن أبي عاصم وأمثالِه أن المؤمن ـ كما يرى في أحاديث الحوض عنواناً على رحمة المصطفى ﷺ بأمته ، وإعلاناً عن واحدة من خصائصه العظيمة التي خصَّه بها رب العالمين — يرى فيها عنوان الوعد الكريم المبشر ، والوعيد المنذر . أما الوعد الكريم : فهو للمؤمنين المصدقين، العاملين، الذين يعقلون عن الله ورسوله ، فيجمعون إلى الإيمان ، ما يجب من العمل ، وتراهم، وديدنهم أن يعملوا الصالحات مخلصين ، لا تشغلهم الفانية عن الباقية ، ولا يفتؤون يذكرون الله واليوم الآخر ، وحالُهم على المدى في القول والعمل والسلوك : حال من يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون يوم الحساب .. أجل يخافون يوم الحساب ؛ إذ القلوب واجفة ، والأبصار خاشعة ، ولكل من الخلائق يومئذ شأن يغنيه .

أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب : فهو لأولئك الجانحين الذين لا يرعوون عن شك، ولا يتقاصرون عن انحراف ، ولا يتورعون عن أن يحدثوا من الانحراف ما يوجب الغضب والعقاب ، فإذا ذُكرّوا بآيات الله ، وما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن البعث النشور ، وما تحمل مشاهد القيامة ، من الأهوال الجسام التي تحيط بالناس ، وما جاء عن صفات ورّاد الحوض الشاربين منه ، والخلال التي تكون سبباً في طرد من يطرد عنه يومئذ ، ويبوء بالحرمان من تلك المزيّة التي ينالها الصادقون ... أقول إذا ذُكِّرَ أولئك الغافلون المعرضون عن هدي الله ورسوله ، بتلكم الآيات والأحاديث، خَروا عليها صماً وعمياناً ، ولذلك تراهم ـ وقد خربت

قلوبهم ــ معرضين عن العمل المجدي ، منقلبين على أعقابهم خاسرين ، همُّهم الاشتغال بمتاع الدنيا ولهوها عن الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل التقوى ، من النعيم المقيم .

والحق أن الأمة مدعوة إلى التعرف على رجال السلف الصالح الذين أخلصوا الوجه لله ، وحرصوا على العمل بسنة رسول الله، ليكون ذلك عوناً لها ـ والحضارة المادية تضرب على القلوب بالأسداد ــ على استئناف الطريق الراشدة المرضية لله ورسوله ، والتي تقدُر العمل للآخرة حق قدره ، وتسلك بالمؤمن إلى حيث يرد الحوض على النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بعد أن قدّم في هذه الدار ما قدّم ، من الجهاد في سبيل الله وعمل الصالحات .

هذا حديث يراد له أن يتصل اتصال العظة والذكرى ، بصنيع الإمام أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني الذي جاء في أعقاب مروياته عن الحوض ـ كما رأينا من قريب ـ وفيه الدعاء الخاشع المتضرع أن يكتبه الله في زمرة من يكرمهم المولى جلت قدرته ، بالورود على ذلك الحوض ، حيث ينعمون بالشرب منه بين يدي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فرطِ الأمة عليه ؛ فهو ـ رحمه الله ـ مؤمن مصدق بهذه الكرامة الربانية لرسوله الكريم ، غير مرتاب بوجودها ، ولا جاحد لها ، وكل ما يخشاه أن يحشر ـ لاقدر الله ـ فيمن يقدمون ، وقد انتابتهم الشكوك والريب ، أو كانوا ممن أحدثوا ما ليس من الدين في شيء ، فعوقبوا بالإبعاد عن الحوض ، أعاذنا الله من ذلك .

وهذا الذي رأينا عند هذا الإمام من أهل الحديث، من الفهم العميق لدلالة الإيمان والتصديق ، وما ينبغي أن يتميز به المؤمن من تزكية النفس ، وتذليلها لكل ما هو من مقتضيات الإيمان بالغيب ، وما جاء به الخبر الصادق من المغيّبات ، هو الذي جعل من أولئك العلماء العاملين وعباد الله الصالحين ـ وبخاصة أهل القرون المفضَّلة ــ خيرَ سلف لهذه الأمة ، إقبالاً على الله ، وحرصاً على العمل بالكتاب والسنة ، ودأباً على المسارعة في الخير ، والاستزادة من الطاعات والقربات؛ كل أولئك في مراقبة لله عز وجل في السر والعلن ، وجهاد في سبيله ، وتطلع دائم ، إلى أن يكون حبلهم موصولاً بحبل النجاة من غضب الله وعقابه ، والفوز بمرضاته سبحانه وتعالى . وأن يكونوا من ورّاد حوض نبيهم المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام ، الناجين عند المرور على الصراط ، وبذلك يستبشرون بما ينشر الله عليهم من رحمته ، فينتظمهم عقد أهل الجنة ، الذين يتفضل عليهم المولى عز وجل بالنعيمِ المقيم، الذي يتقاصر عنه وصفنا ، والكرامةِ

التي عنوانها رؤية وجهه الكريم جل شأنه . وفي الوقت نفسه ، قلوبهُم وَجِلَةٌ أن لا يتقبل منهم ما يعملون . ولقد كان هذا ديدنَهم وهجيراهم في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ، وفي تبليغهم عن رسول الله ما أراد . هذا أبو سليمان داود الطائي الثقة الفقيه الزاهد ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ المتوفى سنة ١٦٠هـ أو سنة ١٦٥هـ ، يقول له أحد أقربائه يوماً : ياأباسليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني . فدمعت عيناه ثم قال له : «ياأخي إنما الليل والنهار مراحل ، تنزل بالناس مرحلةً مرحلةً، حتى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلةٍ زاداً لما بين يديه فافعل ، فإن الانقطاع عن قريبٍ ما هو ،والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك). وبعد هذه الوصية الجامعة التي كان محورها وجوبَ التزود للآخرة ، والحفاظَ على الوقت واغتنامَ ما يجب أن يغتنم، لأن أحداً لا يدري متى يحين أجله ، ويأتيه داعي ربه ، وفي كثير من التواضع الجم وصدق مع الله ومع نفسه : قال داود رحمه الله لذلك القريب : « إني لأقول هذا وما أعلم أحداً أشدَّ تضييعاً مني لذلك » أجل : لأن من عرف الله ، ودأب على خشيته سبحانه بالغيب وخاف ـ صادقاً ـ يوم الحساب ، وما يكون فيه، حتى كأنه رؤية عين ، كان أحرص على ملء ساعات العمر بما ينفع، وكان أشد تبصُّراً بما لنفسه وما عليها ، وأكثر تخوفاً على ما يصير إليه الأمر يوم الحساب .

والحق أن الأمر الذي يبدو على غاية الأهمية في هذا الموضوع : هو أن السلف الصالح ، جزاهم الله خير الجزاء ، كانوا حريصين ـ مع التوحيد الخالص ـ على تأصيل المعرفة، بورود منهلها الصافي الزلال من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي الوقت نفسه تراهم مدركين الإدراك كلّه، أن هذا العلم، يجب أن يقود إلى العمل والإنابة إلى الله ، والخشية الصادقة التي تجعل أمر الآخرة وما يكون فيها ، بحسبان ، حتى باتوا ـ وقد تزكّت نفوسهم ـ وهم أقوى بعون الله من صوارف الدنيا وزخرفها ، ولا عجب في ذلك ، وقد لزموا غرز النبي عليه

الصلاة والسلام ، وكان اتباعَ هديه على علم وبصيرة ، أحلى لهم من كل شيء .

وفي كلام لإبراهيم بن أدهم العالم الزاهد المشهور والمتوفى سنه ١٦٢ مما يرويه أبـو نعيم في الحليـة قولـه رحمه الله : « أصبحت بـالله مـؤمناً ، وبلقـاء الله مصدقـاً وبحجته معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً ، ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله جاحداً، وإلى الله تعالى فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منيباً ، أُشهـد الله وأُشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ، ومن خلق وما هو خالق، بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريـك له ، وأن محمـداً عبـده ورسولـه ﷺ ، وأن الجنـة حـق ، والنار حـق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعـة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعـث من في القبور ، على ذلك أحيـا وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله ».

وبعد هـذه الكلمات المشرقة بسنـا التوحيـد ، والإيمان بما يكون بعـد الموت، ويوم يقوم الناس لرب العالمين ـ التي حرص على أن لا يدعها مجملة ، بل يفصّلها بعض التفصيل ـ نجده يدعو الله تعالى بدعوات مباركات كان منها :

« اللهم أنـت ربي لا رب لي إلا أنت خلقتنـي وأنا عبـدك ، وأنا على عهـدك ووعدك مـا استطعت ، أعوذ بك اللهـم من شر كل ذي شر ، اللهـم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنـوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهـدني لأحسن الأخلاق فإنـه لا يهدي لأحسنها إلا أنـت ، واصرف عني سيئهـا فإنـه لا يصرف سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله بيديك وأنا لك ، أستغفرك وأتوب إليك.

آمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وآمنت اللهـم بما أنزلت من كتاب صلِّ اللهـم وسلم على محمـد وعلى آلـه وسلـم كثيراً ، وعلى أنبيائه ورسلـه أجمعين آمين يارب العالمين .

اللهم أوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً مريّاً سائغاً هنيّاً لا نظمأ بعده أبداً، واحشرنـا في زمرتـه ، غير خـزايا ، ولا نـاكسين ،ولا مـرتابين ، ولا مقبـوحين ، ولا

مغضوباً علينا ولا ضالّين .

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب من العمل وترضى ، وأصلح لي شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ».

رحم الله إبراهيم بن أدهم وأعلى مقامه في الآخرين ، ورزق الله أمتنا الانتفاع بهذا السلوك المضيء بسنا التوحيد الخالص ، المضمّخ بعبير العبودية ، وصدق الضراعة ، المزدان بحضور القلب ، والرغبة الصادقة في النجاة يوم الدين ، ﴿ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾

الجنة حق والنار حق

ما كان لي ـ والحديث يدار عن القيامة ومشاهدها من خلال نصوص السنة المطهرة التي هي بيان الكتاب العزيز ـ أن أتجاوز إلى اصطحاب بعض، مما حملت إلينا دواوين الهدي النبوي، من أحاديث تتعلق بالجنة التي أعدّها الله لعباده الصالحين، والتي فيها ما لا قبل للحواس بالإحاطة به، ولاخطر على قلب بشر، وتكشف عن صفاتها وخصائصها، وما تزدان به من الخير العميم، والفضل العظيم... ما كان لي أن أتجاوز إلى ذلك، دون أن أذكرّ بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الجنة والإيمان بها، والطرائق التي رسمها بتوجيهاته عليه الصلاة والسلام، والمناهج التي دلّ عليها في إطار التصديق، والقول، والعمل والسلوك، وبيّن ـ وهو المؤتمن على البيان الكريم ـ أن من سلكها مخلصاً، فاز بالرضا، وكان من أهل النعيم المقيم، الذي لا ينقص ولا يحول، بمنّه وعظيم فضله سبحانه وتعالى.

ها نحن أولاء أمام الذي صح عنه عليه الصلاة والسلام، من الإعراب عن إيمانه الذي لا يجارى، بحقيقة أن الجنة حق وأن النار حق، وذلك ضمن دعاء زاخر بالحب وحرارة الشوق إلى الله، مضمَّخٍ بندى العبودية الصادقة، التي يسمو بها ويسمو إلى أعلى عليين، مشرقٍ بجزيل الحمد والثناء على الله، والاعتراف بأحقية وعده جل شأنه ولقائه، والاستسلام المطلق لما يريد، والرضا بما يقضي به سبحانه ويحكم.

ففي كتاب التهجد من الجامع الصحيح: عقد الإمام البخاري باباً عنوانه «(التهجد بالليل وقوله عز وجل ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾» ثم قال رحمه الله: حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما، قال « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن،

ولـك الحمد لـك مُلـك السماوات والأرض ومن فيهـن ، ولـك الحمـد أنت نـور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت مَلِك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبـت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت، فاغفـر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدِّم وأنت المؤخر ،لا إله إلا أنت ولا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبدالكريم أبو أمية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيان : قـال سليمان بن أبي مسلم : سمعه مـن طاوس عن ابـن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ .

سفيان هنا هو سفيان الثوري . وأنت ترى أنه ﷺ ذكر أن الجنة حق وأن النار حق، ضمن زمرة مباركة مما يجب الإيمان به ، إيماناً لا يعتريه ارتيـاب، وذلك قوله عليه الصلاة والسـلام : « أنت الحق ووعد الحق ولقاؤك حق ، والجنـة حق، والنار حـق، والنبيون حـق ومحمـد ﷺ حـق ، والساعـة حـق » قـال الحافظ ابـن حجـر (وإطلاق اسـم الحق على ما ذكر مـن الأمور : معناه أنـه لابد من كـونها ، وأنها مما يجب أن يصدق بها ، وتكرار لفظ « حق » للمبالغة والتأكيد).

ويـرى رحمه الله أن في قـولـه: « والجنـة حـق والنـار حـق » إشـارة إلى أنهما موجودتان ، والاعتقاد بهذا الحق بالنسبة إلى الجنة والنار ، عنوان الفوز في الآخرة؛ فالإيمان بـه، مع الإيمان بـأن عيسى عبدالله ، وابـن أمته، بعـد الشهادتين ، طـريق صاحـب ذلك الإيمان إلى الجنة، يـدخل من أي أبـوابها الثمانية شاء . قـال الإمام مسلم : حدثنا داود بن رُشيد قال : حدثنا الوليد ـ يعني ابن مسلم ـ عن ابن جابر قال: حدثني عمير بن هانىء قال: حدثنـي جنادة بن أبي أمية قال : حدثنا عبادة بن الصامت قال : قال رسـول الله ﷺ: « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة

الثمانية شاء » .

ألا ما أجمل أن يُقبل المرء على الله بقلب صادق، وعقل متطلع إلى مخالطة الحقيقة، دون رواسب وانصياع للهوى ، فيوقنَ بما جاء عن الله ورسوله، من عالم الغيب ، حتى كأن ما آمن بوجوده معاينٌ مشهور !! وعندها يكون في عداد أولئك الذين استقاموا على المحجة البيضاء ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، ويحظى يوم القيامة ، بما يحظى به طلاب الآخرة الصادقون المنيبون .

ولقد أحسن الإمام النووي ـ أجزل الله مثوبته ـ في قوله عند شرح الحديث المذكور : (هذا الحديث عظيم الموقع، وهو أجمع ، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن جميع ملل الكفر ، على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم، وسمى عيسى عليه السلام كلمة ،لأنه كان عن الكلمة، فسمي بها ، كما يقال للمطر رحمة) .

وبعد: فما أحوج المسلمين والمسلمات، إلى قراءة جديدة ـ على نور من الإيمان بالغيب ـ للنصوص التي تحمل تلك الحقائق وأمثالها، ومراجعة ما نحن عليه من الإيمان بأن الجنة حق، وأن النار حق ، سيما وقد طغت المادة على الكثيرين منا ، واضطربت المعايير هنا وهناك ، وأصبحت أمور العاجلة هي المعيار الذي يحتكم إليه ، حتى كأن البعض من المسلمين ، ليس من الإيمان بهذه الحقيقة ، حقيقةِ المساءلة يوم الحشر ، والجنة والنار ، في شيء .

نعم ما أحوج كل مسلمة ومسلمة ، إلى هذه المراجعة ، كيما يعمل الكل جاهدين ، على أن ينعكس هذا الإيمان على السلوك ، وتقدير الأمور والتصرفات ، على الوجه الذي يقتضيه الإيمان بالغيب ، والحسُّ الصادق ، بأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقفنا الحديث الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله ، في شأن الدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل ، والذي تضمن ـ فيما تضمن ـ الكشف عن يقين النبي ﷺ بأن الجنة حق وبأن النار حق ... وقفنا هذا الحديث على عظم المكانة التي يحتلها التصديق بوجود الجنة والنار ، وكيف أن هذا التصديق ، عنوان خيرية لصاحبه ، يجد عاقبتها يوم القيامة، كما وجد حلاوة الإيمان في هذه الدار .

ولعل من الخير التذكير ، بأن من فقه الإمام البخاري أنه ـ كما أورد هذا الحديث في كتاب التهجد من الجامع الصحيح ـ أورده في كتاب الدعوات منه بنحو الرواية التي رأينا ، وأورده كذلك في كتاب التوحيد من الجامع أيضاً باختلاف يسير ، فقد عقد تحت الكتاب المذكور من الجامع باباً ترجم له بقوله: «باب قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ﴾» وأخرج هناك بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « كان النبي ﷺ يدعو من الليل: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن . لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت ، أنت إلهي لا إله لي غيرك» حدثنا ثابت بن محمد قال : حدثنا سفيان بهذا وقال : «أنت الحق وقولك الحق » . وهنالك بابان آخران تحت كتاب التوحيد المومى إليه، أورده تحت كل منهما: أحدهما « باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾» والثاني « باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ﴿إنه لقول فصل﴾ :

حق ﴿ وما هو بالهزل ﴾ باللعب ».

وقد أولى النبي ﷺ الإيمان بوجود الجنة والنار ، أهمية بالغة ، نلمحها في ذلك الترغيب العظيم الذي رأيناه فيما روى مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ،وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » . وفي رواية أخرى له « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » وهذا ما نجده بشيء من التفاوت عند الإمام البخاري ؛ فقد جاء في كتاب الأنبياء من الجامع الصحيح قوله « باب قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ قال أبوعبيد : « كلمته » كن فكان . وقال غيره : ﴿وروح منه ﴾ أحياه فجعله روحاً ﴿ولا تقولوا ثلاثة ﴾» . حدثنا صدقة ابن الفضل قال: حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال : حدثني عمير بن هانيء قال : حدثني جُنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ».

وقد اتجه الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى أن معنى قوله ﷺ : « على ما كان من العمل» أي من صلاح أو فساد ، لكن أهل التوحيد ، لا بد لهم من دخول الجنة قال: (ويحتمل أن يكون معنى قوله: «على ما كان من العمل » أي يدخل أهل الجنة الجنة ، على حسب أعمال كل منهم في الدرجات . وقد دلت أحاديث الشفاعة ، على أن بعض العصاة ، يعذب ثم يخرج، وهو ما يُخَصُّ به هذا العموم).

فجميع الموحدين في خاتمة المطاف، إلى الجنة بفضل الله تعالى ورحمته بهذه الأمة .

وفي حديث موصول بالرواية التي تنص على أن وجود كلٍ من الجنة والنار حق لا مرية فيه ، نقرأ ما أخرج أبوداود في كتاب الصلاة من السنن بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّام ـ أوقيّم ـ السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما اقدمت وأخرت ، وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت » وأخرجه ابن ماجة والدارمي .

ومن الواضح أن في بعض الروايات تكراراً لكلمة « لك الحمد » ، واختتام الدعاء بقوله ﷺ : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

اللهم اجعلنا من أهل تقواك الذين يؤمنون بالغيب؛ فالجنة حق والنار حق ووعدك حق والساعة حق، وباعد بيننا وبين الغفلة وأهلها ، كيما نذوق حلاوة الإيمان، فنعمل الصالحات على الوجه الذي يرضيك ، ونفوز بالجنة ، وننجو من النار إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

أحقية الجنة والنار.. الإيمان والأثر

نعمة الإيمان بأن الجنة حق وأن النار حق : نعمة عظمى تستحق الشكر المتجدد لله عز وجل ، بالقول والعمل . وفي متابعة ، لما للإيمان بهذه الحقيقة الناصعة، من بالغ الأهمية ، على صعيد التصور ، ومزاولة عمارة الأرض وفق المنهج الرباني ، ومن عظيم الأثر في السلوك ، والإسهام في بناء الوجود الإسلامي، وتسيير حركة الحياة التي هي معبر الإنسان إلى الآخرة دار البقاء .. في متابعة لذلك : تجدر الإشارة إلى أن إشراق القلب والعقل بهذا الإيمان ، كان مفتاح الوثوق بما يقال ، والطمأنينة إلى سلامة ما يراد في علاقة المسلم بأخيه المسلم؛ ذلكم ما نقع عليه في صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي يبُين فيه عن توفيق الله إياه في ملاحقة المشركين والظفر بهم في إحدى المواجهات ـ وهو خير رجّالة رسول الله ﷺ في ذلك اليوم ـ عندما أغار عبدالرحمن الفزاري على ظهر رسول الله ﷺ فقتله أجمع، واستاق راعيَه بلا رحمة ؛ فقد كان من كلامه عن وقائعه مع المعتدين ، وما أبلى فيهم من البلاء الحسن ـ حتى كأنه وحده كوكبة كبيرة من المقاتلين ـ قوله رضي الله عنه : «... قال الفَزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا ـ يعنى سلمة ـ البَرَح ـ أي الشدة ـ والله ما فارقنا منذ غَلَس ، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقم إليه نفر منكم أربعة. قال : فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل . قال : فلما أمكنوني من الكلام قلت: هل تعرفونني ؟ قالوا ؛ لا ، ومن أنت ؟ قال : قلت : أنا سَلَمة بن الأكوع ، والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني رجل منكم فيدركَني. قال أحدهم : أنا أظن . قال : فرجعوا ، فما برحت مكاني ، حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر ، قال : فاذا أوّلُهم الأخرم الأسديُّ ، على إثره أبوقتادة الأنصاريُّ ، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكنديُّ . قال : فأخذت

بعنان الأخرم . قال : فولَّوا مدبرين قلت : ياأخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحقَ رسول الله ﷺ وأصحابه ، قال : ياسلمة : إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حقٌّ والنار حقٌّ ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة ، قال : فخلَّيته ، فالتقى هو وعبدالرحمن . قال : فعقر بعبدالرحمن فرسَه، وطعنه عبدالرحمن فقتله، وتحّول على فرسه . ولحق أبوقتادة بعبدالرحمن ، فطعنه فقتله .

هكذا كانت رغبة الأخرم الأسديِّ الصادقةُ في الشهادة ، مدعاة لأن يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ــ وهو لا يكاد يبقي من العدو أحداً ـ تلك المناشدةَ العظيمةَ ، من أجل أن يتيح له المناجزة مع القوم ، لعله يفوز بتلك الكرامة العظيمة ، كرامةِ الشهادة في سبيل الله ، وكانت تلك المناشدة ـ كما جاء النص عليها ـ « ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنة حق والنار حق ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة ».

والملاحظ أن سلمة رضي الله عنه ، كان قد خاف على أخيه أخرم ، من أن يقتله أولئك المتمرسون بالغزو والسطو ، حتى استاقوا ظهر رسول الله أجمع، وقتلوا راعيَه، يقودهم في ذلك عبدالرحمن الفَزاري .

غير أن أخرم رضي الله عنه ، كان أكثر شوقاً إلى الجنة ، وكانت الشهادة في سبيل الله ، أسمى من أن يعدل عنها ،طلباً للعافية من مناجزة الفزاري .

من أجل ذلك ، أملى على التاريخ قولَه لسلمة : « إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة ». إنه ـ رضي الله عنه ــ يطمح إلى الشهادة ، كيما يفوز بما يؤتي الله الشهداء من الفضل ، وما يكون لهم من النعيم في الفردوس الأعلى ، ناهيك عن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وهكذا بدا أثر الإيمان بوجود الجنة والنار ، وأن ذلك حق لاريب فيه.. بدا بضيائه المعبِّر في تلك الواقعة المثقلة بالدروس ــ وما أكثر الوقائع ذات الدلالة

على ذلك الأثر ـ الأمر الذي يدعو إلى مراجعة النفس، في أمر الانصياع إلى ما يقتضيه اليقين، بأن الجنة حق، والنار حق.

على أن كلمات الصحابي الجليل، الذي رزق الشهادة، بعد أن ناشد أخاه أن لا يحول دونه ودونها، بقدر ما تتسامى في دلالتها على ما تنطوي عليه نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، من إعطاء الإيمان بأحقية الجنة والنار، تلك الأهميةَ البالغةَ؛ فإنها تتسامى كذلك، بمزيد من الإشراق، لتكون واحداً من المعالم الهادية في حياة الأمة، التي ما تفتأ تبحث عن المخرج مما هي فيه، من فتنة حب الدنيا وكراهية الموت، ومن الوقفة المجافية للاستقامة، في عدد من أمور الغيب التي دلّت عليها آي الكتاب الكريم، ونصوص السنة النبوية الصحيحة؛ ذلك بأنها وقفة تناقض، ولا تعني الكثير في دنيا الواقع، والسلوك، والعمل لما بعد الموت؛ وأوضح الأمثلة على هذا الذي نقول ـ والله أعلم ـ الإيمان بالحقيقة التي حولها ندندن، والمفترض أن يتجاوز الأمر ذلك الإيمان النظري، إلى الشوق الدائم إلى الجنة، وسلوك السبيل الأمثل مسارعةً اليها، والخوف الشديد من النار، والانصراف الحازم عن كل ما يمت إلى طريقها بصلة.

وغير خافٍ ما تحمل نصوص الكتاب والسنة، من دعوة حارة إلى الالتزام بهذا المنهج القويم، وجيلُ الصحابة الفريد في بني الإنسان، نموذج واضح مشرق على هذا الالتزام، وليس أدلَّ على ذلك ـ وما أكثر هذه المواقف ـ ما جرى بين سلمة وبين الأخرم، الذي رزق الشهادة بعد ذيَّاك الحوار.

وهل ينسى أهل الحجى، موقف عُمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر، عندما حمله الشوق إلى الجنة، على المسارعة إلى نقد الثمن، وهو الاستشهاد في ساحة اللقاء مع المشركين، أعداء الله والحق والإنسان. لقد استطال رضي الله عنه الزمن الذي يتقضى بأكله بضع تمرات، كانت في يده حينذاك، فألقى بها، وقاتل القوم حتى قتل؛ فكان أولَ قتيل من الأنصار في الإسلام ـ كما يقول ابن الأثير ـ

وكان من أوائل البُناة لمجد الإسلام وحضارة الإسلام ؛ لقد استقبل الموت راضياً مطمئناً كأنه ينظر إلى مقامه في الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، والتي اشتاق إليها بعد إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنها الجزاء الأوفى لمن يحسن العطاء ؛ فالله قد أوجب الجنة، لمن استُشهد في سبيله . أخرج أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم من حديث أنس رضي الله عنه «أن الرسول ﷺ قال لما التقى الجمعان يوم بدر : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يارسول الله ، جنةٌ عرضها السماوات والأرض ؟ قال: نعم ، فقال : بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال ﷺ : « فإنك من أهلها ». قال: فأخرج تمرات من قَرَنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، قال : ثم رمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل » .

بخ بخ بسكون الخاء ، أو كسرها منوناً : اسم فعل بمعنى: أستحسن ، تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وقوله : فأخرج تمرات من قرنه أي من جَعبة النُّشاب . وروى ابن إسحاق أنه قال : « بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » وألقى التمرات من يده ، وأخذ السيف وقاتل القوم وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... إن التقى من أعظم السداد
وخير ما قاد إلى الرشاد ... وكل حي فإلى النفاد

وصلى الله على نبينا محمد وآله ورضي الله عن صحابته الذين آمنوا به صادقين ، وجاهدوا في سبيل الله مخلصين .

الكلمة الطيبة.. والفوز بالجنة

عندمايكون المؤمن ــ فيما يذوق من حلاوة الإيمان ـ شديد التطلع إلى فضل الله تبارك وتعالى ، والطمع في إحسانه ؛ ومن ذلك أن يكتبه في عداد من يدخلهم ـ برحمته ـ جنات النعيم ، ويكون الإيمان بأحقية الجنة والنار ، بريد الشوق إلى الجنة ، وما وعد الله عباده المنيبين الصادقين في الآخرة : فالأمر لا يتوقف عند علمه، بأن الجنة حق والنار حق ، ولكن يتجاوز إلى ما يقتضيه ذلك ، من المسارعة إلى كل ما فيه مرضاة الله تعالى ، والفوز بالجنة والنجاة من النار . ولا تسل عما تولده عزيمة السالكين، من هذا الشوق إلى دار الخلد والرضوان ، فترى الواحد منهم ، وهو على هذا الشوق ، يسعى السعي الحثيث في هذه الدار ، كيما يكون أهلاً للدخول في زمرة الذين يحظون بما يحظى المحبون ، فيحلُّهم رب العالمين دار المقامة من فضله، حيث تفتح لهم أبواب الجنة ، ويقول لهم خزنتها : ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾.

وهذا الشوق المقلق إلى الجنة ، الذي يصبح صنِو الإيمان بها ،تجده ديدن رجالنا من السلف الصالح عليهم الرحمة ، وكان يدفعهم أبداً ، إلى صالح العمل، وذكرِ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وأخذِ الإسلام بقوة ، والتعالي على سفاسف الأمور وحطام الدنيا ، لما أنهم يعتقدون أن ما عند الله خير وأبقى، ولا يظلمون فتيلاً .

قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى بن إسحاق قال : حدثنا مهدي ابن ميمون قال: أخبرنا الجريري قال : كنا عند محمد بن سيرين ، فلما أردنا القيام قلنا. دعوةً ياأبابكر ، قال : (اللهم تقبل منا أحسن ما نعمل ، وتجاوز عنا في

أصحاب الجنة وعدَ الصدق الذي كانـوا يوعدون). وفي ترغيب لجلسائه رحمه الله في تحقيـق شُعب الإيمان على صعيـد الـواقع والعمـل ،ومنهـا إمـاطة الأذى عـن الطريق، وهو أدناها، كما جاء في الحديث الصحيح ، وبيان أن ذلك طريق المغفرة والجنة ؛ حدَّث يوماً ـ كما جاء في الحليـة ـ فقال :(رأيت جليساً لي في المنام ، فإذا ساقاه مـن ذهب؛ فقلت له : مـا صنع الله بك ؟ فقال : غفـر لي وأدخلني الجنة ، وأبدلنـي بدل ساقـيَّ ساقين من ذهـب، أسرح بهما في الجنة حيث شئـت. قلت: بماذا ؟ قال : بعزل الأذى عن الطريق) وأورد ذلك الذهبي في السير وابن الجوزي في صفة الصفوة ، وغيرُهما .

والمؤمن في حين أن الشـوق إلى الجنة يـدفعه إلى العمـل ،واغتنام الفـرص في طاعة الله ، لا ينسى ما يكـون في عرصات القيامة من مشاهد ، تـذهل الخليل عن خليله ، وتجعـل الولـدان شيباً ، لما أن ذلـك مدعـاة للكثير من اليقظـة ، وصدق العزيمة، في عدم الركون إلى الدنيا وزخرفها ، والقدرة بعون الله ، على مغالبة النفس والهوى ، من أجل الانصراف الكامل عن طريق الغافلين ، وقطعِ كل وشيجة تمت إلى الغفلة والإعراض عن ذكر الله واليوم الآخر ، بصلة .

ولقد كـان من إكرام الله لهذه الأمة ، أن هـداها برسول الله ﷺ إلى التـوحيد ، الكلمة الطيبـة «لا إله إلا الله محمد رسـول الله» وجعل منهـا ، حين ينطق بها المرء خالصةً من قلبه ونفسه، ويعمل بمقتضاها مؤدياً حقها ، طريقاً إلى دار الخلد التي وعد الله عباده الأبرار . وأنت واجد أن الأحاديث الصحيحة تفيض بهذه الحقيقة ، وتفتح لأهل الإيمان باباً عريضاً مـن أبواب الخير ....والذين يُحرمون من مخالطة تلك الكلمة النورانية ، المثقلة بندى الهداية والعطاء ـ بألسنتهم وقلوبهم وعقولهم ـ هم المحرومون والعياذ بالله . قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب كلاهما عن إسماعيل بن إبراهيم قال أبوبكر : حدثنا ابن عُليّة عن خالد قال : حـدثني الوليد بن مسلم عن حُمران عـن عثمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ ، « من مـات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنـة » وله من

طريق أخرى عن الوليد أبي بشر أنه قال : سمعت حُمران يقول: سمعت عثمان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول مثلَه سواءً . وروى بسنده أيضاً عن أبي هريرة قال : «كنا مع النبي ﷺ في مسير . قال : فنفدت أزواد القوم ، قال : حتى همَّ بنحر بعض حمائلهم، قال : فقال عمر : يارسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم ، فدعوت الله عليها ، قال : ففعل ، قال : فجاء ذو البُرِّ بِبُرِّه وذو التمر بتمره قال : وقال مجاهد : وذو النواة بنواة ، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال : كانوا يمصّونه ويشربون عليه الماء ، قال : فدعا عليها ، قال : حتى ملأ القوم أزودتهم قال : فقال عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى اللهَ بهما عبد غيرَ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة » .

هكذا امتثل الجميع لأمر النبيﷺ ، وقدموا صورة عملية للتعاون المثمر على صعيد الواقع ، في ظل أخوةِ الإسلام ، الأخوة التي قامت على تلكم الدعامةِ المباركة معينِ الخير الذي لا ينفد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكان أن وجد النبي ﷺ ، من خلال هذه الصورة المشرقة المعبرة ، طريقاً للتذكير بفضل الشهادتين ، وأنه لا يلقى الله عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة .

ومما لا شك فيه ، أنه لابد من أداء حق الكلمة الطيبة والعمل بمقتضاها ، كما تدل على ذلك النصوص بمجموعها ، إذ لا يصح الاكتفاء بنص وإهمال بقية النصوص .

ويحس التنبيه على أن كلمة «حمائل» التي جاء ت في هذا الحديث، وردت في بعض الروايات بالجيم أيضاً « جمائل » وذهب أبوعمرو بن الصلاح إلى أن كلا الروايتين صحيح قال رحمه الله : فهي بالحاء جمع حَمولة بفتح الحاء، وهي الإبل التي تحمل ، وبالجيم جمع جِمالة بكسر الجيم جمع جمل ، ونظيره حجر وحجارة ، والجمل هو الذكر دون الناقة .

وفي هذا الذي همّ به النبي ﷺ ، من نحر بعض الحمائل ، بعد أن نفدت

أزواد القوم ، وأحاط بهم خطر الجوع الشديد : بيان لمراعـاة المصالح ـ كما قال ابن الصلاح ـ وتقديم الأهم فالأهم ، وارتكاب أخف الضررين لدفع أضرَّهما . وحين أشار عمر بما أشار ، أخـذ النبي ﷺ بـرأيه رضي الله عنـه ، وأعطى أمتـه ـ وولاة أمرها بخاصة ، وهو الأسوة الحسنة ـ درساً عظيماً في قبول الرأي النافع، والعمل به. وقـول أبي هريرة رضي الله عنـه «حتى مـلأ القوم أزودتهم » المراد به ـ كما يقول العلماء ـ حتـى ملأ القـوم أوعية أزودتهم ، فحـذف المضاف، وأقيـم المضاف إليـه مقامه ، قـال القاضي : ويحتمل أنـه سمى الأوعية أزواداً ، باسـم ما فيها، كما في نظائره والله أعلم .

هذا : ويبدو أن هذه الواقعة كانت في غزوة تبوك ـ كما في الرواية التي سوف نوردها إن شاء الله ـ فقد أصاب الناس مجاعة ، واستأذنـوا رسول الله ﷺ في نحر نواضحهم ـ وهي الإبل التي يسقى عليها ـ ليأكلوا ويدّهنوا .

وفي خاتمة المطـاف : ليس بدعاً أن يـذكِّرنا هـذا الحديث، وما ختم بـه من البشارة العظيمة، بـدخول الجنة لمن شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، غيرَ شاك فيهما ، بما مر بنا من قريب ، من قوله ﷺ ـ كما جاء في صحيح مسلم ـ «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ،وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » .

ألا ما أعظم تلك المشاهد المضيئة يوم الدين ، مشاهد من كانوا على التوحيد الخالص في الـدنيا ، فكـان عاقبـة الواحد منهـم أن يدخـل من أي أبـواب الجنة الثمانية شاء !!

حول الكلمة الطيبة في العمل والسلوك

ما يزال الحديث موصولاً ، بما جاءت به الأحاديث النبوية من بيان لعظمة الكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، وأن من قالها خالصاً من قلبه دونها شك أو ارتياب، كانت عاقبته الجنة . وهي بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية ؛ ولكن لا بد من ضميمة تدل عليها النصوص بمجموعها ؛ وهي أن كلمة التوحيد، يفترض أن يقترن بها في سلوك المؤمن ، أداءُ حقها، والقيامُ بما تقتضيه من العمل.

وهنا ما بدُ من النظر في روايات أخرى ، لمعرفة الزمان الذي حصلت فيه الواقعة التي أعقبت سرور النبي ﷺ من جنده ، وبيانه ما لكلمة التوحيد ، من أثر في صنيعهم وما تعقب من الفوز بالجنة . فالرواية التي حملت إلينا همَّ النبي ﷺ بذبح الحمائل وهي الإبل التي تحمل ، إنقاذاً لجنده من مجاعة ألَمّت بهم ، ثم أخذِه برأيِ عمر رضي الله عنه، بجمع ما بقي من أزواد القوم، ودعاء الله تعالى أن يبارك فيها ، وأن رسول الله ﷺ قال بعد أن ملأ القوم أزودتهم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة »... هذه الرواية تشدنا إلى رواية صحيحة أخرى ـ كما أشرت من قبل ـ تدل على أن هذه الواقعة قد حصلت في غزوة تبوك ؛ والرواية التي أعنيها نقع عليها عند الإمام مسلم. قال رحمه الله: حدثنا سهل بن عثمان بن وأبو كريب محمد بن العلاء جميعاً عن أبي معاوية ، قال أبو كريب : حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد ـ شك الأعمش ـ قال : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا : يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادَّهنَّا ، فقال رسول الله ﷺ : افعلوا ، قال : فجاء عمر ، فقال : يارسول الله ، إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم . قال: فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل

أزوادهم، قال : فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكف تمر ، قال: ويجيء الآخر بكسْرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، قال : فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملأوه . قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله ﷺ :« أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غيرَ شاكٍ فيُحجب عن الجنة » .

وواضح هنا ـ كما أشرت غير مرة ـ أن الذي أدخل الغبطة إلى نفس رسول الله ﷺ ـ ما رأى في صحابته ـ وهم في الشدة الشادة ـ من أثرٍ لكلمة التوحيد في عقولهم وقلوبهم وسلوكهم ، فهم يطيعون أمره ، ويمتثلون لما يوجههم إليه ، وهم يتصرفون في ظل أخوة الإسلام ، القائمة على وشيجة تلك العقيدة، التي ألف الله بها بين قلوبهم ، تصرفاً يحمل كل المعاني الخيّرة لتلك الأخوة ، حتى كأنهم الجسد الواحد ، كما جاء في الحديث الصحيح « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك ﷺ بين أصابعه » فلما رأى ما رأى من جمع أزوادهم ـ على قلتها ـ ، وما بارك الله فيها بدعائه ، عاد يذكّر بالأصل الذي قام عليه هذا كله ، وهو الشهادتان ، وأداء حقهما والعمل بمقتضاهما ؛لأن ما حصل كان أثراً من آثار التفاعل الإيماني بين النطق بالشهادتين ،وبين إشراقة السلوك فيما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ ومن هنا تأوّل علماؤنا بعض الأحاديث التي يوحي ظاهرها ، بعدم التقيد بما هو حق كلمة التوحيد في العمل والسلوك. قال الإمام النووي عند شرحه للأحاديث التي أخرجها مسلم في هذا الموضوع الذي له ما له من الأثر في حياة الفرد والجماعة والأمة : (واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف، أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال ؛ فإن كان سالمًا من المعاصي ، كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي ، إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفّق الذي لم يُبتلَ بمعصية أصلاً ؛ فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ، ولا

يدخلون النـار أصلاً ، لكنهم يردونها على الخلاف المعـروف في الورود ؛ والصحيح أن المراد به المرور على الصراط ــ وهو منصوب على جهنم ــ أعاذنا الله منهـا ومن سائر المكروه .

وأما مـن كانـت له معصيـة كبيرة ، ومات مـن غير توبـة: فهو في مشيئـة الله تعالـى ؛ فـإن شاء ، عفـا عنه ، وأدخله الجنـة أولاً ، وجعله كـالقسم الأول ، و إن شـاء ، عذبه القدْرَ الذي يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة .

فلا يخلد في النار أحـد مات على التوحيد ، ولو عمل مـن المعاصي ما عمل ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ، ولو عمل من أعمال البر ما عمل).

ثم قال يرحمه الله : (هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة ، وقد تظاهرت أدلة الكتـاب والسنة و إجماع من يُعتدُّ به من الأمـة ، على هذه القاعدة ، وتواترت بذلك نصوص تحصِّل العلم القطعي .

فإذا تقررت هذه القاعدة ، حُمل عليها ما ورد من أحاديث الباب وغيره ؛ فإذا ورد حديث في ظـاهره مخالفة ، وجب تأويله عليهـا ، ليجمع بين نصوص الشرع ، وسنذكر من تأويل بعضها ما يعرف به تأويل الباقي إن شاء الله تعالى والله أعلم).

هذا : وقد أورد القاضي عياض ـ فيما أورد من الآراء عند شرح الأحاديث ـ ما نقل عن الحسن البصري من أن المعنى : مـن قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها ، وقولَ البخاري : بأن ذلك لمن قالها عند النـدم والتوبة ومات على ذلك ، ثم قال : (وهذه التأويلات إنما هي إذا حملت الأحاديث على ظاهرها ، وأما إذا نُزِّلت منازلها فلا يشكل تأويلهـا على ما بينه المحققون ؛ فنقرر أن مذهب أهـل السنة بأجمعهم من السلـف الصالح ، وأهل الحديـث ، والفقهاء ، والمتكلمين على مذهبهـم من المحققين: أن أهـل الذنـوب في مشيئة الله تعـالى ، وأن كـل من مـات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل الجنة ، فإن كان تائباً أو سليماً من المعـاصي دخل الجنـة برحمة ربـه ، وحرم على النـار بالجملـة ؛ فإن حملنـا اللفظين

الـواردين على هـذا ، فيمن هـذه صفتُه، كـان بيِّنـاً . وهذا معنـى تأويلي الحسـن والبخـاري ؛ وإن كان هـذا من المخلطين بتضييـع ما أوجـب الله تعالى عليـه ، أو بفعل مـا حرم عليـه ، فهو في المشيئـة ، لا يقطع في أمـره بتحريمـه على النار ، ولا باستحقاقه الجنة ، لأول وهلة ، بل يقطع ، بأنه لابد من دخوله الجنة آخراً ، وحالُه قبل ذلـك في خطر المشيئـة ؛ إن شاء الله تعـالى عذبـه بذنبـه ، وإن شاء عفـا عنه بفضله .

ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمـع بينها ، فيكون المراد باستحقاق الجنة ، ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لابد من دخولها لكل موحد ؛ إما معجَّلاً معافى ، وإما مؤخَّراً بعد عقابه .

والمراد بتحريم النار : تحريم الخلود ، خـلافاً للخوارج والمعتزلة في المسألتين . ويجوز في حـديث « مـن كـان آخـر كلامـه لا إلـه إلا الله دخـل الجنة » أن يكـون خصوصاً لمن كان هذا آخر نطقه وخـاتمة لفظه . وإن كان قبلُ مخلِّطاً : فيكون سبباً لرحمة الله تعالى إياه ونجاتِه رأساً من النار وتحريمِه عليها ، بخلاف من لم يكن ذلك آخرَ كـلامه من الموحديـن المخلِّطيـن . وكذلـك مـا ورد في حديث عبادة مـن مثل هـذا ، ودخولـه من أي أبواب الجنة شاء ، يكـون خصوصاً لمن قال مـا ذكره النبي ﷺ، وقرن بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذي ورد في حديثه ؛ فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجـب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالى والله أعلم).

قال الإمـام النووي : هـذا آخر كـلام القاضي عيـاض رحمه الله وهو في نهايـة الحسن .

إنها العظة البالغة ، والتوجيه إلى مسلك أولي النهـى الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب .

يقرب من الجنة... ويباعد من النار

يوم الـوعيد ومـا أدراك ما يوم الـوعيد : نُـذُر الشدة العاتيـة تتوالى وتتفـاقم، والأهوال الجسام مطبقة مـن هنا وهناك . ومشاهد الترقب المضنـي، آخذ بعضها برقاب بعض !!

وإذا كان الأمر كذلك : فما أعظـم أن يخوض المرء غمار ذلك اليوم ، وقد حمل بين جنبيه مخالطةَ بشـاشة الإيمان قلبه ، وازدانت أيام عمـره ـ في الدنيا ـ بأداء ما افترض الله عليه ، والتقرب إليه سبحانه ، بالإكثار من الطاعات، وفعل القربات، في إخلاص للدين ، وسعي دائب إلى ما يحقق له النجاة ـ بفضل الله ورحمته ـ من أن يكون في عداد من تسعَّر بهم النار يوم القيـامة، ويلقون غياً . وذلكم هو العمل بما تقتضيه كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من الإتيان ، بما هو من حقها على ساحة العمل ، برهاناً على صدق قائلها .

أجل : ما أعظـم أن يأتي المرء يوم الفزع الأكبر ، والترقـب المضني ، وهو على هذه الحال ، لما أن ذلك عنوان أهليتـه لما بشربه النبيﷺ من كانوا كـذلك ، بجنة عـرضها السماوات والأرض أعـدت للبررة الصالحين . ولكـم تحفـز تلك البشـارة العظيمة من الصـادق المصدوق المبلغ عن الله مـا أراد ، أولئك الذين صـاحبهم التوفيق وكانوا من أهل الآخرة ، على مضـاعفة العمل الصالح ، والمسارعة إلى كل ما فيه مغفرة الذنوب، وإضاءة الطريق إلى دار النعيم ، والفوز بما يكرم الله به أهل الصـدق في عرصـات القيامـة ، وما يفيـض عليهم مـن رحمته الغـامرة ، وفضلـه العظيم .

ولقد حملت إلينا دواوين السنة أنباء نفـر من الناس ، كانوا يسعدون بسؤال المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أن يخبرهم بما يقربهم من الجنة، وما يباعدهم عن

النار ؛ يحملهم على ذلك شوق إلى الفوز بدار الخلـود ، التي هي عنوان مرضاة الله تعالى ، وصدق في طلب النجـاة من الجحيم ، لما أنها عنوان غضبه ـ جـل شأنه ـ وعقابه ، نـاهيك عن الرغبة المخلصة في أخـذ العلم بالطريق الهاديـة، من معينها المبارك ، في هدي الـرسول الكريم الـذي لا ينطق عن الهوى ، والمبلِّغ عـن الله ما أراد. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري « أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر ، فأخذ بخُطام ناقته أو بزِمامها ، ثم قال: يارسول الله ـ أو يامحمد ـ أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار ، قال : فكفّ النبـي ﷺ ، ثم نظر في أصحـابه ثم قال : لقـد وُفِّق ، أو لقد هُـدي . قال: كيف قلـت ؟ قال : فأعـاد : فقال النبـي ﷺ : تعبد الله لا تشرك به شيئـاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة » .

والملاحظ أن شدة حرص هذا الأعرابي على سؤال رسول الله ﷺ ، وعلى تلقي إعلامه بما يقـرب من الجنة ويباعد مـن النار ، بلا مشقة : جعلـه يمسك بخُطام الناقة أو زمامها . فلما حصل جوابه ، قال له رسول الله ﷺ : دعها .

وهكذا دلـت الواقعة ، على أن رسول الله ﷺ قـد شهد للسائل بالهدايـة ـ أو التوفيق ـ لما أنه طلب هذا المطلب منه عليه الصلاة والسلام ، وأنه أوضح له معالم الطريق ، التـي إن سلكها مخلصاً لله تبارك وتعالى ، قـرَّبته من الجنة وباعـدته من النار « تعبد الله لا تشرك بـه شيئاً ، وتقيم الصلاة ،وتـؤتي الزكاة ،وتصل الـرحم» وأخرج مسلم بسنده عن أبي أيوب أيضاً أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلني على عمل أعمله ، يدنيني من الجنـة ويباعدني من النار . قال : «تعبد الله لا تشرك به شيئـاً ، وتقيم الصـلاة وتؤتي الـزكاة ، وتصـل ذا رحمك » فلما أدبر : قـال رسول الله ﷺ: « إن تمسّـك بما أُمر به دخـل الجنة » وفي رواية ابـن أبي شبية « إن تمسّك به ».

إنها مقدمـات توصـل ـ بفضل الله ـــ إلى ما يُبتغى مـن النتيجة المُرضيـة . أما

الإعراض عن كل ما هو حقُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، والمجافاةُ لما تقتضيه : فذاك مما يذكر بقول الشاعر :

والدعاوى إن لم يُقيموا عليها بينات أصحابُها أدعياء

وهذه رواية أخرى ، تذكر فريضة الصوم ، ولا تأتي على صلة الرحم ، فتعطي بُعداً جديداً لبشارة النبي ﷺ بدخول الجنة، لمن تمسّك بها أمر به ـ كما جاء في الحديث ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دُلَّني على عمل ، إذا عملته دخلت الجنة ! قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان . قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه ، فلما ولّى قال النبي ﷺ : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا » رواه البخاري ومسلم . صلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا محمد رسول الله ، وهنيئاً لهذا الرجل ما بشره به صلوات الله وسلامه عليه ، من أنه من أهل الجنة .

قال علماؤنا : والظاهر من قوله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » أن النبي ﷺ علم أنه يوفي بما التزم، وأنه يدوم على ذلك ، ويدخل الجنة .

وأنت ترى أن الرسول الكريم، قد ذكر صلة الرحم مرة ، وذكر الصوم مرة ، وفي حديث وفد عبدالقيس عند البخاري ومسلم « أنهاكم عما يُنبذ في الدباء والنقير والحنتم والمزفَّت » وتعليل ذلك : حكمته ﷺ في مراعاة حال السائل وما يعنيه ، فهو يضع الأمور مواضعها ، ويعطي كلاً بحسبه ، قال الإمام النووي رحمه الله : (وأما ذكره ﷺ صلة الرحم في هذا الحديث ، وذكرُ الأوعية في حديث وفد عبدالقيس وغير ذلك في غيرهما : فقال القاضي عياض وغيره رحمهم الله : ذلك بحسب ما يخص السائل ويعنيه والله أعلم) وأخرج مسلم بسنده عن أبي سفيان عن جابر قال : «أتى النبيﷺ النعمانُ بن قوقل فقال: يارسول الله ! أرأيت إذا

صليت المكتوبة وحرّمت الحرام ، وأحللت الحلال، أأدخل الجنة ؟ فقال النبي ﷺ : نعم » وفي رواية أخرى له عن جابر أيضاً «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً . أأدخل الجنة ؟ قال: نعم : قال : والله لا أزيد على ذلك شيئاً ».

الدُّبـاء بالمد : هو القرع اليابس أي الوعاء منه . والنقير بالنون المفتوحة والقاف : جذع ينقر وسطه . وأصح الأقوال في « الحنتم » وهو جمع حنتمة : أنها جرار خُضر . وأما المزفّت : فهو المقيَّر ، أي المطليُّ بالقار وهو الزفت .

قال العلماء : وأما النهي عن هذه الأربع : فهو أنه نهيٌ عن الانتباذ فيها ، وهو أن يُجعَلَ في الماء حبّاتٌ من تمر ، أو زبيب ، أو نحوها ، ليحْلُوَ ، ويُشْرَبَ ، وإنما خصَّت هذه بالنهي ـ وكان ذلك من عادتهم كما يبدو ـ لأنه يسرع الإسكار فيها ، فيصير حراماً نجساً ، وتبطل ماليّتُه ، فنهى عنه ، لما فيه من إتلاف المال ، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطّلع عليه .

وللحديث صلة نتعرف من خلالها على ما قال العلماء في دلالة قول الرجل: «والله لا أزيد على ذلك شيئاً » ففي معرفة أقوالهم في ذلك خير كثير . رزقنا الله العلم والعمل ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه الفوز بالجنة والنجاة من النار ، إنه ـ سبحانه ـ جواد كريم .

رجل من أهل الجنة

ليس عجباً من العجب، أن تنقل إلينا دواوين السنة المطهرة، أخبار أناس كانوا يحرصون على أن يدلهم رسول الله ﷺ على عمل يدنيهم من الجنة ، ويباعدهم من النار ، مع وفرة النصوص التي أوضحت المعالم فيما هو طريق الجنة ، وما هو طريق النار ..

أجل ليس هذا الحرص عجباً من العجب؛ فالعاقل كل العاقل ، من جعل همّه حُسْنَ العاقبة بين يدي الله عز وجل، بحيث يزحزح عن النار ، ويفوز ـ بفضل الله ورحمته ـ بدار المقامة التي يكرم الله بها عباده الذين رضي عنهم ورضوا عنه ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ .

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو سيد ولد آدم بإطلاق ـ كان لا يفتأ يسأل الله عز وجل ، بضراعة العبد الخاشع الخاضع ، أن يدخله الجنة ويعيذه من النار . وسار على هذا الهدي أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان . جاء في الحديث الصحيح « أن الرسول ﷺ قال لرجل : كيف تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهَّد وأقول : اللهم إني أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال النبي ﷺ : « حولها ندندن» أي حول الجنة ودخولها ،والنار والنجاة منها ، ندور في أدعيتنا . وإنا لنسأله تعالى الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ به جل شأنه من النار ، وما قرّب إليها من قول أو عمل .

ولقد أوردت ـ فيما أوردت من قبل ـ بعض ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم من حديث ذلك الأعرابي ، الذي حرص على أن يدلّه النبي ﷺ على عمل يدنيه من الجنة ، ويباعده من النار ، وجاء في بعض تلك الروايات ـ أن الأعرابي

بعد أن رسم له النبي ﷺ الطريق إلى الجنـة، وأوضح معالمها ،عقيدةً وعبادةً ؛ كان منه أن قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه . تلا ذلك إخبار النبي ﷺ أنـه من أهل الجنة . ذلكـم ما روى أبوهريـرة رضي الله عنه « أن أعـرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقـال : يـارسول الله دُلنـي على عمل إذا عملتُـه، دخلت الجنـة قال : تعبدالله لا تشرك بـه شيئاً ، وتقيـم الصلاة المكتوبـة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان قـال : والذي نفسي بيده ،لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه ، فلما ولّى قال النبي ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وقد ذكرتُ ما قال العلماء في تأويل هذه العبارة الأخيرة من الحديث .

هذا : ونجد في رواية أخرى ، أن النبي ﷺ أسند الفلاح إلى السائل إن صدق، ولا ريب أن دخول الجنة فلاح أيُّ فلاح . ذلكم ما أخرج البخاري عن أبي سهيل ابن مالك عن أبيه أنه سمع طلحـة بن عبيد الله يقول : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس ، يسمع دويُّ صوته ولا يُفقه ما يقول ، حتى إذا دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال : هـل عليَّ غيرها ؟ قـال : لا ، إلا أن تطّوع . قـال رسول الله ﷺ : وصيـام رمضان . قال : هـل عليَّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تطّوع ، قال : وذكـر له رسول الله ﷺ الزكاة ، قـال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطّـوع . قال : فأدبر الـرجل وهـو يقول : والله لا أزيـد على هـذا ولا أنقـص . قال رسـول الله ﷺ : أفلـح إن صـدق » وفي رواية لمسلـم « أفلـح وأبيه إن صـدق » أو « دخـل الجنة وأبيـه إن صـدق » .

وقال الإمـام مسلم : حدثني عمـرو بن محمد بـن بُكيرٍ الناقدِ قال : حـدثنا هاشم بن القـاسم أبو النضر قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثـابت عن أنس ابن مالك قال : « نُهينا أن نسـأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية

فقال: يامحمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق قال: فمن خلق السماء ؟ قال : الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال ﷺ : صدق ، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال: صدق قال : فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، قال :صدق . قال : ثم ولّى ، قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة » فهذا إخبار مؤكد من النبي ﷺ بدخول الجنة لهذا الأعرابي ــ وهو ضِمام بن ثعلبة كما ثبت في رواية البخاري وغيره ـ إن صدق ، والزعم هنا : مرادٌ به ـ كما يقول الإمام النووي ـ القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه ،لأن الزعم ، ليس مخصوصاً بالقول المشكوك فيه أو الكذب . وقد ورد استعماله بمعنى الصدق في كثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما جرى على لسان أئمة العربية ، كسيبويه ، وغيره من علماء اللغة الكوفيين والبصريين .

وقد مر في رواية سابقة قول الرسول ﷺ : « أفلح إن صدق » بعد قول الأعرابي : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . وقد أزال علماؤنا ما قد يبدو من إشكال في هذه النقطة ؛ فقد قرر الإمام النووي : أن الفلاح راجع إلى المجموع ، بمعنى أنه إذا لم يزد ولم ينقص ، كان مفلحاً ، لأنه أتى بما عليه ومن أتى بما عليه ، فهو مفلح ، وليس في هذا، أنه إذا أتى بزائد ، لا يكون مفلحاً ،لأن هذا مما يعرف بالضرورة ؛ فإنه إذا أفلح بالواجب ، فلأن يفلح بالواجب والمندوب ، أولى . وقال رحمه الله : وقد يشكل قول الأعرابي : لا أزيد على هذا ، وليس في الحديث جميع

الواجبـات ، ولا المنهيات الشرعيـة ، ولا السنن ، ولا المنـدوبات ! والجواب : أنـه جاء في رواية البخـاري زيادة توضح المقصود ، قـال : « فأخبره رسول الله بشرائع الإسلام . فأدبر الرجل وهو يقول : لا أزيد ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً » .

اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

هذا رجل من أهل الجنة

كلما أحسن المؤمن صلته بالله عز وجل ، وصدق في حرصه على أن يبلغ يوم الفصل مبلغ الناجين ، كان أكثر انتفاعاً بما تطفح به كلمات الهدي النبوي ، من بشريات ، سوف تتحقق في ذلك اليوم ، لعله يكون من أصحابها ، مؤمناً أن الفضل أولاً وآخراً للرحيم الرحمن سبحانه وتعالى .

وعنوان ذلك: أن يكون هذا المؤمن أبداً مع الذي تقتضيه عقيدة التوحيد ،لا يحيد عما هو من حقها وفرضها ، ممسكاً بعاتق الميزان فيما هو من حقوق الله ، وفيما هو من حقوق العباد ؛ فيما هو من زخرف الدنيا متاعِ الغرور ، وفيما هو من عمل الآخرة ، والنور الذي ينفع صاحبه يوم المعاد ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً** ﴾ .

فمن وفِّق لسلوك هذا النهج ـ وهو يحرص الحرصَ كلَّه على أن يحشر في عداد من تبيض وجوههم يوم الدين ـــ يستبشر في عرصات القيامة ، بنعمة الله وفضله ، حيث أعلام العدل والإحسان منصوبة ، ﴿ **والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾ ويلمس الأثر الطيب ،لاستقامته على ذلك النهج السويِّ الماثلِ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو ما تمليه الكلمة الطيبة ، بكوكبها الدري «شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيأمن ، حيث الناس في فزع وخوف ، ويحظى بجنة الخلد التي هي من جزيل العطاء الإلهي . وسبحان من لا تنفد خزائنه ، ولا ينقص من ملكه عطاء .

وفي خطوة أخرى على هذا السنن ، ما أجمل أن نكون على ذكر مما تشرق به نصوص السنة المطهرة من حديث أولئك الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة، بصفاتهم العامة ، أو بأسمائهم. وقد رأينا بعضاً من تلك النصوص من قبل .

قال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في كتابه «المستدرك» : حدثني محمد بن هانيء قال: حدثني يحيى بن محمد بن يحيى قال: حدثنا أبوعمر الحَوْضيُّ قال : حدثنا همام عن قتادة قال : حدثني العلاء بن زياد وحدثني يزيد أخو مطرِّف وحدثني رجلان آخران نسي همام أسميهما أن مطرفاً حدثهم أن عياض بن حماد حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول في خطبته :« أصحاب الجنة ثلاثة : ذو سلطان مصدِّق ومقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربي ، ورجل فقير عفيف » ثم قال أبوعبد الله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ــ يعني البخاري ومسلماً ـ وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » : رواه مسلم .

والهدي النبوي في هذا النص وأمثاله ــ وهي كثيرة وفيرة ـ واضح في ترغيب الأمة في هذه الأخلاق الكريمة ؛ كلٌّ حسب موقعه ،حاكماً كان أو محكوماً ، وحسبك أن ذلك طريق المؤمن إلى الجنة، لأن هذا الصنيع، دليل الصدق في العقيدة ،وتذوق حلاوة الإيمان.

وفيما وراء العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم: تأخذ بعض نصوص السنة بأيدينا ، إلى أسماء أخرى ،ذُكر أصحابها بأعيانهم ، في معرض البشارة بأنهم من أهل الجنة ؛ فتحت « باب مناقب عبدالله بن سلام رضي الله عنه» من كتاب مناقب الأنصار في الجامع الصحيح . قال الإمام البخاري : حدثنا عبدالله بن يوسف قال : سمعت مالكاً يحدث عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : « ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : «إنه من أهل الجنة » إلا لعبدالله بن سلام . وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ الآية قال : لا أدري قال مالك الآيةَ أوفي الحديث» . وقد أخرج ابن ماجة أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه ، كان اسمه في الجاهلية الحصين ،فسمّاه النبي ﷺ عبدالله ، وكان من حلفاء الخزرج من الأنصار ، أسلم أولَ ما دخل النبيﷺ المدينة ، ومات سنة ثلاث وأربعين للهجرة.

ثم روى البخاري بسنده عن محمد بن قيس بن عُباد قال : « كنت جالساً في مسجد المدينة ،فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع ، فقالوا : هـذا رجل من أهل الجنـة ، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ، ثم خـرج، وتبعته، فقلـت : إنك حين دخلـت المسجد قالوا : هذا رجل من أهل الجنـة ، قال : والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم . وسـأحدثـك لم ذاك ؟ رأيت رؤيـا على عهد النبـيﷺ، فقصصتها عليـه، ورأيت كـأني في روضة ــ ذكر مـن سعتها وخضرتها ــ وسْطها عمـود من حـديد ، أسفلـه في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعـلاه عروة ، فقيـل لي : ارقه ، فقلـت : لا أستطيع ، فأتاني مِنْصَفٌ ـ وهو الخادم ـ فرفع ثيابي من خلفي ، فرقيت حتى كنت في أعلاها ، فأخذت في العروة ، فقيل : استمسك ، فاستيقظت و إنها لفي يدي ، فقصصتهـا على النبيﷺ فقـال : تلك الـروضـة الإسلام ، وذلـك العمود عمـود الإسلام ، وتلـك العروة العـروة الوثقـى ، فأنـت على الإسلام حتـى تموت » وذلك الرجل عبدالله بن سلام ، قال البخاري : وقال لي خليفة : حدثنا معاذ قال. حدثنا ابن عون عن محمد قال : حدثنا قيس بـن عباد عن ابن سلام قال : « وصيف بدل مِنْصَف ».

وتجدر الإشـارة إلى أن قـول سعـد بن أبي وقـاص رضي الله عنـه في الحديـث الأول. « ما سمعت النبـي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه مـن أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام » قـد استشكل بأنه ﷺ قد قال لجماعـة : إنهم من أهل الجنة غير عبدالله بن سلام ، ويبعد أن لا يطلع سعد على ذلك . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وأجيب بأنـه ـ يعني سعداً ــ كره تزكية نفسـه ،لأنه أحد العشرة المبشرة بذلك . وتُعُقِّبَ بأنه لا يستلزم ذلك، أن ينفي مثلَ ذلك في حق غيره .

واستظهر الحافـظ في الجواب : أن سعداً رضي الله عنه قـال ذلك بعـد موت المبشَّرين ،لأن عبـدالله بن سـلام عاش بعـدهم ، ولم يتـأخر معـه من العشرة ،غير سعيد ؛ وسعيد هو : سعيـد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي . ويـؤخذ هذا من قولـه : «يمشي على الأرض » ووقع في رواية مسلم عـن سعد أيضاً : « مـا سمعت

رسول الله ﷺ يقول في حي : إنه في الجنة إلا لعبدالله بن سلام ». كما وقع في رواية إسحاق بن الطباع عن مالك عند الدار قطني « ما سمعت النبي ﷺ يقول لحي يمشي : إنه من أهل الجنة ... » الحديث ..

وقد أخرج ابن حبان من طريق مصعب بن سعد عن أبيه، سبب هذا الحديث بلفظ : سمعت النبي ﷺ يقول : « يدخل عليكم رجل من أهل الجنة ، فدخل عبدالله بن سلام » وهذا يؤيد صحة رواية الجماعة ، ويضعف رواية سعيد ابن داود عند الدارقطني التي جاء فيها ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه .

وهنيئاً للكرام أصحاب البشريات الكريمة ، ورضي الله عن عبدالله بن سلام ، الذي دخل التاريخ ، مثلاً لمن عرف الحق فاتبعه ، ولم يحل دون إيمانه حائل من تلك الرواسب التي حالت دون الآخرين ، ودون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ مع أنهم يعرفونه ـ مما جاء في التوراة والإنجيل ـ كما يعرفون أبناءهم ، وكان على الوفاء بما عاهد الله عليه ، والصدق في طاعة النبي ﷺ ، وعلاقته بالإسلام وإخوانه المسلمين .

والله المسؤول أن يرزقنا العبرة ، وينفعنا بتلك البشريات العظيمة بالجنة ، تلك البشريات التي كانت لها أسبابها من الإنابة إلى الله ، ومحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ما نزال ـ ونحن نذكر مشاهد القيامة وأهوالها وفضل الله على عباده المؤمنين الصادقين الذين لا يخزيهم الفزع الأكبر ـ ما نزال مع الرحلة المباركة ، التي تطوّف بنا في رحاب طائفة من نصوص السنة المطهرة ، التي تحمل بشرى النبيﷺ بالجنة لأناس بأعيانهم ، حيث صرّح صلوات الله وسلامه عليه بأسمائهم .

ولعل من المفيد حقاً ، أن أعيد إلى الأذهان ، ما جاء في حديث البخاري الذي تقدم من قريب ، من أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه الذي شهد رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة قال ـ أعلى الله مقامه ـ حين نقل إليه قيس بن عُباد كلام من قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ـ « والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » ؛ فقد فُسّر هذا الكلام بأنه إنكار من عبدالله بن سلام ، على من قطع له بالجنة ، فكأنه ـ رضي الله عنه ـ ما سمع حديث سعد بن أبي وقاص ، الذي نصّ على البشارة، وكأنهم ما سمعوه ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ويحتمل أن يكون هو أيضاً سمعه ، لكنه كره الثناء عليه تواضعاً .

ويحتمل أن يكون إنكاراً منه على من سأله ذلك ، لكونه فهم منه التعجب من خبرهم ، فأخبره بأن ذلك لا عجب فيه ، بما ذكر له من قصة المنام ، وأشار بذلك القول إلى أنه لا ينبغي إنكار ما لا علم له به ،إذا كان الذي أخبره به من أهل الصدق .

وفي شأن العروة التي استمسك بها عبدالله ، وقال بعد أن قصّ الرؤيا: «فاستيقظت وإنها لفي يدي » قال العلماء : أي أن الاستيقاظ كان حال الأخذ من غير فاصلة ، ولم يُرد أنها بقيت في يده في حال يقظته ، ولو حمل على ظاهره ، لم يمتنع في قدرة الله ، لكن الذي يظهر خلاف ذلك، قال الحافظ : ويحتمل أن يريد

أن أثرها بقيَ في يده بعد الاستيقاظ ، كأن يصبح فيرى يده مقبوضة .

وما من ريب في أن استمساكه بالعروة الوثقى بعد إكرامه بروضة الإسلام ، وعمود الإسلام ، وقول النبي ﷺ : «فأنت على الإسلام حتى تموت »... ما من ريب في أن ذلك عنوان خيرية كانت بريده إلى دار الخلد ، التي حمل إليه الصادق المصدوق ﷺ البشارة بها ، وسبحان المتفضل بعطائه على من شاء بما شاء ، ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾.

وحري بنا ــ في تساوق مع أهمية هذه القضية ـ إيراد ما جاء عند مسلم من البشرى المباركة والمبشَّر بها رضي الله عنه ، ففي ذلك ما يزيد الأمر وضوحاً ، ويعين على تجلية ما يكون قد أجمل في رواية البخاري . قال الإمام مسلم: حدثنا محمد بن المثنى العنزي قال : حدثنا معاذ بن معاذ قال : حدثنا عبدالله بن عون عن محمد ابن سيرين عن قيس بن عُباد قال : «كنت في المدينة ـ في ناس فيهم بعض أصحاب النبي ﷺ ـ فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، هذا رجل من أهل الجنة ، فصلى ركعتين يتجوّز فيهما ، ثم خرج فاتبعته ، فدخل منزله ، ودخلت ، فتحدثنا ، فلما استأنس قلت له : إنك لما دخلت قبلُ قال رجل كذاكذا ، قال سبحان الله ! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، رأيتني في روضة ـ ذكر سعتها وعُشْبها وخُضرتها ـ وَوَسْطَ الروضة عمود من حديد، أسفلُه في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقيل لي : ارقه ، فقلت له: لا أستطيع . فجاءني مِنصَفٌ (قال ابن عون : والمنصف الخادم) فقال بثيابي من خلفي ــ وصف أنه رفعه من خلفه بيده ـ فرقيت حتى كنت في أعلى العمود ، فأخذت بالعروة ، فقيل لي : استمسك .

فلقد استيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ : فقال : تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة عُروة الوثقى، وأنت

على الإسلام حتى تموت » قال : والرجل عبدالله بن سلام .

وقد رأينا من قبل تفصيل القول عند الحافظ ابن حجر ، في كلمة عبدالله «ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » والذي اتجه إليه الإمام النووي رحمه الله: أن قوله هذا : إنكار منه رضي الله عنه، حيث قطعوا له بالجنة ، فيحمل على أن هؤلاء بلغهم خبر سعد بن أبي وقاص، بأن ابن سلام من أهل الجنة، ولم يسمع هو ، ويحتمل أنه كره الثناء عليه بذلك ؛ تواضعاً وكراهة للشهرة .

وفي رواية أخرى لمسلم عن خَرَشَةَ بنِ الحُرِّ قال : كنت جالساً في حلقة في مسجد المدينة ، قال : وفيها شيخ حسن الهيئة ـ وهو عبدالله بن سلام ـ قال فجعل يحدثهم حديثاً حسناً ، قال : فلما قام قال القوم : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، قال : فقلت: والله لأتبعنَّه فلأعلمنَّ مكان بيته، قال : فتبعتهُ ، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله ، قال : فاستأذنت عليه فأذن لي ، قال : ما حاجتك يا ابن أخي ؟ قال : فقلت له : سمعت القوم يقولون لك لما قمت: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، فأعجبني أن أكون معك ، قال : الله أعلم بأهل الجنة ، وسأحدثك ممَّ قالوا ذاك. إني بينما أنا نائم إذ أتاني رجل فقال لي : قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه. قال: فإذا أنا بجوادَّ عن شمالي ، قال : فأخذت لآخذَ فيها ، فقال لي : لا تأخذ فيها فإنها طُرق أصحاب الشِّمال ، قال: فإذا جوادُّ منهجٌ على يميني ، فقال لي: خذ ههنا فأتى بي جبلاً فقال لي : اصعد قال : فجعلت إذا أردت أن أصعد ، خررت على أسْتي قال : حتى فعلت ذلك مراراً . قال : ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً رأسه في السماء وأسفله في الأرض ، في أعلاه حلقة ، فقال لي : اصعد فوق هذا ، قال : قلت : كيف أصعد هذا ورأسه في السماء ؟ قال : فأخذ بيدي فزجل بي ـ أي رمى بي ـ قال : فإذا أنا متعلق بالحلقة ، قال : ثم ضرب العمود فخرّ ، قال : وبقيت معلَّقا بالحلقة حتى أصبحت .

قـال : فأتيـت النبي ﷺ فقصصتهـا عليه فقـال : « أمـا الطرق التـي رأيت عـن يسارك: فهي طـرق أصحاب الشمال ، قال : وأما الطرق التي رأيـت عن يمينك: فهي طـرق أصحاب اليمين ، وأمـا الجبل : فهو منـزل الشهداء ، ولـن تنالـه. وأما العمود فهو عمود الإسـلام ، وأما العروة : فهي عروة الإسلام ، ولـن تزال متمسكاً بها حتى تموت» .

جـوادٌ منهج على يمينـي : طـرق واضحة بينـة مستقيمـة ، والنهـج الطريـق المستقيم وطريق منهج ومنهاج ونهج أي بين واضح . فزجل بي : رمى بي .

اللهـم ألحقنـا بعبادك الصـالحين ، وارزقنـا الانتفـاع بهذه الأخبار الصـادقـة وأمثالها ، وحسـن النظر فيما كـان عليه مـن أكرمـوا بالبشريـات ، من وقـوف عند حدود مـا شُرِع، ومسارعة إلى مـا فيه مرضـاة الله تعالى ، والتخلّق بـأخلاق المنيبين المحسنين. لـك الحمـد ياربنـا في الأولى والآخـرة ، أنـت وليُّنا فنعـم المولى ونعـم النصيـر .

من أدب المبشرين بالجنة

﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ هذه حقيقة قرآنية لا ريب فيها ، تحمل إلى أهل الإيمان المخبتين إلى ربهم ، بشرى عظيمة أكرم بها من بشرى، وقد أشرقت بها كلمات مباركات قطعية في ثبوتها ، قطعية في دلالتها . ولكم تحفز البشرى إلى العمل ، وتجعل عباد الرحمن في شوق إلى جنة الخلد دار النعيم المقيم ؛ فهي مثواهم الكريم في دار القرار ، وهي فضل من فضله ، وعطاء من عطائه سبحانه .

ومنذا الذي يشرح الله صدره للإسلام ، ويتعرض للنفحات الربانية ، فيذوق حلاوة الإيمان ، ثم لا يشتاق إلى دار المقامة ، حيث النعيم المقيم ، والفضل الذي لا يُحَدُّ والعطاء الذي لا ينفد ؟. أقول هذا : والحديث موصول إن شاء الله ـ بالرحلة المباركة التي وقفتنا على نصوص تفيض بما بشر به النبي ﷺ من بشر من المسلمين ، بأنه من أهل الجنة .

وها نحن أولاء مع البشرى الكريمة لخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها . وخديجة هي أول من تزوجها ﷺ وكان عليه الصلاة والسلام قبل أن يتزوج بها ، قد سافر في مالها مقارضاً إلى الشام ، فرأى منه ميسرة غلامها ما رغبها في الاقتران به صلوات الله وسلامه عليه . وكانت رضي الله عنها وأجزل مثوبتها تدعى في الجاهلية ـ كما يقول الزبير بن بكار ـ « الطاهرة » وماتت ـ على الصحيح ـ بعد المبعث بعشر سنين ، أي قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقد أورد الحافظ ابن حجر في فتح الباري ما روى الفاكهي في « كتاب مكة » عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث بعده جارية يقال لها : نبعة، فقال لها : انظري ما تقول له خديجة ؟ قالت نبعة :

فرأيت عجباً ، مـا هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى البـاب ـ وذكرت ما كان مـن شديد اهتمامهـا ـ وأنها قالـت بعد ذلك : بـأبي وأمي والله ما أفعـل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكـون أنت النبيَّ الذي ستبعـث ، فإن تك هو : فـاعرف حقي ومنزلتي وادع الإلـه الذي يبعثك لي . قالت : فقال لها : «والله لئـن كنت أنا هو ، قـد اصطنعت عندي مالا أضيعـه أبداً ، وإن يكن غيري ، فإن الإلـه الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً » .

وتأتي الإشارة ـ فيما بعد ـ إلى شيء مـن فضائلها ، فهي أفضل نسائه ﷺ على الراجح عند المحققين . وليس عجباً من العجـب ، أن يكرمها الله بالجنة التي هي خير مستقراً وأحسـن مقيلاً ، وقـد بشرها زوجهـا سيد العـالمين بذلـك، بأمـر الله سبحانـه وتعالى ، قال الإمام البخـاري في كتاب الفضائل من الجامـع الصحيح «باب تـزويج النبـي ﷺ خديجة وفضلهـا رضي الله عنها » قـال رحمه الله: حدثنـا سعيد بن عفير قال : حـد ثنا الليث قال : كتب إليَّ هشام بن عـروة قال عن أبيه عن عـائشة رضي الله عنهـا قالـت: «ما غـرت على امرأة للنبـي ﷺ ما غـرت على خديجة ـ هلكت قبـل أن يتزوجني ـ لما كنت أسمعه يذكـرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصـب . وإن كان ليذبح الشـاة فيهدي في خلائلها مـن ما يسعهن » والبيت المبشر به هنا هو بيت في الجنة كما أوضحت ذلك الروايات الأخرى . ففي رواية أخرى للبخاري عـن عائشة رضي الله عنها قالت: « مـا غرت على امرأة ما غرت على خـديجة من كثرة ذكـر رسول الله ﷺ إياهـا . قالـت: وتزوجني بعـدها بثلاث سنين ، وأمره ربـه عز وجل ـ أو جبريـل عليه السلام ـ أن يبشرهـا ببيت في الجنة من قصب ».

وتحسن الإشارة إلى أن عبـارة : «وأمره ربه أو جبريل عليه السـلام » شك من الراوي. وقد جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري في هذا الباب « باب تزويج النبي ﷺ خـديجة وفضلها رضي الله عنها » ما يـدل على أن البشارة بذلـك من الله كانـت على لسان جبريل عليه السـلام ، قال رضي الله عنه : « أتى جبريـل النبي

ﷺ فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ، أو طعام ، أو شراب ؛ فإذا هي أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة ، من قصب لا صخب فيه ولا نصب ».

والملاحظ هنا ، أنه مع تقرير أن البشارة من الله ، وأن الذي حملها جبريل عليه السلام، قد جاء وصف جديد للبيت، وهو أنه لاصخب فيه ولا نصب، وهو ما تضع أيدينا عليه رواية أخرى عند البخاري أيضاً ؛ ذلكم قوله رحمه الله: حدثنا مسدّد قال : حدثنا يحيى عن إسماعيل قال : قلت لعبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما : «بشّر النبي ﷺ خديجة ؟ قال نعم ، ببيت من قصب، لاصخب فيه ولا نصب». وقوله : « بشر النبي ﷺ خديجة »؟ هو استفهام محذوف الأداة فكأنه قال هل بشر النبيﷺ ؟؟ وقد جاء الاستفهام مصرّحاً به عند مسلم رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن عبدالله بن نمير ومحمد بن بشر العبدي عن إسماعيل قال : «قلت لعبد الله بن أبي أوفى أكان رسول الله ﷺ بشَّر خديجة ببيت في الجنة ؟ قال : نعم، بشرها ببيت في الجنة لاصخب فيه ولا نصب » وهو كذلك عند أحمد .

وقد جاءت الرواية عند الترمذي بلفظ «ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة» بدلاً من «ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خديجة ».

ولا بد من التنبيه على أن المقصود من الحسد في كلام عائشة رضي الله عنها : حسد الغبطة ، لا الحسد الذي ينبيء عن سوء طوية صاحبه والعياذ بالله ؛ ففي باب فضل خديجة رضي الله عنها من كتاب المناقب في السنن ـ الجامع الصحيح ـ روى الترمذي بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : « ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة . وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت ، وذلك أن رسول الله ﷺ بشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» قال الترمذي: هذا حديث حسن .

من قصب . قال : إنما يعني به قصب اللؤلؤ . والحديث عن أمر الله تعالى

نبيه ﷺ أن يبشر خديجة رضي الله عنها تلك البشرى العظيمة المباركة جاء في رواية ابن ماجة أيضا ، فقد جاء في تلك الـرواية عن عائشة رضي الله عنها. «ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ـ يعني مـن ذهب ـ قاله ابن ماجة . وجاء في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

رضي الله عن خديجة ، وعن جميع أمهات المؤمنين ، وهنيئاً لها ما بشرت به من هذا القصر العظيم في جنة الخلد التي قال الله بشأنها : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾.

وما أعظمه مشهداً يوم الدين .. مشهد ما أكرمها به رب العالمين .

بيت خديجة في الجنة

حين يذكر المؤمن الدار الآخرة ، وما يزخر به يوم القيامة من الأهوال والشدائد ، يوم يعض الظالم على يديه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ... يذكر كذلك ما يؤول إليه أمر المؤمنين الذين استقاموا على الطريقة ،وكانوا على المحجة البيضاء ، من دخول الجنة التي أعدها الله لعباده الصادقين .

وما حصل من البشائر بهذا الفضل الكبير ، على لسان المصطفى عليه السلام لأناس بأعيانهم ـ وهو من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ـ مع إيضاح السبيل الموصلة إلى تلك النعمة العظمى ، هو نور على نور ، وخير على خير .

ومما يفرح القلب ، ويدل على عظيم حكمة الله تعالى ، وفضله الذي لا يحد ، ما آذن به الهدي المحمدي على لسان الرسول الكريم ، أن خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها التي أشهدها ﷺ ـ وهي المرأة الحصيفة العاقلة الصادقة ـ نبأ الحدث العظيم في تاريخ الإنسانية ، يوم فجأه الوحي ، كانت في مقدمة من أكرمهم الله بهذه البشرى ، بل جاء التصريح في بعض الأحاديث، أن الله تبارك وتعالى أمر نبيه ﷺ أن يبشرها بذلك . وقد أوردت بعضاً من تلك الروايات مما جاء عند البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة . وقد جاء النص على أن البشارة كانت ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، كالذي رأينا عن إسماعيل بن أبي خالد قال : « قلت لعبدالله بن أبي أوفى: أكان رسول الله ﷺ بشر خديجة ببيت في الجنة ؟ قال : « نعم بشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» متفق عليه واللفظ لمسلم . وفي رواية « وأمره ربه عز وجل أن بشّرها ببيت في الجنة من قصب » وروى الإمام أحمد في المسند عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت

أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيـه ولا نصب » . وفي هذا إعلان من النبي ﷺ أنه أمر بأن يزف إليها هذه المكرمة من رب العالمين .

والقصب بفتح القاف والصاد : اتجه العلماء إلى تفسيره باللؤلؤ . وقد طلعت علينا بعض الـروايات بما يؤيد هذا التفسير ؛ فقـد جاء عند الترمذي قـوله بعد رواية الحديث: من قصب: قال : يعني قصب اللؤلؤ . ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن التين قوله : المراد بـه لؤلؤة مجوفة كالقصر المنيف . قـال الحافظ : قلت : عند الطبراني في « الأوسط» من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى « يعني قصب اللؤلؤ» وعنده في « الكبير » من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه « ببيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله في مسلم . وعنده في « الأوسـط» من حديث فاطمة رضي الله عنهـا قالت: «قلت : يارسول الله أين أمي خديجة ؟ قال : في بيت من قصب . قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت ».

ولم يدع بعض العلماء أن يكشـف عن الحكمة في اختيار كلمـة القصب، وأن ذلك مـرتبط بما فـازت به خديجة ــ بين النساء ـ مـن السبق بـا لمبادرة إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام ـ ونُذُرُ الفتنة والأذى تحيط به وبمن يمكن أن يؤمن به من كل جانب ـ قال السهيلي رحمه الله : النكتة في قوله : « من قصب» ولم يقل «من لؤلـؤ » أن في لفظ القصـب، مناسبة لكونها أحرزت قصـب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث .

ويضيف صاحـب الفتح إلى ذلك : أن في القصب مناسبة أخـرى ، من جهة استواء أكثـر أنابيبه ، وكـذا كان لخديجة من الاستواء ، مـاليس لغيرها ، إذ كـانت رضي الله عنهـا ، حريصـة على رضاه صلـوات الله وسـلامه عليـه بكل ممكـن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وجميل ما ذهب إليه أبوبكر الإسكـافي في كتابه « موائد الأخبار» من أن المراد بالبيت الذي نصت عليه الروايـات بلفظ « ببيت في الجنة » بيت زائد على ما أعدّ

الله لها من ثواب عملها ، ولهذا قال: « ولا نصب » أي لم تتعب بسببه. قال السهيلي: لذكر البيت معنى لطيف ، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث ، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردةً به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها ، قال : وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء في الحديث بلفظ «البيت» دون لفظ «القصر » .

ويرى الحافظ رحمه الله ، أن لذكر البيت معنى آخر ، لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها ، لما ثبت في تفسير قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ قالت أم سلمة رضي الله عنها : لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين فجلَّلهم بكساء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ..» الحديث، أخرجه الترمذي وغيره . ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة ؛ لأن الحسنين من فاطمة ، وفاطمة بنتها ، وعلي نشأ في بيت خديجة، وهو صغير ، ثم تزوج بنتها بعدها ، فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة رضي الله عنها دون غيرها .

هذا وقد دلت الروايات ، على أن البيت المبشَّرَ به لا صخب فيه ولا نصب، والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . أما النصب : فهو التعب، والسهيلي رحمه الله ـ على طريقته في تلمّس الحكم والمناسبات ـ ذهب إلى أن مناسبة نفي هاتين الصفتين ـ أعني المنازعة والتعب ـ عن ذلك البيت العظيم الذي بشرت به أم المؤمنين السيدة خديجة ؛ أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام ، أجابت خديجة طوعاً ، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا تعب في ذلك ، بل أزالت عنه كل نصب ، وآنسته من كل وحشة ، وهوَّنت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها ، بالصفة المقابلة لفعلها . وقد جاء في المسند عند أحمد على لسان بعض الرواة قوله: وقال مرة ـ يعني ابن أبي أوفى ـ: «لا صخب أو لا لغو فيه ولا نصب».

ولقد يكون من الخير ، أن نشير إلى ما جاء في بعض روايات الحديث التي سبقت، من اقتران البشارة الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها ، بطلب جبريل عليه السلام من النبيﷺ أن يقرأ على خديجة السلام من ربها عز وجل ومنه هو ؛ كالذي جاء عند البخاري ومسلم « ... فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ... » الحديث. وهو ما نجده في المسند عند الإمام أحمد إذ روى بسنده عن أبي زرعة قال : سمعت أباهريرة يقول : « أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يارسول الله هذه خديجة قد أتتك بإناء معها فيه إدام ، أو طعام، أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . زاد الطبراني في الرواية المذكورة «فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » .

وللنسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبيﷺ : إن الله يقرىء خديجة السلام ــ يعني فأخبرها ـ فقالت : إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يارسول الله السلام ورحمة الله وبركاته ».

وموعدنا إن شاء الله صفحات قادمات تزيدنا ــ من خلال كلام المحققين ـ إدراكاً لدلالة الحديث ومراميه. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته ورضي الله عن خديجة وعن أمهات المؤمنين أجمعين .

عائشة وفضائل خديجة

هذه كلمات يتصل نسبها بشيء مما جاء في بعض نصوص الحديث النبوي من أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، أن يبشر زوجه النابهة الصادقة ذات السبق في الإسلام ، ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب ، ومن إبلاغ جبريل عليه السلام إياه ، أن يقرئها السلام من ربها عز وجل ومنه .

وهذه النصوص الفوَّاحة بالشذى ، المشرقة بضياء الإحسان : ليس بدعاً أن تأخذ بالمؤمن ـ وقد خالطت معانيها عقله وقلبه ـ إلى حيث الإحساس العميق بمزيد فضل الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين رزقوا الوقفة الصادقة مع الحق؛ وإذا ذُكر الصدقُ وأهله في المؤمنين والمؤمنات ، فحيَّهلاً بالسيدة خديجة رضي الله عنها ، التي بلغ من فضلها ـ أعلى الله مقامها في عليين ـ أن أُمر البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يبشرها بما يكون لها في دار الكرامة من العطاء ، وبأن يقرئها السلام من الله عز وجل ، ومن الروح الأمين جبريل عليه السلام .

وما من ريب، في أن مظاهر الفضل على هذه الساحة في دار الجزاء ، وتوفية العباد دينهم الحق ، تأتي بمثابة الظل الظليل في صحراء الهول الهائل الذي يضرب بكلكله على العباد ، عند الحشر في عرصات القيامة ، يوم لا ملجأ ولا منجى من الله ذي السلطان والجبروت ، إلا إليه سبحانه .

والحق أن الأمر بإقراء السلام من الله عز وجل ومن جبريل عليه السلام ، محطة عظيمة البركة والإشراق ، تستوقف المؤمن على طريق المناقب التي رزقتها خديجة أم المؤمنين عليها الرحمة والرضوان . ولقد كان فيما سلف من الأحاديث المتعلقة بالسلام عليها ، ما روى النسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبي ﷺ : « إن الله يقرىء خديجة السلام » ـ يعني فأخبرها ـ

فقالت: « إن الله هـو السلام ، وعلى جبريل السلام ، وعليك يـارسول الله السلام ورحمة الله وبـركاتـه زاد ابن السُّنـي من وجـه آخر : « وعلى مـن سمع السـلام إلا الشيطان » .

وقد أورد الحافـظ ابن حجـر ـ أجزل الله مثوبتـه ـ مـا قرر العلماء مـن أن في القصـة دليلاً على وفـور فقههـا ؛ لأنها لم تقل: « وعليـه السـلام » كما وقع لبعـض الصحابـة حيث كانـوا يقولون في التشهـد : السلام على الله ؛ فنهاهـم النبي ﷺ وقال : «إن الله هو السلام فقولوا : التحيـات لله » فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لايردُّ عليه السلام كما يرد على المخلوقين ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله . وهو أيضاً دعاء بالسلامة ، وكلاهما لا يصلـح أن يردَّ به على الله ، فكأنها قالت : كيف أقول: عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب ، ومنه يحصل . فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه ، فجعلت مكان السـلام ، رد الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق بالله ، ومـا يليق بغيره ، فقالت: وعلى جبريل السلام ، ثـم قالت: وعليك السلام. قالوا: ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلَّغه.

والذي يظهر أن جبريل عليه السلام ، كان حاضراً عند جوابها ، فردت عليه وعلى النبي ﷺ ، مـرة بالتخصيص ومـرة بالتعميم ، ثـم أخرجت الشيطـان عمن سمع، لأنه لا يستحق الدعاء بذلك .

ولكـن ما الحكمـة في تبليغها السـلام على هذه الصـورة ؟ قيل : إنما بلّغهـا جبريل عليه السلام السلام من ربها بواسطة النبي ﷺ احتراماً للنبي ﷺ ، وكذلك وقع لماسلم على عائشـة ؛ لم يواجهها بالسلام بل أرسله مـع النبيّ ﷺ ، ذلكم ما روى البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ أن أبـاسلمة قال: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومـاً : « ياعائشة هذا جبريل يقرئك السـلام» قالـت: فقلت: وعليه السـلام ورحمة الله وبركـاته ، تـرى ما لا أرى ، تـريد رسـول الله ﷺ . وعند مسلم مـن حديـث أبي سلمة أيضاً أن عـائشة حـدثته «أن النبـي ﷺقال لها: إن

جبريل يقرأ عليك السلام . قالت : فقلت : وعليه السلام ورحمة الله ».

هذا : واستنباط الحكمة المشار إليها ، حدا بالعلماء إلى تعليل مواجهة مريم بالخطاب في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزِّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .. الآيات . فقيل : لأنها نبية وقيل : لأنها لم يكن معها زوج يحرم معه مخاطبتها .

ثم إن أهمية الموضوع على ساحة التكريم لخديجة رضي الله عنها، مع النصوص الواردة في شأن فاطمة وعائشة رضي الله عنهما ، جعلت بعض العلماء أيضاً يطيلون النظر ملياً بما ورد . هذا الإمام أبو القاسم السهيلي ينقل في «الروض الأنف» عند شرحه الحديث إقراء السلام خديجة الذي أورده ابن إسحاق في السيرة : عن أبي بكر بن داود أنه سئل أعائشة أفضل أم خديجة ؟ فقال: عائشة أقرأها رسول الله ﷺ السلام من جبريل ، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها على لسان محمدﷺ.

ومن صريح ما جاء في تفضيل خديجة رضي الله عنها ، ما أخرجه أبوداود والنسائي وصححه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ قال : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » ونقل الحافظ عن السبكي الكبير قوله : (لعائشة رضي الله عنها من الفضائل ما لا يحصى ، ولكن الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة) وغني عن البيان : أنه ليس في الأفضلية المقررة لإنسان من عباد الله ، غضٌّ من قدر من فَضَلهم. ورضي الله عن فاطمة وخديجة وعائشة، وسائر أمهات المؤمنين ، وجزى الله الجميع عن الإسلام والمسلمين كل خير .

ولا شك في أن مما أكرم الله به خديجة رضي الله عنها ، وكان باباً مباركاً من أبواب فضائلها ومناقبها ، ذلك السبق إلى الإسلام ، ومؤازرة رسول الله ﷺ في وقت الشدة والاختبار العظيم ، حيث الخطوة الأولى في الدعوة إلى كلمة التوحيد

في ظل جاهلية جهلاء ، اضطربت فيها الموازين والقيم، والدنيا كلها ترزح تحت سلطان الشرك والوثنية الظاهرة أو المبطنة ، والتفاخرُ بالآباء والأجداد مرفوعُ الراية على سنن التقليد الأعمى وإهمال العقل ، وكل ما يمت إلى ذلك من سلوك تولده تلك الظلمات .

وقبل أن أعيد إلى الأذهان حديث بدء الوحي ، الذي آذن بصدق خديجة وعميق حصافتها وحسن تدبيرها ، والذي يكشف عن مواقفها التي كان لها جميل الأثر في سير الدعوة ، أود التذكير بحقيقة بالغة الأهمية في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ إذ كان ـ كما سلف من قبل ـ غايةً في الوفاء لزوجه خديجة رضي الله عنها ، حتى بعد موتها ، وقد بلغ من صدق عائشة مع نفسها ومع دينها ، أن تصرح بأنها كانت تغار عليها بعد موتها ، ولا تدع أن تذكر ما تعلم من فضائلها التي عرفتها منه عليه الصلاة والسلام . ونعمت هذه الغيرة التي تحكمها تقوى الله وأخلاق الإسلام .

وغير خاف أنه صلى الله وسلم وبارك عليه ، قد كان يثني عليها بعد وفاتها ما لم يثن على غيرها ؛ يطالعنا في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها الذي أورده الحافظ ابن عبدالبر في كتابه « الاستيعاب » قالت أم المؤمنين : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب ثم قال : والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً ».

وجاءت الرواية عند أحمد بلفظ « ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء». وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ

يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها ، ثم يبعثها في صدائق خديجة . فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة !! فيقول : كانت ، وكانت، وكان لي منها ولد » أي كانت فاضلة ، وكانت عاقلة ، وكانت حسنة التبصر في الأمور ، ونحو ذلك. وأخرجه الترمذي بنحوه . فكثرة ذكره ﷺ إياها ـ وهو الصادق المصدوق ـ عنوان ثناء وتعداد فضائل ، جاءت في المرحلة الشاقة ، مرحلة البدء على طريق مواجهة الجاهلية والجاهليين بالدعوة .

رضي الله عن خديجة وعن أمهات المؤمنين جميعاً . وأكْرِمْ ببيت ، القوّام فيه وولي أمره إمام الأنبياء . وربَّته المؤتمنة عليه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، التي كانت رمزاً عظيماً من رموز الإيمان والإخلاص وحسن التبصر ، وعنواناً بالغ الإشراق ،على أن المرأة التي تجمع إلى الإيمان بُعْدَ النظر ، والارتفاع إلى مستوى المسؤولية ، تستطيع ـ بعون الله ـ أن تفعل الكثير الكثير ، على طريق الدعوة إلى الله، وبناء حضارة الإسلام . والحمد لله الذي زيّن مواقف خديجة في تاريخ الإسلام ، ورفع قدرها في الدنيا ويوم الدين ، يوم يشهد الخلائق مشهد إكرامها منه سبحانه وتعالى ، وهو الرحيم الرحمن رب العالمين .

الفهرس

******